

تراثنا

صنعة الإنشاء

في

صناعة الإنشاء

تأليف

أبي العباس أحمد بن علي الفلبيشندي

١٨٤١ هـ - ١٤١٨ م



الجزء الثامن

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية
ومذيبة

بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية
مع دراسة واقية

وزارة الثقافة والارشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

**Collection of Prof. Muhammad Iqbal Mujaddidi
Preserved in Punjab University Library.**

پروفیسر محمد اقبال مجددی کا مجموعہ
پنجاب یونیورسٹی لائبریری میں محفوظ شدہ

تراثنا

صنعة الإنشأ

في

صنعة الإنشأ

تأليف

أبي العباس أحمد بن علي الفلّيشندي

١٥٨٤١ - ١٤١٨ م

الجزء الثامن

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية
ومذيلة

بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية
مع دراسة وافية

وزارة الثقافة والارشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

صفحة

- النوع الأول - المكاتبات الواردة عن ملوك المسلمين ، وهي
 على قسمين ٥٤
- القسم الأول - في الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة بالديار
 المصرية والبلاد الشامية ، وفيه ضربان ٥٤
- القسم الثاني - في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية عن
 أهل الممالك الإسلامية ، ويشتمل على أربعة
 مقاصد ٦٢
- المقصد الأول - في الكتب الواردة عن أهل الشرق ، وفيه أطراف ٦٣
 الطرف الأول - الكتب الواردة عن القانات العظام من بني
 جنكزخان ٦٣
- » الثاني - في المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن
 أهل الشرق ٧١
- » الثالث - في رسم المكاتبات الواردة عن صاحب اليمن إلى
 هذه المملكة ٧٢
- » الرابع - في الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية عن
 ملوك الهند ٧٦
- المقصد الثاني - في المكاتبات الواردة عن ملوك الغرب ، وفيه جمل ٧٨
 الجملة الأولى - في المكاتبة الواردة عن صاحب تونس ٧٩
- » الثانية - في المكاتبات الواردة عن صاحب تلمسان من
 بني عبد الواد ٨٤
- » الثالثة - في المكاتبات الواردة عن صاحب فاس ٨٧
- » الرابعة - في عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس ... ١٠٦

صفحة

- المقصد الثالث - في رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السودان ،
 وفيه ثلاثة أطراف ١١٥
- الطرف الأول - في المكاتبات إلى صاحب مالي ١١٥
- » الثاني - » الصادرة عن صاحب البرنو ١١٦
- » الثالث - » عن ملك الكانم ١١٩
- المقصد الرابع - في الكتب الواردة من الجانب الشمالى وهى
 بلاد الروم ١١٩
- النوع الثانى - [كتب خطأ القسم الثالث] من المكاتبات الواردة إلى
 هذه المملكة الكتب الواردة عن ملوك الكفار،
 وهى على أربعة أضرب ١١٩
- الفصل السادس - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى رسوم
 المكاتبات الإخوانيات، وفيه طرفان ١٢٦
- الطرف الأول - فى رسوم إخوانيات السلف من الصحابة والتابعين ١٢٦
- » الثانى - » الإخوانيات المحدثه بعد السلف، وفيه
 ثلاثة مقاصد ١٢٧
- المقصد الأول - فى رسوم إخوانيات أهل المشرق، وفيه أربعة مهايع ١٢٧
- المهيع الأول - فى صدور الابتداءات ١٢٧
- » الثانى - فى الأجوبة على هذا المصطلح ١٣٩
- » الثالث - فى خوامم الإخوانيات على هذا المصطلح ١٤١
- » الرابع - فى عنوانات الكتب على هذا المصطلح ١٤٤

فهرس الجزء الثامن

صفحة	
١٤٨	المقصد الثاني - في رسوم إخوانيات أهل المغرب ، وفيه جملتان ...
١٤٨	الجملة الأولى - في مفتحات المكاتبات على اصطلاحهم ، وفيها مهيعان
١٥٤	المهيع الأول - في آبتداء المكاتبات
١٥٨	» الثاني - في الأجوبة
١٥٩	الجملة الثانية - في خواتم المكاتبات على اصطلاحهم
	المقصد الثالث - في الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية ، وفيه
١٦٠	ثلاثة مصطلحات
	المصطلح الأول - ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية ... وفيه
١٦٠	ثلاثة مهايح
١٦٠	المهيع الأول - في الصدور
١٦٦	» الثاني - في خواتم الكتب
١٦٦	» الثالث - في عنوانات الكتب
	المصطلح الثاني - من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال
١٦٧	في الدولة الأيوبية
	» الثالث - من مصطلحات الديار المصرية في الإخوانيات
١٦٨	ما جرى عليه الاصطلاح في الدولة التركية ، وفيه مهيعان
	المهيع الأول - في رتب المكاتبات المصطلح عليها ... وهي
١٦٨	على قسمين
١٧١	النسم الأول - الأبتداءات
	» الثاني - من المكاتبات الإخوانيات الدائرة بين أعيان
٢١٢	المملكة وأكابر أهل الدولة الأجوبة
	المهيع الثاني - في بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم من
٢١٧	أعيان الدولة

صفحة	الفصل السابع - من الباب الثاني من المقالة الرابعة في مقاصد
٢٣٣	المكاتبات، وهي قسمان
٢٣٣	القسم الأول - مقاصد المكاتبات السلطانية، وهي على نوعين ...
٢٣٣	النوع الأول - ما يكتب عن الخلفاء والملوك، وهو على ثلاثة
٢٣٣	أضرب صوابه أربعة
٢٣٣	الضرب الأول - ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن ضاهاهم، وهو
٢٣٣	على أصناف
٢٣٣	الصف الأول - الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة
٢٤٤	« الثاني - من الكتب السلطانية الكتب في الدعاء إلى الدين
٢٤٦	« الثالث - » » » بالحث على الجهاد
٢٥٢	« الرابع - » » » في الحث على لزوم
٢٥٢	الطاعة وذم الخلاف
٢٥٩	« الخامس - من الكتب السلطانية الكتب إلى من نكث
٢٦٣	العهد من المخالفين
٢٧٤	« السادس - من الكتب السلطانية الكتب إلى من خلع الطاعة
٢٩٠	« السابع - الكتب في الفتوحات والظفر
٢٩٩	« الثامن - المكاتب بالأعتذار عن السلطان في الهزيمة
٣٠٣	« التاسع - المكاتب بتوبيخ المهزوم الخ
٣٠٦	« العاشر - في المكاتبات بالتضييق على أهل الجرائم
٣٠٨	« الحادي عشر - الكتب في النهي عن التنازع في الدين
٣١٠	« الثاني عشر - المكاتب بالأوامر والنواهي
٣١٢	« الثالث عشر - المكاتبات عند حدوث الآيات السماوية
٣١٢	« الرابع عشر - » في التنبيه على شرف مواسم العبادة الخ

- صفحة
- الصف الخامس عشر - المكتبة بالسلامة في الركوب في المواسم
والأعياد... .. ٣١٣
- « السادس عشر - المكتبة بالبشارة بوفاء النيل والبشارة
بالسلامة في الركوب لفتح الخليج ... ٣٢٨
- « السابع عشر - فيما يكتب في البشارة بركوب الميدان الكبير الخ
... ٣٣٣
- « الثامن عشر - المكتبة بالبشارة بحج الخليفة ... ٣٣٦
- « التاسع عشر - الكتابة بالإنعام بالتشريف والخلع ... ٣٣٩
- « العشرون - المكتبة بالتنويه والتلقيب ... ٣٤١
- « الحادي والعشرون - المكتبة بالإحماذ والإذمام ... ٣٤٦
- « الثاني والعشرون - ما يكتب مع الإنعام لنواب السلطنة
بأنجيل والحوارج ... ٣٥١
- « الثالث والعشرون - المكتبة بالبشارة عن الخليفة بولد رزقه ... ٣٥٦
- « الرابع والعشرون - ما يكتب عن السلطان بالبشارة بعافيته
من مرض ... ٣٥٧
- الضرب الثاني - من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب
عن السلطان في الجواب ... ٣٥٨
- « الثالث - من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن نواب
السلطنة الخ ... ٣٥٩
- « الرابع - من المكاتبات السلطانية ما يكتب عن النواب
والأتباع إلى الخليفة أو السلطان، وفيه مهيعان ... ٣٦٦
- المهيع الأول - في الأجوبة عن الكتب السلطانية ... ٣٦٦
- « الثاني - من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب به عن
نواب السلطان والأتباع إلى السلطان ابتداء ... ٣٩٠

(تم فهرس الجزء الثامن من كتاب صبح الأعشى)

صنعة الإنشاء

في

صناعة الإنشاء

تأليف

أبي العباس أحمد بن علي الفلّيشندي

١٥٨٤١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء الثامن

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية
ومذيلة

بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية
مع دراسة وافية

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وصلی اللہ علی سیدنا محمد وآلہ وصحبہ

المقصد الثالث

فی المکتبۃ إلی أهل الجانب الجنوبيّ من: حرت العادۃ بالمکتبۃ إلیه
من العرب والسودان، وفيه ثلاث جمل

الجملة الأولى

(فی المکتبۃ إلی من بهذا الجانب من العربان)

وقد ذکر فی "التثقیف" من کتیب منهم جماعةً بالطُرُقَات الموصّلة من الدیار
المصریة إلی بلاد الحبشة وغيرها . ثم قال : ولعلّ هؤلاء أيضا من عربان الممالک
المحروسة ، غیر أنه لإقطاعات لهم ، وعدّ منهم ثمانية أشخاص ، و ذکر أنه کتب
إلی کل منهم الأسم ومجلس الأمير :

الأول - سمرّة بن کامل العامری .

الثانی - عبّاد بن قاسم .

الثالث - کمال بن سوار . قال : وهو مستحدّث المکتبۃ فی العشر الأول من

جمادی الأولى سنة ثلاث وستین وسبعائة .

الرابع - جنید : شیخ الجوّابرة من الهکاريّة بأبواب النوبة . قال : وهو

مستحدّث المکتبۃ فی سنة تسع وستین وسبعائة .

الخامس - شريف : شيخ النمامية ، بأبواب النوبة أيضاً ، ومكاتبه
مستجدة حينئذ .

السادس - علي : شيخ دغيم .

السابع - زامل الثاني .

الثامن - أبو مهنا العمراني .

الجملة الثانية

(في المكاتب إلى مسلمي ملوك السودان ، وهم أربعة ملوك)

الأول - ملك النوبة . وهو صاحب مدينة دنقلة : وقد تقدم الكلام عليها
مستوفى في الكلام على المقالة الثانية في " المسالك والممالك " . قال في " التعريف " :
وهو رعية من رعايا صاحب مصر ، وعليه حمل مقرراً يقوم به في كل سنة ، ويُخطب
[ببلاده]^(١) لخليفة العصر ، وصاحب مصر .

قلت : هذا كان في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » وهذه الإتاوة كانت مقررة
عليهم من زمن الفتح ، في إمارة عمرو بن العاص رضي الله عنه ، ثم صارت تنقطع
نارةً وتُحمل أخرى ، بحسب الطاعة والعصيان . وهي الآن مملكة مستقلة بذاتها ،
ولذلك أوردتُ مكاتبه صاحبها في جملة الملوك :

ورسم المكاتب إليه إن كان مسلماً على ما ذكره في " التعريف " :

صدرت هذه المكاتب إلى المجلس الجليل ، الكبير ، الغازي ، المجاهد ، المؤيد ،
الأوحد ، العُضد ، مجد الإسلام ، زين الأنام ، نحر المجاهدين ، عمدة الملوك
والسلاطين .

(١) الزيادة من " التعريف " .

وذكر ذلك في «التثيف» نقلا عنه . ثم قال : ولم أجد له مكتبة متداولة بين الجماعة . قال : ولم يكتب له شيء في مدة مباشرتي بديوان الإنشاء ، ولم يزد على ذلك .

ورأيت في الدستور المنسوب للمقر العلاءي بن فضل الله أن مكاتبته هذه المكتبة أيضا ، وأنه يقال بعد عمدة الملوك والسلاطين : «أدام الله سعادته ، وبلغه في الدارين إرادته ، نتضمن إعلامه كيت وكيت ، فيتقدم بكذا وكذا ، فيحيط علمه بذلك» . ثم قال : والمكتبة إليه في قطع العادة ، والعلامة «أخوه» ولا يخفى أن العنوان بالألقاب ، ويظهر أن التعريف «صاحب دُنُقلة» .

الثاني - ملك البرنو . قال في «التعريف» : وبلاده تحدد بلاد [ملك] التكرور من الشرق . ثم يكون حدها من الشمال بلاد [صاحب] أفريقية ، ومن الجنوب الهمج . وقد تقدم الكلام عليها مستوفى في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك . ولم يذكر هذه المملكة في «مسالك الأبصار» . قلت : وملكها يزعم أنه من ذرية سيف بن ذي يزن ملك اليمن على ما ورد به كتابه في أواخر المائة السابعة . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في «التعريف» :

أدام الله تعالى نصر الجناح الكريم ، العالی ، الملك الجليل ، الكبير ، العالم ، العادل ، الغازي ، المجاهد ، الهمام ، الأوحد ، المظفر ، المنصور ، عز الإسلام . (من نوع ألقاب ملك التكرور) : يعنى شرف ملوك الأنام ، ناصر الغزاة والمجاهدين . زعيم جيوش الموحدين ، جمال الملوك والسلاطين ، ظهير الإمام ، عضد أمير المؤمنين الملك فلان . ويدعى له بما يناسبه . وبعد إهداء السلام والتشوق هذه المناوضة تبدى . على ماسياتي ذكره في مكاتبته .

(١) زيادة من «التعريف» .

وهذا صدر يليق به : ولا زالت هم سلطانة غير مقصره، ووفود حجه غير محصره، وسيفه في سواد من جاوره من أعدائه الكفار يقول: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ صدرت، ولها مثل مسكة أفيقه عبق، وعنبرة طينته سواد إلا أنه من السواد اليق، وشبيهة ملكه الذي يفديه سواد الحدق. أوجها ود أسكنه [مسكنه] من سويداء القلب لا يريم، وأراد غرة الصبح الوضاح تحت طرة الليل البهيم . وحكى ذلك عنه في "التثقيف" ولم يزد عليه . ورأيت في الدستور المنسوب للتمر العلاءي بن فضل الله أن مكاتبته في قطع الثلث، والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب برنو» .

قلت : ووصل من هذا الملك كتاب في الدولة الظاهرية (برقوق) يتشكى فيه من عرب جذام المجاورين له ؛ ويذكر أنهم أخذوا جماعة من أقاربه بأعوهم في الأقطار، وسأل الكشوف عن خبرهم ، والمنع من بيعهم بمصر والشام ؛ وأرسل هدية صالحة من زنبق وغيره . وكتب جوابه بخط زين الدين طاهر : أحد كتاب الدست . صدره : أعز الله تعالى جانب الجنب الكريم، العالی، الملك الجليل، العالم، العادل، الغازي، المجاهد، الهام، الأوحيد، المظفر، المنصور، المتوكل، نخر الدين أبي عمرو عثمان بن إدريس : عز الإسلام ، شرف ملوك الأنام، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين، جمال الملوك والسلاطين، سيف الجلالة، ظهير الإمامه . وبعث إليه به مع رسوله الوارد صُحبة الجييج ، فأعيد وقد كتب الجواب على ظهره بعد سنة أو سنتين .

الثالث - ملك الكانم . قال في "مسالك الأبصار" : وقاعدة الملك منها بلدة أسمها «جيمي» ومبدأ مملكته من جهة مصر بلدة أسمها «زلا» وأجرها طولاً بلدة

يقال لها « كَاكَا » وبينهما نحو ثلاثة أشهر . قال : وعسكرهم يتلثمون ، ومليكمهم على حقايرة سلطانه ، وسوء بقعة مكانه ، في غاية لا تدرك من الكبرياء ، يمسح برأسه عنان السماء ، مع ضعف أجناده ، وقلة متحصلي بلاد ، محبوب ، لا يراه أحد إلا في يوم العيدين بكرة وعند العصر ، وفي سائر السنة لا يكلمه أحد ولو كان أميرا إلا من وراء حجاب .

وقال في "التعريف" ملوكها من بيت قديم في الإسلام ، وجاء منهم من ادعى النسب العلوي في بني الحسن ، وهو يمتدح بمذهب الشافعي . ورسم المكاتبه إليه على ما ذكره في "التعريف" كرسم مكاتبه صاحب البرنو ، بدون الكريم ، وتبعه على ذلك في "التثقيف" ناقلا له عنه . ثم قال : ولم أطلع على مكاتبه له غير الذي قد ذكره .

الرابع — ملك مالي . قال في "مسالك الأبصار" وهي في نهاية الغرب متصلة بالبحر المحيط ، وقاعدة الملك بها بنى . وهي أعظم ممالك السودان ، وقد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك ذكر أحوالها ، وما تيسر من ذكر ملوكها ، وأن مالي أسم للإقليم ، والتكرور مدينة من مدنه ، وكان ملكها في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » منسا موسى ، ومعنى منسا السلطان .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أنه وصل منه كتاب عن نفسه لنفسه فيه (١) ناموسا ، وأنه وصل إلى الديار المصرية حاجا ، واجتمع بالسلطان الملك الناصر ، فقام له وتلقاه ، وأكرمه وأحسن نزله ، على ما هو مبسوط في موضعه .

(١) عبارة "المسالك" في الكلام على مملكة مالي نصها « ولقد جاء كتاب من هذا السلطان إلى الحضرة السلطانية بمصر وهو بالخط المغربي في ورق عريض ، السطر إلى جانب السطر وهو يمك فيه ناموسا لنفسه » ففعل ما في الأصل هكذا « عن نفسه وهو يمك لنفسه الخ » فتدبر .

قال في "التعريف": "وملك التَّكْوَرُور هذا يدعى نسبا إلى عبد الله بن صالح
ابن الحسن، بن علي، بن أبي طالب .

ورسم المكاتبه إليه على ما ذكره في "التعريف": «أدام الله تعالى نصر المقتَر
العالى، السلطان، الجليل، الكبير، العالم، العادل، المجاهد، المؤيد، الأوحِد،
عز الإسلام، شرف ملوك الأنام، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين،
جمال الملوك والسلاطين، سيف الجلالة، ظهير الإمامة، عضد أمير المؤمنين»
الملك فلان. ويدعى له بما يناسب. وبعد إهداء السلام والتشوق «هذه
المفاوضة تبدي» .

قال: ولا يعرض له ولا يُقَرَّبُ شَيْءٌ من الألقاب الدالة على النسب العلوى .
وهذا صدر لهذه المكاتبه ذكره في "التعريف" .

ويسر له القيام بفرضه، وأحسن له المعاملة في قرضه، وكثر سواده الأعظم
وجعلهم بيض الوجوه يوم عرضه، ومتعته بملك يجد الحديد يجف سمائه والذهب
نبات أرضه. صدرت هذه المفاوضة وصدورها به مملو، وشكرها عليه يجلو، ومن أيا
حبه في القلوب سر كل فؤاد، وسبب ما حل به الطرف والقلب من السواد؛ تُنزل
به سفنها المسيرة في البحر وترسى، وتحل عند ملك ينقص به زائده وينسى موسى
منسى، وتقيم عليه والدهر لا يطرقه فيما ينوب، والفكر لا يشوقه إلا إذا هبت صبا
من أرضه أو جنوب .

والتداول بين جماعة تُكَّاب الإنشاء أن المكاتبه إليه: «أعز الله تعالى جانب
الجناب الكريم العالى، الملك، الجليل، العالم، العادل، المجاهد، المؤيد، المرابط،
المتأخر، العابد، الناسك، الأوحِد، فلان، دُخِر الإسلام والمسلمين، نُصرة الغزاة

والمجاهدين، عَوْنِ جُيُوشِ المُوَحِّدِينَ؛ رُكْنِ الأُمَّةِ، عمادِ المِلَّةِ، جمالِ الملوِكِ
والسلاطين، وليِّ أميرِ المؤمنِينَ» والدعاء .

وذكر نحو ذلك في الدستور المنسوب للقر العلاءي بن فضل الله؛ ثم قال ويقال :
«صَدَرَتْ هذه المَكاتِبُ إلى الجنابِ العالی مملوءة الصَدْرِ بِسُكْرِهِ، بِاسْمَةِ الثغرِ بِرَفْعِهِ
قَدْرِهِ، مَوْجَّهَةٌ لِعَلْمِهِ الكَرِيمِ كَيْتَ وَكَيْتَ . وَذَكَرَ أَنَّ خُطابَهُ بِالجنابِ الكَرِيمِ، وَالطَّلَبِ
وَالقَصْدِ وَالخَمِّ بِالإحاطَةِ؛ وَذَكَرَ هُوَ وَصاحبِ "التثقيف" أَنَّ المَكاتِبَ إليه فِي قِطْعِ
الثَلثِ، وَالعلامةِ «أخوه»؛ وَتعريفِهِ «صاحبِ مَالِي وَغانة» .

الجملة الثالثة

(في المَكاتِبِ إلى ملوكِ المسلمين بِالحبشة)

قد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك أن ببلاد الحبشة
سبعة ملوك مسلمين، لهم سبع ممالك؛ كل مملكة منفردة بملك؛ وبها الجوامع
والمساجد ينادى فيها بالأذان، وتقام بها الجمع والجماعات، وهم مع ذلك تحت أمر
صاحب أممرا ملك ملوك الحبشة؛ يختار لولاية ممالكهم من شاء توليته، ولا يردون
ويصدرون إلا عن أمره، وهي مملكة أوفات والزليغ، ومملكة دوارو، ومملكة
أرابيني، ومملكة هدية، ومملكة شرخا، ومملكة بالي، ومملكة دارة .

وقد تقدم الكلام عليها وعلى أحوالها مستوفى عند الكلام عليها في المقالة الثانية .
قال في "مسالك الأبصار" : وهذه الممالك تجاور ناصع . وسواكن، ودهلك؛
وليس بها مملكة مشهورة .

قال في "التعريف" : ولم يرَ من هذه الملوك السبعة كتاب ، ولا صدر إليهم خطاب . قال : فإن ورد منهم شيء فتجرى مكاتبتهم مثل مكاتبة صاحب الكانم والبرنو . وقد تقدم أن رسم المكاتبة إليهما على ما ذكره في "التعريف" : « أعز الله تعالى نعمة الجناح الكريم ، وأعز الله تعالى جانب الجناح الكريم » على ما كتب به القاضي زين الدين طاهر في جواب صاحب البرنو على ما هو مذكور في موضعه .

المقصود الرابع

(في المكاتبة إلى أهل الجانب الشمالي ، وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتبات إلى أمراء الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الروم

المسماة الآن ببلاد الدروب)

قال في "التعريف" : وهي البلاد المنحصرة بين بحري القرم والخليج القسطنطينية تنتهي في شرقها إلى بحر القرم المسماة بحر نيطش ، وفي الغرب إلى الخليج القسطنطينية وتنتهي متشاملة إلى القسطنطينية ، وتنتهي جنوبا إلى بلاد الأرمن ، يحدها البحر الشامي . قال : وهذه البلاد بلاد متسعة ، وهي مفرقة لملوك مجتمعه ، ولكنه لا يطلق عليهم إلا أسم الإمارة ، ولا انتظام لكلمتهم ، ولا اجتماع لملتهم ، ثم قال : وأكبرهم صاحب كرميان ، وله بينهم وضع محفوظ ، ونظام مرعى .

أما ملوكها ، فأجل من لديهم منهم جماعة بني قرمان ، لقرب ديارهم ، وتواصل أخبارهم ، ولنكاياتهم في مملك سبس وأهل بلاد الأرمن ، وأجتياحهم لهم من ذلك

الجانب ، مثل اجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب ، فمكاتبنا إلى بني قرمان لا تكاد تنقطع ، وأما إلى البقية فأقل من القليل ، وأخفى من مرأى الضليل . ثم عد منهم ستة عشر أميرا ، وذكر رسم المكاتب إلى كل واحد منهم :

الأول - صاحب كرميان . قال في "التعريف" : ولم يكتب إليه مدة مقامى بالأبواب السلطانية ؛ ويُشبه أن تكون المكاتبُ إليه بالمرقر نظير صاحب ماردین ، لكن بأبسط ألقاب : إذ هي أدعى لأستحسانهم لقلّة معارفهم ، وعلی هذا التقدير يكون رسم المكاتب إليه : « أعزّ الله تعالى نصر المقرّ الكريم ، العالی ، الملکی ، الأجلّی ، العالی ، العادلی ، المجاهدی ، المؤیدی ، المرابطی ، المناغری ، المظفری ، المنصوری ، الفلانی ، عون الأنام ، شرف الملوك والسلاطين ، نصير الغزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، ظهير أمير المؤمنين » .

قال : فإن لم يُسمع له بكل هذه المخاطبة ، ولم يؤهل لنظير هذه المكاتبه ، كتبت إليه هذه الألقاب مع الجانب الكريم ، وخوطف بالإمارة إن لم يسمع له بالمخاطبة بالملك .

قال في "التتيف" ولعل مكاتبته بالجانب مع هذه الألقاب كما ذكر ومخاطبته بالإمارة أولى : لأنه إذا كان بنو قرمان أجلّ لدى ملوكنا ، ومكاتباتهم بالدعاء والمجلس العالی ، فيتعين حيث هو أكبر منهم أن يكون هو أعلى منهم رتبة في المكاتبه بدرجتين (١) وهي : الجانب الكريم . قال : هذا هو الأولى عندي .

قلت : وهذا كله إنما كان قبل أن يعلو قدر ابن عثمان صاحب برّما الآتي ذكره ، ويرتفع قدره على من بتلك البلاد جملة ؛ أما بعد ارتفاعه وأحيطاطهم دونه فينبغي أن ينظر في قدر المكتوب إليه ، ويكتب إليه بحسب ما تقتضيه الحال .

(١) لعله بدرجة تأمل .

الثاني - صاحب طُنْغَزْلُو . قال في " التعريف " ورسم المكاتبه إليه :
« صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالی الأمیری » ولم يذكر العلامة إليه . قال
في " التثقیف " والذي وجدته مسطوراً في مكاتبته الأسم والسامی بالياء .

الثالث - صاحب تَوَازَا . قال في " التعريف " : وهو في المكاتبه نظيرُ
صاحب طُنْغَزْلُو ، ولم يزد على ذلك ، غير أنه ذكر أن اسمه في زمانه كان « على أرينه »
وذكر في " التثقیف " أنه لم يقف له على رسم مكاتبه سوى ذلك .

الرابع - صاحب عَيْدَلِي . قد ذكر في " التعريف " أن اسمه في زمانه دَنَدَار
أخو يونس صاحب أنطاليا ، وأنه نظير صاحب تَوَازَا في المكاتبه ، فتكون المكاتبه
إليه : صدرت والعالی . قال في " التثقیف " ولم أقف على رسم مكاتبه إليه سوى
ذلك ، إلا أنه ذكر بعد ذلك صاحب عدليو . وقال : إن المكاتبه إليه الأسم والسامی
بالياء ، وذكر أن المفتر الشهابی بن فضل الله لم يتعرض إلى ذكره في " التعريف "
ثم قال : وقد تكون هي عَيْدَلِي المقدم ذكرها ، وإنما تكررت بتغيير الحروف . قال
ولم يتحزر هل هما آثان أو واحد .

الخامس - صاحب كَسْطَمُونِيَّة وهي قَسْطَمُونِيَّة . قال في " التعريف "
وكانت آخر وقتٍ لسليمان باشا ، وكان أميراً كبيراً ، كثير العدد ، موفور المدد ، ذاهية
وتمتع . ثم قال : وورث ملكه أبنه إبراهيم شاه ، وكان عاقاً لأبيه ، خارجاً عن
مراضيه ، وكان في حياته منفرداً بمملكة سنوب . قال : وهي الآن داخله في ملكه ،
منخرطة في سلكه .

وذكر أن رسم المكاتبه إليه : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی الأمیری » بأكل
الألقاب ، واتم ما يكتب في هذا الباب ، وذكر في " التثقیف " نقلاً عن القاضي
ناصر الدين بن النشائي ، وأمين الدين خضر مثل ذلك ، وأن العلامة إليه « أخوه » .

السادس — صاحب فاوياً . قال في "التعريف" وهو (يعنى في زمانه) مرادُ الدين حمزة ، وهو ملك مضعوف ، ورجلٌ يجالسُ أنسه مشغوف . قال : ورسم المكتبة إليه «صدرت هذه المكتبةُ إلى المجلس السامى الأميرى» بالياء . قال في "التثقيف" وهو غير بعيد .

السابع — صاحب برسا . وقد ذكر في "التعريف" أنه في زمانه أرخان بن عثمان . ثم قال : وهو نظير صاحب فاوياً في المكتبة ، فتكون مكاتبته السامى بالياء . قال في "التثقيف" ولم أطلع على رسم للمكتبة إليه غير ذلك ، إلا أنه ذكر في الفصل الأول من الباب الرابع في الكلام على مكاتبات الحكام أرخان بن عثمان . وقال : إن لقبه سيفُ الدين . ثم قال : ويقال إنه صاحب برسا ، وذكر أن رسم المكتبة إليه في قطع العادة والدعاء والمجلس العالى ، والعلامة أخوه ، وتعريفه اسمه .

قلت : وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك أن الأمر قد آل في بني عثمان إلى أرخان بن عثمان جق ، ثم إلى ابنه مراد بك ، وأنه أتسع ملكه وجاوز في الفتح الخليج القسطنطينى حتى قارب خليج البنادقة ، ثم إلى ابنه أبى يزيد فزاد في الملك على ما كان بيد أبيه ، وتزوج في بنى قرمان ، ودخل بنو قرمان وسائر التركمان في طاعته ، ولم يبق خارجاً عن ملكه إلا سيواس ، فإنها كانت مع قاضيه إبراهيم المتغلب عليها ، ولم يزل كذلك حتى قصده تمرلنك وأسرّه ، ومات في يديه ، وملك بعده ابنه سليمان چلبى . ثم مات ، وملك بعده أخوه محمد بن أبى يزيد بن مراد بك ابن عثمان جق ، وهو القائم بها إلى الآن . وكانت المكتبة قد استقرت إلى أبى يزيد

(١)

في الأيام الظاهرية (برقوق)

(١) ترك بيضا في الاصل لصورة المكتبة .

(١) الثامن - صاحب أكبرا . قد ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه دمرخان ابن قرأشي ؛ وذكر أن مكاتبتة نظير مكاتبة صاحب برسا ، يعنى السامى بالياء ؛ وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف على سوى ذلك .

التاسع - صاحب مرمرا . وقد ذكر في "التعريف" : أنه في زمانه كان بخشى بن قرأشي . وقال : إن رسم المكاتبة إليه : «صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالى» .

قلت : وقد تقدم في المسالك والممالك أن هذه البلدة كانت جزيرة بالخليج القسطنطينى بها مقطوع رخام ، وأن النصارى غلبوا عليها .

العاشر - صاحب مغنيسيا . ذكر في "التعريف" : أن اسمه صاروخان . وقال : إن المكاتبة إليه السامى بالياء . وذكر في "التثقيف" : أنها صارت بعده إلى ابنه إسحاق بن صاروخان ؛ وأنه كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة بالاسم والسامى بالياء .

الحادى عشر - صاحب نييف . ذكر في "التعريف" : أنه في زمانه كان على باشا أخو صاروخان صاحب «مغنيسيا» المقدم ذكره ؛ وذكر أن رسم المكاتبة إليه مثل أخيه المذكور ، فتكون صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالى .

الثانى عشر - صاحب بريكي . ذكر في "التعريف" : أنها في زمانه كانت بيد ابن أيدين ولم يصرح باسمه . قال : وإن المكاتبة إليه «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى» بالألقاب التامة ؛ وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف له على مكاتبة غير ذلك .

(١) هي كذلك في كتاب "المسالك" والذي تقدم في ج ٥ نقلا عن "التعريف" أيضا صاروخان . وليست في نسخة "التعريف" التي بأيدينا .

الثالث عشر — صاحب فوكه . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه أرخان
ابن منتشا، وأن المكتبة إليه نظير صاحب بركي، فتكون الدعاء مع العالی بالألقاب
النامة أيضا، وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف في مكاتبته على غير ذلك .

الرابع عشر — صاحب أنطاليا . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه
أسمه خضر بن يونس . وقال : إن رسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى
المجلس العالی » . وذكر في "التثقيف" : أن خضر بن يونس المذكور كان يلقب
سنان الدين، وأنه استقر بعده دادى بك، ثم استقر بها آخرًا محمد المعروف بكاجوك،
وذكر أن المكتبة إليه « أخوه » والدعاء والدالى . ثم قال : وهو الأصح لأنه آخر
ما استقر عليه الحال في مكاتبته وكتب به إليه .

الخامس عشر — صاحب قرأصار . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه
أسمه زكريا، وأن رسم المكتبة إليه : هذه المكتبة إلى المجلس السامى، بلا ياء،
وذكر في "التثقيف" : أنه لم يطلع على مكتبة إليه سوى ذلك، وأنه لم يكتب
إليه شيء في مدة مباشرته .

السادس عشر — صاحب أرمنك . ذكر في "التعريف" : أنها كانت في زمانه
بيد ابن قرمان ولم يصرح باسمه، وذكروا في "التثقيف" : أن أسمه علاء الدين سليمان .
قال في "التعريف" : ورسم المكتبة إليه : أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی
بأكل الألقاب وأكبرها، وأجمعها وأكثرها . وذكر في "التثقيف" : أن آخر
من استقر بها في شوال سنة سبع وستين وسبعمائة علاء الدين على بك بن قرمان،
ووافق على رسم المكتبة المذكورة . وقال : إن العلامة إليه « أخوه » وتعريفه
« فلان بن قرمان » .

(١) لعله "العلامة إليه" .

قال في "التعريف": وإخوة صاحبها ابن قِرْمَان المذكور رسوم في المكاتب، فأكبرهم قَدْرًا، وأفتكهم نابًا وظفرًا، الأمير بهاء الدين موسى . وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنه حضر إلى الأبواب السلطانية، وحجَّ مع الركب الشريف، ثم عاد إلى الأبواب السلطانية، وأجلس في المرتين مع أمراء المشورة، وأشرك في الرأي . وسأل السلطان في كتابة منشور بما يفتح من بلاد الأرسن فكتب له . قال في "التعريف": وأستقرت المكاتبُ إليه مثل مكاتبه أخيه . قال : أما بقية بني قِرْمَان فدونهما في المكاتبه .

وأعلم أن صاحب "التثقيف" قد زاد على ذلك من أمراء هذه البلاد ستة نفر .

أحدهم — الحاكم بالعلايا . وذكر أنه كان اسمه حُسام الدين محمود بن علاء الدين، وأنه كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة «أخوه» والدعاء، والعالى، في قطع العادة .

الثاني — صاحب بلاط ورمح^(١) . ذكر أنه كان بها «أمير موسى» بن إبراهيم ابن منتشا، وأن المكاتبه إليه في قطع العادة «والده والدعاء، والمجلس العالى» .

الثالث — صاحب أكردور وهي أكردون . ذكر أنه كان بها إلياس بن مصطفى من بني حميد، وأن رسم المكاتبه إليه على ما استقر عليه الحال عند ما كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة «والده» والسامى بالباء .

الرابع — صاحب آياسلوق . ذكر أنه كان بها عيسى بن أيدين، وأنه كتب إليه في شوال من السنة المذكورة أيضا .

(١) كذا بإهمال جميع حروفها مع تقدم في القواعد «بلاط» فقط ولم نغز عليها بعد البحث والتصنيف .

الخامس — صاحب بلي شار . ذكر أنه كان بها الأمير محمد ولم يذكر نسبه .
وقال : إن المكاتبه اليه الأسم والسامى بالياء .

السادس — الأمير ذروان بن كومان بن منشا . ذكر أنه ممن استجدت مكاتبته
في شوال سنة سبع وستين وسبعائة .

وأعلم أنه قد زاد في "التثقيف" ذكر مكاتبه جماعة لم أتحقق هل هم من أهل
هذه البلاد أم من غيرها .

منهم صاحب قلعة الحنفاء ؛ ذكر أنه كان اسمه سيف الدين قوجى ، وأن المكاتبه
اليه في قطع الثلث والسامى بالياء .

ومنهم صاحب قلعة الجوز ، في قطع الثلث الأسم والسامى بالياء ، وتعريفه اسمه .
ومنهم صاحب بكجرى : استجدت الكتابة إليه في شوال سنة سبع وستين
وسبعائة ، وكتب إليه الأسم والسامى بغير ياء .

ومنهم الحاكم بقلعة أبيض كتب اليه الأسم ومجلس الأمير .

ومنهم الحاكم بقلعة نعمة ، كتب إليه الأسم ومجلس الأمير أيضا .

ومنهم الحاكم بقلعة أشنى : وهى أشنوكتب إليه كذلك .

على أنه قد ذكر منهم جماعة أيضا ليسوا من أهل هذه البلاد جملة ؛ منهم نائب
خلاط ، وصاحب موغان ، وهى موقان ، والحاكم بإسعد وهى سيرت ، وصاحب
قيشان وهى قاشان .

وقد تقدم أن خلاط من أرمينية ، وموقان من أرمينية ، وإسعد من ديار ربعة
من الجزيرة الفراتية ، وقاشان من عراق العجم ، وبالجملة فقد خلط في "التثقيف"
في البلدان تخطيا كثيرا ، وخلط بعض أقاليم البلاد ببعض .

قلت : قد تقدم في صدر الكلام على المكتبات ذكر أصول يعتمدُها الكاتب في كتبه تَعَمُّ الكُتُبَ السُلْطَانِيَّةَ وَغَيْرَهَا ، وَأَنَا أَذْكَرُهَا مَا يَخْتَصُّ مِنْهَا بِالْكَتَبِ الصَادِرَةِ عَنِ السُلْطَانِ عَلَى النَّمَطِ الْجَارِي عَلَيْهِ الْأَصْطَلَاخُ الْآنَ لِيسهلَ القصدُ إليها اقْرَبِهَا ، وَبِخَصِّ الفَرِيضِ مِنْ ذَلِكَ بِذِكْرِ [تسعة] أمور :

أولها - مقادير قطع الورق ، وقد تقدم في الكلام على مقادير قطع الورق المستعملة في ديوان الإنشاء جلاءً ، والذي يختص منها بالكتب الصادرة عن السلطان أربعة مقادير :

- أولها - قطع البعثات : الكامل ، وقد صرَّ أنه يكتبُ بيده للقائات .
 - وثانيها - قطع النصارى ، وفيه يكتبُ إلى أكابر الملوك عن دُونِ القائات .
 - وثالثها - قطع الثلث ، وفيه يكتبُ إلى الرتبة الثانية من الملوك .
 - ورابعها - قطع العادة ، وفيه يكتبُ إلى أصغار الملوك والولاة وغيرهم .
- والعنوان وقد تقدم في مقدمة الكتاب أن الذي كان يكتبُ عنوانات الكتب السلطانية في الزمن المتقدم هو صاحب ديوان الإنشاء دُونِ غيره ، أما الآن ، فإن كتاب كل كتاب صار هو الذي يكتبُ عنوانه بنفسه .

وقد يريب المادة في عامة الكتب السلطانية أن يكون المكتوب فيها هي القاب المكتوب اليه وتُعرفُ التي في صدر المكتبة في الباطن ، ثم يدعى للمكتوب إليه في اسم الإلتساب بالدعوة التي صدر بها الدعاء في الصدر منسلاً : أعزَّ الله أنصاره ، أو ضاعف الله نعمته ، وما أشبه ذلك من الأدعية التي تُفتَّح بها المكتبات ، فإن كان المكتوب مفتوحاً بالحسبة أو بلفظ من فلاح ، كُتِبَ في العنوان الألقاب التي في صدر الكتاب بعد ذلك ، ثم بعد الدعاء يُحَلَّى بياضاً قليلاً ، ثم يذكر تعريف

المكتوب إليه . مثل «صاحب فلانة» ونحو ذلك مما تقدم ذكره من التعريفات .
وتكون كتابة العنوان بنظير قلم الباطن في الدقة والغلظ . وتكون أسطره متصلة من
أول عرض الدرج إلى آخره ، وأسطره متلاصقة متتالية .

الثالث - السطر التي يكتب فيها تعريف المكتوب إليه ، والعلامة التي يكتبها
المكتوب عنه ، والسبب في كتابته .

وقد جرت العادة في ذلك أنه يكتب في رأس الترخيص في الجانب الأيمن
«إلى فلان» وفي الجانب الأيسر بسبب كذا وكذا ، وفي الوسط العلامة التي يدونها
السلطان مثل «أخوه» أو «والده» أو «أخوه» . لئلا يخطئ عند قراءة السلطان على
الكتاب فيعلم حال الكتاب ، ويحري الأمر في العلامة على هذا الوجه ، وتكون كتابتها
بقلم الكتاب من ثلث أو رفاع أو غيرها ، إلا أن يكون الكتاب مختصراً الطومار في قطع
البغدادى فيكون ذلك بقلم أسود ، وتحدد أسطره بقطع بيضاء إن بدأ من الجانب الأيسر .

الرابع - البيض في أعلى الكتاب . وقد جرت العادة أن يكتب السلطانية أو
العلامة إلى المكتوب إليه ، إلا كانت «أخوه» أو «والده» أو «أخوه» ولا تكتب أو تسمى
بياضاً بما فيه من وصل العنوان . ثم يكتب بعد ذلك في رأس السطر الأيسر
كانت العلامة إليه الأسماء تترك وصلان بياضاً فقط وتكتب البسطة في أول السطر
الثالث ، ثم يكتب السطر الأول من الكتاب على سمت البسطة متلاصقاً بالسطر
موضع العلامة بياضاً ، ويكتب السطر الثاني على سمت السطر الأول من السطر الثالث
الوصل على قدر أصبعين من آخره ، ثم يحط بين كل سطرين أو ثلثة أسطر مطبوعة ،
إن كان القطع صغيراً ، وإن كان القطع كبيراً كان فيه قدر ربع ذراع أو نحوه بحسب

(١) لعله في الكتابة أي يكتب ما يناسب العلامة .

المناسبة؛ فإذا انتهى إلى آخر الكتاب كتب «إن شاء الله تعالى» في الوسط على بُعد قدر إصبعين من السطر الآخر. ثم يكتب: «كُتِبَ في تاريخ كذا من شهر كذا سنة كذا وكذا» ويكون إلى آخر ذكر الشهر سطر، ومن أول سنة كذا إلى آخره سطر. ثم يكتب المستند على نحو البعد المذكور: فإن كان بتلق كاتب السَّرَّ خاصَّةً كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» فقط. وإن كان بتلق كاتب السروكَّاب الدَّسْت من دار العدل كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر، وتحتَه بقدر إصبع «من دار العدل الشريف» في سطر. وإن كان برسالة الدَّوَادار كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر، وتحتَه بقدر إصبع «برسالة الجناب العالي الأميريّ الفلانيّ الدَّوَادار الفلانيّ» بقلب السلطان «ضاعف الله تعالى نعمته». وإن كان من ديوان الخاص، كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر وتحتَه «من ديوان الخاص الشريف». وإن كان بخط السلطان: بأن كُتِبَ على القِصَّة بالخط الشريف، كتب «حَسَبَ الخطّ الشريف» في سطر واحد. وإن كان بإشارة النائب الكافل كتب «بالإشارة العالية الأميريّة الكبريّة الفلانية» في سطر، وكتب تحتَه بقدر إصبع «كافِلِ الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى». وإن كان بإشارة أستاذ الدار، كتب «بالإشارة العالية الأميريّة الكبريّة الفلانية» في سطر، ثم يكتب تحتَه بقدر إصبع «أستاذ الدار العالية أعلاها الله تعالى». على أنه قد تقدّم في الألقاب أن كتابتهم أستاذ الدار هو عرف جرى عليه اصطلاحهم؛ وأن الصواب فيه إستدّار بغير ألف بعد التاء. وتكون كتابة المستند بياض من جانبيه، سواء كان سطرا واحدا أو سطرين؛ ثم إذا فرغ من كتابة المستند، كتب الحمدلة والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم في سطر كامل على بُعد قدر إصبعين من المستند؛ ثم يكتب الحسبلة على قدر إصبعين من سطر الحمدلة والتصلية.

وقد تقدم في الكلام على الخواتم في المقالة الثالثة نقلاً عن عبد الرحيم بن شيث أن موضعها من ثلث السطر الأخير من أوله إلى حين تنتهي كتابتها .

الخامس — قد ذكر ابن شيث في معالم الكتابة أنه لا يكتب في حواشي الكتب السلطانية : لأن في ذلك شحاً بالورق ، وذلك مما لا يليق بالسلطان ، ولا خفاءً في استقباح ذلك ، بل قد يستبجح ذلك في غير السلطان كما سيأتي ذكره في الإخوانيات .

السادس — العلامة السلطانية على المكتوب ، في بيت العلامة من البياض السابق ذكره . قد ذكر في "التعريف" أن أكبر من يكتب إليه من الأمراء ومماليك البيت الشريف فترجمته بالخط الشريف « والده » ومن دون ذلك « الأسم الشريف » ؛ أما الغرباء كملوك المسلمين والعربان وأكابر القضاة وأهل الصلاح والأكابر ، فترجمته بالخط الشريف « أخوه » ومن دون ذلك الأسم الشريف .

والذي استقر عليه الحال آخر في زماننا أن لأكابر الأمراء من التواب وغيرهم « أخوه » لرفعة مكان الأخ على الولد ، ولمن دونهم « والده » ولمن دون ذلك « الأسم » وباقى الحال على ما ذكره ؛ وقد سبقت ترجمة كل مكتوب إليه في الكلام على المكاتب إليه .

أما القانات الكبار فقد تقدم في الكلام على المكاتب إليهم أنه تكتب لهم طغراً بالألقاب السلطانية في موضع العلامة ؛ وأما ملوك الكفر ، فسيأتي أنه تكتب طغراً بالألقاب السلطانية فوق البسمة .

السابع — طى الكتب السلطانية : قد تقدم في صدر الكلام على المكاتب نقلاً عن ابن شيث من كتاب الدولة الأيوبية أن كتب السلطان يكون طياً

في عَرْض أربعة أصابع ، وأن مقتضى ذلك أن كُتِبَ السلطان بالديار المصرية كانت تُطَوَّى على هذه الهيئة كما في كُتِبَ أهل المغرب الآن ، والذي استقر عليه الحال آخرها يجعل طيها في صورة أنبوب القنّاة ولا تُضغَط في طيها لتكون نبيلة تعظيماً لأمر السلطان وإجلالاً لقدره .

الثامن - ختم الكتاب : قد تقدم في الكلام على الخواتم واللواحق في المقالة الثالثة أن الكتب السلطانية كانت تُختم ^(١) بسحابة ، ويُطبع عليها بطين أحمر ، يُوتى به من سيراف ، وتُختم بخاتم كما تُختم المغاربة الآن ، أما الآن فقد استقر الحال على أن الكتب تُلصق بالنشأ أو ما في معناه من الكثيراء ونحوها ، وقد سأل الشيخ جمال الدين بن نباتة في رسالته التي كتبها إلى الشهاب محمود رحمه الله حين بلغه وقوع بعض كُتُب دِمَشق في حقه عن غير طين الختم إلى النشأ ، ولم أقف على زمان تغير ذلك ولا من غيره ، على أني حللت معظم أسئلة هذه الرسالة في خلال هذا الكتاب مفترقة في مواضعها .

التاسع - أن الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية : إن كانت إلى أحد من عظماء الملوك كالتقانات ببلاد الشرق ، أو ملوك بلاد المغرب ونحوهم من يتعاني البلاغة في الكتب الصادرة عنه ، كتبت مسجوعةً كلها ، وإن كانت إلى صغار الملوك والحكام كتبت غير مسجوعة . وإن كانت إلى أحد من أهل المملكة ، فإن كانت في أمرٍ بعد وقوعه : كالكتابة بالبشارة بوفاء النيل ، أو جلوس السلطان على النخلة لأقرب أمره ، أو برئه من المرض ، أو ولادة ولد له ، أو البشارة بفتح ، أو الإعلام بركوب الميدان ، أو الإنعام بخيل أو نحوها ، كتبت مسجوعةً ، وإلا كتبت مُرسلةً غير مسجوعة .

(١) يريد تلف عليها سحابة كما يؤخذ من بقية العبارة ومما تقدم في جزء هـ

الطرف الثاني

(في المكتبة عن ملوك الديار المصرية على المصطلح المستقر عليه
الحال، إلى ملوك الكفر)

وأعلم أن ملوك الكفر المكاتبين عن هذه المملكة جميعهم نصارى : من الروم ،
والفرنج ، والكرج ، والحبشة وغيرهم ، إذ كانوا هم المستونين على أكثر الممالك ،
أما اليهود ، فإنهم لم يبق لهم مملكة معروفة ، بل هم تحت الذمة أين كانوا . قال
تعالى : (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيَّمَا ذُلِّهَا لِيُحِبُّوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مَنْ النَّاسِ) .
قال في " التعريف " وجميع الكتب المكتوبة إلى ملوك الكفر لا يشتملها الخط
الشريف أصلاً ، بل يُكْتَبُ فوق البسملة في الكتاب بخط الكاتب عوض العلامة
الشريفة أسطر قصيرة بيضاء من الجانبين ماصورته :

« من السلطان الأعظم الملك الناصر - مثلاً - العالم ، العادل ، المجاهد ، المرابط ،
المناغر ، المؤيد ، المظفر ، المنصور ، الشاهنشاه ، فلان الدنيا والدين ، سلطان الإسلام
والمسلمين ، مُجِيّ العدل في العالمين ، وارث الملك ، ملك العرب والعجم والترك ،
ظلّ الله في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، إسكندر الزمان ، مملك أصحاب المناير
والتخوت والتيجان ، واهب الأقاليم والأمصار ، مُبِيدِ الطغاة والبغاة والكفار ، حامي
الحرمين والقبليتين جامع كلمة الإيمان ، ناسر لواء العدل والإحسان ، سيد الملوك
الزمان ، إمام المتقين ، قسيم أمير المؤمنين ، أبي فلان ، ابن السلطان الشهيد الملك
الفلاني فلان ، خلد الله سلطانه ، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه » .

وأوضح ذلك في " التنقيف " فقال : ويكون في الطرد بعد وصلين بيضاء من أول
الكتاب بهامش جيد من الجانبين يمنة ويسرة ، ويكونان في قدر بيضاء سواء

تقديرًا أربعة أصابع فأكثر من كل جانب، من الورق العريض؛ وفي قطع العادة دون ذلك. وتكون الأسطر متقاربة، ما بينهما من البياض تقديرًا إبهام أو أزيد منه بشيء يسير؛ وإذا انتهت الألقاب يترك بعدها وصلًا أبيض؛ ثم يكتب البسملة الشريفة، وبعدها رسم المكتبة للمكتوب إليه.

الطرف الثالث

(في المكتبة إلى من وراء بحر القرم بالجانب الشمالي منه)

وهو صاحب البُلغار والسَّرب. وهي بلاد في نهاية الشمال، متاخمة لصاحب السَّراى؛ وقد ذكر في "التعريف" المكتبة إليه في المكتبة إلى جملة ملوك المسلمين. وقال: إن صاحبها يُظهر الإتيان لصاحب السَّراى، وإنه أرسل رُسله تطلب له الألوية من الأبواب السلطانية بجهت إليه مع ما جرت به العادة من السيف والتشريف والتخيل المُسرَّجة المُلجَّمة. وذكر أن رسم المكتبة إليه على ما كُتب إذ ذاك:

«أعزُّ الله نصرَ الجناح الكريم، العالى، السلكى، الأجلّى، الكبيرى، العالى، العادلى، المجاهدى، المؤيدى، المرابطى، المثناعزى، الأوحدى، سيف الإسلام والمسلمين، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش، مقدم العساكر، جمال الملوك والسلاطين، دُخر أمير المؤمنين».

ثم هذا الطرف يشتمل على أربعة مقاصد شتملة على الجهات الأربع:

المقصود الأول

(في المكتبة إلى ملوك الكفار ببلاد الشرق ؛ وجملة من بها من ملوك
النصارى المكاتبين عن هذه المملكة مملكتان)

الأولى - مملكة الكرج من النصارى الملكية . قال : في "التعريف" ويقال
في المسلمين الكرد، وفي النصارى الكرج . قال : وموقع هذه [البلاد] بين بلاد الروم
وبين بلاد أرمينية . وهي بلاد جليلة ، ومملكة مفحمة ، وكأنها مقتطعة من
البلادين ، ولها ملك قائم ، وبها ملك دائم ، وأمها مدينة تفلّيس ، وسلطان بيت
هولاكو بمملكة إيران يحكم عليها ، ويرالغهُ تصل إليها ، إلا أنه لا يطغى بها سيّله ،
ولا تجوس خلال ديارها للحرب المضرمة خيله ؛ وإنما له بها تومان اتخذه سدادا
لثغرها ، وقيامًا بأمرها ؛ متزهم فسيح بواديها ، أهل حلّ وترحال ، وتنقل من حال
إلى حال . قال . وآخر من كان له في هذه البلاد سمعة ، وأقيمت به للمهابة صرعه ؛
الشيخ محمود بن جوبان ، وكان باسلاً لإطاق ، ورجلاً مرّ المذاق ؛ ولما جرت
الكائنة لأبيه ، لاذ بالسلطان (أزبك قان) ثم لم تطل له مده ، ولا أنفجرت له حلق
شدّه ؛ وأتاه أجله وما استطاع رده . ثم قال : وعسكر الكرج صليبة دين الصليب .
وأهل البأس والنجده ، وهم للعساكر الهولاكوهية عتاد وذخر ، ولهم بهم وثوق
وعليهم أعتاد ، [ولا] سيمًا لأولاد جوبان وبنيه ، وبقايا مخلفيه ، لسالف إحسان
جوبان إليهم ، ويد مشكورة كانت له عندهم ، وكان صديقًا لملكهم برطالما يفرس
عنده الصنائع ، ويستترعيه الودائع ؛ فكان أخص خصيص به ، وأصدق صديق
له ، يدعوهم للمهم ، ويستصرخ به في الملم ، ويعده رداءً لعسكره ؛ ومزيلة لمنكره .

وعقب ذلك بأن قال : وبرطلما المذكور عهدي به حتى يرزق من أجل ملوك
النصرانية ، وأغرق أنساب بنى المعمودية ، وقد كان كاتب الأبواب السلطانية
بسبب كنيسة المصلبه ، وأن ترفع عنها الأيدي المتغلبه ، فبرزت الأوامر المطاعة
بإعادتها عليهم وكانت قد أخذت منهم سوهم بظاهر القدس الشريف . وأخذت
مسجدا ، وعمر هذا على طوائف العلماء والصلحاء وان لم يعمل هذا سدى . قيل
إنه كان يحسن لخبزبان قصده البلاد ، ويبدل له عليه الطارف والتلاد . وذكر أن
رسم المكتبة إليه : « أدام الله تعالى بهجة الحضرة العلية ، حضرة الملك الجليل
الهمام ، الدليل ، الصرغام ، السמידع الكرار ، النصفقر ، المتخت ، المتوج ، العالم
في بلده ، العادل في رعيته ، بقية الملوك الأغر بقية ، سلطان الكرج ، ذخر ملك البحار
والخليج ، حامى حمى الفرسان ، وارث آبائه في الأسيرة والتيجان ، سياج بلاد الروم
وابران ، دليل اليونان ، خلاصة ملوك السريان ، بقية أبناء التوح والتيجان ،
سمر النصرانية ، مؤيد العيسوية ، مسيح الأبطال المسيحية ، معظم البيت المقدس
بعمد الية ، عماد بنى المعمودية ، ظهير الباب بابا رومية . مواد المسلمين . خالصه
الأصدقاء المقربين . صديق الملوك والسلاطين » .

وهذا دعاء أورده في " التعريف " يليق به وهو : وحى ملكه بوذه لا يجنده .
وبوقته بتهده لا يجيشه ومدبته . وما عندنا من سجايا الإحسان لا بما يظن أنه من
عنده ، وبما في رأينا المورى لا بما يقدر النار من زنده . وربما قيل مصافى
المسلمين بدل مواد المسلمين .

أما في " التنقيف " فقد ذكر أن للكرج ملكين (أحدهما) صاحب قفليس المقدم
ذكرة ، وذكر أنه كان اسمه إذ ذاك « داود » (الثانى) الحاكم " بسخوم " و " أنحاس " .
وهما مدينتان على جانب بحر القرم من الجانب الجنوبي كما تقدم ذكره في الكلام على

المسالك والممالك في الجانب الشمالي ، وسمى صاحبها إذ ذاك (ديادان) . قال :
ورسمُ المكتبة إلى كلِّ منهما في قطع النصف : أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك
الجليل ، المكرَّم ، الخطير ، الباسل ، الهمام ، المقدس ، الروحاني ، فلان ، عمير الأئمة
المسيحية ، كثر الطائفة الصليبية ، نجردين النصرانية ، تلك الجبال والكرج
والجرجان ، صديق الملوك والسلاطين . وتعريف كلِّ منهما "ملك الكرج" .

ثم قال : وقد ذكر القاضي المرحوم شهاب الدين بن فضل الله في المكتبة
المذكورة من التغييرات مالا حاجة إلى ذكره : لأنَّ ما ذكرته هو المستقر في المكتبة
إليه إلى آخر وقت .

قلت : وذلك لأنه في زمن المقر الشهابي بن فضل الله كان قسري الجانب
بملاة التتر وأنضمامه إلى جوبان ، كما تقدمت الإشارة إليه ، فكانت المكتبة إليه
إذ ذاك أعلى وأختم ، فلما زالت دولة التتر من إيران وحدهم قسوتهم انحطت رتبة
المكتبة إلى ملك الكرج عن هذه الرتبة . ثم قد تقدم في المسالك والممالك
في الكلام على مدينة تفليس أنها من إقليم أران ، وأنها كانت قد فتحها المسلمون .
ثم غلب عليها الكرج وملكوها ، فلو عبر عن صاحبها بتملك تفليس كما كان يعبر عن
المستولى على سيس من الأرمن بتملك سيس ، وعن المستولى على قبرس بتملك
قبرس على ما سيأتي ذكره على الأثر إن شاء الله تعالى .

الثانية — مملكة الأرمن وقاعدتها مدينة "سيس" قسلي فتحها ، وقاعدتها
في الكلام على مدينة سيس عند ذكر مضافات حلب ، في الكلام على تلك الشامية
في المسالك والممالك ذكر حدود هذه البلاد وبيان أحوالها ، وأنها كانت تسمى

(١) جواب لو معلوم أي لكان له وجه .

في زمن الخلفاء بلاد الثغور والعواصم ، وأنها كانت بأيدي المسلمين ، وأهلها نصارى
 أرمن ، وعليهم جزية مقررة يؤدونها إلى الملوك ، إلى أن كانت طاعتهم آخراً لبقية الملوك
 السلاجقة ببلاد الروم ، والعمال والشحاني على بلادهم من جهة الملك السلجوقي حتى
 ضعفت تلك الدولة ، وسكنت شقاشق تلك الصولة ، وAntدب بعضهم لقتال
 بعض ، وصارت الكلمة شوري ، والرعية فوضى ، وشواخ المعافل مجالاً للتخريب ،
 والبلاد المصونة قاصية من الغم اللدب ، وطمع رئيس النصارى بهذه البلاد حينئذ
 فيها وأستنسر بغائه ، وأشد إنكائه ، ورأى سواماً لا ذائد عنه فساقه ، ومتاعاً لاحامية
 له فملاً منه أوساقه ، فاستولى على هذه البلاد وتملكها ، وتحيف مواريث بنى سلجوق
 وأستهلكها . وذكروا في "مسالك الأبصار" أن كبيرهم كان يسمى قليج بن لاون .

قال في "التعريف" وقد أخذ في أجزبات الأيام الناصرية ، يعنى (محمد بن قلاوون)
 بلاد ماوراء نهر جاهان وأمها آياس ، وكان قد أخذ بعض ذلك [أيام] الملك المنصور
 (لاچين) واستنيب به أستدمر الكرجي ، ثم أعيدت إلى الأرمن بمواطاة أستدمر
 حين قتل لاچين وضعفت الدولة . وذكر أنه قرر على الأرمن ملوك الديار المصرية
 قطعة مقررة بلغت ألف ومائتي ألف درهم مع أصناف ، ثم حط لهم منها ،
 ثم صاروا بعد ذلك بين طاعة وعصيان . وذكر أنه كان ملوك البيت الهولاكوهي
 عليهم حكم قاهر ، وله فيهم أمر نافذ ، قبل ضعف شوكتهم ، ولين قسوتهم ، وخلو
 غابهم من قسورتهم . ثم قال : ولو تمكنا من دمشق لمحو آثارها ، وأنسوا أخبارها ،
 ثم أشار إلى أن ملكها يومئذ صاهر صاحب قبرس ليتقوى به ، وأنه مع ذلك أوصى
 سلطاننا صاحب مصر على آبنه بوصية أشهد عليها أهل مملكته ، وجعل ذلك وسيلة
 لبقاء دولته ، وكتب له تقليد عوضاً عن آبيه وجهاز إليه ، وألبس الشريف فلبس

(١)
 وَقَبْلَ الْأَرْضِ بِهِ وَخَدِمَ . قَالَ فِي "التعريف" : وَمَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ سَمِيَ التَّكْفُورَ ،
 سَمَةً جَرَتْ عَلَيْهِمْ مُنْذُ كَانُوا وَإِلَى الْآنَ . قَالَ : وَمَلَكَهُمْ مَلِكٌ عَرِيقٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ ،
 يَزْعُمُ أَنْ أَصْلَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْقُسْطَنْطِينِيِّ . قَالَ : وَعِنْدِي نَظَرٌ فِي دَعْوَاهُمْ ذَلِكَ : إِذْ
 كَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الْبَيْتِ هُمْ صَلِيبَةُ الرُّومِ وَمَعْتَقَدُهُمْ مَعْتَقَدُ الْمَلِكَانِيَّةِ وَالْبَيْتُ التَّكْفُورِيُّ
 أَرْمَنُ وَمَعْتَقَدُهُمْ مَعْتَقَدُ الْيَعَاقِبِيَّةِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ ، وَبَيْنَ الْمَعْتَقِدِينَ بَعْدَ عَظِيمٍ ، وَبَوْنُ نَاءٍ .
 وَقَدْ ذَكَرَ فِي "التعريف" أَنَّ اسْمَهُ لِيْفُورِ بْنِ أَوْشِيرٍ . وَذَكَرَ أَنَّ رَسْمَ الْمَكَاتِبَةِ
 [إِلَيْهِ] صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى حَضْرَةِ الْمَلِكِ ، الْجَلِيلِ ، الْبَطْلِ ، الْبَاسِلِ ، الْهَامِ ،
 السَّمِيدِ ، الضَّرْغَامِ ، الْغَضَنْفَرِ ، فَلَانَ بْنِ فَلَانَ ، نَحْرِ الْمَلَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، ذُنْحِ الْأُمَّةِ
 النَّصْرَانِيَّةِ ، عِمَادِ بْنِ الْمَعْمُودِيَّةِ ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ .

وهذه أدعية - ذكرها في "التعريف" تناسبه :

وَفَقَّهَ اللَّهُ تَعَالَى لَطَاعَةَ يَكْفُفُهُ ذِمَامُهَا ، وَيَقِيهِ مَصَارِعَ السُّوءِ الْتِزَامُهَا ، وَتَجَرَّى لَهُ
 بِالسَّلَامَةِ فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ أَحْكَامُهَا .

آخِرُ : وَلَا عِدَمَ مِنْ مَنِينِ الْكَرَمِ الَّذِي أَجَارَهُ ، وَالْأَمْنِ الَّذِي أَمَّنَ جَارَهُ ،
 وَالْأَمَانَ الَّذِي وَسَّعَ عَلَيْهِ وَجَارَهُ ، وَالْعَفْوَ الَّذِي وَقَاهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ نَارًا وَقُودَهَا
 النَّاسَ وَالْمَجَّارَةَ .

آخِرُ : أَبْقَاهُ اللَّهُ لَوْلَا يُبْدِيهِ ، وَفَرَضَ مِنَ الْخِدْمَةِ يُؤَدِّيهِ ، وَدَيْنٌ فِي ذِمَّتِهِ مِنْ
 الْوُضُوفَةِ يَقُومُ بِهِ مَعَ طَرَائِفِ مَا يُهْدِيهِ .

(١) في التعريف بدون خدم .

(٢) في التعريف المطبوع ص ٥٧ ليفون بن أوشين ، ونخشى أن يكون تصحيفا .

آخسر : أراه الله ما يستدفع به من مواضي السيف البلاء إذا نزل ، والسّمهرى
الذى لا يرويه البحر إذا نهل ، والسّيل الذى لا يقف فى طريقه شىء ولا يمشى
على مهل .

آخسر : صان الله تعالى بمصانعه من أهل ملته كل قبيل ، وأمن الله بمداراته
من خوف جيوشنا المنصورة كل سبيل ، وصد عنه بصدق صداقته بعث جنودنا
الذى لا يرد وأوله بالفرات وآخره بالنيل .

آخسر : ولا زال يتوقى بطاعته بوادر الأيسنة ، وعوادى الخيل موشحة
بالأيسنة ، وعيث الجيش حيث لا يبق إلا أحد الأقسام الثلاثة : القتل أو الأسر
أو المنه .

آخسر : جنب الله رأيه سوء التعكيس ، وشر ما يزين لمثله إبليس ، وأخذ
جنائب قلاعه وأول تلك الجنائب سيس .

والذى ذكره فى "التثيف" أنه كان اسمه كستندين بن هتيوم ، وأن رسم
المكاتبة إليه على ما كان أمتقر عليه الحال إلى حين الفتح فى سنة ست وسبعين
وسبعائة ، فى قطع العادة : «صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة الملك الجليل ، المكرم ،
المبجل ، المعظم ، المعزز ، الهمام ، الباسل ، فلان بن فلان ، عز دين النصرانية ، كبير
الطائفة الصليبية ، عماد بن المعمودية ، صديق الملوك والسلاطين ، أدام الله
نعمته ، وحرس مهجته ، تعلمه كذا وكذا» . وتعريفه «متملك سيس» قال : وكتبت
أنا والجماعة إليه بهذه المكاتبة مرّات .

قلت : وقد بطلت هذه المكاتبة بفتح سيس حين فتحها قشتمر المنصورى
نائب حلب فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» فى التاريخ المقدم ذكره ،

وَأَسْتَقَرَّتْ نِيَابَةٌ فِي رِثْبَةِ نِيَابَةِ طَرَابُلُوسَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا ؛ ثُمَّ أَسْتَقَرَّتْ تَقْدِيمَةَ عَسْكَرٍ فِي مُضَافَاتِ حَلَبَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرَهُ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ هُنَاكَ . وَإِنَّمَا كَانَ يُقَالُ لَهُ مَمْتَلِكٌ سِيسٌ دُونَ مَلِكٍ سِيسٍ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ أَوَّلًا بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهَا رِئِيسُ الْأَرْمَنِ الْمُقَدَّمُ ذِكْرَهُ فَلَمَّا كَانَتْ مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ فِي إِعَادَتِهَا إِلَى يَدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَسْتَقْرَارِهَا فِي جَمَلَةِ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

المُقْضَى الثَّانِي

(فِي الْمَكَاتِبَةِ إِلَى مَلُوكِ الْكُفَّارِ بِيَلَادِ الْمَغْرِبِ مِنْ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ
وَمَا وَالِهَا مِمَّا حَرَّمَ شَمَالِي الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ)

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ مِنَ الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا قَدْ آفَتْحُوا جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنَّهَا أَقَامَتْ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَأْسِ السِّتِّائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا غَرْنَاطَةَ وَمَا مَعَهَا مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ، عَرَّضَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي طُولِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ . وَبَاقِي الْجَزِيرَةِ عَلَى سَعَتِهَا بِيَدِ أَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ نَصَارَى الْقَرْنِجِ ، وَأَنَّ الْمُسْتَوْلى عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ مَلُوكٍ .

الأول - صَاحِبُ طَلَيْطَلَةَ وَمَا مَعَهَا ، وَلَقَبَهُ الْأَدْفُونَشُ : سَمَةُ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ ، وَعَامَّةُ الْمَغَارِبَةِ يُسَمُّونَهُ الْفُنْشُ ، وَهُوَ مَمْلَكَةٌ عَظِيمَةٌ وَعُمَّالَاتُ مِتْسَعَةٌ . تَشْتَمِلُ عَلَى طَلَيْطَلَةَ ، وَقَشْتَالَةَ ، وَإِشْبِيلِيَّةَ ، وَبَلَنْسِيَّةَ ، وَقَرْطَاجِنَةَ ، وَبِيَّانَ ، وَجَلْقِيَّةَ ، وَسَائِرِ أَعْمَالِهَا .

(١) ضبطها ياقوت عن الحميدى بضم الطاء بن رفيع اللامين ثم قال وأكثر ما سمعناه عن المغاربة ضم الأولى وكسر الثانية . وكذلك ضبطه المؤلف فيما تقدم في جزءه . فليتب .

الثاني - صاحب أشبونة وما معناها، وتسمى البرتقال، ومملكته صغيرة واقعة في الجانب الغربي عرّضاً له، تشمل على أشبونة وغرب الأندلس .

الثالث - صاحب برشلونة، وأرغون، وشاطبة، وسرقسطة، وبلنسية^(١)، وجزيرة دانية، وميورقة .

الرابع - صاحب بيرة : وهي بين عمالات قشتالة، وعمالات برشلونة، وقاعدته مدينة يبلونة، ويقال لملكها ملك البشكنس . ووراء هؤلاء بالأرض الكبيرة صاحب إفرنسة التي هي أصل مملكة الفرنج كما تقدم في الكلام على المسالك والممالك، وملكها يقال له الريد إفرنس . قال في "التعريف" : وهو الملك الكبير المطاع؛ وإنما الأدفونش هو صاحب السطوة، وذكره أشهر في المغرب لقربه منهم، وبعد الريد إفرنس .

والمكاتب منهم ملكان :

الأول - الأدفونش المبدأ بذكره . قال في "التعريف" : وبيده جمهور الأندلس، وبسيوفه فيبت حجاجها الشمس، وهو وارث ملك لذريق، ولذريق هذا الذي أشار إليه في "التعريف" هو الذي آتت عنها المسلمون من يده حين الفتح في صدر الإسلام . قال صاحب "التعريف" : وحدثني رسول الأدفونش بتعريف ترجمان موثوق به من أهل العدالة يسمى صلاح الدين ترجمان الناصري : أن الأدفونش من ولد هرقل المفتوح منه الشام، وأن الكتاب الشريف النبوي الوارد على هرقل متوارث عندهم مصون، يلف بالديباج والأطلس، ويدنحراً أكثر من ادخار الجواهر والأعلاق، وهو إلى الآن عندهم لا يخرج، ولا يسمح بإخراجه،

(١) هي بلنسية المتقدمة إنييت إلى بلنسية بها بعد .

يُنظر فيه بعين الإيجاز ، ويكرّمونه غاية الكرامة ، بوصية توارثها منهم كابر عن كابر
وخلف عن سلف .

قال : وكان الأدفونش من قوى طمعه في بلاد مصر والشام في أخرى الليالي الأيام
الفاطمية . ثم قال : ومكاتبته متواصلة ، والرّسل بيننا وبينه ما تنقطع على سوء
مقاصده ، وخبث سرّه وعلايته ، أهدى مرّة إلى السلطان سيفاً طويلاً وثوباً بندقياً
وطارقةً طويلةً دقيقةً ، تشبه النعش ، وفي هذا مالا يخفى من أستفتاح باب الشر
والتصریح المعروف بالكناية ، فكان الجواب أن أرسل إليه جبل أسود وحجر ، أى
إنه كلب إن رُبط بالحبل وإلا رمى بالحجر .

قال في "التعريف" : ورسم المكاتبه إليه أطال الله بقاء الحضرة السامية ، حضرة
الملك الجليل ، الهام ، الأسد ، الباسل ، الضرغام ، الغضنفر ، بقية سلف قيصر ،
حامى حماة بنى الأصفر ، المنع السلوك ، وارث لذريق وذرارى الملوك ، فارس
البر والبحر ، ملك طليطلة وما يليها ، بطل النصرانية ، عماد بنى المعمودية ، حامل
راية المسيحية ، وارث التيجان شبيه مريحنا المعمدان ، محب المسلمين ، صديق
الملوك والسلاطين .

دعاء وصدر يليقان به

وكفاه شر نفسه ، وجناه ثمر غرسه ، ووقاه فعل يوم يجر عليه مثل أمسه ، وأراه
مقدار النعمة بالبحر الذى تمنع بسوره وتوقى برسه .

أصدراها إليه وجند الله لا يمنعه مانع ، ولا يضربهم في الله ما هو جامع ، ولا يبألون
أكتاب يخلقونها أم كتباً ، وجداول تعرض لهم أم بحار لا تقطعها إلا وثباً .

أخسر : ووقاه بنوفقه تلاف المهج . وكفاه بأس كل أسد لم يبيح ، وحما من
شرفته لا يبيل البحر الذى تحصن به أخبارها من الرجوع .

أصدرناها إليه وأسنتنا لا تُرد عن نحر ، وأعتتنا لا تُصد بسور ولو ضرب من وراء البحر .

قلت : وينبغي أن تكون في قطع النصف .

الثاني - صاحب برّحلونة ، وهم في "التثيف" فجعله هو الأدفونش المقدم ذكره . وقال : إنه يلقب أطفونش ، دون حاكم . ثم قال : وهم طائفة الكيتلان ورسم المكاتبه إليه في قطع النصف بقلم الثلث الكبير «^(١) أدام الله تعالى بيحة الحضرة الموقرة ، الملك الجليل ، المكرم ، المبجل ، الخطير ، البطل ، الباسل ، الهمام ، الضرغام ، الريدارغون ، فلان ، نصير النصرانية ، نخر الأمة العيسوية ، ذنر الملة المسيحية ، حامى الثغور ، ممتلك السواحل والبحور ، عماد المعمودية ، ظهير بابا روميه ، ملاذ الفرسان ، جمال التخوت والتيجان ، صديق الملوك والسلاطين ، صاحب برّحلونة » .

قال في "التعريف" : أما الريد فرنس فلم يرد له إلا رسول واحد ، أبرق وأرعد ، وجاء يطلب بيت المقدس على أنه يفتح له ساحل قيسارية أو عسقلان ، ويكون للإسلام بهما ولاية مع ولاته ، والبلاد مناصفة ، ومساجد المسلمين قائمة ، وإدرات قومها دارة ، على أنه يبذل مائتي ألف دينار تعجل وتعمل في [كل] سنة ، نظير ^(٢) دخل [نصف] البلاد التي يتسلمها على معدل ثلاث سنين ، ويطرف في كل سنة بغرائب التحف والهدايا . وحسن هذا كتاب من كتبة القبط ، كانوا صاروا رؤوساً في الدولة بعائم بيض وسراير سود ، وهم أعداء زرق ، يجرعون الموت الأحمر ، وعملوا على تمشية هذا القصد و [ان] سرى في البدن هذا السم ، وتطلب له الدرياق فعز .

(١) مراده الکت التثيف .

(٢) أريادة من "التعريف" ص ٦٣ .

وقالوا : هذا مالٌ جليلٌ معجَّلٌ ثم ماذا عسى أن يكون منهم وهم نُقْطَةٌ في بحرٍ،
وحصاةٌ في دَهْنَاءَ .

قال : وبلغ هذا أبي رحمه الله، فألى أن يُجَاهِرَ في هذا، ويجاهدَ بما أمكنه،
ويدافعَ بمهما قَدَرَ عليه، ولو لاوى السلطانَ على رأيه إن أصغى إلى أولئك الأفكّة؛
وقال لي : تقوم معي وتكلم، ولو خُضِبَتْ منا ثيابنا بالدم، وراسلنا قاضيَ القضاة
القزويني الخطيب، فأجاب وأجاد الاستعداد؛ فلما بكرنا إلى الخِدمة وحضرنا بين
يدي السلطان بدار العدل، حضرت الرسل، وكان بعضُ أولئك الكتبة حاضراً،
فاستعدَّ لأن يتكلم؛ وكذلك استعدينا نحن : فما استتم كلامهم حتى غَضِبَ السلطانُ
وحَمَى غضبه، وكاد ينضرم عليهم حطبُه، ويتعجَّل لهم عطْبُه، وأسكتَ ذلك المنافقُ
بخزيتِه، وسكتنا نحن اِكْتِفَاءً بما بلغه السلطان مما رده بخبيته؛ فصدَّ ذلك
الشیطانُ وكفى الله المؤمنين القتال؛ وردت على راميها النصال . وكان الذي قاله
السلطان : والكم أنتم عرَقتم ما لقيتم نوبة دِمياط من عسكر الملك الصالح، وكانوا
جماعة أكرادٍ ملفقةٍ مجعته؛ وما كان بعد هؤلاء الترك؛ وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال
التتر؛ ونحن اليوم بحمد الله تعالى صلح^(١) [نحن وإياهم] من جنسٍ واحدٍ ما يتخلى بعضه
عن بعض، وما كنا نريد إلا الابتداء؛ فأما الآن فتحصلوا وتعالوا، وإن لم تجوا
فنحن نجيمك ولو أننا نخوض البحر بالخيول؛ والكم صارت لكم السنة تذكرون بها
القدس؛ والله ما ينال أحد منكم منه ترابَةٌ إلا ما تسفيه الرياح عليه وهو مصلوب !
وصرخ فيهم صرخةً زعزعت قواهم، وردهم أقبح رد، ولم يقرأ لهم كتاباً، ولا رد
عليهم سوى هذا جواباً .

(١) الزيادة من "التعريف" .

قلت : فإن اتفق أن يكتب إلى الرّيد إفرنس المذكور فتكون المكاتبة إليه مثل
المكاتبة إلى الأدفونش أو أجل من ذلك .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الرَّيْدَ فَرَنْسَ هُوَ الَّذِي قَصَدَ الدِّيَارَ الْمَصْرِيَّةَ بِمَوَاطَاةِ الْأَدْفُونَشِ : صَاحِبِ
طُلَيْطَلَةَ الْمُقَدَّمِ ذَكَرَهُ ، وَمَلَكُوا دِمِيَاطَ ، وَكَانَتِ الْوَاقِعَةُ بَيْنَهُمْ فِي الدَّوْلَةِ الْأَيُوبِيَّةِ
فِي أَيَّامِ الصَّالِحِ أَيُّوبَ ، وَأَخَذَ الرَّيْدَ فَرَنْسَ وَأَمْسِكَ وَحَبَسَ بِالْدارِ الَّتِي كَانَ يَنْزِلُهَا
نُحْرُ الدِّينِ بْنِ لُقْمَانَ : صَاحِبِ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ ، بِالْمَنْصُورَةِ ، وَرُسِمَ عَلَيْهِ الطَّوَاشِي
صَبِيحَ ، ثُمَّ نَفَّسَ عَنْهُ ، وَأَطْلَقَ لِأَمْرٍ قَرَّرَ عَلَيْهِ ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ جَمَالَ الدِّينِ بْنِ مَطْرُوحٍ
أَبْيَاتُهُ الْمَشْهُورَةُ وَهِيَ :

[قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جِئْتَهُ * مَقَالَ صِدْقٍ مِنْ قَوْلِ نَصُوحِ
أَتَيْتَ مِصْرًا تَبْتَنِي مُلْكُهَا * تَحْسَبُ أَنَّ الزَّمْرَ يَا طَبْلُ رِيحِ
وَكُلَّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعْتَهُمْ * بِحَسْنِ تَدْبِيرِكَ بَطْنِ الضَّرِيحِ
خَمْسِينَ أَلْفًا لَأَتْرَى مِنْهُمْ * غَيْرَ قَيْلٍ أَوْ أُسِيرَ جَرِيحِ
وَفَقَّكَ اللَّهُ لِأَمْثَالِهَا * لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحُ
أَجْرَكَ اللَّهُ عَلَى مَا جَرَى * أَفْنَيْتَ عِبَادَ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
فَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْمَرُوا عَوْدَةً * لِأَخْذِ ثَارٍ أَوْ لِقْصِدِ صَبِيحِ :
دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا * وَالْقَيْدُ بَاقٍ وَالطَّوَاشِي صَبِيحِ^(١)

(١) بيض لهذه الأبيات في الاصل وقتلاها منا تقدم في ج ٥

المقصد الثالث

(في المكتبة إلى ملوك الكفار بالجانب الجنوبي)

والمكاتب بهذا الجانب منهم ملكان :

الأول - صاحب أحمرا : ملك ملوك الحبشة ، ولقبه عندهم حطى - بفتح الحاء وكسر الطاء المشددة المهملتين ، سمة على كل من ملك عليهم منهم .

قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنه نصراني يعقوبي ، يحكم على تسعة وتسعين ملكا ، منهم سبعة مسلمون ، وهم صاحب وفات ، وصاحب دوارو ، وصاحب أرايبي ، وصاحب شرخا ، وصاحب هدية ، وصاحب بآلي ، وصاحب داره ، وأنه لولا أن معتقد دين النصرانية لطائفة اليعاقبة أنه لا يصح تعدد معمودي إلا باتصال من البطريك ، وأن كرسي البطريك كنيسة الإسكندرية فيحتاج إلى أخذ مطران بعد مطران من عنده ، لشمخ بأنفه عن المكتبة ، لكنه مضطر إلى ذلك .

قال في " التعريف " ورسم المكتبة إليه :

أطال الله بقاء الحضرة العالية ، الملك ، الجليل ، الهام ، الضرغام ، الأسد ، الغضنفر ، الخطير ، الباسل ، السמידع ، العالم في ملته ، العادل في مملكته ، المنصف لرعيته ، المستمع لما يجب في أفضيته ، عز الملة النصرانية ، ناصر الملة المسيحية ، ركن الأمة العيسوية ، عماد بني المعمودية ، حافظ البلاد الجنوبية ، متبع الحواريين ، والأخبار الربانيين ، والبطاركة القديسين ، معظم كنيسة صهيون ، أوجد ملوك يعقوبية ، صديق الملوك والسلاطين . ويدعى له دعاء مفخما يليق به .

وهذا دعاء وصدر يليقان به، ذكرهما في "التعريف" :
وأظهر فضله على من يدانيه من كل ملك هو بالتاج معتصب، ولكف الججاج
بالعدل منتصب، ولقطع حجاج كل معاند بالحق معتصراً وللحق معتصب .
صدرت هذه المفاوضة إلى حضرته العلية ومن حضرة القدس سراها، ومن
أسرة الملك القديم سراها، وعلى صفاء تلك السرية الصافية ترد وإن لم يكن بها
غليل، وإلى ذلك الصديق الصدوق [المسيحي] اتصل، وإن لم تكن بعثت إلا من
تلقاء الخليل .

ولم يذكر القطع الذي يكتب إليه فيه . أما في "التثقيف" : فإنه ذكر أنه
يُكتب إليه في قطع الثلث بقلم التوقيعات مانصه :

أطال الله بقاء الملك، الخليل، المكرم، الخطير، الأسد، الضرعام، الهام،
الباسل، فلان بن فلان، العالم في ملته، العادل في مملكته، حطى ملك أمحرا، أكبر
ملوك الحبشان، نجاشي عصره، سند الملة المسيحية، عضد دين النصرانية، عماد بني
المعمودية، صديق الملوك والسلاطين، والدعاء، وتعريفه «صاحب الحبشة» .

قال : فإن كانت المكاتبه جواباً، صدر الكتاب إليه بما صورته : ورد كتاب الملك
الخليل، ويذكر بقية المكاتبه . ثم قال : وهذه المكاتبه هي التي استقر عليها الحال عند
ما كتب جوابه في التاسع من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وسبعائة .



وهذه نسخة جواب كتاب ورد عن صاحب الحبشة من سلطنة الملك المظفر
صاحب اليمن، على الملك «الظاهر بيبرس» رحمه الله، بطلب مطران يقيمهم
البطرك، مما كتب به القاضي محي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهي :

ورد كتابُ الملك، الجليل، الهمام، العادل في ملته، حطّى ملك أمّحرا أكبر ملوك
 الحُبشان، الحاكم على ما هم من البلدان، نجاشي عصره، صديق الملوك والسلاطين،
 سلطان الأمّحرا حرس الله نفسه، وبني على الخير أسه، فوقفنا عليه وفهمنا ماتضمنه :
 فاما طلب المطران فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الغرض المطلوب،
 وإنما كتابُ السلطان الملك المظفر صاحب اليمن ورد مضمونه أنه وصل من جهة
 الملك كتابٌ وقاصد، وأنه أقام عنده حتى يسير إليه الجواب . وأما ما ذكره من كثرة
 عساكره ، وأن من حملها مائة ألف فارس مسلمين ، فالله تعالى يكثر في عساكر
 الإسلام . وأما وخم بلاده فالآجال مقدّرة من الله تعالى، ولا يموت أحدٌ إلا بأجله،
 ومن فرغ أجله مات .

وأعلم أنّ العادة جرت أنه كلما كتبت إليه كتابٌ عن الأبواب السلطانية كتب
 قرينه كتابٌ عن البطريرك . قال في "التعريف" : ولأوامر البطريرك عنده
 ما لشرعيته من الحرمة ، وإذا كتب كتابا فاتى ذلك الكتابُ أول مملكته ، نخرج
 عميدُ تلك الأرض فحمل الكتابَ على رأس علم ، ولا يزال يحمله بيده حتى يُخرجه
 من أرضه ، وأربابُ الديانة في تلك الأرض : كالفُسوس والشامسة حوله مشاةٌ
 بالأدخنة ، فإذا نرجوا من حد أرضهم تلقاهم من يليهم أبدا كذلك في كل أرض
 بعد أرض حتى يصلوا إلى أمّحرا، فيخرج صاحبها بنفسه ، ويفعل مثل ذلك الفعل
 الأول ؛ إلا أنّ المطران هو الذي يحمل الكتابَ لعظّمته لا لتأبى الملك . ثم لا يتصرف
 الملك في أمر ولا نهى ، ولا قليل ولا كثير، حتى ينادى للكتاب ، ويجمع له يوم الأحد
 في الكنيسة ، ويُقرأُ والملك واقف ، ثم لا يجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمره به .

الثاني - صاحب دُنُقلة . قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك
 أن دُنُقلة هي قاعدة مملكة النوبة، وأنها كانت في الأصل يكون ملكها من نصارى

النوبة، ومعتقدهم معتقد اليعاقبة، وأنه ربما غلب عليها بعض المسلمين من العرب فلنگها، وقد تقدم ذكر المكاتبه إلى صاحبها إذا كان مسلماً، أما إذا كان نصرانياً فقد ذكر في "التثقيف" أن المكاتبه إليه: هذه المكاتبه إلى النائب، الجليل، المبجل، الموقر، الأسد، الباسل، فلان، مجد الملة المسيحية، كبير الطائفة الصليبية، غرس الملوك والسلاطين، والدعاء، وتعريفه «النائب بدنقله».

المقصد الرابع

(في المكاتبه إلى ملوك الكفار بالجناب الشمالى من الروم والفرنجية على اختلاف أجناسهم، وجميعهم معتقدهم معتقد الملكانية)

وجملة ما ذكر من المكاتبات في "التعريف" و"التثقيف" اثنتا عشرة مكاتبه:

الأولى - مكاتبه الباب، وهو بطريرك الملكية، القائم عندهم مقام الخليفة، والعجب من جعله في "التثقيف" بمنزلة القان عند التتار، والقان إنما هو بمنزلة ملكهم الأكبر، والباب ليس من هذا القبيل، بل إليه أمر الديانة حتى في التحليل والتحريم.

وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البطاركة أنهم كانوا يُسمون القسيس ونحوه أباً، ويُسمون البطريرك أباً، فأحبوا أن يأتوا على البطريرك بسمة له تميزه عن غيره من الآباء، فاختاروا له لفظ الأب، وأنه يقال فيه الباب والبابا ومعناه أبو الآباء، ثم لما غلب الروم على المملكة، وعلت كلمتهم على اليعاقبة، خصوا اسم الباب ببطريركهم، فصار ذلك علماً عليه، ومقره مدينة رومية على ما تقدم

(١) مراده أن يطلقوا على البطريرك سمة الخ.

هناك . ورسمُ المكتابة إليه على ما ذكره في ”التثقيف“ ضاعفَ اللهُ تعالى بهجةَ الحضرة السامية ؛ الباب الجليل ، القديس ؛ الروحاني ؛ الخاشع ، العامل ، ياباً رومية ؛ عظيم الملة المسيحية ، قُدوة الطائفة العيسوية ، مملكِ ملوكِ النصرانية ، حافظ الجُسور والخُلجان ، ملاذِ البطاركة والأساقفة والقُسوس والرهبان ، تالي الإنجيل ، معرف طائفته التحريم والتحليل ، صديق الملوك والسلاطين . والدعاء ، وصدرت هذه المكتابة .

قال في ”التثقيف“ : هذا ما وجدته مسطوراً ولم يكتب إليه شيء في مدة مباشرة ، ولا أدري في أي شيء كان يكتب إليه ولا عرفت تعريفه . ولم يتعرض له المقر الشهابي بن فضل الله في ”التعريف“ جملةً ، ورأيت في بعض الدساتير أنه لم يكتب إليه إلا مرة واحدة ، وأن الكتابة إليه في قطع النصف مع المكتابة المتقدمة .

الثانية – المكتابة إلى ملك الروم صاحب القُسطنطينية . قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك أنها صارت آخراً إلى بني الأشكرى ؛ فصار الأشكرى سمة لهم ملكاً بعد ملك . قال في ”التعريف“ وقد كان قبل غلبة الفرنج ملكاً جليلاً ، يرجع إليه من عبَاد الصليب سائر الملوك ، ويفتقر إليه منهم الغني والصعلوك ؛ وكتب التواريخ مشحونةً بأخباره ؛ وذكر وقائعه وآثاره ، وأول من ألبس هامته الذلّة ، وأصار جمعه إلى القلّة ، هارون الرشيد حين أغزاه أبوه المهدي إياه ، فأزال الشّم من أنفه ، وثنى جامع عطفه . فاما غزوات مسلمة بن عبد الملك ويزيد بن معاوية فإنها لم تبلغ فيه حدّ النكايه ؛ ولا أعظمت له الشكايه ؛ قال : وهذا الملك الآن كان السلطان (أزبك) قد كاد يبتزّ تاجه ، ويُعقم نتاجه ؛ ويُخجل من جانب البحر المغلق رتاجه ؛ فأحتاج إلى مداراته وبذل له نفائس المال ، وصحب أيامه على مَضض

الآحتمال، وكانت له عليه قطيعةٌ مقرّره، وجملةٌ مالٍ مقدّره؛ ثم عمّيت علينا بعده منهم الأخبار، وتولّى بالدنيا الإدبار .

ورسم المكاتبه إليه على ما ذكره في " التعريف " : ضاعف الله تعالى بهجة الحضرة العالية ، المكرمة ، حضرة الملك ، الجليل ، الخطير ، الهمام ، الأسد ، الغضنفر ، الباسل ، الضرغام ، المعرق ، الأصيل ، المجد ، الأثير ، الأثيل ، البلااوس ، الريدأرغون ، ضابط الممالك الرومية ، جامع البلاد الساحلية ، وارث القياصرة القدماء ، محي طرق الفلاسفة والحكماء ، العالم بأمور دينه ، العادل في مملكه ، معز النصرانية ، مؤيد المسيحية ، أوجد ملوك العيسويه ، مخول التخوت والتيجان ، حامى البحار والخلجان ، آخر ملوك اليونان ، ملك ملوك الشريان ، عماد بنى المعمودية ، رضى الباب بابا رومية ، ثقة الأصدقاء ، صديق المسلمين ، أسوة الملوك والسلاطين . ثم يكتب اسمه هنا ويدعى له ؛ ولم يذكر قطع الورق الذى يكتب إليه فيه .

وهذا دعاء وصدر يليقان به ، أوردهما فى التعريف .

وجعل له من السلامة^(١) يدا لا ترغزعه من أوطانه ، ولا تنزعه من سلطانته ، ولا توجب له إلا استقرارا لتيجانه ، واستقرارا بملكه على مادارت على حصونه مناطق خلجانه ، ولا برحت شمار الود تدنو من أفنائه ، ومواثيق العهد تبوى له مايسر به من إشادة معالم سلفه وشد بناء يونانه : أصدرناها ، وشكره بكاره البحر لا يوقف له على آحر ، ولا يوصف مثل عقده الفاجر ، ولا يكثر إلا قيل : أين هذا القليل من هذا الزاجر .

(١) فى التعريف « مع الإسلام » .

آخِرُ لَهُ : وَنَظْمٌ سَلَكَ ، وَحَمِيٌّ بِحُسْنِ تَأْتِيهِ مُلْكُهُ ، وَكَفَىٰ مُجِبَّهُ هُلْكُهُ ،
وَأَجْرِي بُوْدَهُ رِكَابُهُ وَقُلْكُهُ ، وَوَقَاهُ كَذِبَ الْكَاذِبِ وَكَفَّ إِفْكَهُ ، وَأَشْهَدُ عَلَىٰ وَدِّهِ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا جَنَّ كَافُورٌ هَذَا كَافُورُهُ وَلَا مَسْكَ هَذَا مِسْكُهُ .

قلت : هذا الدعاء والصدور وإن أوردته في "التعريف" في جملة الأدعية له
والصدور ، فإنه منحط الرتبة عن المكاتبة السابقة ؛ اللهم إلا أن يُخصَّصَ هذا بحالة
مناذرة أو تهديد ، ونحو ذلك .

وذكر في "التثقيف" أن الذي استقر عليه الحال في المكاتبة إليه أنه يُكتب إليه
في قطع النصف ما نصه : ضاعف الله تعالى [بهجة ^(١)] حضرة الملك الجليل ،
المكرم ، المبجل ، الأسد ، الخطير ، البطل ، الباسل ، الهمام ، الضرعام ، فلان ،
العالم في ملته ، العادل في أهل مملكته ، عز الأمة المسيحية ، كبير الطائفة الصليبية ،
جمال بني العمودية ، صمصام الملوك اليونانية ، حسام الملكة الماكسونية ،
مالك اليرغلية والاملاحية ، صاحب أمصار الروس والعلان ، معز اعتقاد الكرج
والسريان ، وارث الأسرة والتيجان ، الحاكم على الثغور والبحور والخلجان ، الضوقس
الأنجالوس الكنينوس البالالوغس ، صديق الملوك والسلاطين ؛ ثم الدعاء .
صدرت هذه المكاتبة إلى حضرته تشكر مولاته ، (ومن هذه المادة) وتوضَّح
لعلمه السعيد .

ورأيت في بعض الدساتير أنه يختمها بقوله : فيحيط بذلك علما ، والله تعالى
يديم بهجته .

(١) مقتبسة من "التعريف" لصحة الكلام .

قال في "التثقيف" : وتعريفه « ضابط مملكة الروم » وذكر أن هذه المكاتبه هي المتداوله بديوان الإنشاء بين كُتابه ، وأنه هو كُتب بها إليه ، ولم يتعرض لإيراد المكاتبه التي ذكرها في "التعريف" بل أحال في معرفتها لمن أرادها على النظر فيه .

الثالثه - المكاتبه إلى حُكَّام جنوة : وهم جماعة متفاوتو المراتب ، وهم : البودشطا ، والكبطان ، والمشايخ . ورسم المكاتبه إليهم على ما ذكره في "التثقيف" في قطع الثلث :

صدرت هذه المكاتبه إلى حضرة البودشطا والكبطان الجليلين ، المكرمين ، الموقرين ، المبجلين ، الخطيرين ، فلان وفلان ، والمشايخ الأكارب المحترمين ، أصحاب الرأي والمشورة ، الكمنون بجنوه^(١) ، أمجاد الأئمة المسيحية ، أكابر دين النصرانية ، أصدقاء الملوك والسلطين ، ألهمهم الله تعالى رُشدهم ، وقرن بالخير قُصدهم ، وجعل النصيحة عندهم . تتضمن إعلامهم كذا وكذا . وتعريفهم «الحُكَّام بجنوة» .

قال في "التثقيف" والذي أستقر عليه الحال آخرا في مفتح سنة سبع وستين وسبعائة إبطال المكاتبه إلى البودشطا والكبطان ، بحكم أنهما أبطالا ، وأستقر [ت مكاتبه] الدوج مكانهما بما نصه :

صدرت هذه المكاتبه إلى الدوج الجليل ، المكرم ، المبجل ، الموقر ، الخطير ، فلان ، والمشايخ ، والباقي على ما تقدم ذكره .

قلت : هكذا هو في "التثقيف" بدال وواو وجيم ، والمعروف إبدال الجيم في آخره كانا على ماسياتي ذكره في الكلام على صاحب البندقية على الأثر .

(١) لعله الخاكون بجنوة .

وأعلم أنه قد ذكر في "التثقيف" أنه كان لصاحب جنوة مُقَدِّم على الشَّوَانِي بِقُبْرَسَ ، وقيل إنه كان بالماغوصة ، وأنه كتب إليه في رمضان جواباً عما ورد عنه في قَطْع العادة مانصه :

وردت مكاتبة الْمُحْتَشِمِ ، الجليل ، المَبْجَلِ ، الموقر ، الاسد ، الباسل ، فلان ، مَجْدِ الملة المَسِيحِيَّةِ ، كبير الطائفة الصَّليبيَّةِ ، غرس الملوك والسلاطين ، ثم الدعاء . وتعريفه «مقدم الشَّوَانِي الجَنَوِيَّةِ بِقُبْرَسَ» .

الرابعة - المكاتبة إلى صاحب البُنْدُقيَّةِ . قال في "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه على ما استقر عليه الحال عند ما كتب إليه جوابه في شهر رجب سنة سبع وستين وسبعائة ، وهو يومئذ مَرَكْرِيَادُو في قطع الثلث :

وردت مكاتبة حضرة الدُّوَجِ ، الجليل ، المَكْرَمِ ، الخطير ، الباسل ، الموقر ، المَفْعَمِ ، مَرَكْرِيَادُو نَحْرِ الملة المَسِيحِيَّةِ ، جمال الطائفة الصَّليبيَّةِ ، دُوجِ البُنْدُقيَّةِ والمانسية ، دوج كرال دين بنى المعمودية ، صديق الملوك والسلاطين ، والدعاء . وتعريفه «صاحب البندقية» : ثم ذكر بعد ذلك نقلا عن خط القاضي ناصر الدين ابن النشائي أنه كتب في الجواب إلى دُوكِ البنادقة :

وردت مطالعة دُوكِ الجليل ، المَكْرَمِ ، المَبْجَلِ ، الموقر ، البطل ، الهمام ، الضَّرْغَامِ ، الغَضَنَفَرِ ، الخطير ، مجدِ الملة النَّصْرَانِيَّةِ ، نَحْرِ الأُمَّةِ العيسويَّةِ ، عماد بنى المعمودية ، معزَّ يَابَا رُوميَّةِ ، صديق الملوك والسلاطين ، دُوكِ البنادقة ، وديارقة ، والرُّومَانَا ، والإصطَبُوبِيَّةِ . ثم قال : ولم يذكر تعريفه ولا قَطْعِ الورق الذي يُكْتَبُ إليه فيه ، ثم نقل عنه أيضا أن المكاتبة إلى دُوكِ البُنْدُقيَّةِ : هذه المكاتبة إلى حضرة الْمُحْتَشِمِ ، الجليل ، المَبْجَلِ ، الموقر ، المَكْرَمِ ، المَفْعَمِ ، الباسل ، الضَّرْغَامِ ، فلان ،

عزَّ الأَمة المَسيحيَّة ، جمالِ الطائفة العيسويَّة ، ذُخر الملة الصليبية ، صديق الملوك والسلاطين . ثم قال : هكذا رأيتُه من غير ذكر تعريفه ولا القَطع الذي يكتب إليه فيه . قال : وما يبعدُ أنه غيرُ الأَول ولم يزد على ذلك .

قلت : ومقتضى ما ذكره من جميع ذلك أن الدوك غيرُ المَلِكِ نَفْسِه . على أن المكاتبه الأولى والثانية في الجواب متقاربتان . أما المكاتبه الثالثة فمنحطة عن الأَولتين . على أنه قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البندقيَّة نقلا عن ابن سعيد أن مَلِكِ البنادقة يقال له الدوك بضم الدال المهملة وواو وكاف في الآخر ، وهذا مما يحتاج إلى تحرير ؛ فإن كان الدوك هو المَلِكِ فتكون المكاتبه إليه اختلفت باختلاف الحال ، أو باختلاف غرض الكُتاب ، أو عدم آطلاعهم على حقيقة الأقدار والوقوف مع ما يُلْقَى إليهم من المزاحمة في كل وقت وهو الظاهر .

الخامسة — المكاتبه إلى صاحب سنوب ، من سواحل بلاد الروم ، قبل أن تفتح ويستولي عليها التُركان . قال في "التعريف" وهي على ضفة الخليج القُسطنطينيَّة ، وملكها روميٌّ من بيت المَلِكِ القديم ، من أقارب صاحب القُسطنطينيَّة . قال : ويقال إن أباه أعرق من آبائه في السلطان . قال : ولكن ليس ملكه بكبير ، ولا عدده بكثير ، ويكونُ بينه وبين أمراء الأتراك حروب ، يكون في أكثرها المغلوب . وذكر أن رسم المكاتبه إليه مثلُ مَمَلَكِ سيس ، فتكون على ما ذكره في مكاتبه مَمَلَكِ سيس :

صدرت هذه المكاتبه إلى حضرة المَلِكِ ، الجليل ، البطل ، الباسل ، الهمام ، السَميدع ، الضرغام ، الفضنفر ، فلان ؛ نخر الملة المَسيحيَّة ، ذُخر الأَمة النُصرانيَّة ، عماد بني المعمودية ، صديق الملوك والسلاطين .

وهذا دعاء يليق به، ذكره في "التعريف" :

وكفاه شر ما ينوب ، وروح خاطره في الشمال برّياً ما يهب من الجنوب ، ووقاه
سوءَ فعلٍ يورث الندم وأول ما يقرع السنّ سنوب .

السادسة - المكتبة إلى صاحب البلغار والسرب . قد تقدم في الكلام على
المكتبات إلى ملوك الإسلام بالجانب الشمالي نقلاً عن "التعريف" ما يقتضى أن
ملكها مسلم ، وذكرت مكاتبته الإسلامية هناك ، وعلى ذلك أقصر في "التعريف"
وتقدم النقل عن "مسالك الأبصار" أنها صارت إلى ملوك النصرانية ، وعليه أقصر
في "التثقيف" وهو المراد هنا .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التثقيف" نقلاً عن ابن النشائي في قطع
الثالث ما نصه :

أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك ، الجليل ، المكرّم ، المبجل ، الهام ، الضرغام ،
الباسل ، الدوقس ، الأنجالوس ، الكنينوس ، فلان ، عماد النصرانية ، مالك السرب
والبلغار ، نحر الأمة العيسويه ، ذخر الملة المسيحية ، فارس البحور ، حامى الحصون
والثغور . والدعاء ، أصدرنا هذه المكتبة ، وتعريفه «صاحب البلغار» .

وأعلم أنه في "التثقيف" بعد أن أورد المكتبة المتقدمة لصاحب السرب والبلغار ،
نقلاً عن ابن النشائي ذكر نقلاً عنه أيضاً أن المكتبة إلى صاحب السرب في قطع
الثالث نظير ممتلك سيس ، فتكون المكتبة إليه على ما تقدم أنه الذي استقر عليه الحال
في المكتبة لممتلك سيس

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك ، الجليل ، المكرّم ، المبجل ، المعزز ،
الهام ، الباسل ، فلان ، عزّ دين النصرانية ، كبير الطائفة الصليبية ، عماد بني

(١) أى البلد التي هي عاصمة ملكه .

المعمودية، صديق الملوك والسلاطين، أدام الله نعمته، وحرس مهجته، تعلمه كذا وكذا، وتعريفه «صاحب السرب» .

ثم قال : ولم أدر هل يجتمعان لشخص واحد تارة فيكون بهما آثان تارة وواحد تارة أم لا . ثم قال : على أنه لو كان الأمر كذلك لكان يتعين أن يذكر مكاتبه صاحب البغار وحده مفرداً كما ذكر مكاتبه صاحب السرب وحده مفرداً .

قلت : كلا الأمرين محتملٌ، فيجوز أنهما كانا مجتمعين لواحد، وأنه كتب تعريفه بالإضافة إلى أحدهما استغناءً به عن الآخر، أو أنه كتب إلى صاحب السرب بمفرده، ولم يحط رتبته في قطع الورق عن رتبة من اجتماعه، ولا يلزم من ذلك أنه كان يكتب لصاحب البغار بمفرده لاحتمال أنه لم يكتب إليه شيء حينئذ، وبالجملة فهذا أمر راجع إلى النقل .

السابعة - المكاتبه إلى ملك رودس . قال في "التعريف" وهي جزيرة تقابل شطوط البلاد الرومية . قال : وأهلها في البحر حرامية، إذا ظفروا بالمسلم، أخذوا ماله، وأحيوه، وباعوه أو استخدموه؛ وإذا ظفروا بالفرنجي، أخذوا ماله وقتلوه .

ورسم المكاتبه إليه مثل ممتلك سيس، إلا أنه لا يقال فيه معزاً بابا رومية، وتختصر بعض ألقابه لأنه دونه، وحينئذ فيتجه أن تكون المكاتبه إليه :

صدرت هذه المكاتبه إلى حضرة الملك الجليل، البطل، الباسل، السميع، فلان، نخر الملة المسيحية. ذكر الأمة النصرانية، صديق الملوك والسلاطين، أونحو ذلك . على أنه في "التعريف" لم يذكر في المكاتبه إلى ممتلك سيس، معزاً بابا رومية؛ فلم يكن ليجتاج أن يقول : إلا أنه لا يقال فيه معزاً بابا رومية

وهذا دعاء يليق به، ذكره في "التعريف" وهو
 قَدَّمَ اللهُ لَهُ الْأَعْذَارَ، وَكَفَاهُ قَوَامِعَ الْإِنْذَارِ، وَحَدَّرَهُ عَاقِبَةَ الْبَغْيِ قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعَ الْإِحْذَارُ .
 آخِرُ : فَكَ اللهُ مِنْ وَثَاقِهِ كُلِّ مَاسُورٍ، وَأَقَالَ كُلَّ غَرَابٍ لَهُ مِنَ الرَّجُوعِ
 وَجَنَاحُهُ مَكْسُورٌ، وَعَصَمَهُ بِالتَّوْبَةِ مِمَّا أَقْتَرَفَ، لَا بِالْبَحْرِ وَلَوْ أَنَّهُ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ، وَسُورِ
 مَدِينَتِهِ وَلَوْ أَنَّهُ مِائَةٌ سُورٍ .

الثامنة - المكتبة إلى صاحب جزيرة المصطكى . قال في "التعريف" : وهي
 جزيرة صغيرة لا تبعد مدى من الإسكندرية، وصاحبها صغير لا في مال ولا في رجال؛
 وجزيرته ذات قحط لا يطير شاربها بزرق، ولا يدرك حالها بضرع؛ إلا أنها تنبت
 هذه الشجرة فتحمل منها وتجلب، وترسى السفن عليها بسببها وتطلب؛ قال :
 وفي ملكها خدمة لرسلنا إذا ركبوا ثبج البحر، وتجهيز لهم إلى حيث أرادوا، وتجهيز
 لهم إذا توجهوا وإذا عادوا . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" كالمكتبة
 إلى صاحب جزيرة رودس المتقدمة الذكر آنفاً وهي :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك الجليل إلى آخر ما تقدم .

وهذه أدعية تليق به ذكرها في "التعريف" دعاء من ذلك، وفقه الله لطاعته،
 وأنهضه من الولاء بقدر طاقته .

آخِرُ : أَطَابَ اللهُ قَلْبَهُ، وَأَدَامَ إِلَيْنَا قُرْبَهُ .

آخِرُ : لَا زَالَ إِلَى الطَّاعَةِ يُبَادِرُ، وَعَلَى الْخِدْمَةِ أَنْهَضَ قَادِرٌ، وَمَكَانُهُ تَزِمُ
 إِلَيْهِ رَكَابُ السُّفُنِ بِكُلِّ وَارِدٍ وَصَادِرٍ .

التاسعة - المكتبة إلى منمك قبرس . وإنما قيل له منمك قبرس لأنها كانت
 قد فتحها المسلمون؛ ثم تغلب عليها النصارى وملكوها؛ فقيل لمن غلب عليها منمك

ولم يُقَل له ملك ؛ وذكر في "التثقيف" عن القاضي ناصر الدين بن النشائي أن
المكاتبة إليه [مثل] ممتلك سيس ولم يزد على ذلك ؛ وحينئذ فتكون المكاتبة إليه
مثل ما استقر عليه الحال في المكاتبة إلى ممتلك سيس في قطع العادة :

صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة الملك ، الجليل ، المكرم ، المبجل ، المعزز ،
الهام ، الباسل ، فلان ؛ عزّ دين النصرانية ، كبير الطائفة الصليبية ، عماد بنى
المعمودية ؛ صديق الملوك والسلاطين ؛ أدام الله نعمته ، وحرس مهجته . وتعريفه
« ممتلك قبرس » .

قال صاحب "التثقيف" : ولم أقف على مكاتبة إليه ابتداءً ولا جواباً سوى
ذلك ، إلا أنه كتب إليه عن الأمير الجاى البوسنى عند وقوع الصلح في سنة اثنتين
وستين وسبعائة ، يعنى عند ما كان الجاى أتاك العساكر المنصورة .

العاشرة - المكاتبة إلى ملك مونفراد . ذكر في "التثقيف" أنه كان بها
ابن ملك إصطنبول ، وأنه كتب إليه في سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة :

أصدرناها إلى حضرة الملك الجليل ، المكرم ، البطل ، الهام ، الأسد ،
الضرام ، فلان ؛ مجد النصرانية ، نجر العيسوية ، عماد بنى المعمودية ، جمال
الطائفتين الرومية والفرنجية ، ملك مونفراد ، وارث التاج ، معز الباب ،
أدام الله بقاه ، وحفظه ووقاه ، وأورثه من ابيه تحته وتاجه وولاه ؛ تتضمن
إعلامه كذا وكذا . ثم قال : هذا ما وجدته مسطوراً في رسم المكاتبة المذكورة ،
ولم يكتب إليه شيء في مدة مباشرتى ، ولم أدر ما تعريفه ، ولا في أى قطع يكتب
إليه . قال : والذي يظهر أنه يكتب إليه في قطع العادة ، وأن يكون تعريفه

« ملك مونفراد » .

الحادية عشرة - المكتبة إلى صاحبة نابل . وقد ذكر في "التثيف" أنه كان أسم صاحبها جوانا، وأنه كُتِب إليها في أواخر سنة ثلاث وسبعين وسبعائة ماصورته :

صدرت هذه المكتبة إلى الملكة، الجليلة، المكرمة، المبجلة، الموقرة، المفخمة، المعززة، فلانة، العالمة في ملتها، العادلة في مملكها، كبيرة دين النصرانية، بصيرة الأئمة العيسويه، حامية الثغور، صديقة الملوك والسلاطين . ثم الدعاء، تتضمن اعلامها، وتعريفها «صاحبة نابل» ولم يذكر قطع الورق لمكتبتها، ولا خفاء أنه يكتب إليها في قطع العادة لصغر مقامها .

قلت : فإن ولي مملكها رجل، فينبغي أن يكتب إليه بهذه المكتبة على التذكير أو أعلى من ذلك، لميزة الرجال على النساء . وهؤلاء جملة من تعرض إلى مكاتبته في "التعريف" و"التثيف" من ملوك الكفرة، فإن أتفتت المكتبة إلى أحد سواهم فليقس على من هو مثله منهم . ثم قد ذكر في "التثيف" القنصل بكفا، وذكر أنها جارية في حكم جنوة، وأنه لم يكتب إليه شيء عن المواقف الشريفة، ولا خفاء في ذلك، فإن مقام القنصل دون أن يكتب عن الأبواب السلطانية .

الفصل الخامس

من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في الكتب الواردة على الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية؛

من جرت العادة بمكاتبة إليها من أهل المملكة وغيرها من

سائر الممالك المكاتبية عن هذه المملكة؛ وهي نوعان)

النوع الأول

(المكاتبات الواردة عن ملوك المسلمين ، وهي على قسمين)

القسم الأول - في الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة ، بالديار المصرية ،
والبلاد الشامية ، ممن يؤهل للمكاتبة إلى الأبواب السلطانية ، من التواب وغيرهم :
من الأمراء ، وأرباب الأقاليم : من الوزراء ، والعلماء ومن في معنابهم ؛ وهم على
ضريين :

الضرب الأول

في المطالعات الواردة عن أكابر أهل الدولة بالديار المصرية

والبلاد الشامية : من التواب ومن في معنابهم)

قد جرت عادة من يكتب إلى الأبواب السلطانية من أهل هذه المرتبة ، أن
يكتب جميعهم كتبهم في قطع العادة ؛ فإن كان بالديار المصرية فمن الورق البلدي ،
وإن كان بالبلاد الشامية فمن الورق الشامي ، وجميع ذلك في الورق الأبيض ، إلا
نائب الشام ونائب الكرك ، فإنهما قد جرت العادة فيهما بأنهما يكتبان إلى الأبواب
السلطانية في الورق الأحمر الشامي . شيء آختصابه دون سائر أهل المملكة .

ثم قد ذكر في "عرف التعريف" أن الملوك لا يكتب إليهم إلا «يقبل الأرض»
 ويُنهي . ويختم الكتاب بما صورته : طالع الملوك بذلك وللآراء العالية مزيد العلو،
 أو أنهى الملوك ذلك وللآراء العالية مزيد العلو، والعنوان «الملكي الفلاني» ، مطالعة
 الملوك فلان » وحينئذ فالذي جرت به العادة في ذلك أن يتدئ الكاتب فيكتب
 فهرست الكتاب في رأس الدرج من جهة وجهه ، في عرض إصبع ، في الجانب الأيمن
 « إلى الأبواب الشريفة » وفي الجانب الأيسر « بسبب كذا وكذا » ثم يقبُ الدَّرج
 ويكتب في ظاهره ، بعد ترك ما كتبت الفهرست في باطنه ، العنوان ؛ فيكتب :
 «الملكي الفلاني» في أول العنوان ، و«مطالعة الملوك فلان» في آخره . ثم بعد ذلك
 يقبُ الدَّرج ، ويترك وصلًا أبيض ، ويكتبُ البسمة في رأس الوصل الثاني بعد
 خلو هاميش من الجانب الأيمن . ثم يكتبُ تحت البسمة ملاصقًا لها ما صورته
 «الملكي الفلاني» بحيث يكون آخر الملكي الفلاني مسامتًا لجلالة البسمة ، بلقب
 السلطان ، كأنه ينسب نفسه إلى سلطانه . ثم يكتب صورة المكتبة على سمت البسمة
 في سطرٍ ملاصقٍ للملكي الفلاني « يقبل الأرض ويُنهي كذا وكذا » فإن كان ابتداءً
 كتب ويُنهي أن الأمر كذا وكذا ، ويأتي بمقاصد المكتبة : فإن كانت فصلا
 واحداً ذكره وختم الكتاب بآخر كلامه ، وإن كان الكتاب مشتملا على فصول أتى
 بالفصل الأول إلى آخره . ثم يخلى بياضا قدر خمسة أسطر . ثم يسرد الفصول بعد
 ذلك فصلاً فصلاً : يخلى بين كل فصلين قدر خمسة أسطر أيضاً ، ويقول في أول
 كل فصل «الملوك يُنهي كذا وكذا» وإذا أتى على ذكر السلطان ، قال : خلد الله
 سلطانه ، أو خلد الله ظله ، أو أتى على ذكر المرسوم الشريف ، قال : شرفه الله
 وعظمه ونحو ذلك . وإنا سأل في أمره . قال : والمنونك بعرض على آراء الشريفة
 كذا وكذا . أو إن أفنصت الآراء الشريفة كذا طها مزيد العلو . ولا يقال : يسأل

الصدقات الشريفة، إلا في أمر جليل أو شيء مهم، والعرض أبلغ في الأدب، ولا يلقب أحدا بالجناب والمجلس ومجلس الأمير، وإذا ذكر كبيرا في الدولة كالنائب الكافل، ونائب الشام، أو نائب حلب، أو أمير كبير. قال: إن مملوك مولانا السلطان خاد الله ملكه الأمير فلان الدين فلان الناصري مثلا، كافل الممالك الشريفة، أو نائب السلطنة الشريفة بالمملكة الشامية المحروسة، أو كافل المملكة الشامية المحروسة، أو نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة، أو الأمير فلان الدين فلان الناصري مثلا، أو القاضي فلان الدين، أو ناظر الجيوش المنصورة بالأبواب الشريفة، وما يجري هذا المجرى، ولا يدعى في المطالعة لأحد. وإذا آتت الفصول إلى آخرها، قال: وقد جهز المملوك بمطالعة هذه مملوكه فلانا السيئي مثلا المسائل بها. وإن كان ثم مشافهة، قال: وقد حملته مشافهة يسأل المسامع الشريفة سماعها إن اقتضت ذلك، أو يُنهيها إلى المسامع الشريفة إذا رسم له بإنهاها، طالع بذلك، أو أنهى ذلك.

ثم قد جرت عادة النواب بالبلاد الشامية أن يُقدِّموا في صدر المكاتب ما أشتمل على أخبار البلاد الشرقية من مملكة إيران المجاورة لأواحر هذه المملكة: من تجدد أمر، أو حركة عدو، أو حكاية حال مهمة من أحوال تلك البلاد، مثل أن يقال في أول المكاتب، ويُنبئ أن قصاده عادوا من البلاد الشرقية مخبرين بكذا وكذا، ويشرح الحال التي أخبر بها قصاده.

وإن كان الخبر نقلا عن نائب من نواب الأطراف كالرها ونحوها، قال: إن مطالعة نائب فلانة وردت بكذا وكذا، ويذكر ما تضمنته ملخصا. وإن كانت المطالعة جواب مثال شريف ورد فقط، قال: وينهى أن المرسوم الشريف

شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان البريدي بالأبواب الشريفة يتضمن ما اقتضته المراسيم الشريفة ، أو ما اقتضته الآراء الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها : من كذا وكذا ، ويذكر نص المثل الشريف حرفاً حرفاً . ثم يقال : وتفهم المملوك ما رسم له به ، وقابل المراسيم الشريفة - زاد الله تعالى شرفها - بتكرار تقبيل الأرض والامتثال ؛ وتقدم بكذا ، ان كان الأمر مما نفذ ، أو والذي ينبيه المملوك كذا وكذا إن كان الأمر قد توقف .

ثم إن كان النائب عظيم القدر ككاتب السلطنة الشريفة بالشام أو حلب ، جعل بعد ما بين كل سطرين تقدير رأس إصبع ؛ وإن كان دون ذلك جعل ما بينهما أقل من ذلك حتى ينتهي في أقل الرتب إلى ملاصقة السطور بعضها ببعض .

وإن كانت المطالعة في أمر مهم كاستقرار نائب أو بشارة بفتح أو نحو ذلك ، أتى بجميع الكتاب مسجماً وإلا فلا .

وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام ابتداءً .

يقبل الأرض ، وينهى أنه ورد على المملوك مكاتبه نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة ، يذكر فيها أن قصاده عادوا من جهة بلاد الشرق ، وأخبروا أن العدو المخدول فلانا قد خرج عليه عدو من ورائه وقصد بلاده فكر راجعا إليه بعد أن كان قاصداً هذه الجهة ، وأحب المملوك إحاطة الخواطر الشريفة بذلك .

المملوك ينهى أن مطالعة نائب الرحبة المحروسة وردت على المملوك يخبر فيها أن فلانا التركماني قد عاد إلى الطاعة الشريفة ، ولاذ بمراحم الأبواب العالية ، وأنه ما كان حمله على ما وقع منه من عدم المقابلة إلا الخوف من السطوات الشريفة ، وأنه يسأل كتابة أمان شريف له وجماعته ومن يليه بأن يكونوا آمينين على أنفسهم ،

وأموالهم ، وسائر ذات يديهم ، وأنه إذا وصل إليه الأمان قصد الأبواب السلطانية ، وتمثل بالمواقف الشريفة ، وأمثل ما تبرز به الأوامر المطاعة في أمره وأمر جماعته .
والمملوك ينظر ما يردُّ به الجوابُ الشريف في أمره لكاتبِ نائب الرّحبة المحروسة بما يعتمده في أمره .

المملوكُ يُنهي أنه قد بلغ المملوك أن البحر مشغولٌ بمراكب الفَرَّنج ، ولم يعلم إلى أيّ مكان يقصدون ، وقد أخذ المملوك في الاحتراز على السواحل المذكورة بإقامة المرّكزين ، وأمرهم بالاحتراز والاحتفاظ ، وقد عرض المملوك ذلك على الآراء العالية ليكون ذلك على الخواطر الشريفة ، ويكتب به التواب بالبلاد المجاورة للبحر .

المملوك يُنهي أن الأمير فلانا الفلاني : أحد أمراء الطبلخانا بدمشق المحروسة قد تُوفّي إلى رحمة الله تعالى ، والمملوك يسأل الصدقات الشريفة في استقرار أمرته باسم مملوك مولانا السلطان عز نصره ، ولد المملوك فلان ، إعانة له على الخدمة الشريفة ، وجبراً لخاطر المملوك ، فإن حَسُن ذلك بالآراء الشريفة ، وإلا فلرأى العالى مزيدُ العلوّ .

المملوك يُنهي أن الأمير فلان الدين فلانا : أمير حاجب بالشام المحروس ، كان قد برزت المراسيمُ الشريفةُ باستقراره في نيابة صَفَد المحروسة ، وقد توجه إلى محلّ نيابته ، والمملوك يعرضُ على الآراء الشريفة إن حَسُن بالرأى الشريف أن يستقرّ في الوظيفة المذكورة الأميرُ فلان الدين فلان : أحدُ الأمراء الطبلخانا بدمشق المحروسة ، فإنه كُفِّء لذلك ، أو يستقر من تبرز به الآراء الشريفة .

المملوك ينهي أن فلانا : أحد رجال الحلقة المنصورة بدمشق المحروسة ، قد درج بالوفاء ، وقد كتب المملوكُ مرّجةً باسم فلان الدين فلان باستقراره على إقطاعه ، وجَهَّزها إلى الأبواب الشريفة لتعرض على الآراء العالية . فإن حَسُن بالرأى الشريف

إمضاؤها وإلا فيستقر على إقطاعه من تبرز المراسيم الشريفه باستقراره، وقد جهز المملوك هذه المطالعة على يد مملوكه فلان إلى الأبواب الشريفه .

طالع بذلك، إن شاء الله تعالى ثم يكمل .



وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام أيضا، في جواب مكاتبة شريفه وردت عليه وهي :

يقبل الأرض وينهى أن المرسوم الشريف - شرفه الله تعالى وعظمه - ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان البريدي، بالأبواب الشريفه، يتضمن أن المرسوم الشريف اقتضى الاجتهاد والاهتمام في حفظ السواحل والموانى، وإقامة الأيزاك والأبدال في أوقاتها على العادة، وإلزام أربابها بمواظبتها، وإلزام المنورين بالديبانات والمناظر والمناور في الأماكن المعروفة، وتعهد أحوالها وتفقدتها، وتقويم أحوالها بحيث تقوم أحوالها على أحسن العوائد وأكملها، ولا يقع على أحد درك بسببها . وأن المملوك يتقدم باعتماد ما اقتضاه المرسوم الشريف من ذلك مع مضاعفة الاحتفال بذلك والمبادرة إليه . فوقف المملوك على المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه، وتفهم ما رسم له به، وقابل المراسيم الشريفه زاد الله تعالى شرفها بالامتثال، وتقدم باعتماد ما اقتضته المراسيم الشريفه من ذلك، وأخذ في حفظ السواحل والموانى، وإقامة الأيزاك والأبدال، وإلزام أربابها بمواظبتها، وإلزام المنورين بالديبانات والمناظر [فقامت الأحوال] على أحسن العوائد، وجرت على أكمل القواعد، ولم يكن عند المملوك غفلة عما هو بصده من ذلك، وقد أعاد المملوك فلان الدين فلان البريدي المذكور بهذه المطالعة : ليحصل الوقوف عليها . طالع بذلك



وهذه نسخة مطالعة تشتمل على ابتداء وجواب : يقبل الأرض وينهى أنه قد حضر رسول من القان فلان بالمملكة الفلانية [وقصدّه التوجه] إلى الأبواب الشريفة ، والمملوك يعرض على الآراء العالية أمره ، فإن أذن له في التوجه إلى أبوابه الشريفة ، جهزه المملوك إليها على العادة .

المملوك ينهى أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان المسافر من الأبواب الشريفة ، يتضمن طلب فلان الفلاني ، وحمله إلى الأبواب الشريفة محتفظاً به ، فبادر المملوك ما برزت به المراسيم الشريفة بالامتثال ، وتقدم بطلب فلان المذكور وسلمه إلى فلان الدين المسافر المذكور ، وبعث معه من يحتفظ به في الطريق إلى حين وصوله إلى الأبواب الشريفة .



صورة وضع المطالعة من تواب السلطنة ومن في معانهم ، إلى الأبواب الشريفة

الجانب الأيمن	الطنزة	الجانب الأيسر
إلى الابواب الشريفة		بسبب كذا

العنوان

الملكى الفلانى

مطالعة المملوك

فلان

الصدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الملكى الظاهرى مثلاً

يقبل الأرض وينهى أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ، ورد على

المملوك ، على يد فلان الدين فلان البريدى ، ويكل عليه إلى آخره .

الضرب الثاني

(من المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل المملكة)

المطالعات الواردة من الولاية ومن في معنهم^(١).

(١) بيض له في الأصل بقدر صفحة.

القسم الثاني - في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية، عن أهل الممالك الإسلامية المكتوبة عن هذه المملكة. وحالها مختلف باختلاف حال مصطلح أهل البلاد وحال المكتوب عنه في رِفعة القَدْر. وفائدة معرفة ذلك أنه إذا عَرَفَ الكاتبُ مصطلحَ كلِّ مملكة في الكتابة، ظهر له ما هو واردٌ عن ملكها حقيقةً وما هو مفتعلٌ عليه، ولا يخفى ما في ذلك من كبر الفائدة، وعظيم النفع، وأرتفاع قدر الكاتب عند ملكه بإظهار الزَّيف بحكِّ المعرفة.

ومن غريب ما وقع في هذا المعنى أنه وردَ رسولٌ من الشرق، في الأيام الظاهرية الشهيدية برقوق سقى الله تعالى عهده، وأظهر لأهل الطُّرقات أنه رسولٌ من عند طقتمش صاحب بلاد أذربك، ورُفعت بِطاقته بالقلعة المحروسة بذلك، فأمر السلطانُ النائبَ الكافلَ وأكابر الأُمراء بالخروج لملاقاته على القُرب من القاهرة، فخرجوا وتلقَّوه بالتعظيم، على أنه رسولُ طقتمش خان المقدم ذكره، وأنزل بالميدان الكبير تعظيماً لأمره، فلما عُرض كتابه نظر فيه المقرَّ البدرى بن فضل الله، فعمده الله تعالى برحمته، وهو يومئذٍ صاحب ديوان الإنشاء الشريف، فوجده غيرَ جارٍ على مصطلح كتب القانات في الورق والكتابة، فاستُفسر الرسولُ المذكورُ عن ذلك ونوقش في قضيته، فأخبر أنه عن الحاكم بالقرم من أتباع طقتمش خان، فأنكر عليه ذلك، وحطَّ رُتبته عند السلطان وأهل دولته عما كان عليه، وعلا بذلك مقدار المقرَّ البدرى بن فضل الله المشار إليه عند السلطان، وشكره ما كان من ذلك.

ويشتمل على أربعة مقاصد :

المقصود الأول

(في الكتب الواردة عن أهل الشرق، وفيه أطراف)

الطرف الأول

(الكتب الواردة عن القانات العظام من بني جنكزخان، ولها حالان)

الحال الأولى — ما كان الأمر عليه قبل دخولهم في دين الإسلام .

وكان الأمر يجري في كتابتهم مجرى المخاشنة، والتصريح بالعداوة، ولم أقف على مقادير قطع ورق كتبهم يومئذ ولا ترتيب كتابتها .

وهذه نسخة كتاب كتب به هولانكو بن طوحي، بن جنكزخان، المنتزع العراق من أيدي الخلفاء العباسيين . كتب به إلى الملك المظفر قطز في سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وهو :

من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم :

بأسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء .

يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتمتعون بأنعامه، ويقتلون من كان سلطانه بعد ذلك .

يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أننا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من أحل عليه غضبه، فسلموا إلينا أموركم تسلموا، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا، وقد عرفتم أننا نحرّبنا البلاد، وقتلنا العباد، فلکم منا الهرب، ولنا خلقكم الطلب،

فما لكم من سُيوفنا خَلاص : خُيولنا سَوابق ، وسُيوفنا قَواطع ، وفلُوبنا كالجبال ،
 وعددنا كالرَّمال ، ومَن طلب حَربنا ندم ، ومَن قصد أماننا سَليم ؛ فإن أتم لشرطنا
 وأوامرنا أطعتم فلکم مالنا ، وعليکم ما علينا ؛ فقد أَعذر مَن أذَر . وقد ثبت عندكم
 أننا كُفَره ، وثبتَ عندنا أنکم الفَجَره ، فاسرِعوا إلينا بالجواب قبل أن تُضرم الحربُ
 نارها ، وترمیکم بشرارها ، فلا يبقى لكم جَاهٌ ولا عِزٌّ ، ولا يعصمکم مِنَّا جَبَلٌ ولا
 حِزٌّ ، فما بقي لنا مقصد سِواکم ، والسلامُ علينا وعليکم ، وعلى مَن أتبع الهدى ،
 وخشي عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى .

الحال الثانية - ما كان الأمرُ عليه بعد دُخولهم في دين الإسلام مع قيام العداوة
 بين الدولتين .

وكان عادتهم في الكتابة أن يُكتب بعد البسملة « بقوة الله تعالى » ثم يُكتب
 بعد ذلك « بإقبال قان فرمان فلان » يعني كلام فلان .
 ولهم في ذلك طريقتان .

إحداها - أن يُكتب بسم الله سطرًا ، ويُكتب « الرحمن الرحيم » سطرًا
 تحتها ، ويكتب « بقوة الله » سطرًا « وتعالى » سطرًا آخر تحتها ؛ ثم يكتب تحت
 ذلك في الوسط بهامش من الجانبين « بإقبال قان » سطرًا ، وتحت « فرمان فلان »
 باسم السلطان المكتوب عنه سطرًا آخر .

والطريقة الثانية - أن تُكتب البسملة جميعها سطرًا واحدًا ، ثم يكتب تحت
 وسط البسملة « بقوة الله تعالى » سطرًا « وميامين الملة المحمدية » سطرًا آخر ؛
 ثم يكتب تحت ذلك سطرًا آخر بزيادة يسيرة من الجانبين « فرمان السلطان فلان »
 يعني كلام السلطان فلان .

ولم أقف على قطع الورق الذي كُتب فيه حينئذ ، والظاهر أنه في البغداديّ الكامل تعظيماً لشأن المكتوب عنه عندهم . وبالجملة فإن الظاهر أن الكتب الواردة عنهم على نمط الكتب الواردة من هذه المملكة إليهم ، جرياً على قاعدة كتاب هذه المملكة من أن الغالب مضاهاتهم لأكابر الملوك في كتبهم في الهيئة والترتيب شرقاً وغرباً .

وهذه نسخة كتاب على الطريقة الأولى ، ورد عن السلطان « أحمد » صاحب مملكة إيران ، من بنى هولاً كُو المقدم ذكره ، وهو أول من أسلم منهم ، كتب به إلى الملك المنصور « قلاوون » صاحب الديار المصرية ، تفمّده الله تعالى برضوانه ، ورد مؤرخاً بأوسط جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة ، ورأيت في بعض الدساتير أنه من إنشاء الفخر بن عيسى الموصلي ، وورد بخطه وهو :

بِقُوَّةِ اللَّهِ

بِسْمِ اللَّهِ

تَعَالَى

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِإِقْبَالِ قَانَ .

فِرْمَانَ أَحْمَد .

إلى سلطان مصر ، أما بعد ، فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عنقوان الصبا ، ورِيَعان الحدّاث ، إلى الإقرار برُبوبيّته ، والاعتراف بوحدانيّته ، والشهادة لمحمد ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، بصِدْقِ نُبُوّته ، وحُسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريّه ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ فلم نزلْ نَميلُ إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى إلينا بعد أينا الجليل ، وأخينا الكبير ، نُوْبَةُ الْمُلْكِ ، فاضفنا علينا من

جَلَابِيْبِ الطَّافَةِ وَلَطَائِفِهِ ، مَا حَقَّقَ بِهِ آمَانَنَا فِي جَزِيلِ آيَاتِهِ وَعَوَارِفِهِ ، وَجَلَّى هَذِهِ الْمَلِكَةَ عَلَيْنَا ، وَأَهْدَى عَقِيْلَتَنَا إِلَيْنَا ، فَاجْتَمَعَ عِنْدَنَا فِي قُوْرِيْلِيَّانِ الْمُبَارَكِ - وَهُوَ الْمَجْتَمَعُ الَّذِي تُقَدِّحُ فِيهِ الْآرَاءُ - جَمِيعُ الْإِخْوَانِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَمْرَاءِ الْكِبَارِ ، وَمَقْدَمُو الْعَسَاكِرِ ، وَرِجَالُ الْبِلَادِ ، وَأَتَّفَقَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَى تَنْفِيْذِ مَا سَبَقَ بِهِ حُكْمُ أَخِينَا الْكَبِيْرِ ، فِي إِنْفَاذِ الْحَكْمِ الْغَفِيْرِ ، مِنْ عَسَاكِرِنَا الَّتِي ضَاقَتْ الْأَرْضُ بِرُحْبِهَا مِنْ كَثْرَتِهَا ، وَأَمْتَلَتْ الْأَرْضُ رُغْبًا مِنْ عَظِيْمِ صَوْلَتِهَا ، وَشَدِيْدِ بَطْشَتِهَا ، إِلَى تِلْكَ الْجِهَةِ بِهَيْمَةٍ تَخَضَعُ لَهَا صُمُّ الْأَطْوَادِ ، وَعِزْمَةٌ تَلِيْنُ لَهَا الصَّمُّ الصَّلَادِ ، فَفَكَّرْنَا فِيْمَا تَمَخَّضْتَ زُبْدُ عِزَائِهِمْ عَنْهُ ، وَاجْتَمَعَتْ أَهْوَاؤُهُمْ عَلَيْهِ ، فَوَجَدْنَاهُ مُخَالَفًا لِمَا كَانَ فِي ضَمِيْرِنَا مِنْ آقْتِفَاءِ الْخَيْرِ الْعَامِّ ، الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَقْوِيَةِ شِعَارِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يُصْدِرَ عَنْ أَوْامِرِنَا مَا أَمْكَنَّا إِلَّا مَا يُوجِبُ حَقْنَ الدَّمَاءِ ، وَتَسْكِيْنَ الدَّهْمَاءِ ، وَتَجْرِي بِهِ فِي الْأَقْطَارِ ، رُخَاءُ نَسَائِمِ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ ، وَيَسْتَرِيحُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ فِي سَائِرِ الْأَمْصَارِ ، فِي مِهَادِ الشَّفَقَةِ وَالْإِحْسَانِ ، تَعْظِيْمًا لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَشَفَقَةً عَلَى خَلْقِ اللَّهِ ، فَالْهَمْنَا اللَّهُ تَعَالَى إِطْفَاءَ تِلْكَ النَّارِ ، وَتَسْكِيْنَ الْفِتَنِ النَّارِ ، وَإِعْلَامَ مَنْ أَسَارَ بِذَلِكَ الرَّأْيِ بِمَا أُرْشَدْنَا اللَّهُ إِلَيْهِ : مِنْ تَقْدِيْمِ مَا يُرْجَى بِهِ شِفَاءُ مِرَاجِ الْعَالَمِ مِنَ الْأَدْوَاءِ ، وَتَأْخِيْرِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ الدَّوَاءِ ، وَأَنْتَا لَا نَحِبُ الْمَسَارَعَةَ إِلَى هَرِّ النَّصَالِ لِلنَّصَالِ إِلَّا بَعْدَ إِضْوَاحِ الْمَحْجَّةِ ، وَلَا تُبَادِرُ لَهَا إِلَّا بَعْدَ تَبْيِيْنِ الْحَقِّ وَتَرْكِيبِ الْحُجَّةِ ، وَقَوِيْ عِزْمَتِنَا عَلَى مَا رَأَيْنَاهُ مِنْ دَوَاعِي الصَّلَاحِ ، وَتَنْفِيْذِ مَا ظَهَرَ لَنَا بِهِ وَجْهُ النَّجَاحِ ، إِذْ كَانَ ، الشَّيْخُ قَدْوَةُ الْعَارِفِيْنَ « كَمَالُ الدِّينِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ » الَّذِي هُوَ نِعْمَ الْعَوْنُ لَنَا فِي أُمُورِ الدِّينِ ، فَارْسَلْنَاهُ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لِمَنْ [لَتِي] دُعَاهُ ، وَنِقْمَةً عَلَى مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَعَصَاهُ ، وَأَنْفَدْنَا أَقْضَى الْقَضَاةِ قَطْبَ الْمِلَّةِ وَالْدِّينِ ، وَالْأَتَابِكَ بِهَاءِ الدِّينِ ، اللَّذِيْنِ هُمَا مِنْ ثِقَاتِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الزَّاهِرَةِ لِيُعْرِفُوهُمْ طَرِيقَتَنَا ، وَيَتَحَقَّقَ عِنْدَهُمْ مَا تَطَوَّرَ عَلَيْهِ لِعُمُومِ الْمُسْلِمِيْنَ جَمِيْلُ نِيَّتِنَا ، وَبَيْنَا لَهُمْ أَنَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَصِيْرَةٍ ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ

يُحِبُّ مَا قَبْلَهُ ، وَأَنَّهُ تَعَالَى الْوَقْتُ فِي قُلُوبِنَا أَنْ نَتَّبِعَ الْحَقَّ وَأَهْلَهُ ، وَنُشَاهِدَ أَنَّ عَظِيمَ نِعْمَةِ اللَّهِ لِلْكَافَّةِ بِمَا دَعَانَا إِلَيْهِ مِنْ تَقْدِيمِ أَسْبَابِ الْإِحْسَانِ ، أَنْ لَا يُحَرِّمُوهَا بِالنَّظَرِ إِلَى سَائِرِ الْأَحْوَالِ فَكُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ؛ فَإِنْ تَطَلَّعْتَ نَفُوسُهُمْ إِلَى دَلِيلٍ تَسْتَحْكُمُ بِسَبَبِهِ دَوَاعِيَ الْإِعْتِيَادِ ، وَحُجَّةٍ يَتَّقُونَ بِهَا مِنْ بُلُوغِ الْمُرَادِ ؛ فَلْيَنْظُرُوا إِلَى مَا ظَهَرَ مِنْ أَمْرِنَا مِمَّا أَشْتَهَرَ خَبْرُهُ ، وَعَمَّ أَثَرُهُ ، فَإِنَّا أَبْتَدَأْنَا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ بِإِعْلَاءِ أَعْلَامِ الدِّينِ وَإِظْهَارِهِ ، فِي إِيْرَادِ كُلِّ أَمْرٍ وَإِصْدَارِهِ ، تَقْدِيمًا لِنَامُوسِ الشَّرْعِ الْمُحَمَّدِيِّ ، عَلَى مَقْتَضَى قَانُونِ الْعَدْلِ الْأَحْمَدِيِّ ، إِجْلَالًا وَتَعْظِيمًا ؛ وَأَدْخَلْنَا السَّرُورَ ، عَلَى قُلُوبِ الْجُمْهُورِ ، وَعَفَوْنَا عَنْ كُلِّ مَنْ اجْتَرَحَ سَيِّئَةً وَأَقْتَرَفَ ، وَقَابَلْنَاهُ بِالصَّفْحِ وَقُلْنَا عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ؛ وَتَقَدَّمْنَا بِإِصْلَاحِ أُمُورِ أَوْقَافِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَسَاجِدِ وَالْمَشَاهِدِ وَالْمَدَارِسِ ، وَعِمَارَةِ بِقَاعِ الدِّينِ وَالرُّيُطِ الدَّوَارِسِ ؛ وَإِصْلَاحِ حَاصِلِهَا بِمُوجِبِ عَوَائِدِهَا الْقَائِمَةِ إِلَى مَسْتَحَقِّهَا بِشُرُوطِ وَإِقْفِيهَا ؛ وَمَنْعِنَا أَنْ يُلْتَمَسَ شَيْءٌ مِمَّا اسْتُحْدِثَ عَلَيْهَا ؛ وَأَنْ لَا يَغْيَّرَ أَحَدٌ شَيْئًا مِمَّا قُرِّرَ أَوَّلًا ؛ وَأَمْرِنَا بِتَعْظِيمِ أَمْرِ الْمُحْجَّاجِ وَتَجْهِيْزِ وَفِدَاهَا ، وَتَأْمِينِ سُبُلِهَا ، وَتَسْيِيرِ قَوَافِلِهَا ؛ وَإِنَّا أَطْلَقْنَا سَبِيلَ التَّجَارِ الْمُرْتَدِّينَ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ لِيُسَافِرُوا بِحَسَبِ آخْتِيَارِهِمْ عَلَى أَحْسَنِ قَوَاعِدِهِمْ ؛ وَحَرَمْنَا عَلَى الْعَسَاكِرِ وَالْقِرَاغُولَاتِ وَالشَّحَابِي فِي الْأَطْرَافِ التَّعَرُّضَ لَهُمْ فِي مَصَادِرِهِمْ وَمَوَارِدِهِمْ ، وَقَدْ كَانَ قِرَاغُولٌ صَادَفَ جَاسُوسًا فِي زِيَّ الْفُقَرَاءِ كَانَ سَبِيلُهُ أَنْ يُهْلِكَ ، فَلَمْ نُهْرِقْ دَمَهُ : لِحُرْمَةِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَعَدَّنَاهُ لِيَهُم . وَلَا يَخْفَى عَنْهُمْ مَا كَانَ فِي إِتْفَاقِ الْجَوَاسِيْسِ مِنَ الضَّرْرِ الْعَامِّ لِلْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّ عَسَاكِرَنَا طَالَمَا رَأَوْهُمْ فِي زِيَّ الْفُقَرَاءِ وَالنُّسَاكِ وَأَهْلِ الصَّلَاحِ ، فَسَاءَتْ ظُنُونُهُمْ فِي تِلْكَ الطَّوَائِفِ ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ مَنْ قَتَلُوا ، وَفَعَلُوا بِهِمْ مَا فَعَلُوا ، وَارْتَفَعَتِ الْحَاجَةُ بِحَمْدِ اللَّهِ إِلَى ذَلِكَ بِمَا صَدَرَ إِذْنًا بِهِ مِنْ فَتْحِ الطَّرِيقِ وَتَرَدُّدِ التَّجَارِ ، فَإِذَا أَمَعَنُوا الْفِكْرَ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ وَأَمْثَالِهَا لَا يَخْفَى عَنْهُمْ أَنَّهَا أَخْلَاقٌ جَبِلِيَّةٌ طَبِيعِيَّةٌ ، وَعَنْ شَوَائِبِ

التكلف والتصنع عريه . وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المضرة التي كانت موجبة للمخالفة ، فإنها إن كانت طريقا للذنب والذود عن حوزة الإسلام ، فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور المبين ، وإن كانت لما سبق من الأسباب ، فمن يتحرى الآن طريق الصواب ، فإن له عندنا لزلفى وحسن مآب . وقد رفعتنا الحجاب ، وأتينا بفضل الخطاب ، وعرفناهم [طريقتنا و] ما عزمنا بنية خالصة لله تعالى على استئنائها ، وحرمتنا على جميع العساكر العمل بخلافها ، لنرضى الله والرسول ، ويلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول ، وتستريح من اختلاف الكلمة هذه الأمة ، وتجلي بنور الائتلاف ، ظلمة الاختلاف ، والغمة ، ويشكر سابغ ظلها البوادي والحواضر ، وتقر القلوب التي بلغت من الجهل الحناجر . ويعنى عن سالف الجرائر ، فإن وفق الله سلطان مصر إلى ما فيه صلاح العالم ، وانتظام أمور بني آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى ، وسلوك الطريقة المثلى ، بفتح أبواب الطاعة والائتقاد ، وبذل الإخلاص بحيث تتمر تلك الممالك وتيك البلاد ، وتسكن الفتنة النائرة ، وتعمد السيف البآره ، وتحل العامة أرض الهوى وروض الهدون ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون . وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة ، ومنع معرفة هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عذرنا ، ﴿وما كنا معديين حتى نبعث رسولا﴾ والله تعالى الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيم على البلاد والعباد ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب على الطريقة الثانية ، كتبت به عن السلطان « محمود غازان » صاحب إيران أيضا ، إلى السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية ، وهي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

وَمِيَّامِينَ الْمَلَائِكَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

فرمان السلطان محمود غازان

لِيَعْلَمَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ، أَنَّهُ فِي الْعَامِ الْمَاضِي، بَعْضُ عَسَاكِرِهِمُ الْمُفْسِدَةُ دَخَلُوا
أَطْرَافَ بِلَادِنَا، وَأَفْسَدُوا فِيهَا لِعِنَادِ اللَّهِ وَعِنَادِنَا، كِمَرِّدِينَ وَنَوَاحِيهَا، وَجَاهِرُوا
اللَّهَ بِالْمَعَاصِي فِيمَنْ ظَفَرُوا بِهِ مِنْ أَهْلِهَا، وَأَقْدَمُوا عَلَى أُمُورٍ بَدِيعَةٍ، وَارْتَكَبُوا
آثَامًا شَنِيعَةً، مِنْ مُحَارَبَةِ اللَّهِ وَخَرْقِ نَامُوسِ الشَّرِيعَةِ، فَأَنْفَنَّا مِنْ تَهْجِمِهِمْ، وَغَرْنَا
مِنْ تَهْجِمِهِمْ، وَأَخَذْنَا الْحَيَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِغُذْبَتِنَا إِلَى دُخُولِ بِلَادِهِمْ، وَمُقَابَلَتِهِمْ عَلَى
فَسَادِهِمْ، فَرَكَبْنَا بَيْنَ كَانِ لَدَيْنَا مِنَ الْعَسَاكِرِ، وَتَوَجَّهْنَا بَيْنَ اتَّفَقَ مِنْهُمْ أَنَّهُ حَاضِرٌ،
وَقَبْلَ وَقُوعِ الْفِعْلِ مِنَّا، وَأَشْتَهَارِ الْفَتْكِ عِنَّا، سَلْطَنًا سَنَنَ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَقْتَفَيْنَا آثَارَ
الْمُقَدَّمِينَ، وَأَقْتَدَيْنَا بِقَوْلِ اللَّهِ ﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وَأَنْفَدْنَا
صُحْبَةَ يَعْقُوبَ السَّكْرِيَّ جَمَاعَةً مِنَ الْقُضَاةِ، وَالْأَئِمَّةِ الثَّقَاتِ، وَقَلْنَا ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنَ
النُّذُرِ الْأُولَى أَرْفَتِ الْآزِفَةَ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ فَقَابَلْتُمْ ذَلِكَ بِالْإِصْرَارِ،
وَحَكْمَتِكُمْ عَلَيكُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْإِضْرَارِ، وَخَالَفْتُمْ سَنَنَ الْمُلُوكِ، فِي حُسْنِ السُّلُوكِ،
وَصَبَرْنَا عَلَى تَمَادِيكُمْ فِي غَيْبِكُمْ، وَخُلُودِكُمْ إِلَى بَغْيِكُمْ، إِلَى أَنْ نَصَرْنَا اللَّهُ، وَأَرَاكُم
فِي أَنْفُسِكُمْ قَضَاءَ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ وَظَنَّنَا أَنَّهُمْ حَيْثُ تَحَقَّقُوا كُنْهَ
الْحَالِ، وَآلَ بِهِمُ الْأُمْرُ إِلَى مَا آلَ، أَنَّهُمْ تَدَارَكُوا الْفَارِطَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَرَتَقُوا مَا فَتَقُوا
بِقُدْرَتِهِمْ، وَوَجَّهْنَا إِلَيْنَا وَجْهَ عُدَّتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَيْنَا حَالِ دُخُولِهِمْ إِلَى الدِّيَارِ
الْمِصْرِيَّةِ، رُسُلًا لِإِصْلَاحِ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ، فَبَقَيْنَا بِدِمَشْقَ غَيْرِ مُتَحَنِّينَ، وَتَثَبُّطًا تَثَبُّطَ
الْمُتَمَكِّنِينَ، فَصَدَّمْنَا عَنْ السُّعَى فِي صَلَاحِ حَالِهِمُ التُّوَانِيَّ، وَعَلَّقُوا نُفُوسَهُمْ عَنِ الْيَقِينِ

بالأمانى، ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام، وراموا
 جبراً ما أوهنوا من الإسلام، أنهم فيما بعد يلقوننا على حلب والفراه، وأن عزيمتهم
 مصر على ذلك لا سواه، فجمعنا العساكر وتوجهنا للقاهم، ووصلنا الفرات مرتقين
 ثبوت دعواهم، وقلنا لعل وعسأهم، فما لَمَعَ لهم بارق، ولا ذر شارق، فقدمنا إلى
 أطراف حلب، وعجبنا من تبطيم غاية العجب، وفكرنا في أنه متى تقدمنا بعساكرنا
 الباهرة، وجموعنا العظيمة القاهرة، رُبَّمَا أحرَبَ البلادَ مرورها، وبإقامتهم فيها
 فسدت أمورها، وعم الضرر العباد، والخراب البلاد، فعُدنا بقياً عليها، ونظرة لطف
 من الله إليها. وها نحن الآن مهتمون بجمع العساكر المنصورة، ومُشِحِدُونَ غِرَارَ
 عزائمنا المشهورة، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحصار، وعازمون بعد
 الإنذار (وما كنا معدّين حتى نبعث رسولاً). وقد سيرنا حاملي هذا الكتاب
 الأمير الكبير ناصر الدين على خواجاً، والإمام العالم ملك القضاة جمال الدين موسى
 ابن يوسف، وقد حملناهما كلاماً شافهما به، فلتثقوا بما تقدمنا به إليهما فإنهما
 من الأعيان، المعتمد عليهما في الديوان، كما قال الله تعالى (فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ
 فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) فلتعدوا لنا الهدايا والتحف، فما بعد الإنذار من عذر،
 وإن لم تداركوا الأرض فدماء المسلمين وأموالهم مطلولة بتدبيرهم، ومطلوبة عند الله
 في طول تقصيرهم.

فليُمنع السلطان لرعيته النظر في أمره. فقد قال صلى الله عليه وسلم «من ولاء
 الله أمراً من أمور هذه الأمة فاحتجب دون حاجتهم وختلهم، احتجب دون
 حاجته وختلته وقره». وقد أعدر من أنذر، وأنصف من حذر، والسلام على من

(١) نخذ الكين كع حدها كاشهدا أنظر القاموس.

أتبع الهدى - في العشر الأوسط من شهر رمضان سنة سبعمائة - بجبال الأكراد،
والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا [محمد] المصطفى وآله وصحبه
وعترته الطاهرين .

قلت : وقد تقدم جواب هذين الكتائب في الكلام على المكاتبات إلى القانات
ببلاد الشرق من بني جنكرخان فليُنظَرُ هناك .

الطرف الثاني

(في المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل الشرق :
من الملوك والحكام بالبلاد أتباع القانات ومن في معناهم)^(٢)

(١) تقدم له أنه لا يقال العشر الاوسط بل العشر الوسطى أو الوسط قال وبمض النحويين أجازوه
فأما في الجواب على ذلك الرأي .

(٢) ترك في الأصل باقي الصفحة بياضاً ولم يكتب عن هذا الطرف شيئاً .

الطرف الثالث

(في رسم المكاتبات الواردة عن صاحب اليمن إلى هذه المملكة)

وعادة مكاتبتة أن يحدو حدو الديار المصرية ، فيما يكتب إليه عنها ، فيبتدئ المكاتبه بلفظ : أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف ، العالى ، المولوى ، السلطانى ، الفلانى بقلب السلطنة ؛ ثم يقول أصدرها من مكان كذا ، ويذكر المقصد ، ويختم بالدعاء ونحوه ، ويكتبون في قطع الشامى الكامل بقلم الثلث .

وهذه نسخة كتاب عن الملك الأشرف « إسماعيل » صاحب اليمن ، إلى الملك الظاهر « برقوق » صاحب الديار المصرية ، في شهر سنة ثمان وتسعين وسبعائة ، على يد القاضى برهان الدين المحلى ، تاجر الخصاص ، والطواشى آفتخار الدين فاجر دوادار الملك الأشرف صاحب اليمن المذكور ، وهو :

أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف العالى السلطانى الظاهرى ، وزاده فى البسطة والقُدرة ، وضاعف له مواد الاستظهار والنظر العزيز ، وجعل الظفر مقرونا براياته أينما يمت ما بينهما تميز ، ومحبوباً إلى عساكره المنصورة حيث توجهت وفتح بركة أيامه كل مقفل ممتنع بأمرٍ وجيز ، ولا زال ممتلئ الأوامر والمرايم ، راقلاً فى أردان العز والمكارم ، ممدوداً على الأمة [منه] ظل المراحم ، بمنه وكرمه .

أصدرها إليه من زبده زبيد المحروسة مغربية عن صدق وآلته ، متمسكة بوثيق أسباب آلائه ، ناشرة طيب ثنائه ، مترجمة ناظمة لمشور الكتاب الكريم الظاهرى الوارد على يد المجلس العالى البرهانى ، بتاريخ ذى الحجة عظم الله بركايتها ، سنة سبع وتسعين وسبعائة ، أحسن الله خاتمتها ، فتلقيناه باليدى ، ووضعناه على الرأس والعين ، وأستدللنا به على شريف همته ، وصفاء مودته ، وتأكيد أخوته ، وسألنا الله

تعالى أن يمتعنا ببقاء دولته القاهره، وينشر في المشارق والمغرب أعلامه الزاهره؛
 ففضضنا ختامه، فوجدنا فيه من نشر السلم الأريج أذكاه، ومن أنوار ما مجه القلم
 الشريف ما يتجمل منه نوار الربيع وبهائه، فانشرحت به الصدور، وتزايد به السرور؛
 وقزت به الأعين، وكثر التهجد به لما استعذبت الألسن؛ وأمثلنا المرسوم الشريف
 في تعظيم المجلس العالي ذى الجلالين؛ برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلى، ومراعاته
 في جميع أموره وسرعة تجهيزه؛ على أنا نجله ونجله، ونوجب حقه ولا نجمله، فهو
 عندنا كما كان في عهد الوالد المرحوم الملك الأفضل، بل أمكن وأفضل، فهو لدينا
 المكين الأمين؛ وجهزنا له المتجر السعيد الظاهري، وبرزت مراسمنا إلى النواب
 بشرف عدن المحروس أن لا يعترض في عسور ونول، وحملناه على ظهور مرآكبنا عزيزا
 مكرما، وعرفناه أن لا يصرف على الحمل السعيد ولا الدرهم الفرد، وذلك قليل منا
 لأجل غلمان بابكم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه؛ وجهزنا الهدية السعيدة المباركة
 المتقبلة، صحتته هو والأمير الأجل الكبير الأفتخارى : آفتخار الدين فاجر الدوادار،
 وصارت بأيديهما بأوراق مفضلة، لل مقام الشريف والأمرء الأجلء الكبراء، وصحبتهما
 نفر من المعلمين البازدارية، برسم حمل الطيور للصيد السعيد، والمهتارية للصافيات
 الحيات. على أنا لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهري أعز الله أنصاره
 بمقدار همته الشريفة العاليه، ورؤيته المنيفة الساميه، لاستصغرت الأفلاك الدائرة،
 والشهب السائر، وأستقلت السبعة الأقاليم تحفه، والأرض وما أقلتة طرفه، ولم
 نرض أن نبعث إليه الأنام ممالك وخولا، ونجني إليه ثمرات كل شئ قبلا، ولو رام
 محب المقام هذه القضية، لقصر عنه حوله، ولم يصل إليه طوله، ولكنه يرجع
 إلى المشهور، بين الجمهور، فوجدنا العمل يقوم مقام الاعتقاد، وليس على المستمر

(١) لعله "الاعتقاد يقوم مقام العمل" أو "العمل يقوم مقام الاعتقاد" تأمل .

على الطاعة سوى الاجتهاد ، والمخلص في الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد ، فوثق بهذه القضية ، وأنفذ إلى المقام الشريف على يد موصولها هذه الهدية ، راغباً إلى إنعامه في بسط عذره ، وحمله على شروط المحبة طول دهره ، وتصريفه بين أوامره الممتثلة ، ومراسيمه المتقبلة . والمسئول الإتحاف بالمهمات والمراسيم الشريفة شرفها الله تعالى وعظمتها .

ونوضح لعلمه الكريم ما أفاء الله به علينا من النصر الذي خفقت بنوده ، وأشرقت سعادته ، وبرقت سيوفه في رقاب المارقين ، وأطردت في راياته المارب فتناولها باليمين ﴿ نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ وفتح القلاع والمصانع ، والأستيلاء على المزارع والمزارع ، وأستئصالنا شافة المارقين ، وأسترجاع حصن قاف المحروس بعد طول مكثه تحت يد العرب ، فكم من كمي مقتول ، وأسير مكبول ، وحصان ترك سيئها ، ورب حصان كثر عليه عويلها ، نخرنا المعائل ، وأطلقنا العقائل ، وأوطنناهم الحميم ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ وغير ذلك ما أرسلنا على يد المجلس البرهاني والأمير آفتخار الدين : فاجر الدوادار ، لقضاء بعض الحوائج الطارئة من الديار المصرية « ألف وأربعمائة وسبعون قطعة من أصناف البهار ، وسبع قطع حرير » والمستمد من إحسان المقام الشريف العالي ، بروز أمره الأشرف العزيز النافذ المطاع ، أنقذه الله تعالى شرقاً وغرباً ، وأمضاه بعداً وقرباً ، في قضاء حوائجها وسرعة تجهيزها وقبولها إلى اليمن اليمن ، وعز تيز قريباً .

وبعد ، فإن الجلالة والاحترام بهما دوام الموالاة ، وتوفير الحرمات ، بل هي أعظم الكرامات ، والمسئول من المقام الشريف الظاهري أعز الله تعالى أنصاره ، وضاعف اقتداره ، بروز أمره الأشرف إلى الثواب بمصر المحروسة ،

وثغر الإسكندرية ، والشام ، بالجلالة والإحترام ، لكافة غلماننا الواردين إلى الديار المصرية ، ومن أنتسب إلينا من تاجر وغيره ، مسافراً كان أو مقبياً ، وأن يعار في مهماته ، جلالة تفيأ ظلالها ، ويشمله إقبالها ، كما سبق للوالد المرحوم المقدس الملك المجاهد ، تغشاه الله برحمته ، بل نرجو فوق ذلك مظهراً ، إن شاء الله ، فتم خطوط ناصرية من السلطان حسن والملك الصالح لخُدامنا القدماء ، لما أرسلوا إلى الإسكندرية ودمشق ، كتبت لهم مرسعات ومثالات شريفة ، ولا غرو أن يبدى المستعطي مافي ضميره إلى المعطي ، والأشهار بما بيننا وبين المقام الشريف من الأخوة الممهدة ، والمصافاة المؤكدة ، والمودات المحكمة ، والأسباب الثابتة ، أوجب ذلك ؛ وحسن الظن الجميل نطق به لسان الحال ، في هذا الإرسال ؛ ولم يخف عن المقام الشريف أن لله عوارف يجذب بها القلوب إليه ، ولطائف خفية يستدل بها المحب عليه ؛ وتعاطى كأس الوداد ، يدل على حسن الاعتقاد ؛ ولذلك نطق اللسان ، وكتب البنان ، بما أقرض على عباده الرحمن ؛ فقال في محكم كتابه المبين ﴿ وَ لِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا وَمَنْ كَفَرَ اِنَّ اللّٰهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِيْنَ ﴾ . ومحب المقام الشريف يقدم الكتاب ، ويسأل الجواب ، بالإذن الشريف : ليعتمد بعد الله عليه في حج البيت الحرام ، عند تيسير الله تعالى لذلك ، فقد حسن ظنه بذلك ، وركن إليه لقضاء الفرض والتبرك بالمشاعر العظام ، فلا زالت أيام المقام الشريف على منابر الدنيا تُنثى ، وآيات الشكر لله سبحانه على استقراره في الملك العقيم تُملئ . جميع هذا الخطاب مقدمة الإيجاب بالإذن بالحج ، وتفسير المحمل في كل عام ، إلى بيت الله الحرام ، فحاج اليمن تعذرت عليه الطرقات ، ولم يطق حمل النفقات ، ورجو من الله تعالى أن يفتح ببركة أيامه الشريفة ، وشمول الفكر الشريف ، بحل عقدة هذه الأسباب ، إنه هو الكريم الوهاب ، بمنه وكرمه .

وأما ما نعتقده من أمانة المجلس البرهاني فإنها متينة ، وشواهدُها من أقواله وأفعاله مُبينه ، خصوصاً في المقام الشريف ، وأسمائه للقلوب بالعبارات اللطيفة ؛ فقد نظم معاقِد الأتلاف ، وتزايد بشرحه الأئس في محاورته والإختلاف ؛ ولولا المهيم الشريف لاستوقفناه عندنا عاماً كاملاً من بعد هذا التاريخ : يُملِي علينا آياتِ المقام الشريف ؛ شرفه الله تعالى وعظمه . وعلى لسانه ما يُبديه في المواقف الشريفة شفاها إن شاء الله تعالى .

في سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وسبعائة ، أحسن الله تعالى ختامها ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً .

قلت : أما إمام الزيدية باليمن فلم أقف له على مكاتبة ، وإن كان المقر الشهابي أب فضل الله قد أشار في كتابه "التعريف" إلى أنه ورد عنه مكاتبة إلى الأبواب السلطانية الناصرية (محمد بن قلاوون) يستجيشه على صاحب اليمن ، والغالب على الظن أن مكاتبته أعرابية ، كما أن إمارته أعرابية : إذ لا اعتناء لأهل البادية وعربان الوادي بفن الإنشاء جملة ، وإنما يكتب عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم ، على أن فيما يأتون به مقنعا من الفصاحة والبلاغة بكل حال ، إذ عنهم قد علم اللسان وعليهم فيه يُعول .

الطرف الرابع

(في الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية عن ملوك الهند)

قد تقدم أن المكاتبه إلى صاحب الهند تُسببه المكاتبه إلى القانات العظام بيران وتوران . وتقدم أن الكتب الواردة عن القانات المذكورين تكون في معنى الكتب الصادرة إليهم في قطع الورق والترتيب ، من حيث إن الغالب جريان العادة

في الأجوبة بأن تكون على نمط الكتب الواردة ، وحينئذ فيكون مقتضى ذلك أن الكتب الواردة من صاحب الهند في هيئة الكتب الصادرة إليه في قطع الورق وغيره ، فتكون في البغدادي الكامل بقلم مختصر الطومار بالطغراء والخطبة المكتبتين بالذهب ، إلى ما يجري مجرى ذلك مما تقدم ذكره في المكاتبات إلى القانات .

قلت : ولم أقف على صورة مكتبة من ذلك ولا على نسخة شيء ورد ، لكن قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية عند ذكر مملكة الهند أن من جملة ممالك الهند مملكة تُعرف بالسيلان ، وقد رأيت في تذكرة (محمد بن مكرم) التي جمعها في وقائع ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، أنه في سنة اثنتين وثمانين وستمائة ، وصل كتاب من صاحب السيلان هذه في صفيحة ذهب رقيقة ، عرض ثلاثة أصابع ، في طول نصف ذراع ، وحوله مدورة (حلقة) داخلها شبيهة بالخوص أخضر ، عليه كتابة تُشبه الخط الرومي أو القبطي ، فطلب من يقرؤه فلم يوجد ، فسئل الرسل عما هو مكتوب فيها . فقيل : إنه سيررسوله رومان ورفيقه ، وقصد أن يسير معهما الهدية إلى الباب الشريف ، فقيل له : ما لهم طريق . فقال لهم : سافروا إلى (هرمز) فحضروا إليها ، وذكروا أن مضمون الكتاب السلام ، والدعاء للسلطان ، وأن بلاد السيلان مضر ، وبلاد مضر السيلان ، وأنه ترك صحبة صاحب اليمن مرة واحدة ، وتعلق بحبة مولانا السلطان خلد الله ملكه ، وسأل أن يحضر رسول من عند مولانا السلطان إلى عنده صحبة رسوله ، ورسول آخر إلى عدن ينتظر حضورهم من تلك الجهة على تلك الطريق ، وأن عنده الجواهر والآلي والفيلة والقماش الكثير من البر وغيره ، وكذلك البقم والقرفة وجميع ما يطلب الكارم ، وأن عنده في كل سنة عشرين مركبا يسيرها إليه ، فيطلق مولانا السلطان التجار إلى

البلاد ، وأن رسول صاحب اليمن حضر في هذه السنة يتسلم التّقادِمَ والفيلةَ حتّى يسافروا إلى اليمن فردّه ، ولم يُعْطِه شيئاً ، وأنه يُعْبَى التّقادِمَ والفيلةَ إلى أبواب مولانا السلطان ، وأنّ بمملكة سيّلان سبعمائة وعشرين قلعةً ، وبها معادنُ الجَوْهرِ والياقوتِ ومغاصُ اللؤلؤِ . ولم يزد على ذلك . ورأيت في كتاب "الذيل" على تاريخ ابن الأثير نحو ذلك ، وفيه ذكر البلاد التي مرّت عليها رسلُ صاحب السيلان في طُرُقها .

المقصد الثاني

(في المكاتبات الواردة عن ملوك الغرب)

والعادةُ الجاريةُ في الكتب الواردة عنهم أن تكونَ على نمط واحدٍ في الورق ، مع تقاربِ الحال في الترتيب ، وتكونُ كتبهم في طومارٍ واحدٍ ، في عرض نحو شبرين ، في طول نحو ثلاثة أشبار ، والبسمةُ بعد بياض نحو شبرٍ وثلاثة أصابع مطبوقة من أعلى الطومار ، وعرض سبعة أصابع مطبوقة عن يمين البسمة ، والسطور منحطةُ الأوائل مرتفعةُ الأواخر حتّى يصيرَ البياض الذي في أعلاها في آخر سطرِ البسمة قدرَ شبرٍ فقط ، وبين كلِّ سطرينٍ قدرُ عرضِ إصبعٍ ونصفِ إصبعٍ ، وكلُّ سطرٍ ينقص عن الذي فوقه قليلاً من جهة اليمين على التدرّج ، حتّى يكون السطرُ الآخر قطعةً لطيفة في زاوية الطومار التي على اليسار من أسفل ، ثم يكتب بحاشية الطومار من أسفله أخذاً من آخر السطر الأخير ، ويكون بين ذلك وبين الكتابة الأصلية قدرُ رأسِ خنصرٍ ، ويتدئ السطرُ الأوّل منها بقطعةٍ لطيفةٍ منحطةٍ الأوّل مرتفعةٍ الآخر ثم السطر الثاني قطعةً أطول من ذلك ، ولا يزال كذلك حتّى يكمل السطر فيكتب أسطراً كاملةً ، إلا أنه في أوّل كلِّ سطرٍ ينقصه قليلاً عن الذي قبله حتّى يكون السطرُ

الأخيراً قدر الأئمة في زاوية الطومار من جهة البسمة ؛ ويكون بين كتابة الأصل وبين كتابة الحاشية قدرُ إصبعين بياضاً إلى سمت البسمة ، أسطراً متضابقةً حتى ينتهي إلى آخر الكلام ؛ ويكتب في آخره بقلم الثلث : وكتب في التاريخ المؤرخ ، ويزاد فيه هاء مشقوقة راجعة إلى الخلف . وفيه جمل :

الجملة الأولى

(في المكتبة الواردة عن صاحب تونس)

وعادة مكاتبته أن تفتتح بلفظ : « من عبد الله الفلاني » بلقب الخلافة الخاص به ، « أمير المؤمنين ابن فلان » . ويقال : في كل من آباه أمير المؤمنين إن كان قد ولي الخلافة ويدعى له « إلى أخينا فلان » ويؤتى بالسلام والتحية ؛ ثم يتخلص بالبعدية إلى المقصد ، ويختم الكتاب .

وهذه نسخة كتاب عن المتوكل على الله أحمد بن أبي عبد الله بن أبي بكر ، إلى السلطان الملك الظاهر (برقوق) صاحب مصر ، جواباً عن كتابه إليه . وهو : من عبد الله ، المتوكل على الله ، أمير المؤمنين « أحمد » ابن مولانا الأمير أبي عبد الله ، ابن مولانا أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر ، ابن الأمراء الراشدين ، أعلى الله به كلمة الإسلام ، وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام ، وغض عن جانب عزه عيون حوادث الأيام .

إلى أخينا الذي لم نزل نُسأه من إخوانه الكريم ، في ذات الرب الرحيم ، قبلة صفاء لم تُغيرها يدُ بعادٍ ولا أنزاح ، وتثار من حفظ عهده ، والقيام بحق وده ، على ما يؤكّد معرفة الخلوص من لدن تعارف الأرواح ؛ ونبادر لما يبعث القلوب على الإئتلاف ، والأمن بفضل الله من عوائق الاختلاف ؛ وإن شحطت الدار وتناوت

الصُّور والأشباح . ونَعْتَرِفُ بما له من مَزِيدِ الإِعْظَامِ ، بِجَاوِرَةِ البَيْتِ الحَرَامِ ، وَالقِيَامِ
بِمَا هُنَاكَ مِنْ مَطَالِعِ الوَحْيِ الكَرِيمِ وَمَشَاعِرِ الصَّلَاحِ ، وَنَجْتَلِي مِنْ أَنْوَانِهِ الكَرِيمَةِ
الشَّرِيفَةِ ، وَمَطَالِعِهِ العَالِيَةِ المُنِيفَةِ ، وَجُوهَ البَشَائِرِ رَائِقَةِ الغُرُورِ وَالأَوْضَاحِ . وَنَسْتَهْدِي
مَا يُسْرُنَا مِنْ أُنْبَاءِهِ ، مِمَّنْ يَرِدُ مِنْ تِلْقَائِهِ ، حَتَّى مِنْ أَنْوَارِ الصُّبْحِ وَسُفْرَاءِ الرِّيَّاحِ ، وَنَبْتَهْلِ
إِلَى اللَّهِ بالدَعَاءِ أَنْ يُخْبِرَنَا عَنْهُ ، وَيُظَلِّعَنَا مِنْهُ ، عَلَى مَا يُقَرُّ عِيُونَ الفَوْزِ وَيُشْرَحُ صُدُورَ
النِّجَاحِ - السُّلْطَانِ الجَلِيلِ الطَّاهِرِ ، المَلِكِ الأَعْظَمِ «الظَّاهِرِ» ، جَمَالِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ،
مُؤَيِّدِ كَلِمَةِ اللَّهِ العُلْيَا ، سَيْفِ المِلَّةِ المَرْهُوبِ المَضَاءِ ، بِيَدِ القَضَاءِ ، وَرُكْنِهَا البَاسِقِ
العَلَاءِ ، فِي أَوْجِ عِزِّهَا المُنْدَاحِ لِلقَضَاءِ ، المَشْهُودِ لَهُ مِنْ لَدُنْ حَلِّ التَّمَامِ ، وَلَوْثِ العَامِّ ،
بِالشَّهَامَةِ الَّتِي تُرْعِبُ الأَمْدَ فِي أَجْمِهَا ، وَتَسْتَخْدِمُ لَهُ سَائِرَ الأُمَمِ : تُرْكِيهَا وَعَمَرِيهَا
وَتَجْمِيهَا ، المَخْتَارِ لِلقِيَامِ بِحَقِّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ ، فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ ، الفَائِزِ مِنْ جِوَارِ بَيْتِ اللَّهِ
وَمَقَامِ خَلِيلِهِ ، وَمُشْرِعِ المَجْبِجِ إِلَيْهِ وَتَيْسِيرِ سَبِيلِهِ ، بِمَا أَحْرَزَ لَهُ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ ، وَعِزَّ
المَقَامَيْنِ ، كَوَكْبِ السَّعْدِ الَّذِي شَقِيَتْ بِهِ أَعْدَاؤُهُ ، وَبَدْرِ الدِّينِ الَّذِي اسْتَضَاءَتْ بِهِ
أَنْحَاؤُهُ ، مِيزَانِ العَدْلِ لِانصَافِ الحَقُوقِ ، وَشَمْسِ الهِدَايَةِ النِّيْرَةِ الغُرُوبِ وَالشُّرُوقِ ،
(أَبِي سَعِيدِ بَرْقُوقِ) وَصَلَّ اللَّهُ لَهُ رَتْبَةً رَاقِيَةً يَنْبُوْأُ مَحَلَّهَا ، وَنِعْمَةً بَاقِيَةً يَتَقَيَّأُ ظِلَّهَا ،
وَعِزَّةً وَاقِيَةً تَسِمُ وَجُوهَ أَعْدَائِهِ خَسْفَهَا وَذُلَّهَا ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وَبَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ نَاطِمِ الشَّمْلِ وَقَدِ رَابَ ثَرَّهُ وَشَتَاتُهُ ، وَجَابِرِ الصَّدْعِ وَقَدِ آتَسَعَتْ
عَنِ الجَبْرِ جِهَاتُهُ ، وَرَادَ الأَمْرَ وَقَدِ أَعْيَا ذَهَابُهُ وَقَوَاتُهُ ، وَوَاوَصِلِ الجَبَلَ وَقَدِ آسْتَوَلَى
انْقِطَاعُهُ وَانْبِتَاتُهُ ، العَالِمِ الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِمَّا تُكِنُّهُ أَرْضُهُ وَسَمَوَاتُهُ ،
الَّذِي قَرَنَ بِالعُسْرِ يُسْرًا ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ، فَلَا تُحْتَرِكُ ذَرَّةٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا يَكُونُ
فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا تُنْفِذُهُ أَحْكَامُهُ وَإِرَادَاتُهُ .

والصلاة والسلام الأكمين ، على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذي صدعت بالحق آياته ، وقامت بحجة دعواه معجزاته ، ونطقت بأنه رسول الله على لسان وحيه الصادق الأمين كلماته ، المبعوث بالملة السمحة ، ومن أركاها حج بيت الله المقدسة أركانه ومجراته ، المعظمة عند الله حرمانه ، المغفورة لمن سبقت له الحسنى بحجة سيئاته ، وعلى آله وأصحابه الذين قضوا رضى الله عنهم وهم أولياء دينه الكريم وولائه ، وأنصار حزيه المفلح وحماته ، وليوث دفاعه فى صدور الأعداء وكلماته .
والرضا عن الإمام المهدي القائم بهذه الدعوة الموحدية قيام من خلصت لله نياته ، وصدقته فى ذاته دعواته ، وصممت لإظهار دينه القويم عزماته ، وصلة الدعاء لهذا المقام الأحمدي المتوكل الفاروقى ، بنصر تمضى به فى صدور أعدائه شبائته ، وعز يطرد به استقلاله وثباته ، وسعد تطيب به أيامه المتصلة وأوقاته ، وتطول به حياته .

فإننا كتبنا لسلطانكم - كتب الله لكم من إسماعاده ما يتكفل بعزه ونصره ، ويتضمن إطالة زمنه المبارك وعصره ، ويقوم بحفظ قطره الشريف ومصره - من حضرتنا العلية "تونس" كلاًها الله تعالى ، ووجوه نصر الله العزيز لدينا وضاحة الأسرة متبلجة الصور ، وآيات فتحه المبين والله المنة محكمة السور ، وأحاديث الشكر على نعمه سبحانه مسلسلة الخبر ، وبشرنا بما من الله به عليكم قد عمل بمقتضاه من تحت (١) إيالتنا الكريمة من البشر . وإلى هذا فوجهه إليكم بعد تقريب حب شرعت فى ملة الوفاء قواعده ، وقيل فى عقد الصفاء شاهده ، وأستقل بصلة الخلوص عائده ، وثبت فى مرسوم الصداقة الصادقة زائده ، إعلامكم أنا علم الله من حين أتصل بنا خبركم الذى جره القدر المقدور ، وجرى به فى أم الكتاب الحكم المسطور ، لم نزل نتوجه إلى

(١) مراده من تحت حكنا وسياستنا .

الله تعالى في مظان قبول الدعاء، ورفع النداء، بأن يجبركم بفضله من حيث صدع،
ويصلكم بخيره إثر ما قطع، ويعطيكم من نعمته أضعاف ما منع، إلى أن دارك الله
بلطفه وأجاب، وتأذن بفضله في قبول الدعاء بظهور الغيب وهو مستجاب، فرد
عليكم ملككم، وصرف إليكم ملككم، فأخذ القوس باريها، وفوق السهم مقرطها
وراميها، وأنفذ القضايا حكماً ومفتياً، وإذا كان العويل يفضي إلى النجدة، والبلا
يقضي بالجد، والفرج يدافع في صدر السد، فلا جرم شفر الله للأيام ما أقرت،
لما أنابت وأقرت، وهل هو إلا التخصيص الإلهي أراكم الله من باطن الضراء
سراءكم، وأجزل من جانب الغماء نعاءكم، والتبر بعد السبك يروق النواظر خلاصة
نضاره، والبدر بعد السرار تتألق أشعة أنواره.

ولما جاءنا بنصركم البشير، وطلع من ثنية الهناء بأحكام السرور إلينا يسير، هزنا
له أعطاف الأرياح، وتلقينا منه وارد التهانى والأفراح، وحمدنا الله لكم على ما من به
من الفوز والنجاح، ورأينا أن تهنتكم به من فروض المؤكده، وعهودنا المجدده،
وأنه لا يقوم به عنا هنالكم، ويؤدى ما يجب منه بين يدي كرمي جلالكم، إلا من له
من ديار الملوك، قرب الأدب والسلوك، فاقضى نظرنا الجميل أن عيناً له شيخ دولتنا
المستشار، وعلمها الذي في مهماتها إليه يسار، فلان.

وقد كان منذ أعوام يتطارح علينا في أن نحل للبحر سبيله، ونبلغه من ذلك مأمولة،
ويد الضنة لا تسمح به طرفة عين، ونفس الإغباط لا تجيب فيه دواعي البين، إلى
أن تعين من تهنتكم الكريمة ماعينه، وسهل شأنه علينا وعونه، فوجهناه والله تعالى
يسعد وجهته، ويجعل حجته لقبول الأعمال حجته. وحملناه من أمانة الحب ما يلقي
إليكم، ومن حديث الشوق ما يقص أخباره عليكم، ومن طيب الشاء ما يقص ختامه

(١) الغم والغماء والغمة الكرب والشدّة . أنظر القاموس .

بين يديكم، وأصحبناه برسم إسطبلاتكم الشريفة مايسر الحب سبيلها، وأوضح الخلوص دليلها، ورجونا من نفاذكم على نزارتها قبولها، إذ لو كانت الملوك تُهادى على قدر جلالها، لما اتسعت لذلك خزائن أموالها، أكنها عنوان الحب السليم، حسب ما اقتضاه الحديث النبوي الكريم .

وفي أثناء شرونا في ذلك، وسلوكتنا منه أيمن المسالك، وصل إلينا كتابكم الكريم، تعرف النواظر في وجوه بشارته نضرة النعم، فأطلعنا منه على مارق العيون وصفا ونعتا، وعبر للخلوص سبيلا لا ترى القلوب فيها عوجا ولا أمنا، والله هو من كتاب كتب من البيان كتاب، وأستأثر بفلك الإجابة فأحرز به سعادة الكاتب، فقسما بالقلم وما سطر! والخبر وما خبر! لو رآه عبد الحميد لتركه غير حميد، أو بصر به ليبد لأعاده في مقام بليد، ولو قصص على قس إياها فصاحت له لزلته عن منبر خطابته بعكاظ، أو سحبت على سحبان وائل ذيل بلاغته لأراه كيف يتولد السحر الحلال بين المعاني الرائقة والألفاظ .

ولما استقرينا من فحواه، وخطابه الكريم ونجواه، تشوقكم لأخبار جهادنا، وسروركم بما يسنيه الله من ذلك ببلادنا، رأينا أن نُخفِ أسماءكم منه بما قرئت به عين الإسلام، وأتلى صدور الليالي والأيام . وذلك أنا من حين صدر من عدو الملة في الجزيرة ماصدر، حسب ما جرّه محتوم القدر، لم نزل نبيح لأساطيلنا المنصورة حرمة وحماه، ونطرق طروق الغارة الشعواء ببلادهم وقراه، ونكتسح بأيدي الاستلاب ما جمعت بها يدها، إلى أن ذاقوا من ذلك وبال أمرهم، وتعرفوا عاقبة مكرهم .

وكان من جزائريهم المعتريضة شجا في حنوق الخطار، ومتجشبي الأخطار، وركاب البحار : من الحجاج والتجار، جزيرة "غودش" وبها من أعداء الله بجم كثير، وجمع

كبير، فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غير بانا نعقت عليهم بالمنون ، وعرفت المسلمين بركة هذا الطائر الميمون، وشحنها عددا وعددا، وأستمددنا لها من الله ملائكة سمائه مددا، فسارت تحت أجنحة النجاح إليها، وتحوم إلى أن رمت مخالب مراسيها عليها، فلما نزلوا بساحتها، وكبروا تكبيرة الإسلام لإباحتها، بهت الذي كفر، وودّ الفرار والحين يناديه أين المقرب، فلما قضى السيف منهم أوطاره، وشفى الدين من دماهم أواره، وشكر الله من المسلمين أنصاره، عمدوا إلى ما تنطاد السيف من والد وولد، ومن أخذ إلى الأرض من رجالهم عن المدافعة فلم يعترضه بالقتل منهم أحد، فجمعوا منهم عددا ينيف بعد الأربعين على الأربعين، وجاءوا بهم في الأصفاد مقرنين، وأمتلأت بغنائمهم والحمد لله أيدي المسلمين، وأنقلبوا فرحين بما آتاهم الله مستبشرين، إلى أن دخلوا حضرتنا العلية بسلام آمين .

فعرّفناكم بهذا الفتح : لتأخذوا بحظكم من شكر الله عليه، وتوجهوا في مثله بصالح أدعيتكم إليه ، وهو سبحانه وتعالى يُطاعنا ويطلعكم على ما يسرُّ النفوس ويهينها ، ويجلو وجوه البشائر ويبيد فيها ، بمنه وكرمه ، والسلامُ العطر المحيا الجميلُ المحيا عائذُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته .

الجملة الثانية

(في المكاتبات الواردة عن صاحب "تلمسان" من بني عبد الواد)

ورسم مكاتبه فيما وقفت عليه في المكتبة الواردة على صاحب الديار المصرية أن يتبدأ الكتاب بقوله : إلى الحضرة الفلانية حضرة فلان - بالألقاب المعظمة المفخمة ثم يدعى له بما يناسب الحال، ويؤتى بحطبة، ثم بالسلام، ويقع الخطاب في أثناء الكتاب بالإخاء بلفظ الجمع، ويُختم بالدعاء المناسب .

كما كتب عبد الرحمن بن أبي موسى بن يعمراسن ، إلى السلطان الملك الناصر
(محمد بن قلاوون) في سنة خمس وعشرين وسبعائة :

إلى الحضرة العلية السامية ، السنية ، الماجدة ، المحسنة ، الفاضلة ، المؤيدة ،
المظفرة ، المنصورة ، المالكة ، حضرة السلطان ، الملك ، الجليل ، الفاضل ،
المؤيد ، المنصور ، المظفر ، المعظم ، ناصر الإسلام ، ومُذلل عبدة الأصنام ، الذي
أيده الله بالبراهين القاطعة ، والأنوار المنيرة الساطعة ، الأعلى ، الأوحد ، الأكل ،
الأرفع ، الأتمجد ، الأسمى ، الأسرى ، ذى المجد الظاهر ، والشرف الباهر ، الملك
الناصر ، ابن السلطان ، الملك ، الجليل ، العادل ، الفاضل ، المؤيد ، المظفر ، الأعلى ،
الأوحد ، الأكل ، الأرفع ، الأتمجد ، الأسنى ، الأسمى ، ناصر الإسلام والمسلمين ،
ومُعَلِّي كلمة الموحدين ، المقدس ، المرحوم ، ذى المجد المشهور ، والفخر المنشور ،
والذكر المدخور ، الملك المنصور ، أدام الله علو قدره في الدنيا والآخرة ، وأسبغ عليه
نعمه باطنة وظاهرة ، وجعل وجوه محاسنهم في صفحات الدهر سارة مافره ،
وصفقة أعدائهم خائبة خاسره .

وبعد حمد الله الذي أظهر الأمر العلي الناصري وأيده ، وبسط في قول الحق
وفعله لسانه ويده ، وسند نحو الصواب منحاه كله ومقصده ، والصلاة التامة المباركة
على سيدنا محمد رسوله المصطفى ، الذي خصه الله بعموم الدعوة وأفرده ، وقرن ذكره
بذكره فأبقاه أبد الدهر وخلده . والرضا عن آله الكرام ، وصحابة الأعلام ، الذين
حفظوا بالتوقير والتعزير مغيبه ومشهده ، وكانوا عند أسيتلال السيوف ، وبجمال
الحتوف ، عدده المظفر وعدده . والدعاء لذلك المقام الشريف بسعد يطيل في شرف
الدين والدنيا مدده وأمه .

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، من أخيك، البرّيك، الحريص على تصافيك،
عبيد الرحمن بن أبي موسى بن يغمراسن . وإنا كتبناه إليكم كتبَ الله لكم أنجح
المقاصد وأرحمها، وأثبتها عزاً وأوضحها، من حصن "نلمسان" حرسها الله تعالى،
ولا ناشئ بفضل الله تعالى إلا ما عود من بشارتِ نَحْتِ جِادها، ومسارٍ يتناول
إلى المزيد أعتيادها - وإلى هذا أعلى الله كلمتكم، وأمتع المسلمين بطول بقائكم،
فإنا نعرفكم بوصول كتابكم الخطير الأثير، فتلقيناه بما يجب من التكريم والتعظيم،
وتتبعنا فصوله، وأستوعبنا فروعه وأصوله، وتحققنا مقتضاه ومحصوله، وعلمنا
ما أنطوى عليه من المنن والإفضال: وأشتمل عليه من التفصيل والإجمال، ومن أعظم
ذلك إذنكم لنا في أداء فرض الحج المبرور وزيارة سيد البشر، الشفيع في المحشر،
الذي وجبت له نبوته، ومثى الغيب عليه مُنْجِدِل، وآدم صلواتُ الله عليه في طينته
مُنْجِدِل، وعلم الله أننا لم نزل آمالنا متعلقةً بِلُكُم المشاعر الكريمة، وقلوبنا متشوقةً
إلى بِلُكُم المشاهيد العظيمة، فلنا في ذلك نيّمت صادقةٌ التَّحْوِيم، وعزّمت داعيةُ
التصميم، وكان بؤدنا لو ساعدنا المقدار، وجرى الأمر على ما نحبّه من ذلك ونختار،
أن نتمتع برؤية المواطن التي تُقتر أبصاراً، ويتشفي بها إيراداً وإصداراً، ولعلّ الله
تعالى ينفعنا بخالص نيّاتنا، وصادق طويّاتنا، بمنه وكرمه .

وقد وجب شكركم علينا من كلّ الجهات، وأتصلت المحبة والمودة طول الحياة،
غير أنّ في قلوبنا شيئاً من ميلكم إلى غيرنا وأستئناسكم، ونحنُ والحمدُ لله أعلمُ الناس
بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف، ولنا القدرة على القيام بواجبكم، والوفاء
بكريم حقكم، وليس بيننا وبين بلادكم من يُخشى والحمدُ لله من كيدته، ولا يُبالي بهزله
ولا جدّه، وقد توجه إلى بابكم الشريف قرابتنا الشيخ الصالح الحبيب الأورع
الأكل الزاهد أبو زكريا يحيى ابن الشيخ الصالح المرابط المقدّس المرحوم أبي عبدالله

محمد، بن جرار الوادى، وهو من أهل الدين والخير، وقد شافهناه بما يُقْبِه إلى ذلكم المقام الشريف من تقرير الودِّ والإخاء، والمحبة والصِّفاء، مما يَعِجْز عنه الكتاب، فالتمت المقام الشريف يثق إلى قوله ويعامله بما يليق ببيته ودينه. وغرضنا أن نعرفوه بجميع ما يصلح لذلك المقام الشريف مما فى بلادنا، ويصلكم إن شاء الله فى أقرب الأوقات، على أحسن الحالات، ولكم بذلك علينا المِنَّةُ العُظْمَى، والمزِيَّةُ القُصْوَى، والله تعالى يُبْقِي ذلكم المقام الشريف محروسَ المذاهب، مشكورَ المناقب، إن شاء الله تعالى.

الجملة الثالثة

(فى المكاتبات الواردة عن صاحب "فاس" إلى الأبواب

السلطانية، بالديار المصرية)

وعادة كتبهم أن تفتح بلفظ « من عبد الله فلان أمير المسلمين » . وأوَّل مَنْ كتب منهم أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » حين استولى على المغرب، قبل بنى مرين، خضوعاً أن يتلقَّب بأمر المؤمنين مُضَاهَاةً للخلفاء . وهو :

من عبد الله على أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد فى سبيل ربِّ العالمين، ملك البرين، ومالك العُدوتين، ^(١) أبى سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل ربِّ العالمين، ملك البرين، وسلطان العُدوتين، أبى سعيد ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل ربِّ العالمين، ملك البرين، وسلطان العُدوتين، القائم لله بإعلاء

(١) كذا فى الأصل الوحيد وصوابه "أبى الحسن" كما يؤخذ مما تقدم فى الكلام على ملوك فاس من أن علياً هذا يكنى أباً الحسن وأنه ابن السلطان أبى سعيد عثمان ابن السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق فلم يبق فى الأصل من أعمال النساخ فتبه .

دين الحق، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، منح الله التأييد مقامه، وقسح لفتح
معاقل الكفر وكسر بحافل الصفر أيامه .

إلى السلطان، الجليل، الكبير، الشهير، العادل، الفاضل، الكامل، الحافل،
الملك، الناصر، المجاهد، المرابط، المناغر، المؤيد، المظفر، المنصور، الأسعد،
الأصعد، الأرقى، الأوقى، ناصر الدنيا والدين، وقامع البغاة والمعتدين، مفيد الأوطار،
مبيد الكفار، هازم جيوش الأرمين والفرننج والكرج والتتار، مالى صدور البرارى
والبحار، حامى القبلتين، خديم الحرمين، غيث العفاه، عون العناء، مصرف
الكتاب، مشرف المواقب، ناصر الإسلام، ناشر الأعلام، فخر الأنام، ذخرا الأيام،
قائد الجنود، عاقد البنود، حافظ الثغور، حامى الجمهور، نظام المصالح، بقية السلف
الصالح، ظهير الخلافة وعضدها، ولي الإمامة وسندها، عاضد كلمة الموحدين، ولي
أمير المؤمنين، أبي المعالى (محمد) ابن السلطان، الكبير، الجليل، الشهير، الشهيد،
الخطير، العادل، الفاضل، الكامل، الحافظ، الحافل، المؤيد، المظفر، المعظم
المبجل، المكبر، الموقر، المعزز، المجاهد، المرابط، المناغر، الأوحد، سيف الدين
(قلاوون) أدام الله فضل عزمه الماضى بتأييده، وأدار الأفلاك بتشديد ملكه
الشامخ وتمهيدته، وطهر أرجاءه من أرجاس المنافقين، وأدناس المارقين، بما يريق
عليها من دمائهم، فما كل متطهر يجزئ عنه غسل مائه أو تيمم صعيده .

سلام كريم، طيب عميم، أرج الشميم، متضوع النسيم، تستمد الشمس باهر
سنائه، ويستعير المسك عطر شذاه، يخص إخوانكم العلى، ووفاءكم الوفى،
ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى أيد المؤمنين، على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، وعرف
الإسلام وأهله من السر العجيب، والصنع الغريب، مافيه عبرة للسامعين والنظرين؛

حكمة عجزت عن فهم سرها المكتوم ، وقصرت عن كنهها المختوم ، ألباب عبيده
القاصرين . والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذي أرشد به الحائدين
الحائرين ، وأرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله برغم الجاحدين
الكافرين ، وعلى آله وصحبه الذين هاجروا إليه وبلادهم هجروا ، والذين آووا من أوى
إليهم ونصروا ، والذين جاهدوا في الله فصبروا ، ففازوا بذكر المهاجرين والأنصار
وأجر المجاهدين الصابرين ، وصلة الدعاء لحزب الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها
بفضلي لا يزالون معه لأعدائهم قاشرين ، وسعيد لا ينفكون له بأماهم ظافرين ،
ونصير من عند الله وما النصر إلا من عند الله وهو خير الناصرين .

فإنا كتبنا لكم - كتب الله لكم مجدا مديد الظلال ، وعرضا حديد الإلال ، وسعدا^(١)
جديد السربال - من منصوره "تيلمسان" حرسها الله تعالى ، والصنائع الربانية تكيف
العجائب ، وتعرف العوارف الرغائب ، وتسنف الأسماع بما تسمعها من إجزال
المُنوح والمواهب ، وتقفوف الرقاع بما تُودعها من أحاديث الفتوح الغرائب ، والحمد لله
على ما يسر من المآرب ، وسهل من المواهب . وإخاؤكم الصادق مبرور الجوانب ،
مأثور المناقب ، مشرق الكواكب ، مغدق السحاب ، نامي المراتب ، سامي المراقب ،
والله تعالى يبقيه في ذاته ، ويقيه من صرف الدهر وأذاته . وإلى هذا وصل الله
لكم سعدا جديدا ، وجدا سعيدا ، ومجدا حميدا ، وحمدا مجيدا ، فقد وصل كتابكم
الأثير ، المزرى بالمسك الثير ، فاجتلينا منه روضة جادها البيان فأمرعها ، ورادها البنان
فوشعها ، واجتينا من غصون سطوره ثمرات ودا ما أئبعها ، إنباء عما تلقاه الإخاء
الكريم من قبل الشيخ الأجل ، أبي عبدالله محمد بن الجراح مما عنا تحمل ، وفي إلفائه

(١) جمع آلة بمعنى الحربة .

وأدائه بحضرتكم الكريمة أحسن وأجمل ، وهو ما كان عليه عزم مولانا الوالدة
ألحقها الله تعالى رضوانه ، وبوأها جنانه : من حج البيت المحرم ، وزيارة [القبر] المعظم
المكرم ، والصلاة بالمسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وثالثها في شد
الرحال المسجد الأقصى ونعم المغتم ، وقضاء النسك بتلك المناسك والمشاهد ، والتبرك
بتلك المعالم المنيفة والمعاهد ، وما وصف مع ذلك بهذا الجانب الغربي ، ووصف
من أمر قتالنا لكل مارق أبي وكافر حربي ، وما منحنا الله من نصير لقلوب أهل
الإيمان مبهج ، ولصدور عبدة الصلبان مخرج ، وأن الإخاء الكريمة حصل له بذلك
أبهي آتجاج ، وحل منه محل القبول الذي آتجاج له من آتجى سبيل القصد أنهى
آتجاج ، فعقد العزم على تلقى الوافد من تلقائنا ، والوارد رجاء أداء فرض الحج من
أرجائنا ، بتسهيل سبيله ، وتيسير آرتحاله إلى بيت الله ورسوله ، وأنه متى وقع الشعور
بمقدم المولاة رحمها الله تعالى على بلاده ، وقربها من جهاته المجودة من جود جوده
بعهاده ، يقدم للخروج من يتلقى ركبها ، ويعتمد بالبر والتكريم جابها ، حتى تتحد وجهتها
الشريفة بجبل نظره وإيابها ، وقام عنا بما نوده من برها ، وساهم فيما تقدمه إلى الله عز
وجل من صالح أجرها . وقد قابلنا هذا الفضل من الشكر بأجرله ، ومن البر بأحفاه
وأحفله ، وحصل لدينا بإزائه سليم ووده وكريم إخوانه ، من تخليص ولآئه ، وتمحيص
صفائه ، مما لا يزال عهد الأنيق في نهائه ، وعقد الوثيق في أزد ياده وتمائه ، وغضنه
الوريق في رونق غلوائه ، ولئن كانت المولاة الوالدة قدس الله روحها ، وبرد ضريحها ،
قد وافت بما قدمت عند الله من صالح العمل ، وماتت على ما أبرمت في قصد البيت
الشريف من نية وأمل ، إذ كانت رحمة الله تعالى عليها قد تاهبت لذلك . واعتدت
لسلوك تلك المسالك ، وأداء ما فرض الله من السعاية والمناسك ، وعلى الله إجرال
نوايها ، وعنده نحتسب ما ألمت فآلم من مصابها - فإن لدينا ممن يمت بحرمة المحرم إلينا .

ويلزم بحق التربية علينا ، من يقومُ عندنا مقامها ، ويرومُ من ذلك المقصد الشريف مرّامها ، وسنُوردها إن شاء الله تعالى على تِلْكَ البِقَاعِ ، ونُوردها من تِلْكَ الأقطارِ والأصقاعِ ؛ ما يَجْمَلُ بِحُسْنِ نَظَرِكُمْ مَورِدُهُ ومُصدَرُهُ ، وَيَطَّابِقُ في جَمِيلِ أَعْتَائِكُمْ وَحَفِيلِ أَحْتِفَالِكُمْ خَبْرَهُ وَمَحَبْرَهُ ، بِفَضْلِ اللَّهِ وَعُونِهِ .

وأما تشوقُ ذلِكُم الإخاءَ ، لمواصلةِ الكُتُبِ بسارِّ الأبناءِ ؛ فإنَّ من أقرَّبها عهدًا ، وأَعَدَّهَا حَدِيثًا يَهَادِي وَيُهْدِي ، ما كان من أمرِ العاقِّ قاتِلِ أبيه ، الحالُّ من إقليمِ تِلْكَ السانِ وممالكها بالمحلِّ النَّبِيهِ ؛ وذلك أنَّ أسلافه بنى زِيَّانَ ، كانوا قد آسَوتُوا على هذه المملكةِ في سالفِ الزَّمانِ ، ولم يزل بينهم وبين أسلافِ المحتوين على مُلْكِ المغربِ الأقصى وقائعُ تُورِدُهُم الحِمَامَ ، وتَدِيقُهُم الموتَ الزَّوَامَ ، فيدَعُونَ المنازعةَ ، ويعودُونَ للموادعةِ ، ثم لم يلبثوا ، أن يَنْكُثُوا ، ولم يَصْبِرُوا ، أن يَغْدِرُوا ، إلى أن كان من حِصَارِ عَمَّا المقدَّسِ المرحومِ أبي يعقوبَ قدس الله تُربته إياهم ، فأكثر موتهم وكدر محيَّاهم ، وتمادى بهم الحِصَارُ تسعَ سنين ، وما كانوا غيرَ شَرِذِمَةٍ قليلين ، وهُنالكُم آتَصَلتْ بينكما المُرَاسَلَةُ ، وحصلت الصِّداقَةُ والمُواصلَةُ ، ثم حُمَّ موته ، وتمَّ فَوْتُهُ ، رحمة الله تَومَهُ ، ورضوانه يَشْمَلُهُ وَيَعْمَهُ ، فَنَفَسَ خِنَاقُهُمْ ، وعاد إلى الإِبْدَارِ مُحَاقُهُمْ ، وصرفَ القائمُ بعده عنهم الحينَ ، عَمَّا كان هو رحمة الله قد طَوَّعَهُ من بلادِ مَغْرَاوَةِ وتَحِينِ ، فَاتَّسَعَتْ عليهم المسالكُ ، وملكوا ما لم يكن فيه لأوائِلُهُمْ طَمَعٌ من الممالكِ ، لكنَّ هذا الخائنُ وعمه كانا ممن أسارته الفتنُ ، وعم به فيها غوامِرُ المِحْنِ ، فسلكا مسلكَ أسلافهما في إذاعةِ المُهادنةِ ، والرَّوْغانِ عن الإعلانِ بالمُفاتنةِ .

ولما سَوَّلَ الشَّيْطَانُ لِهَذَا العاقِّ قَتْلَ والده ، والإِسْتِيلاءَ على طارِفِهِ وتالِدِهِ ، لم يَقْدَمْ عَمَلًا على إِشْخَاصِ إرساله بِحَضْرَةِ مولانا المقدَّسِ أبي سعيدِ ، قدس الله

(١) مراده أنه بدأ أزل كل شيء. باشخاص الخ .

مَثْوَاهُ ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ مَأْوَاهُ ، فِي السَّلْمِ رَاغِبًا ، وَلِلْحُكْمِ بِمَوَادِعَتِهِ طَالِبًا ، فَاقْتَضَى النَّظَرَ
 الْمَصْلِحِيَّ حِينَئِذٍ مُوَافِقَتَهُ فِي غَرَضِهِ ، وَإِنْ كَانَ بَاطِنُهُ عَلَى مَرَضِهِ ، فَقَوِيَ أَمْرُهُ ، وَضَرِيَ
 ضُرُّهُ ، وَشَرِيَ شَرُّهُ ، وَوَقَدَ تَحْتَ الرَّمَادِ بَحْرُهُ ، وَسَرَى إِلَى بِلَادِ جِيرَانِهِ الْمُوَحَّدِينَ دَاوُهُ ،
 وَطَالَ عَلَيْهِمْ تَضْيِيقُهُ وَأَعْتَدَاوُهُ ، وَأَسْتَشْعَرَ ضَعْفَهُمْ عَنْ مَدَافِعَتِهِ ، وَوَهَنَهُمْ عَنْ مَقَاوِمَتِهِ
 وَمَنَازِعَتِهِ ، فَبَغَى وَطَغَى ، وَلَمْ يَدْرِ أَنَّ مِنْ فَوْقِهِ سَقَبَ السَّمَاءِ رَغَا ، وَبَاطَنَ جَمَاعَةٍ مِنْ
 عَرَبِ أُفْرِيْقِيَّةِ الْمَفْسِدِينَ وَجَرَّوهُ بِجَبَلِ الْأَطْمَاعِ إِلَيْهَا ، وَأَقَامَ عَلَى بِحَايَةِ عَشْرِينَ سَنَةً
 يَشُدُّ عَلَى بِحَايَةِ الْحِصَارِ ، وَيُسُّنُّ عَلَى أَحْوَازِ تُونُسِ الْغَارِ ، حَتَّى كَانَ مِنْ هَزِيمَةِ جَيْشِهِ
 لِمَالِكِهَا مَا كَانَ ، بِمَالِيَّةٍ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ وَرَاتِيهِ (؟) كَابْنِ اللَّحْيَانِيِّ ، وَابْنِ الشَّهِيدِ ،
 وَابْنِ عِمْرَانَ ، فَادَى ذَلِكَ صَاحِبَهَا السُّلْطَانَ أَبَا بِيحِيٍّ أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ بَعَثَ إِلَيْنَا
 وَزِيرَهُ فِي طَلَبِ النُّصْرَةِ رَسُولًا ، وَأَوْفَدَ عَلَيْنَا أَعَزَّ وَلَدَهُ أَبَا زَكَرِيَّا فِي إِذْهَابِ الْمَضْرَّةِ عَنْهُ
 دَخِيلًا ، نَحَاطَبُنَا إِذْ ذَاكَ هَذَا الْخَائِنَ الْعَاقَّ مَبْصُرِينَ ، وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ مَذَكَّرِينَ ، فَمَا زَادَتْهُ الْمَوْعِظَةُ الْأَشْرَاءَ ، وَلَا أَفَادَتْهُ
 التَّذَكُّرَةُ إِلَّا بَطْرًا ، وَحِينَ ذُكِّرَ فَلَمْ تَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ، وَفُكِّرَ فَلَمْ يَتَبَسَّرْ لِلْيُسْرَى ، أَمَثَلْنَا
 فِيهِ أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى الْمُرْتَبِّ عَلَى قَوْلِهِ ﴿ وَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ﴾ فَارْمَعْنَا قَدْعَهُ ،
 وَأَجْمَعْنَا رَدَّهُ وَرَدْعَهُ . وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ وَصَلَ إِلَيْنَا أَيْضًا سُلْطَانُ الْأَنْدَلُسِ مُسْتَغِيثًا عَلَى
 النَّصَارِيِّ أَعْدَاءِ اللَّهِ جِيرَانِهِ عَلَى طَاغِيَتِهِمْ ، الْمُصِرِّ عَلَى عِدَاوَتِهِ وَعِدَاوَتِهِمْ ، بِفَهْمِنَا مَعَهُ
 وَلَدْنَا عَبْدَ الْوَاحِدِ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ مِنَ الْأَبْطَالِ ، وَأَمَدَدْنَا بِمَا كَفَاهُمْ مِنَ الطَّعَامِ
 وَالْعُدَّةِ وَالْمَالِ ، فَاجَازَ مِنْ سَبْتَةِ إِلَى الْخِضْرَاءِ عَجَلًا ، وَلَمْ يُقَدِّمِ عَلَى مَنَازِلَةِ جَبَلِ الْفَتْحِ
 عَمَلًا ، وَكَانَ هَذَا الْجَبَلُ الْخَطِيرُ شَأْنُهُ مِنْذُ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْعَدُوُّ قَصَمَهُ اللَّهُ فِي سَنَةِ
 تِسْعٍ وَسِتِّينَ شَجًّا فِي لَهَوَاتِ أَهْلِ الْعُدُوَّتَيْنِ ، وَغُصَّةً لِنُفُوسِ السَّاكِنِينَ بِالْجِهَتَيْنِ ،

لإطلائه عليهما، وإرساله جوارح جواريه إليهما، تخطف من رام العبور ببحر الزقاق، وما يقرب الملجأ إلى هذا المعقل المستقر من اللحاق، فكم أرملة وأيتم، وأنكل وأيم - فأحاطت به العاديات السوايح برأ وبحرا، وأذاقت من به من أهماج الأعلاج شرا وحضرا، إلى أن أسلموه للمسلمين قهرا وقسرا، ومنح الله حزبه المؤمنين فتحا ونصرا، وسمع الطاغية الغادر إجابة الله تعالى بأمره، فطار بما قدر عليه من حشوده وجنوده إلى إغائته ونصره، فوصله بعد ثمانية أيام، من تسليمه للإسلام، فنزل بجياله ورجله إزاءه، وأقسم بمعبوده لا يبرح فناءه، حتى يعيد إليه دينه، أو يلقى منونه دونه، فأكذب الله زعمه، وأوهن عزمه، وأحنت يمينه، وأقلع بعد شهرين وأيام مدبجا، وأسرع العود إلى مستقره وأسأله كيف نجا، وكان ذلك سبب إنايته للسلم وأتقياده، وإجابته لترك ما كان له على أصحاب "غرناطة" من معتاده، وكانوا يعطونه ما ينيف على الأربعين ألفا من الذهب في العام، ضريبة الزمهم الطاغية أداءها في عقد مصالحته أي إلزام، فسمناه تركها وإسقاطها، والزمناه فيما عقدناه له من السلم أن يدع اشتراطها، والحمد لله الذي أعز بنا دين الإسلام، وأذل رقاب عبدة الأصنام، وقد آعتينا بتحصين حصن هذا الجبل تميها وتكميلا، وأبتدأنا من تحصين أسواره وأبراجه بما يقدو على جبينه تاجا وإكليلا. وكنا في هذه المدة التي جرت بها هذه الأحوال، وعرت فيها هذه الأهواء والأهوال، منازلين أخانا الممتنع "بسجلماسة" من بعض بلاد القبلة، ومحاولين من إزاحة ضره، والإراحة من شره، مافيه الصلاح والفلاح على التفصيل والجملة، لعنايته في الفساد، ودعايته إلى العناد، ومعاضدته صاحب "تلمسان"، ومساعدته على البغي والعُدوان، فسهل الله أفتاحها، وعجل من صنائه الجميلة منها مباحها، وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهر ونصف، ويسر الله تعالى في ذلك من بدائع الصنائع ما يقصر عنه كل نعت ووصف.

وفي خلال تلك المنازله ، وحال تلك المحاولة ، لاحت للنائن التلمساني فرسه ، جرع
 منها غصه ، إذ ظن أنا عنه مشغولون ، وفي أمرٍ ماعرض من سجالها (١) وجبل الفتح
 معتملون ، فخرج من بلده على حين غفلة بالعزيمة والجلد ، إلى حصن ماوررت الذي
 هو بين بلاده وبلادنا كالحلد ، فوجد هناك ولدنا الأسعد تاشفين ، في ثلثة من
 بني مرين ، آساد العرين ، فلما نذروا به ثاروا إليه مسرعين ، فنكص على عقبه ،
 ولم ير له جنة أوقى من هربه ، وداد لذلك ثابته ، فلم تكن عساكرنا عن طرده وانيه ،
 بل ردت في الحافره ، وأنشدته بلسان حالها الساخره :

إن عادت العمربُ عدنا لها * وكانت النعلُ لها حاضره

ولما فرغنا والحمد لله من تلك الشواغل ، وأرغنا من الخائن التلمساني ترك ما هو
 فيه من إثارة الفتن واغل ، فأعرض وأشاح ، وما لاحت عليه مخيلة فلاح ، نهدينا
 نحو أرضه ، لتجزيه بقرضه ، بجيوش يضيق عنها فسيح كل مدى ، وخبول تدر
 الأكم للموافر سجدا ، تنقض على الأقران أمثال الأجادل ، وتقض الجنادل من
 حوافرها بأصلب من الجنادل ، فكلفنا بتسلم منازلنا منزلا فنزلا ، وتسلم معاقله معقلا
 ثمعقلا ، وجل رعاياه تفر بفضلنا ، وتفر من جوره إلى عدلنا ، ومن تمسك منهم بجبله ،
 أو سلك من النى في سبله ، قاده السيف برغمه ، وأستزله على حكمه ، والنفوس مع ذلك
 يؤمهم ، والإحسان يشملهم ويعمهم ، حتى لم يبق إلا معقله الأشب ، ومنزله الذي
 رأى أنه عن عين الشوايب محتجب ، قد شمع أنفا حيا ، وصاح كفا للثريا ، ولم يرض
 لهامته عمائم إلا الغائم ، ولا لأنامل شرفاته خواتم . إلا الشجوم العواتم ، فنزلنا بساحه ،
 وأقبلنا على كفاحه ، وجعلنا نقدفهم من حجارة المجانيق ، بأمثال النيق ، ومن كيزان
 النقط الموقده ، بأمثال الشهب المرصده ، ومن السهام العقاره ، بأمثال العقارب

(١) كذا في الأصل باهمال الحروف ولعله مصحف عن بنزرت تأمل

الحراره ؛ حتى غدت جذرائهم مهدومه ، وجسومهم مكلومه ، وثغور شرفاتهم
 في أفواه أبراجهم مهتومه ؛ وظلت الفعلة كسيدة إزاء أبراجهم أبراجا ، وتمهد منها
 لتسوير أسوارهم أدرجا ؛ وللعاول في أسانلها إعوال ، وللعواسل على أعاليها أعمال ،
 وللأشقياء مع ذلك شدة وجلد ، وعدة وعدد ، وحدة ولدد ، يقابلون حميه ؛ وينازلون
 بنفوس أبيه ، وحجارة المجانيق تشدح هامهم ، وبنات الكائن تزلزل أقدامهم ؛ وهم
 في مثل ذلك لازمون إقدامهم ، إلى أن آستدت أزمته فلم يجدوا لها من فارح ،
 وأحاطت بهم الأوجال من خارج ؛ وهدمت أبراجهم الشواحق ، وردمت حفائرهم
 والحنادق ؛ وأخذت الكماة ، في العروج ، إلى البروج ، والحماة ، في السباق ، إلى الأنفاق ،
 والرماة ، في النضال ، بالنصال ، فمن مرتقي سلما ، غير متقي مؤلما ، ومشتغل بالنقب ،
 غير محتفل بشابور الحجارة المنصب ؛ وأفرج المضيقي ، وأنتهج الطريق ؛ وأقتحمته
 أطلاب الأبطال ، وولحته أقبال القبائل وولى الأشقياء الأدبار ، وعادوا بالفِرار ،
 وبدت عليهم علامات الإذبار ؛ وسابقوا إلى الأبواب ، فكان مجيهم من أقوى
 الأسباب ، وقتل منهم الزحام ، من أساره الهدم والحسام ؛ فتملكا مادارت عليه
 الأسوار الخارجة : كفرار السبع والملعب ، وجميع الحنان والعروش التي ما أنفك الشقي
 يجتهد في عمارتها ويتعب ؛ وأعلنا بالنداء أن كل من جاءنا هاربا ، ووصل إلينا تائبا ،
 منحناه العفو ، ومحونا عنه الهفوب ؛ وأوردناه من إحساننا الصفوب ؛ فتبادروا عند ذلك
 يتساقطون من الأسوار ، تساقط جنيات الثمار ؛ فرادى ومثنى ، آيين إلى الحسنى ؛
 فيسمعهم الصفح ، ويحسبهم المن والمنح .

ولما رأى الخائن قلة من بقي معه ، وشاهد تفرق من ذلك الموقف جمعه ؛ أمر
 بسراح من في قبضته وسجنه ، واعتقدهم عوناً له فكانوا أعون شيء على وهيه ووهيه ؛
 وأعتمد الناس في بقية يومهم السور لتوسع أنقابه ، وتخرق أبوابه ؛ إلى أن جنهم

الليل، وحقّ منهم بالأعداء الويل؛ ولزم كلّ مركزه، ولم يكن الليل ليحجبه من عمله ولا يحجزه؛ وبات الفرار إلينا يهربون، ومن كل نفق يتسربون؛ فلما ارتفع الضياء، وتمتع الضحاء، أمرنا ولدينا: يعقوب وعبد الواحد، ووزيرنا القاعدله بالمرأصد، بأن زحفوا إليها، مع أطلابنا تحت راياتنا المنصورة عليها؛ فرجفت قلوبهم، ووجبت جنوبهم؛ ولم يكن إلا كلاً حتى امتطيت تلك الصهوه، وتسنمت فيها الذروه، وتسلمت بيد العنوه، وفصمت عراها عروة عروه، وأنزلوا من صياصيمهم؛ وتمكنت يد القهر من نواصيمهم، وحقّت عليهم كلمة العذاب من معاصيمهم؛ وفر الشقي إلى فناء داره، في نفر من ذويه وأنصاره؛ وفيهم ولداه مسعود وعثمان، ووزيره موسى ابن علي معينه على البغي والعصيان؛ وعبد الحق بن عثمان الخائن الغادر، وابن أخيه العامل بعمله ثابت بن عامر، فتكتفهم هنالك أولياء دولتنا عليه، فأوردوهم ويوسف ولد الشقي السالب حياض المنيه، ونبذت بالعرأء أجسامهم، وتقدمنا للحين، بأن يمدّ على الرعية ظلّ التامين؛ ويوطأ لهم كنف التهديّة والتسكين، ويوطد لهم مهاد العاقبة؛ وتكف عنهم الأكف العادية، حتى لا تمتد إليهم كف منهب، ولا يلتفت نحوهم طرف منسلب؛ ومن أنتهب شيئاً أمر برده، وصدّ عن قصده - وكلّ لنا والحمد لله بالاستيلاء على هذا القطر جميع البلاد، الداخلة في ولاية بني عبد الواد؛ ونسخت منها دولتهم، ومجيت من صحيفتها دعوتهم؛ وعوض الرعايا من خوفهم أمنا، ومن شومهم يمنا؛ وشملتهم كلمتنا الراقية، المنصورة بكلمة الله الباقية؛ وفي ذلك معتبر لأهل اليقين، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

والحمد لله على هذه النعمة التي أفاضت على النعم جلالاً، والصنيفة التي بهرت الصنائع جمالاً؛ وأضفت على المسلمين من الصلاح والعافية سربالاً . وقد رأينا من حقّ هذا الإنعام الجسم، والصنع الرائق الوسيم؛ أن نتبع العفو بعد المقدرة،

(١)
بالإحسان لمن أسلف لنا غمطه أو شكره ، [فمننا] على قبائل بني عبد الواد ، وأضفينا
عليهم صنوف الملابس نساء ورجالا ، وأوسعنا لهم في العطاء مجالا ، وأفعمنا لهم
من الجباة سجالا ، وأقطعنا لهم من بلاد المغرب حاطها الله تعالى ما هو خير
من بلادهم ، وحبوناهم منها بما كفل بإحساب مرادهم ، وإخصاب مرادهم ،
وخلطناهم بقبائل بني مرين ، وحطناهم بانحاد الكلمة من تقول المتقولين ، وتزوير
المزورين ، وأعددنا منهم لأوان الجهاد أوفر عدد ، وأعدنا من فرسانهم ورجاهم
لقطعان الأعدى أكبر مدد ، وأزِيل عن الرعايا بهذه البلاد الشرقية إضرهم ، وأزيج
عنهم بتوخي العدل فيهم جورهم ووزرهم ، وخففنا عنهم ما آد من المغارم ، وهاد
من المكارم ، فانشرحت صدورهم ، وصلحت أمورهم .

والحمد لله الذي نل محال الباغين ومجالهم ، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم ،
وأخذهم بما احتقبوا من المآثم ، واكتسبوا من الجرائم واستحلوا من المحارم ،
وأباحوا من المسكرات ، وأذاعوا من المنكرات ، وطالما أصبح ربهم معدين
الفسوق ، وموطن العقوق ، ومقطن إضاعة الحقوق ، لاسيما في أيام المسرور بهناته ،
المغرور بما سهول له الشيطان وأمل له من ترهاته ، المشهور بقتل أبيه ، المأثور
من مثالبه ومعاييه بما لم يأت الدهر له بشييه ، ولقد طبقت الآفاق معاصيه ،
وبلغت أخبار خيائته من باطراف المعمور وأقاصيه ، ولكن الله تعالى أمل له
ليكثر ما نمه ، حتى إذا شاء أخذه أخذ القرى وهي ظالمه .

والحمد لله الذي طهر بأيدينا هذه الأرجاء من أرجاسه ، ورحص عنها بأيدينا
أوضار أدناسه وأنجاسه ، وأتاح لأهلها بهلاك هذا المرید المراد ، وأراح منه ومن شيعته

(١) بصر في الأصل لهذه الكلمة وقد اقتبسناها من المتام .

(١) والبلاَد والعباد ، ولو لم يُكُنْ إلا مانال الحُجَّاج من تَعْنِيهِ وتَعَدِّيهِ ، وطالَ عليهم من تَعَرُّضِهِ لَهُمْ وَتَصَدِّيهِ ، حَتَّى حَجَزَ عَنِ الحِجَازِ الشَّرِيفِ قُصَادَهُ ، وَحَجَرَ بَقَطْعِ السَّبِيلِ عَنِ بَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ مَنْ أَرَادَهُ ، فَكَم سَلَبِ الحُجَّاجِ ، وَسَدِّ عَلَيْهِمِ المَسَالِكِ وَالفِجَاجِ ، وَفَرَّقَ فَرِيقَهُمْ ، وَعَوَّقَ طَرِيقَهُمْ . وَالآنَ بِحَمْدِ اللَّهِ حَقَّتِ الحَقَائِقُ ، وَارْتَفَعَتِ العَوَائِقُ ، وَصَحَّ العَلِيلُ ، وَوَضَّحَ السَّبِيلُ ، وَتَسَهَّلَ المَرَامُ ، وَتَيَسَّرَ القَصْدُ إِلَى البَيْتِ الحَرَامِ ، مَكَانَ تَرُدِّه الزُّوَّارَ عَلَيْكُمْ أَرْسَالًا ، وَوَفُودِ الأَبْرَارِ لِلسَّلَامِ خِفَانًا وَنِقَالًا ، يَا تُونَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، وَيَقْضُونَ مَا يَقْضُونَ مِنْ مَنَاسِكِهِمْ ، آمِنِينَ فِي مَسَالِكِهِمْ ، إِلَى البَيْتِ العَتِيقِ ، وَهَكَذَا أَيْضًا خَلَا وَجْهَنَا لِجِهَادِ الرُّومِ ، وَإِلَاعِدَادِ مَنْ يَغْزُونَهُمْ فِي عَقْرِ دَارِهِمُ لِلقَصْدِ المَرُومِ ، وَأَنْ نَجِدَّ مِنْ هَذَا العَمَلِ بِجَزِيرَةِ الأَنْدَلُسِ حَمَاهَا اللَّهُ تَعَالَى مَا لِسَلَفِنَا بِهَا سَلَفٌ ، وَنَبَدَّ مِنْ شَمْلِ عُبَادِ الصَّلِيبِ مَا نَخْلَفُهُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى خَيْرَ خَلْفٍ ، فَعَمَلُ الجِهَادِ ، بِهَذِهِ البِلَادِ ، هُوَ الفَضِيلَةُ الَّتِي لَنَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ ذَخْرُهَا ، وَالحَسَنَةُ الَّتِي فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِنَا سَطَرُهَا ، وَبِجِيوشِنَا المَنْصُورَةِ عَزَّ دِينُ الإِسْلَامِ بِهَذَا المَغْرِبِ الغَرِيبِ ، وَبِسُيُوفِنَا المَشْكُورَةِ وَاللَّهُ المَشْكُورُ ذَلَّ بِهَا الصَّلِيبُ ، أَوْزَعَا اللَّهُ تَعَالَى شُكْرَ آلائِهِ ، وَأَمْتَعَنَا بِتَوَاتُرِ نِعْمَائِهِ ، بِعَمَّةٍ وَفَضْلِهِ .

وَأَنهِنَا لِعَالِمِكُمُ الكَرِيمِ هَذِهِ الأَنْبَاءَ السَّارَةَ ، وَالأَلَاءَ الدَّارَةَ : لِمَا ذَكَّرْتُمْ مِنْ تَشَوُّفِكُمْ لِاسْتِطْلَاعِهَا ، وَسَطَّرْتُمْ مِنْ تَشَوُّفِكُمْ لِاسْتِمَاعِهَا ، وَلِعَلِّمْنَا أَنْكُمْ تُسَرُّونَ بِقَطْعِ دَابِرِ البَاغِينَ ، وَتَسْتَبْشِرُونَ بِحَسْمِ أَدْوَاءِ الطَّاغِينَ ، وَتُؤَثِّرُونَ الإِخْبَارَ بِإِتِّلَافِ الكَلِمَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ الكَافِرِينَ إِثَارَ الحَامِدِينَ لِفِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى فِي إِظْهَارِ دِينِهِ الشَّاكِرِينَ . لِأَنَّهُمْ تُسَرِّعُ نَحْوَكُمْ البِشَائِرَ ، وَتُفَرِّعُ بِذِكْرِكُمُ المَنَابِرَ ، وَتُرْفَعُ لِاجْتِلَاءِ أَنَارِ أَمْرِكُمُ السَّنَائِرَ ،

(١) لم يذكر في كلام جواب لونه ، ولكنه معوم أي تكفي تأمل .

وَأَسْجَلَاءِ أَخْبَارِ سِيرَتِكُمُ الْبَاهِرَةِ النَّوَظِرِ، وَتُجْمَعُ لَسَجَايَاكُمْ السَّنِيَّةِ الْعَلَاءِ، وَمَزَايَاكُمْ
الْعَلِيَّةِ السَّنَاءِ، ثَوَاقِبُ الْمَنَاقِبِ وَقَوْلُ خَيْرِ الْمَفَاحِرِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَالسَّلَامُ الْأَتَمُّ ،
الْأَضْوَعُ الْأَتَمُّ ، يُحْصَى إِخَاءَكُمْ الْأَوْفَى ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

قلت : جواب هذا الكتاب [تقدم] في الكلام على المكاتبات عن الأبواب
السلطانية في المكاتبات إلى الملوك .



وهذه نسخة كتاب ورد من أبي الحسن المريني صحبة الهدايا، والحررة الحاجة
في شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين وسبعائة، ونصه بعد البسملة :

من عبد الله على أمير المسلمين ، ناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ،
ملك البرين ، مالك العدوتين ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب
العالمين ، ملك البرين ، وسلطان العدوتين ، أبي سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين ،
المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، وسلطان العدوتين ، أبي سعيد ،
ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، وسلطان
العدوتين ، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفسح
لفتح معاقل الكفر وكسر جحافل الصفر أيامه .

إلى السلطان الجليل ، الكبير ، الشهير ، العادل ، العاضل ، الكامل ، الكافل ،
الملك ، الناصر ، المجاهد ، المرابط ، المؤيد ، المنصور ، الأسعد ، الأصعب ، الأرقط ،
الأوقى ، الأتجد ، الأتجد ، الأنجم ، الأضخم ، الأوحد ، الأوفى ، ناصر الدين ، عاصد
كلمة المسلمين ، محيي العدل في العالمين ، فاتح الأمصار ، حازم ملك الأقطار ، مفيد

(١) تقدم في ص ٨٧ من هذا الجزء التنبيه على سلسلة نسب أبي الحسن فتنبه .

الأوطار، مُبِيد الكُفَّار، هازِمُ جيوش الأَرَمَن والفرنج والكرج والتتار، خادمِ
 الحرمين، نَيْثُ العَفَاء، غَوْثُ العَنَاء، مُصَرِّفُ الكِتَاب، مُشْرِفُ المَوَاكِب، ناصر
 الإسلام، نَاشِرُ الأَعْلَام، نَجْرُ الأَنَام، ذُخْرُ الأَيَّام، قَائِدُ الجُنُود، عَاقِدُ البُنُود، حَافِظُ
 الثُّغُور، حَاطِطُ الجُمُهور، حَامِيُ كَلِمَةِ المُوَحِّدِينَ، أَبِي المَعَالِي، مُحَمَّدِ بنِ السُّلْطَانِ،
 الجليل، الكبير، الشهير، الشهيد، الخطير، العادل، الفاضل، الكافل، الكامل،
 الحافظ، الحافل، المؤيد، المكرم، المبجل، المكبر، الموقر، المعزز، المعز، المجاهد،
 المرابط، المناغر، الأوحيد، الأُسَيد، الأُسَيد، الأوفى، الأنعم، الأضخم، المقدس،
 المرحوم، الملك المنصور، سيف الدنيا والدين، قَسِيمُ أمير المؤمنين، أبقَى اللهُ مُلْكَ
 موصول الصَّوْلَةِ والأَقْدَارِ، تَحْيَى الحَوْزَةِ حَامِيًا لِلدِّيَارِ، حَمِيدَ المَائِرِ المَأْتُورَةِ والآثَارِ،
 عَزِيزَ الأَوْلِيَاءِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ والأَنْصَارِ.

سَلَامٌ كَرِيمٌ، زَاكٍ عَمِيمٌ، تُشْرِقُ إِشْرَاقَ النِّهَارِ صَفْحَاتُهُ، وَتَعْبِقُ عَن شَدَا الرُّوضِ
 المِعْطَارِ نَفْحَاتُهُ، يُخْصُّ إِخَاءَكُمُ العَلِيَّ، وَرَحْمَةَ اللهِ وَبَرَكَاتِهِ .

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ الَّذِي وَسَّعَ العِبَادَةَ مِنَّا جَسِيًّا، وَفَضَّلَنَا جَزِيلًا، وَأَهْمَمَهُمُ الرِّشَادَ
 بِأَنْ أَبْدَى لَهُمْ مِنْ آثَارِ قُدْرَتِهِ، عَلَى مِقْدَارِ وَحْدَتِهِ، بُرْهَانًا وَاضِحًا وَدَلِيلًا. وَأَلْزَمَ أُمَّةَ
 الإسلامِ، حَجَّ بَيْتِهِ الحَرَامِ، مِنْ أَسْتِطَاعِ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَجَعَلَ تَعْظِيمَ شَعَائِرِهِ مِنْ تَقْوَى
 القُلُوبِ، وَمَثَابَاتِ مَحَطِّ الأَوْزَارِ وَالدُّنُوبِ، فَمَا أَجْزَلَ نِعْمَتَهُ مِنِّيلاً، وَأَجْمَلَ رَحْمَتَهُ رَبَّهُ
 مَقِيلًا، وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدِ المِصْطَفَى مِنْ أَفْضَلِ العَرَبِ
 فَصِيلَةً، فِي أَكْلِ بَقَاعِ الأَرْضِ فَضِيلَةً، وَأَكْرَمِيهَا جَمَلَةً وَتَفْصِيلًا، المِجْتَبَى لِحَمِّ الرِّسَالَةِ .
 وَحَسْمِ أَدْوَاءِ الضَّلَالَةِ، فَأَحْسَبُ اللهُ بِهِ النُّبُوَّةَ نُبِيًّا وَالرِّسَالَةَ تَكْيِيلًا، المَخْصُوصِ بِالحَوْضِ
 المَوْرُودِ، وَالمَقَامِ المَحْمُودِ، يَوْمَ يَقُولُ العَظِيمُ (يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَخِذْ فُلَانًا حَبِيلًا) المَبْوَا

من دار هجرته ، ومقرّ نُصْرته ، محلاً ما بين بيته ومنبره فيه روضةٌ من رياض الجنة لم
 ينزل بها نزيلاً ، والرضا عن آله الأبرار ، وأصحابه الأخيار ، الذين فضلتهم سابقةُ
 السعادة تفضيلاً ، وأهلتهم العناية [بأمر الدين إلى أن يُوسِعُوا الأحكامُ برهاناً ودليلاً ،
 فإننا نحيط علم^(١)] الإخاء الأعزّ ما كان من عزم مولاتنا الوالدةِ قدس الله روحها ،
 وتورّضَ رِيحها ، على أداء فريضة الحجّ الواجبه ، وتوفية مناسكه اللازبه ، فاعترض
 الحام ، دون ذلك المرام ، وعاق القدر ، عن بلوغ ذلك الوطر ، فطوى كتابها ،
 ونجّل إلى مقرّ الرحمة بفضل الله مآبها ، وعلى الله أجرها ، وعنده يحْتَسَبُ ذُرُها ،
 وإنّ لدينا من نوجب إعظامها ، وتقييمها بحكم البرّ مقامها ، وعزمها إلى ما أمّته
 مصروف ، وأملها إلى ما كانت أمته موقوف ، وهى محلّ والدتنا المكرّمة ، المبرورة ،
 الأثيرة ، الموقرة ، المبجلة ، المفضّلة ، المعززة ، المعزرة ، المعظمة ، المطهرة ، أسنى
 الله مكاتبها ، وسنى من هذا القصد الشريف لبانتها ، وقد شيعناها إلى حج بيت
 الله الحرام ، والمثول بحول الله تعالى ما بين زمزم والمقام ، والفوز من السلام ، على
 ضريح رساله ، ومثابة الجلاله ، بنيل السؤل والمرام : لتظفر بأملها المرغوب ، وتتفرّ
 بعد أداء فرضها لأكرم الوجوب .

وحيث شخص لذلك الغرض الكريم ، موكبها ، وخلص إلى قصد الحرم العظيم ،
 مذهبها ، والكرامة تُلحِقها ، والسلامة إن شاء الله تكفّفها ، أصحابناها من حور
 دولتنا وأحظيائها ، ووجوه دعوتنا العلية وأوليائها ، من اخترناه لهذه الوجهة الحميدة
 الأثر ، والرحمة السعيدة الورد إن شاء الله تعالى والصّدرب من أعيان بني مرّين أعزّمهم
 الله تعالى والعرب ، وأولاد المشايخ أولى الديانة والتقوى المالكين دلاء القرب ، إلى

(١) فى الأصل وأهلتهم العناية الإخاء الخ ولا يخفى ما فيه . ولعله سقط من قلم الناصح شئ . فزدنا ما بين

التريمين لا على أنه هو الساقط بل ليرتبط الكلام نوع ارتباط تأمل .

عَقْدَ الْكَرْبِ ، وَكَلَّ مِنْ لَهُ أَثْرَةٌ مَشْهُورَةٌ ، وَشُهْرَةٌ بِالْمَزَايَا الرَّاحِمَةِ وَالسَّجَايَا الصَّالِحَةِ
 مَأْتُورَةٌ ، وَقَصْدُهُمْ مِنْ أَدَاءِ فَرِيضِ الْحَجِّ قَصْدُهَا ، وَوَرْدُهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ
 مَنَهْلِ بَرَكَاتِهِ الْجَمَّةِ وَرُدُّهَا ، وَهَكَذَا سِيرْنَا مِنْ تُخَفِ هَذِهِ الْبِلَادِ إِلَيْكُمْ مَا تَيْسَّرَ فِي الْوَقْتِ
 تَسِيرُهُ ، وَإِنْ تَعَدَّرَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا قَصَدْنَاهُ وَلِهَذَا الْفَرِيضِ أُرْدِنَاهُ تَسِيرُهُ ، لِطُولِ الْمَغِيبِ
 عَنِ الْحَضْرَةِ ، وَالشُّغْلِ بِتَمْهِيدِ الْبِلَادِ الَّتِي فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ السَّفَرِ ، وَعَيْنًا
 لِإِيَادَتِنَا لَدَيْكُمْ ، وَإِيَادَتِنَا عَلَيْكُمْ ، أَبَا إِسْحَاقَ ابْنَ الشَّيْخِ أَبِي زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنِ عَثْمَانَ
 السُّوَيْدِي ، وَأَمِيرَ الرِّكْبِ الْحَسَنَ بْنَ عِمْرَانَ وَغَيْرَهُمْ ، كَتَبَ اللَّهُ سَلَامَتَهُمْ ، وَيَمِّنُ
 نَظْمَهُمْ وَإِقَامَتَهُمْ . وَمَقَامُ ذَلِكَ الْإِخَاءِ الْكَرِيمِ يُسَنِّي لَكُمْ مِنَ الْيُسْرَى وَالتَّسْهِيلِ الْقَصْدَ
 وَالسُّوْلَ ، وَيَأْمُرُ نَوَابِ مَالَهُ مِنَ الْمَمَالِكِ ، وَقُوَامَ مَا بَهَا مِنَ الْمَسَائِكِ ، لِتُكْمَلَ الْعِنَايَةُ بِهِمْ
 فِي الْمَسَرِّ وَالْقُفُولِ . وَمَعْظَمُ قَصْدِنَا مِنْ هَذِهِ الْوَجْهَةِ الْمُبَارَكَةِ إِيصَالُ الْمُصْحَفِ الْعَزِيزِ
 الَّذِي خَطَطْنَاهُ بِيَدِنَا ، وَجَعَلْنَاهُ ذَخِيرَةً يَوْمًا لَعْدْنَا ، إِلَى مَسْجِدِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا ، وَعَصْمَةِ
 دِينِنَا وَدُنْيَانَا ، مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطَيْبَةِ زَادَهَا اللَّهُ تَشْرِيفًا ، وَأَبْقَى عَلَى
 الْأَيَّامِ نَحْرَهَا مُنِيفًا ، رَغْبَةً فِي الثَّوَابِ ، وَحِرْصًا عَلَى الْفَوْزِ بِحِطِّ مِنْ أَجْرِ التَّلَاوَةِ فِيهِ
 يَوْمَ الْمَأْتِ .

وَقَدْ عَيْنًا بِيَدِ مَحَلِّ الْوَالِدَةِ الْمَذْكُورَةِ فِيهِ ، كَرَّمَ اللَّهُ جَبَّتَهَا ، وَيَمِّنُ وَجْهَتَهَا ، مِنْ
 الْمَالِ مَا يُشْتَرَى بِهِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الْمُحَوَّطَةِ مِنَ الْمَسْتَفَلَّاتِ مَا يَكُونُ وَقْفًا عَلَى الْقِرَاءَةِ
 فِيهِ ، مُؤَبَّدًا عَلَيْهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ فَوَائِدُهُ وَمَجَانِيهِ . وَالْإِخَاءُ الْكَرِيمُ يَتَلَقُّ
 مِنَ الرُّسُلِ الْمَذْكُورِينَ مَا إِلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْأَغْرَاضِ أَلْقِينَاهُ [وَيَأْمُرُ] بِاحْتِضَارِهِمْ لِأَدَائِهِمْ
 بِالْمَشَافَهَةِ مَا لَدَيْهِمْ أَوْ عَيْنَاهُ ، وَيُوعِزُّ بِإِعَانَتِهِمْ عَلَى هَذَا الْفَرِيضِ الْمَطْلُوبِ ، وَيُسِّرُ لَهُمْ
 أَسْبَابَ التَّرْصُلِ إِلَى الْأَمَلِ وَالْمَرْغُوبِ ، وَشَأْنُهُ الْعَوْنُ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَلَا سِيَّمَا

ما كان من أمثال هذا إلى مثل هذه السُّبُل الواضحة ، وشكراً بآدم موطد الأساس ،
مطرِد القياس ، متجدد مع الخَطَّات والأنفاس ، والله يصل للإخاء العلى نُصرة أيامه ،
ويوالى نُصرة أعلامه ، ويبقى الثغور القصية ، والسُّبُل السرية ، منوطة بنقضه
وإبرامه ، محوطة بمعاضدة أسيافه وأقلامه ، والسلامُ الكريمُ العميم ، يخص إخوانكم
الأعز ، ورحمةُ الله وبركاته - وكتب في يوم الخميس المبارك الخامس والعشرين
من ربيع الأول عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة .



وهذه نسخة كتاب عن السلطان عثمان بن أبي العباس المريني^(١) ، في العشر الأوسط
من شبان سنة أربع وثمانمائة ، وهو :

من عبد الله ووليه : عثمان أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، سلطان
الإسلام والمسلمين ، ناشر بساط العدل في العالمين ، المقتدى بآثار آبائه الكرام ،
المقتفى سنتهم الحميدة في نُصرة الإسلام ، المعمل نفسه العزيزة في التهم بما قلده
الله من أمور عباده ، وحيطة تُعوره وبلاده ، سيف الله المسلول على أعدائه ، المنتشر
عدله على أقطار المعمور وأنحائه ، ظل الله تعالى في أرضه ، القائم بسنته وقرضه ،
عماد الدنيا والدين ، علم الأئمة المهتدين ، ابن مولانا السلطان المظفر الثاني الخليفة
الإمام ، ملك الملوك الأعلام ، فاتح البلدان والأقطار ، مهتد الأقاليم والأمصار ، جامع
أشياء المحامد ، ملجأ الصادر والوارد ، الملك الجواد ، الذي حلت محبته في الصدور
محل الأرواح في الأجساد ، أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي العباس
ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي سالم ، ابن مولانا

(١) جرى على طريقة بعض النحاة وإن كان الأكثر أنه يقال العشر الوسطى أو الوسط .

أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي الحسن ، ابن مولانا أمير المسلمين ،
المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل
رب العالمين ، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، وصل الله تعالى أسباب تأييده
وعضديه ، وقضى باتصال عرف تجديد سعده ، وأنا له من جميل صنعه ما يتكفل
بتيسير أمره وبلوغ قصده .

إلى محل أخينا الذي نُؤثر حق إخائه الكريم ، ونُثني على سلطانه السعيد ثناء الوليِّ
الحميم ، ونشكر ماله فينا من الحبِّ السليم ، والودِّ الثابتِ المُقيم ، السلطانِ الجليل ،
الماجدِ الأصيل ، الأعزَّ الخطيرِ المَئيل ، الشهيرِ الأجدِّ الأرفع ، الهامِ الأمتع ،
السرى الأرضي ، المجاهدِ الأُمضي ، الأوحدِ الأُسنى ، المكينِ الأحمي ، خديمِ
الحرمين الشريفين ، حائزِ الفخرينِ المُنيفين ، ناصرِ الدنيا والدين ، محييِ العدلِ
في العالمين ، الأجدِّ ، الأودِّ ، المكينِ ، الأخلصِ ، الأفضلِ ، الأكلِ ، أبي السعاداتِ
فرج ، ابنِ السلطانِ الجليل ، الأعزَّ المَئيل ، الخطيرِ الأصيل ، الأرفع ، الأجدِّ ،
الشهيرِ ، الهامِ ، الأوحدِ ، الأُسنى ، الأُسرى ، الأرضي ، المجاهدِ ، الأُمضي ، خديمِ
الحرمين الشريفين ، حائزِ الفخرينِ المُنيفين ، الأفضلِ ، الأكلِ ، المبرورِ ، المقدمِ ،
المرحومِ ، أبي سعيد (برقوق) بن أنص ، وصل الله تعالى لسلطانه المؤيدِ جدًّا
لا يُعجمُ عودُه ، وعزًّا لا يميلُ عموده ، ونصرًا يملأُ قطره بما ينصُّ به حسوده ،
وعَضداً يأخذ بزمامِ أمله السنِّي فيسوقه ويقوده .

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاته .

أما بعد حمدِ الله على سُبوغِ نعمائه ، وترادفِ لُطفه وآلائه ، الذي عرفنا من ولآئكم
الكريم ما سرنا من أطرادِ اعتنائه ، وأبهجِ النفوسِ والأسماعِ من صفاءِ ولآئه ،

ومواصله صفائه ، والصلاة والسلام الأكلين على سيدنا ومولانا محمد خاتم رُسُلِهِ
 وأنبيائه ، ومبَلِّغ رسالاتِهِ وأنبيائه ، صاحبِ المقامِ المحمودِ ، والحوضِ المورودِ ، واللواءِ
 المعقودِ ، فأكرمَ بمقامه وحوضه ولوائه ؛ والرضا عن آله وصحبه وأوليائه ، الذين
 هم للدين بدورُ آهتدائه ونجومُ اقتدائه ؛ وصلةِ الدعاءِ لمقامكم الكريمِ بدوامِ عزِّهِ
 وأعتلائهِ ، وأقبالِ النصرِ المبالغِ في احتفاله واحتفائه ، وحياطةِ أنحائه وأرجائه ،
 وتأييدِ عزَماته وآرائهِ .

فإنا كتبنا إليكم كتب الله لكم سعدا سافرا ، وعزما ظافرا ، من حضرتنا العلية
 بالمدينة البيضاء كلاًها الله تعالى وحرسها ، ونعم الله سبحانه لدينا واكفة السجال ،
 وولأوه جل جلاله سابع الأذيال ، وخلافتكم التي نزعى بين البرجوانية ، ونقتفى
 في كل منقبة كريمة سيرها الحميدة ومداهبها - وإلى هذا وصل الله سعدكم وإلى
 عضدكم ، وكتابنا هذا يقرر لكم من وادنا ماشاع وذاع ، ويؤكد من إخلاصنا
 إليكم ما نتحدث به السمار فتوعيه جميع الأسماع ؛ وقد كان انتهى إلينا حركة
 عدو الله وعدو الإسلام ، الباغي بالأجراء على عباده سبحانه بالبؤس والانتقام ،
 الآخذ فيهم بالغيث والفساد ، الساعى بجهده في تهديم الحصون وتخريب البلاد ،
 وتعرفنا أنه كان يعلق أمله الخائب بالوصول إلى أطراف بلادكم المصرية ، وآنهاز
 الفرصة على حين غفلة من خلافتكم العلية ، والحمد لله الذي كفى بفضله شره - ودفع
 نِقْمته وضره ، وأنصرفنا كصا على عقبيه ، خائبا من نيل أربه . ولقد كنا حين سمعنا
 بسوء رأيه الذي غلبه الله عليه ؛ وما أضمر نخلق الله من الشر الذي يجده في أحراه
 ظلّه يسعى بين يديه [عزمننا على] أن نمدكم من عساكرنا المظفرة بما يضيق عنه
 الفضا ، ونجهز لجهتكم من أساطيلنا المنصورة ما يمدد في إمداد المناصرة ويرتضى ؛

فالمحمد لله على أن كفى المؤمنين القتال ، وأذهب عنهم الأوجال ، ويسر لهم الأعمال ،
وهياً لخلافكم السنية وللمسلمين ، هناءً يتضمن السلامة لكم ولهم على تعاقب الأعوام
والسنين .

وبحسب مالنا فيكم من الود الذي أسست المصافاة ببيانته ، والحب الذي أوضح
الإخلاص برهانه ، وقع تحيُّرنا فيمن يتوجه من بابنا الكريم لفصيل مجمله ، وتقرير
مالدينا فيه على أتم وجه الاعتقاد وأكمله ؛ على الشيخ ، الأجل ، الشريف ، المبارك ،
الأصيل ، الأسنى ، الحظي ، الأعز ، الحاج ، المبرور ، الأمين ، الأحفل ، الأفضل ،
الأكل ، أبي عبد الله محمد ، أن الشيخ الأجل ، الأعز ، الأسنى ، الأوجه ، الأنوه ،
الأرفع ، الأجد ، الآثر ، الأزهي ، الشريف ، الأصيل ، المعظم المشيل ، الأشهر ،
الأخطر ، الأمثل ، الأجل ، الأفضل ، الأكل ، المرضي ، المقدس ، المرحوم
أبي عبد الله محمد ، بن أبي القاسم ، ابن نفيس الحسني العراقي ؛ وصل الله تعالى
سعادته ، وأحمد على حضرتكم السنية وفادته ، حسب ما يفى بشرح ما حملناه نقله ،
ويكمل بايضاحه لديكم يقظته وبله ، إن شاء الله تعالى ، وهو سبحانه وتعالى يديم
سعادتكم ، ويحفظ مجادتكم ، ويسني من كل خير إرادتكم ، والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته .

الجملة الرابعة

(في عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس)

والرسم في ذلك أن يكتب «الأبواب الشريفة» ويصفها ، ثم يقول : «أبواب
السلطان الفلاني» ويصفه ، ويذكر ألقابه ، ثم يدعوله ، ثم يقول : «سلام كريم»
ويصفه . من فلان ، ويذكر السلطان المكتوب عنه ، ثم يقول : أما بعد حمد الله ،

ويأتي بـمُحطبة في المعنى نـشتمل على التـحميد، والتـصلة على النبي صلى الله عليه وسلم، والرّضا عن الصحابة رضـى الله عنهم؛ ثم يقول: فإنـا كتبنا اليكم، ويأتي على مايناسب المقام، ثم ينخـرط في سـلك المقصود إلى آخره ويختـم بالدعاء.

وهذه نسخة كتاب كُتِب به عن أمير المسلمين السلطان أبي عبد الله محمد بن أبي الحجاج يوسف بن نصير بن الأحمر، صاحب غرناطة - من الأندلس، إلى السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، إنشاء الوزير أبي عبد الله بن الخطيب، صاحب ديوان إنشائه، يشير فيه إلى حادثة القرنج بالإسكندرية، الواقعة في سنة سبع وستين وسبع مائة، إلا أنه وهم في لقبه الملوكي فلقبه المنصور. وهي:

الأبوابُ الشريفةُ التي ^(١)تَعُو لِعِزَّةِ قَدْرِهَا الأبوابُ، وتَعْتَرِي إلى تَسَبُّعِ عَدْلِهَا
الحِكْمَةُ والصَّوَابُ، وتُنَادِيهَا الأَقْطَارُ البعيدةُ مَفْتَحِرَةً بَوَلَاءِهَا، واصلَةُ السَّبَبِ بَعْلَاءِهَا،
فِيصُدِّرُ بما يَشْفِي الجَوَى منها الجَوَابُ؛ فإذا حَسُنَ مَنَابُ عن أئمة الهدى، وسُبَّاقِ
المَدَى، كان منها عن عُمومة النُبُوَّةِ النَّوَابُ؛ وإذا ذَمَّتْ على العُقَاةِ بغيرها أثوابُ
الصَّلَاتِ، ضَفَّتْ منها على الكعبة المقدَّسةِ الأَثوابُ - أبوابُ السلطانِ الكبيرِ،
الجليلِ الشهيرِ، الطاهرِ، الظاهرِ، الأُوحدِ، الأُسعدِ، الأَصعدِ، الأُمجدِ، الأعلى،
العادلِ، العالمِ العاَمِلِ، الكاملِ، الفاضلِ، الكافِلِ؛ سلطانِ الإسلامِ والمسلمينِ،
رافِعِ ظِلَالِ العَدْلِ على العالمينِ: جمالِ الإسلامِ، عِلْمِ الأَعْلَامِ، نَجْرِ اللَّيَالِي والأَيَّامِ،
مَلِكِ البَرينِ والبحرينِ، إمامِ الحرمينِ، مؤمِّلِ الأَمْصارِ والأَقْطَارِ، وعاصِبِ تاجِ
الفَخَارِ، هازِمِ القَرْنَجِ والتُّركِ والتُّتارِ، الملكِ المنصورِ أبي الفُتُوحِ شَعْبَانَ، ابنِ الأميرِ،

(١) في الريحانة ج ١ ص ١٠٣ "تفتح".

الرفيع المجاهد ، الكريم البنوة والولادة ، الطاهر الظاهر ، الكبير ، الشهير ، المعظم ،
المجّد ، الأسمى ، الموقر ، الأعلى ، نقي الملة ، سيف الأمة ، تاج الإمارة ، عز
الإسلام ، جمال الأيام ، قمر الميادين ، أسد أجمّة لدين ، سمام الطغاة والمعتدين ،
المقدس ، المظفر ، الأمير أبي عليّ حسين ، ابن السلطان الكبير ، الشهير ،
ملك الإسلام والمسلمين ، والد السلاطين ، [سيف خلافة الله في العالمين ، وليّ
أمير المؤمنين ، وظهير الدين] سلطان الحج والجهاد ، وكاسي الحرم الأمين ،
قانع المعتدين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، ناصر السنّة ، محي الملة ، ملك البرين
والبحرين ، مقيم رسوم الحرمين الشريفين ، العادل ، العالم ، العامل ، الطاهر ،
الظاهر ، الأسعد ، لأصعد ، الأوحد ، الأعلى ، المنصور ، المؤيد المعان ، المرفع ،
المعظم ، المبجل ، المؤمل ، المجاهد ، المرابط ، الغازي ، أبي عبد الله محمد بن قلاوون ،
الصالح - أبقاه الله ، وفلق الصباح يشهد بكاله ، وخدمة الحرمين الشريفين طراز
مذهب على حلة أعماله ، ومسورات الإسلام ، آمنة على طول الأيام ، من إهماله ،
ولا زال ركناً للدين الحنيف ، تراحم على مستلمه الشريف ، شفاه أماله .

سلام كريم ، برعميم ، كما استودعت الرياض أسرارها ، صدر النسيم ، وأرسلت
مطالع الفجر أنهارها ، من بحر الصباح الوسيم ، يسرى من الطيب ، والحمد المطيل
المطيب ، في الصوان الكريم ، ويقف موقف الأدب والفهامه ، بما استحفظ
من الأمانة إلى محل الإمامه . وقوف الحفيظ العليم ، يعتمد مشاريع تلك الأبواب
الشارعة إلى الفضل العميم ، المقابلة لديمام وسائل الإسلام بالصدر المشروح ، والبر
المنوح ، والقلب السليم - من معظم سلطانه ، ومجلّ شأنه ، المنفخر بالانتظام في سلك

خُلصانه ، أمير المسلمين بالأندلس ، عبد الله الغالب بالله ، محمد بن يوسف بن إسماعيل
ابن فرج بن نصر ، بلغه الله من رضاه أفضى سوله ، وأعانه على جهاد عدو الله
وعدو رسوله .

أما بعد حمد الله جاعل قِلادة الإسلام ، على الدوام ، آمنة من الإتحرام ، والإنتثار ،
مفصلة النظام ، بخرز المآثر العظام ، والآثار . معترف أهلها ، في حزن البسيطة وسهولها
عوارف الصنع المثار ، وإقالة العثار . القوي العزيز الذي لا يغالب قدره بالإحتشاد
والاستنكار ، ولا يبذل غيبه المحجوب ، بعد ما عين حكمه الوجوب ، في خرائن
الاستنثار ، حتى تظهر خبيثة عنايته بأوليائه ، المعترفين بالائه ، بادية للأبصار ، فيما
قرب وبعد من الأعصار ، ورحمته عند الاستغاثة به والانتصار ، في مختلف الأقطار
والأمصار . الولي الذي لا تُكدر هبات فضله شروط الاعتصار ، ولا تشين خطب
حمده ضرائر الأقتصار والاختصار .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله نُحبة الاكوان ، وسرّ الدهور والأزمان ،
وفائدة الأدوار . نور الله المتميز باختصاصه ، وأستصفائه واستخلاصه ، قبل خلق
الظلمات والأنوار . ورحمته الوارفة الشاملة ، الهامية الهامله ، على الهضاب والوهاد
والنجد والأغوار . أقرب عوالم الشهادة والخلق ، إلى حضرة الحق ، على تعدد الرتب
وتفاضل الأطوار . منقذ الناس من البوار ، ومبوءهم من جوار الله خير الحوار .
نبي الرحمة والجهاد والغوار . المنصور على الأحزاب عند ما استداروا بمثوى نبوته على
الأطم والأسوار دور السوار . الواعد عن ربه بظهور دينه الحق على الأديان فهما
أوقدوا نار الحرب تكفل الله لهم بإطفاء النار وإخماد الأوار .

والرضا عن آله وأصحابه حمة الدمار ، ومقتحمي الغمار ، وباذلي كرائم الأموال من
دونه ونفائس الأعمار ، القائمين في سماء ملته للاهتداء بسنتهم ، والإقتداء بسنتهم .

مَقَامَ النُّجُومِ الْهَادِيَةِ وَالْأَقْصَارِ ، مَا صَقَلَتْ مَدَاوِسُ النَّسِيمِ سُيُوفَ الْأَنْهَارِ ، وَتَجَلَّ
الْوَرْدُ مِنْ تَبَسُّمِ الْبَهَارِ ، وَغَازَلَتْ عَيُونَُ زَهْرَ الْمَجْرَةِ عُيُونَُ الْأَزْهَارِ ، وَطَرَدَ أَدْهَمُ اللَّيْلِ
أَشْهَبَ النَّهَارِ .

وَالدُّعَاءِ لِتِلْكَ الْأَبْوَابِ ، الْمُتَعَدِّدَةِ الْحِجَابِ ، الْمَعُودَةِ بِاجْتِلَاءِ غُرَّرِ الْفَتْوحِ ، وَالْمَطَامِ
الْمَشِيدَةِ الْمَصَانِعِ عَلَى الْعِزِّ الْمُنُوحِ ، وَالْأَوَاوِينِ ، الْمُؤَيَّدَةِ الدَّوَاوِينِ ، بِالْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ ،
بِإِعْلَاءِ الْمَظَاهِرِ وَالصُّرُوحِ ، وَإِنَارَةِ اللَّهِ نَعَالِي بَاهِلَةَ تِلْكَ السُّرُوحِ سَاحَاتِ تِلْكَ
السُّرُوحِ ، وَلَا زَالَتْ أَفْلَامُ بَشَائِرِهَا تَاتِي عَلَى سُورَةِ الْفَتْحِ بِأَكْمَلِ السُّرُوحِ .

فَإِنَّا كَتَبْنَا لِمَنَابِتِكُمُ السُّلْطَانِيَّةَ دَارِ الْعِزِّ الْأَحْمَى ، وَالْمُلْكَ الْأَشْرَفِ الْإِسْمَى ،
وَالصَّبِيَّةَ الْبَعِيدِ الْمَرْمَى ، كَتَبَ اللَّهُ لَهَا مِنْ عِنَايَتِهِ - وَقَدْ فَعَلَ - أَوْفَرَ مَقَاسِمِ النُّعْمَى ،
وَجَعَلَ غَيْثَ نَوَائِلِهَا الْأَثْمَى ، وَحَظَّ جَلَالَهَا مِنْ اللَّهِ الْأَثْمَى ، وَدَامَتْ كَوَاكِبُ سُعُودِهَا
تَمَزَّقُ جَلَابِيبَ الظُّلْمَا ، وَأَخْبَارَ بِأَسْهَا وَجُودِهَا ، وَسَعَادَةَ وَجُودِهَا ، تُهْدِيهَا عَلَى الْبُعْدِ
رَكَائِبُ الدَّأْمَا ، وَتَرْفِرُ بِرِيَّاحِ آرْتِيَا حَهَا أَجْنِحَةُ بَنَاتِ الْمَا ، مِنْ مَنَزَلِنَا الْمُحْبُورِ ،
بِسَعَادَةِ سُلْطَانِكُمُ الْمَنْصُورِ ، وَخِزْيِ عِدْوَةِ الْمُدْحُورِ ، بِبَحْرَاءِ غَرْنَاطَةَ : دَارِ مَلِكِ الْجِهَادِ
بِجَزِيرَةِ ثَغْرِ الْأَنْدَلُسِ ، وَالِىَّ اللَّهُ عَنْهَا الدَّفَاعِ ، وَأَنَارَ بِمَشْكَاتِ نُورِهِ الَّذِي وَعَدَ بِإِتْمَامِهِ
الْأَعْلَامَ مِنْهَا وَالْأَيْفَاعِ ، وَوَصَلَ لَهَا بِشَرَفِ مَخَاطِبَتِكُمُ الْآرْتِفَاعِ وَالْإِنْفَاعِ ، حَتَّى تَشْفَعَ
بِتَهَانِيكُمُ الْإَوْنَارَ وَتُؤَيِّرَ الْأَشْفَاعِ ، وَالْأَاءُ اللَّهِ لَدَيْنَا ، بِنِعْمَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ عَلَيْنَا ،
قَدْ أَنْجَلَتِ اللِّسَانَ الشُّكُورَ ، وَإِنْ آسْتَنْفَدْتَ الرُّوَّاحَ وَالْبُكُورَ ، وَالثَّقَّةُ بِاللَّهِ فِي هَذَا
الشَّعْرِ الْغَرِيبِ قَدْ كَثُرَتْ الْعَدَدُ الْمَنْزُورِ ، وَالْحَقُّ الصَّرِيحُ قَدْ كَافَحَ الزُّورَ ، وَالتَّوْطِينَ عَلَى
الشَّهَادَةِ قَدْ شَرَحَ الصُّدُورَ ، وَأَقْتَطَعَ فِي الْجَنَّةِ الْمَنَازِلَ وَالدُّورَ ، وَالْمَعْرِفَةُ بِمَقَامِ تِلْكَ
الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ عَقِيدَةٌ لِأُبْدَلِ ، وَأَدْوَا حُ عَلَانِهَا حَمَائِمُ الْحَمْدِ بِهَا تَهْدَلُ ، وَمَحَافِلُ

شأنها تتراكم في سمائها الألوَّة والمندل؛ [والحال ما علمتم : بحر راحر الأمواج ، وعدو
 وإفر الأفواج^(۱)] وحرم لولا اتقاء الله مقتحم السَّيَاح ؛ وحياد ضمَّرتها مُصَابِرَةُ الهَيَاج ،
 وداء على الأيام متوقَّع الأهتِاج ، وعددٌ إلى الإصرَاح والإنجاد عظيمُ الأحتِياج ؛
 فالنفوس إلى الله تُجهَّز وتُسَلِّم ، والصَّبيانُ في المكاتب تُدرَّب على مواقف الشهادة
 وتُعلِّم ، والألسنةُ بغير شعار الإسلام لا تنيس غالباً ولا تتكلم ، إلا أن عادة الخبير
 اللطيف ، تخفيفُ الدُّعْرِ المُطِيف ، ونصرُ النَّزْرِ الضعيف ، على عدد التضعيف ؛
 والحال تُرجى بين الحرب والسلم ، والمكالمة والكلم ، وتأميل الخبر ، وأرتقاب عاقبة
 الصبر ، على حماة الدبر .

وإلى هذا فإننا أتصل بنا مارامت الروم من المكيدة التي كان دقاعُ الله من دُونِهَا
 سداً ، والملائكةُ جُداً ، والعِصمةُ سُورا ، والروحُ الأمينُ مدداً منصوراً ، وأنها
 استنفدت الوسع في أحشادها ، حتى ضاقت البلج عن أعوادها ، وبلغت المجهود
 في استنفادها ، حتى غصَّ كافرُ البحر بكفارها ، يصيحُ بهم التائب ، وبذمَّهم
 الصليب ، وقد سؤل لهم الشيطانُ كيداً نغر الإسكندرية شجاً صدورهم ، ومرمى
 آمالِ غرورهم ، ومحوم قديمهم ، ومتعلل غريمهم ، ليتموا نغر الإسلام بصدمتها ،
 ويقودوا جنائب الساحل في رمتها ، ويرفعوا عن دينهم المعتره ، ويتلقفوا في القدس
 كرة الكثرة ؛ ويقلصوا ما أمتد من ظلال الإسلام ؛ ويثيموا^(۲) سيوف التغلب على
 الشام ؛ ويحولوا بين المسلمين وبين محط أوزارهم ، وحجهم ومزارهم ، وبيت ربهم
 الذي يقصدونه من كل فج عميق ، ويركبون إليه نهج كل طريق ، وقبر نبيهم الذي
 يُطفئون بزيارته من الشوق كل حريق ، ويكحلون الجفون بمشاهدة آثاره عن بكاء

(۱) الزيادة من الريحانة وهي لازمة كما لا يخفى .

(۲) شام السيف غمده واسله ضد . والمراد هنا المعنى الثاني كما لا يخفى .

وشهيق ، وشوقٍ بذلك الحبيبِ خَلِيق . ويقطعوا حبلَ المسلمين حتى لا يتأثى بلوغُ
فريقٍ ولا غرضُ تشريقٍ ، واللهُ من ورائهم مُحِيطٌ ، وبدمائهم مُشِيطٌ ، وعباده
بصيرٌ ، ولدينه الحقُّ وليٌّ ونصيرٌ ، (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) . فما هو إلا أن صمما جرادهم ، وخلص
إليها مرادهم ، وفاض عليها بحرهم ، وعظم من المحاولة أمرهم ، حتى أشترك الشرك
بعض أسوارها ، ونال النهبُ مستطرف ديارها ، وظننت أنها الوهية التي لا ترفع ،
والمصيبة التي غلتها لا تنقع ، وأشتعل الباس ، ودُعمَ الناس ، وأرى الشدة من
تدارك بالفرج ، وأعاد إلى السعة من الحرج ، وأنشأ ريح النصر عاطرة الأرج ، ونصر
حزب الإسلام من لا غالب لمن ينصره ، وحصر العدو من كان العدو يحصره ، وظهر
الحقُّ على الباطل ، والحالي بزينة الله على العاطل ، فخرج العدو الخاسر عما حازه
والسيوفُ ترهقه حيث تُلفيه ، والسهامُ تثبته وتثفيه ، وغرماً كرة الإسلام تستقضي
منه دينها وتستوفيه ، وانحزى قد جلل سبأه للمصعب ، وحناءُ الدماء قد خضبت
مشيخته الشهب ، والغلبُ قد أخضع رقابة الغلب ، فكم من غريق أردته دروعه ،
لمَّا حشى بالروع روعه ، وطعينٍ نظمت بالسهمري ضلوعه ، فغلبوا هنالك وأنقلبوا
صاغرين ، وأحقَّ الله الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين ، (لكم من فئته قليلة
غلبت فئته كثيرةً بإذن الله والله مع الصابرين) . فأى رحمة منشورة ضفت على
الإسلام ظلالها ، وخطبة نعمة أوسع نطاقها ورحب مجالها ، ومجلى صنيعه راق
عيون المؤمنين جمالها . فاهترت بها الأرض وربت ، ويشكر الله جل جلاله أعربت ،
وآستبشرت النفوس . وذهب البوس ، وضفا بمنة الله اللبوس ، وظهرت عناية الله
بمقامكم ، وإقالة عثرة الإسلام في أيامكم ، فما كان الله سبحانه ليضيع لكم خدمة

(۱) صمما عليهم كعب طبع أظفر القاموس في باب المهموز .

الحرمين ، وإنَّها للوسيلة الكبرى ، والدَّريعةُ إلى سعادة الدنيا والأخرى ؛ وهى
 عهدةُ الله التى يَصُونُها من كل أهتِضام ، وقِلاَدتهُ التى ما كان يتركُها بغيرِ نظام .
 وكان من لطائفِ هذا الفتح الذى أبزَل البشري ، وأوسعَ أعلامَ الإسلامِ نشرًا ،
 ورُوده بعد أن سُفِيتِ العِلَّةُ ، ونُصِرَتِ المِلَّةُ ، وبعدَ أن جَفَا الدهرُ وتجاوَى ، وعادى
 ثمَّ صافى ، وهَجَرَ ووَافى ، وأمْرَضَ ثم عافى ؛ فلو ورد مُقدِّمه قبل تاليه ، ونقده متأخرًا
 عن كاليه ، أو كانت أواخره بعيدًا ما بينها وبين أواليه ، لأوحشتِ الظنونُ وساءتْ ،
 وبلغتِ الهومُ من النفوسِ ماشاءتْ ؛ فإنَّ الإسلامَ كالجسدِ يتداعى كله لتألمِ بعضه ،
 ويتساهمُ إخوانه فى بسطه وقبضه ، وسماؤه مرتبطةٌ بأرضه ، ونقله متعلقٌ بفرضه ،
 فالحمدُ لله الذى خفف الأثقالَ ، وألهمَّ حالَ الضَّرِّ الانتقالَ ، وسوَّغَ فى الشُّكرِ المقالَ ،
 وزاروا قالَ ، وجمع بين إيقاظِ القلوبِ ، وإنالةِ المطلوبِ ، وأنَّ وجدَ العدوَّ طعمَ
 الإسلامِ مرًّا فما ذاقه ، وعوده صُلْبًا فما أطاقه ، ورفعَ عن طريقِ بيتِ الله ماعاقه ،
 وقاد إليكم فى بيوتكم فضلَ الجهادِ وساقه [وردَّ المكرَ السيِّءَ على العدوِّ وأحاقه ^(١)]
 فما كانت هذه المَكيدةُ إلا داهيةً للكفرِ طارقةً . ونكثةً لعصبِ التثليثِ عارِقةً ،
 ومُعجزةً من آثارِ النبىِّ الشريفِ لهذا الدينِ المنيفِ خارِقةً ؛ واستأصلتْ للعدوِّ المالَ ،
 وقطعتْ الآمالَ ، وأوهنتِ اليمينَ والشَّمالَ . فبادرنا عندَ تعرُّفِ الخبرِ ، المختالِ من
 أثوابِ المسرةِ فى أبهى الخبرِ ، المُهْدَى أعظمِ العِبَرِ ، إلى تهنئتكُم تطيرُ بنا أجنحةُ
 الأرتياحِ ، مُباريةً للرياحِ ، وتستفِرُّنا دواعى الأفراحِ ، بحسبِ الودِّ الصُّراحِ ؛ وكيف
 لا يسرُّ اليسارَ يمينه [والوجهُ بجبينه ، والمسلمُ بدينه ، وخاطبناكم مهنتين ولولا العوائقُ ^(١)]
 التى لا تبرحُ ، والموانعُ التى وضحتْ حتى لا تُسرحُ ، ومكايدةُ هذا العدوِّ الذى يأسوبه
 الدهرُ ويَجرحُ ، لم تجتَرَ بإعلامِ القلمِ ، عن أعمالِ القدمِ ، حتى نتشرفَ [بالورودِ على

(١) الزيادة من "الريحانة" .

(۱) تلك المثابة الشريفة، وامتاز بزيارة الأبواب المنيفة، فنقضى [الفرض تحت رعيها، وبركة سعيها، لكن المرء جنيب أمله، ونية المؤمن أبلغ من عمله، فهيننا بما خولكم الله من ظفر شهدت برضا الله مراسمه، وأفترت عن ثغور العناية الربانية مباسمه، وتوفرت لديكم مواهبه ومقاسمه، ويهني البيت المقدس مكان فضل الله ومنه . وسلامة مجته، ويهني الإسلام عصمة ثغره المؤشر، وطهارة كتابه المنشر، وجمال عنوانه، وقفل صوانه، وباب إيوانه : مرقا القسطاط، ومركز لواء الرباط، ومحط رحال الإغباط، ومتخير الإسكندر عند البناء والإختطاط . ومما زادنا بجحا بهذا الفتح، وسرورا زائدا بهذا المنع، ما تحققنا أنه يثير من شفقة المسلمين لهذا القطر الذي لا يزال يطرقه ما طرق الإسكندرية على مر الأيام، وتجلب عليه برا وبحرا عبدة الاصنام، بحيث البرموصول، والكفر بكثرة العدد يصول، ونيران الحواري [مترائية للعيان، والفرايح القليلة] متوسطة بين مختلف النحل والأديان، والعدد لا ينسب، والصريح إلا من عند الله لا يحسب، فتوجدنا بالدعاء السنة فضلائه، ونسهمنا خواطر صالحيه وأوليائه، والله لا يقطع عن الجميع عوائد آلائه، ويعرفنا بركة أنبيائه، وينصنا في أرضه بملائكة سمائه .

وقد كانت أتصل بنا في هذه الأيام الفارطة الذخر الذي ملاء اليد استكثارا، وانخلد اعتدادا واستظهارا، والهيم نغارا، وأضاء القطر أنوارا : جوابكم الكريم يتم من نفعاته شذا الإذخر والخليل، وتلمس من خلال حاناته بركات الخليل، وتقرى الوجوه به أنار المعاهد، وتلمح من ثنايا وقادته بوارق الفوائد، فأكرم به من وافد مخطوب، وزائر مرقوب، صدعنا به في حفل الجهاد انتحاء، وأفتخارا، ثم صناه

(۱) الزيادة من الرجانة .

في كرائم الخزائن آقتناءً للخلف وأدخارا ، وجعلنا قرآه سُكراً معطارا ، وثناءً يبقى
 في الخافقين مطارا ، ودعاءً يُعلى الله به لمقامكم السنى في أولياته مقدارا ، ويجهز به
 لمُدِّكُمْ كما فعل أنصارا ، ويشيبكم الجنة التي لا يرضى السعداءُ بغيرها قرآرا ،
 والله تعالى يجعل لأفلاك الهناء على مخاطبة مقامكم الرفيع العلاء مدآرا ، ويُقيمُ الشكرَ
 ألزم الوظائف لحقكم آبتدارا ، والثناء أولى ماتحلى به مجدكم شعارا ، ويُيقمكم للإسلام
 رُكنا شديدا ، وظلا مديدا ، وسماءَ مدرارا ، ما استأنفتِ البدورُ إبدارا ، وعاقبَ الليلُ
 نهارا ، والسلام .

المقصد الثالث

(في رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السودان ؛ وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتبات إلى صاحب مالى)

وهو المستولى على التكرور وغاية وغيرها ، وهي أعظم ممالك السودان المسلمين
 مملكة ، ولم أقف لأحد منهم على صورة مكتبة إلى الأبواب السلطانية ، إلا أن المقر
 الشهابى بن فضل الله في كتابه "مسالك الأبصار" عند الكلام على هذه المملكة
 تعرض لذكر سلطانها في زمان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» وهو منسى موسى ؛
 وذكر أنه ورد منه كتاب يُمسك لنفسه فيه ناموساً ولم يورد نسخته .

(۱) كذا في الأصل ولعله « المكاتبات الواردة من صاحب مالى » كما يقتضيه التقسيم فتنبه .

الطرف الثاني

(في المكاتبات الصادرة عن صاحب البرنو)

ورسم مكاتبتة أن تُكْتَبَ في ورق مربعٍ بِنَحْطِ نَحْطِ المِغَارِبَةِ : فإن فضل من المكاتبة شيءٌ كُتِبَ بظاهاها ، وتُفْتَحَ المكاتبة بِمُحْطَبَةِ مَفْتَحَةِ بالحمد ، ثم يَتَخَلَّصُ إلى المقصدِ بَعْدِيَّةً ، ويأتى على المقصدِ إلى آخره ، ورأيتُه قد ختمَ مكاتبتَه إلى الأبوابِ السلطانيةِ بقوله : والسلامُ على من اتبع الهدى . وكان ذلك جهلاً من الكاتب بمقاصد صناعة الإنشاء ، إذ لا يهتدون إلى حقائقها .

وهذه نسخةُ كتابٍ ورد على الملك الظاهر « أبي سعيد برقوق » ووصل في شهر سنة أربع وتسعين وسبعائة ، صحبةَ ابن عمه ، مع هديةٍ بعث بها إلى السلطان بسبب ما يذكر فيه من أمر عَرَبِ جُدَامِ المجاورة لهم ، وهي في ورق مربع ، السطرُ إلى جانب السطر ، بِنَحْطِ مَغْرِبِيٍّ ، وليس له هامشٌ في أعلاه ولا جانبه ، وتَمَّةُ الكتاب في ظهره من ذيل الكتاب وهو :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

الحمد لله الذي جعل الخطَّ ترأسلاً بين الأبعد ، وترُجُماناً بين الأقارب ، ومُصاحَحةً بين الأحباب ، ومُؤنِّساً بين العلماء ، ومُوحِشاً بين الجهَّال ، ولولا ذلك لبطلت الكلمات ، وفَسَدَت الحاجات . وصلواتُ الله على نبيِّنا المصطفى . ورسولنا المرْتَضَى ، الذي أغلق الله به بابَ النبوةِ وختمَ ، وجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، ماناحِ الوُرق ، وما عاقبَ الشروقَ الأصيل . ثم بعد ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، رضي الله عنهم أجمعين .

من المتوكل على الله تعالى ، الملك ، الأجل ، سيف الإسلام ، وربيع الأيتام ،
الملك المقدم ، القائم بأمر الرحمن ، المستنصر بالله المنصور في كل حين وأوان ،
ودهر وزمان : الملك ، العادل ، الزاهد ، التقى ، النقي ، الأتجد ، الأتجد ، الغشمشم ،
نخري الدين ، زين الإسلام ، قطب الجلالة ، سلالة الكرماء ، كهف الصدور ، مصباح
الظلام ، أبي عمرو عثمان الملك ، ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم ، كرم الله
ضريحه ، وأدام ذرية هذا بملكه - هذا اللفظ وارد على [لسان] كاتبنا لآلنا ولا نخر -

إلى ملك مصر الجليل ، أرض الله المباركة أم الدنيا .

سلامٌ عليكم أعطر من المسك الأذفر ، وأعدب من ماء الغمام واليم ، زاد الله ملككم
وسلطانكم ، والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم ، الذين يدرسون القرآن والعلوم ،
وجماعتكم ، وأهل طاعتكم ، أجمعين .

وبعد ذلك ، فإننا قد أرسلنا إليكم رسولنا ، وهو ابن عمي ، اسمه إدريس بن محمد
من أجل الجائحة التي وجدناها ، وملوكنا ، فإن الأعراب [الذين] يسمون جداما
وغيرهم قد سبوا أحرارنا : من النساء والصبيان ، وضعفاء الرجال ، وقرابتنا ، وغيرهم
من المسلمين . ومنهم من يشركون بالله ، يمارقون للدين ، فغاروا على المسلمين
فقتلوهم قتلا شديدا ، لفتنة وقعت بيننا وبين أعدائنا ، فبسبب تلك الفتنة قد قتلوا
ملكنا ، عمرو بن إدريس الشهيد ، وهو أخونا ابن أينا إدريس الحاج ، بن إبراهيم
الحاج ، ونحن بنو سيف بن ذي يزن ، و [الد] قبيلتنا ، العربي القرشي ، كذا
ضبطناه عن شيوخنا . وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها ، في بلد برنو كافة
حتى الآن . وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين ، ويبيعونهم لجلاب مصر والشام
وغيرهم ، ويختمون ببعضهم ، فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى
أسوان ، فإنهم قد اتخذوا متجرا ، فتبعثوا الرسل إلى جميع أرضكم ، وأمرائكم ،

ووزرائكم، وقضائكم، وحكامكم، وعلمائكم، وصواحب أسواقكم، ينظرون ويبحنون
ويكشفون؛ فإذا وجدوهم فليترعوهم من أيديهم، وليبتلوهم، فإن قالوا نحن أحرار ونحن
مسلمون فصدقوهم ولا تكذبوهم؛ فإذا تبين ذلك لكم فأطلقوهم وردوهم إلى حريتهم
وإسلامهم، فإن بعض الأعراب يفسدون في أرضنا ولا يصلحون، فإنهم الجاهلون
كتاب الله وسنة رسولنا، فإنهم يزبنون الباطل، فاتقوا الله واخشوه ولا تحذلوهم
يُسترقوا ويأعوا. قال الله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. ونال الله تعالى لنبيه عليه السلام ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. وقال الله تعالى ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾. وكان عليه السلام يقول: «السلطان ظلُّ الله في الأرض
يأوي إليه كلُّ مظلوم». وقال: «المؤمنون كالبنين يسدُّ بعضهم بعضاً إلى يوم
القيامة». وقال: «المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه» إلى آخره. وفي الحكمة:
ومن الفرائض الأمر بالمعروف على كلِّ من بسطت يده في الأرض (أراد به السلاطين)
وعلى من تصل يده إلى ذلك (أراد بذلك القضاة والحكام والأمرأة) فإن لم يقدر
فلسانه، (أراد بذلك الفقهاء والعلماء) وإن لم يقدر فقلبه، (أراد بذلك عامة
المسلمين) أطل الله بقاءكم في أرضكم. فازجروا الأعراب المفسدين عن دعرهم،
قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقال عليه
السلام: «كلُّكم راجع وكلُّكم مسئول عن رعيته». وقال في الحكمة: لولا السلطان
لأكل بعضهم بعضاً. وقال تعالى لنبيه داود عليه السلام ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً
فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ
يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ مِمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ والسلام على من
أتبع الهدى - ولم يؤرِّخ.

الطرف الثالث

(في المكاتب الصادرة عن ملك "الكائيم" ولم أقف له على مكتبة إلا انه يُشبه أن تكون المكتبة عنه نظير المكتبة عن صاحب "البرنو" فإنه على قُرب من مملكته والله أعلم

المقصد الرابع

(في الكتب الواردة من الجانب الشمالي، وهي بلاد الروم) قد تقدم ذكر المكتبة إلى أمراءها، وأن كبيرهم الذي صار أمرهم إليه وأنقادوا إلى طاعته الآن هو ابن عثمان صاحب برسا^(١).

النوع الثاني

• (من المكاتب الواردة إلى هذه المملكة الكتب الواردة عن ملوك الكفار، وهي على أربعة أضرب)

الضرب الأول

(الكتب الواردة عن ملوك الكرج^(٢))

الضرب الثاني

(الكتب الواردة عن ملوك الحبشة^(٣))

والعادة فيها أن ترد في قطع^(٣) باللسان^(٣) ولم أظفر بصورة مكتبة في هذا المعنى إلا مكتبة واحدة وردت على الملك الظاهر بيبرس، ضمن كتاب إلى صاحب اليمن، وصاحب اليمن أرسله إلى دننا فيما وقفت عليه في بعض المصنفات، وهو:

(١) لم يذكر في الأصل نموذجاً من الكتابة ولا ترك لها بياضاً كالعادة فتبه .

(٢) لم يذكر لها نموذجاً ولم يتكلم على رسمها كغيرنا . (٣) بياض، في الأصل .

أقل الممالك يقبل الأرض ، ويُنهي بين يدي السلطان الملك الظاهر ، خلد الله ملكه ، أن رسولاً وصل إلى من وإلى قوص ، بسبب الراهب الذي جاءنا ، فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده ، فيرسم مولانا السلطان للبطريرك [أن] يجهز لنا مطراناً يكون رجلاً جيداً عالماً ، لا ينجي ذهباً ولا فضة ، ويرسله إلى مدينة "عوان" . وأقل الممالك يسير إلى نواب مولانا الملك المظفر : صاحب اليمن ما يلزمه ، وهو يسير إلى نواب مولانا السلطان ، وما كان سبب تأخير الرسل عن الحضور إلى [ما] بين يدي مولانا السلطان إلا أنني كنت في سكار (؟) والملك داود قد توفى ، وقد ملك موضعه ولده ، وعندي في عسكري مائة ألف فارس مسلمين ، وأما النصارى فكثير لا يحصون ، والكل غلمانك وتحت أمرك ، والمطران الكبير يدعو لك والخلق كلهم يقولون آمين ، وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نكون له أقل الممالك ، ونحفظهم ونسفرهم كما يحبون ويختارون ، وأما الرسول الذي سفروه فهو مريض ، وبلادنا ونجمه . أي من مريض لا يقدر أحد يدخل إليه ، وأتى من شم رائحته فيمرص فيموت . ونحن نحفظ كل من يأتي من بلاد المسلمين . فسيروا مطراناً يحفظهم .

قلت : وقد تقدم الجواب عن هذا الكتاب من كلام القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، في الكلام على الكتب السادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الجانب الجنوبي من أهل الكُتْم ، ولكن الكتاب المذكور يخالف ما تقدم هناك من ادعائه العظمة ، وأنه لولا اضطرابه إلى أخذ المطران من بطريرك الديار المصرية لكان يسمع بنفسه عن المكتبة ، ولعل ذلك كان في الزمن المتقدم .

الضرب الثالث

(الكتب الواردة عن ملوك الروم، ورأس النكل صاحب القسطنطينية)

وقد وقفت على كتاب ورد منه في السابع والعشرين من صفر سنة أربع عشرة وثمانمائة في درج ورق فرنجي في نحو عشرين وصلاً قطع النصف، والبياض في أعلاه وصل واحد، وفي أسفله وصلان، وله هامش عن يمينه وهامش عن يساره، كل منهما تقدير إصبعين، ومقدار ما بين السطور متفاوت: فأعلاه بين كل سطرين أربعة أصابع مطبوقة، ثم بعد تقدير ثلث الكتاب بين كل سطرين قدر ثلاثة أصابع، ثم بعد ذلك بين كل سطرين قدر إصبعين، ثم بعد ذلك بين كل سطرين قدر ثلاثة أصابع إلى آخر الكتاب، والقلم في غاية [الدقة ب] قلم الرقاع الدقيق، وفي آخره ثلاثة أسطر وقطعة بالحمرة بقلم أجل من الأول قليلاً.

وهذه نسخة كتاب معربة بترجمة بطرك الملائكية، بحضور سيف الدين سيف^(١) الترمجان، وهي:

المعظم، المجدد، المبجل، الضابط، السلطان، الكبير، سلطان مصر ودمشق وحلب وغيرها، الملك الناصر (فرج) ابن السلطان الكبير المرحوم الظاهر (برقوق) المحبوب إلى العزيز أكثر من أولاد مملكتي.

يُحِيطُ علمه أني ومملكتي طيبون بنعمة الله تعالى، وكذلك تكون - إن شاء الله تعالى - سلطنتك المجددة طيبة في خير، وأن المحبة والمودة لم تزل بين والدك المرحوم وبين والدي إلى آخر وقت. ونحن بحمد الله قد تزايدت محبتنا على ذلك وتكاثرت،

(١) لعله سودون الآتي بعد في الضرب الرابع.

وتؤكد أيضا المحبة بيننا وبين سلطتك المعظمة إلى الأبد ، فإن ذلك واجب ، وتردد رُسُلِكُمْ بَكُتْبِكُمْ إِلَيْنَا ، وكذلك رُسُلُنَا بَكُتْبِنَا إِلَى مُلْكِكُمْ ؛ وكان قَصْدُنَا أَنْ نَجْهَزَ إِلَيْكُمْ رَسُولًا لَكِنَّ الْفِتْنَ فِي بِلَادِنَا ، وَمَا بَلَّغْنَا مِنْ سَفَرِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ مِنْ تَحْتِ مَمْلَكَتِهِ ، وَلَمْ نَعْرِفْ إِلَى أَىِّ مَكَانٍ تَوَجَّهَ ، أَوْ جَبَّ تَأْخِيرَ ذَلِكَ ؛ وَأَنْ حَامَلَ هَذَا الْكِتَابَ الْمَتَوَجَّهَ بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ الْمُعْظَمِ الْمَسْمُوعِ (سورمش) التاجر من اسطنبول هو من جِهَتِنَا ، وَلَهُ عَادَةٌ بِالْتَرَدِّ إِلَى مَمْلَكَتِكُمُ الْمُعْظَمَةِ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ سُلْطَنَتَكَ تُحِبُّ الطُّيُورَ الْكَوَاهِي ؛ فَجَهَزْنَا لَكُمْ صَحْبَةَ الْمَذْكُورِ نَحْسِ كَوَاهِي وَبَارْدَارَ ، لِيَكُونَ نَظْرُكُمْ الشَّرِيفِ عَلَيْهِمْ ، وَكَذَلِكَ عَلَى الْبَطَارِكَةِ وَالنَّصَارِيِّ وَالْكَائِسِ عَلَى حُكْمِ مَعْدَلَةِ السُّلْطَانِ وَمَحَبَّتِهِ ، وَالْوَصِيَّةُ بِهِمْ ، وَمَعَاوَتُهُمْ وَرِعَايَتُهُمْ وَإِجْرَاؤُهُمْ عَلَى جَارِي عَوَانِدِهِمْ ، مِنْ غَيْرِ تَشْوِيشٍ عَلَى مَا لِيُقْوَهُ مِنْ إِنْصَافِكُمْ أَوْلَا وَأَخْرَاجِكُمْ لِأَجْلِ مَحَبَّتِكُمْ لَنَا وَمَحَبَّتِنَا ، وَأَسْتِمْرَارِ الْعِنَايَةِ بِهِمْ ، مَعَ أَنَّ الْبَطَارِكَةَ عَرَّفْنَا أَنَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ يُبْرِزُ مَرْسُومَهُ بِمِرَاعَاتِهِمْ ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَزَالُوا دَاعِينَ لَهُ شَاكِرِينَ مِنْ مَعْدَلَتِهِ ، وَنُضَاعِفُ شُكْرَنَا مِنْ إِحْسَانِكُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَتَكُونُوا أَنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى طَبِيبِينَ ، وَالْمَحَبَّةُ مَتَزَايِدَةٌ فِي أَيَّامِكُمْ وَأَيَّامِنَا ، وَمَهْمَا كَانَ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ بِمَمْلَكَتِنَا مِنْ أَطْوَاعٍ ، فَيَرْسُمُ يَعْرِفُنَا بِهَا وَنَبَادِرُ بِذَلِكَ .

والذى بأخره بالجمرة علامة الملك مضمونها (مانويك المسيحى بنعمة الله ،

ضابط مملكة الروم البلاووغس) .

(١) كذا فى الأصل ومراده من خدم أو حاجات .

الضرب الرابع

(الكتب الواردة من جهة ملوك الفرنج بالأندلس، والجهات الشمالية،

وما والى ذلك)

والعادة فيها أن تكتب باللسان الفرنجى، وعادة الكتب الواردة عنهم جملة أن تكتب فى فرخة ورق فرنجى مربعة على نحو مقدار الفرخة البلدى أو دونها، بأسطر متقاربة، باللسان الفرنجى وقلمه، ثم يطوى طياً مسطحا ويعنون فى وسطه، ويطوى من جهتي الأول والآخر حتى يصير العنوان ظاهراً من الطى، ثم يحرز ويختم بسحاة، ويختم عليه بطمغة فى شمع أحمر على نحو ما تقدم فى الكتب الواردة عن ملوك الغرب، فاذا ورد على الأبواب السلطانية فكُتِّمته، وترجم بترجمة الترجمان بالأبواب السلطانية وكتب تعريبه فى ورقة مفردة وألصقت به بعد كتابة الجواب من التعريب على ما تقدم ذكره فى مقدمة الكتاب .

وهذه نسخة كتاب وارد من دوج البنادقة ميكائيل، على يد قاصده نقولا البندقى فى سادس عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة، ترجمة شمس الدين سقزى، وسيف الدين سودون، الترجمة بالأبواب الشريفة، فى فرخة ورق فرنجى مربعة متقاربة السطور، وهو :

السلطان المعظم، ملك الملوك «فرج الله» ناصر الملة الإسلامية، خلد الله سلطانه .

يقبل الأرض بين يديه نقولا دوج البنادقة^(١)، ويسأل الله أن يزيد عظمته : لأنه ناصر الحق ومؤيده، وموئل الممالك الإسلامية كلها . وينهى ما عنده من الشوق

(١) تقدم قبل بأسطر أن اسمه ميكائيل وأن اسم رسوله نقولا . فتنبه

والمحبة لمولانا السلطان، وأنه لم تزل أكابر التجار والمحتمشين والمترددین من الفرنج إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده، وتزايد الدعاء ببقاء دولته، وقد رغب التجار بالتردد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك، ولأجل الصلح المتصل الآن بيننا والمحبة.

وأما غير ذلك، فإنه بلغنا ما اتفق في العام الماضي من حبس العر في ثغر دمياط المحروس، وأن مولانا السلطان مسك قنصل البنادقة والمحتمشين من التجار بثغر الإسكندرية المحروس، وزجرهم بالحديد، وأحضرهم إلى القاهرة، وحصلت لهم البهدة بين جنوسهم والضرر والقهر الزائد، وكسر حرمتنا بين أهل طائفنا، فإن الذي فعل مع المذكورين إنما فعل معنا، وتعجبنا من ذلك: لأن طائفنا لم يكن لهم ذنب، وهذا مع كثرة عدل مولانا السلطان في مملكته، ومحبتنا له، ومناداتنا في جميع مملكنا بكثرة عدله، ومحبتنا لطائفنا، وإقباله عليهم، وقولنا لجميع نوابنا: إنهم يكرمون من يجدونه من مملكة مولانا السلطان ويراعونه ويحسنون إليه، والمسئول من إحسانه الوصية بالقنصل والتجار وغيرهم من البنادقة، ومراعاتهم وإكرامهم والإقبال عليهم، والنظر في أمورهم إذا حصل ما يشبه هذا الأمر، ومنع من يشاكلهم لتحصل بذلك الطمأنينة للتجار، ويترددوا إلى مملكته.



وهذه نسخة كتاب ورد من كبطان الماغوصة والمستشارين بها، في ثامن عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة، ترجمة شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون التبرجانيين بالأبواب الشريفة، وهو:

الملك المعظم، ملك الملوك، صاحب مصر المحروسة، الملك الناصر، عظم الله شأنه.

يَقْبَلُ الأَرْضَ بَيْنَ أَيْدِيهِ الكِبْطَانُ وَالمُسْتَشَارُونَ، وَيُنْهَوْنَ أَنَّهُمْ آتَاءَ اللَّيْلِ دَاعُونَ
بَطُولِ بَقَائِهِ، مَجْتَهِدُونَ فِي آسْتِمْرَارِ الصُّلْحِ وَالمَوَدَّةِ الَّتِي لَإِيْشُوْبُهَا كَدَّرَ بَيْنَ القَوْمُونَ (?)
وَبَيْنَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ، وَأَنَّ فِي هَذَا الوَقْتِ تَمَّ حَرَامِيَّةُ غِرَابٍ يَتَحَرَّمُونَ بِأَطْرَافِ هَذِهِ
البِلَادِ، وَالمِينِ الإِسْلَامِيَّةِ، وَنَحْنُ لَمْ نَزَلْ نُشْحِطْهُمْ بِالمِرَاكِبِ وَالأَغْرِيَّةِ، وَنَمْنَعُهُمْ
مِنْ ذَلِكَ جُهْدَنَا وَقُدْرَتَنَا، حَتَّى إِنْ صَارَ أَحَدًا صَارَ لَا يَجْسُرُ عَلَى الدَّخُولِ إِلَى مِينَا
المَاغُوصَةِ جَمَلَةً كَافِيَةً، مَعَ أَنَّنَا كُنَّا خَلَصْنَا فِي المَدَّةِ المَاضِيَةِ مِنَ الحَرَامِيَّةِ المَذْكُورِينَ
خَمْسَةَ وَعَشْرِينَ نَفْرًا مِنَ المُسْلِمِينَ، وَأَكْرَمْنَا سَبِيلَهُمْ [وَعَزَمْنَا أَنْ^(١) نَجْهَزَهُمْ
إِلَى دِمِيَاطٍ أَوْ إِلَى ثَغْرِ الإِسْكَندَرِيَّةِ .

وَأَمَّا غَيْرَ ذَلِكَ، فَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ بَرَطْلَمَا أَوْسَقَ لِلوَاقِفِ الشَّرِيفَةِ صَابُونًا فِي مَرَاكِبِهِ،
وَكَانَ قَصْدُهُ أَنْ يَهْرُبَ بِذَلِكَ، فَلِلْحَالِ عَمَّرْنَا مَرَكِبًا كَبِيرًا، وَأَخَذْنَا بَرَطْلَمَا المَذْكُورَ
بِالمَحَارِبَةِ، وَأَحْضَرْنَا إِلَى المَاغُوصَةِ، وَعَهَدْنَا بِطَرُوقِ المَرَكِبِ إِلَى شَخْصٍ يُسَمَّى
(أَرْمَانَ سَلِيُورِيُونَ) وَهُوَ رَجُلٌ مُشْكَورُ السَّيْرَةِ، وَقَلْنَا لَهُ إِنَّهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى خَازِنِ الصَّابُونَ
المَذْكُورِ وَيَسْتَشِيرُهُ إِنْ كَانَ يُوسِقُ شَيْئًا مِنَ الأَصْنَافِ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ، وَيَجْهَزُهُ إِلَى
أَيِّ مَكَانٍ اخْتَارَهُ لِيَسْلِمَهُ لِيَدٍ مِنْ تَبْرُزُ لَهُ المِرَاسِيمُ الشَّرِيفَةُ بِتَسْلِيمِهِ، فَلِيَفْعَلْ، وَهَذَا
القَوْلُ كُلُّهُ يَكُونُ دَلِيلًا عِنْدَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ عَلَى صِدْقِ الوَلَاءِ وَالتَّمَسُّكِ بِالصُّلْحِ،
وَالمَسْئُولِ مِنَ الصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ الإِقْبَالِ عَلَى التُّجَّارِ الجَنَوِيَّةِ الَّذِينَ عِنْدَ مَمْلَكَتِهِ،
وَكَفِّ أَسْبَابِ الضَّرَرِ عَنْهُمْ، وَيُنْشَرُ مَعْدَلَتُهُ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَدِيمُ بَقَائِهِ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

(١) فِي الأَصْلِ « وَعَقِيْبَهَا نَجْهَزُهُمْ » .

الفصل السادس

[من الباب الثاني] من المقالة الرابعة

(في رسوم المكاتبات الإخوانيات - وهي جمعُ إخوانية، نسبةً إلى الإخوان،
جمع أخ - والمرادُ المكاتبات الدائرةُ بين الأصدقاء . وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في رسوم إخوانيات السلف من الصحابة رضوانُ الله عليهم والتابعين ،
وهي في الغالب لا تخرج عن ضربين)

الضرب الأول

(أن تُفتَحَ المكاتبُ باسم المكتوبِ عنه)

وكان رسمهم فيه أن تفتَحَ المكاتبَ بلفظ « من فلانٍ إلى فلان ، سلامٌ عليك ،
إني أحمدُ إليك الله الذي لا إلهَ إلا هو » فلما كانت خلافةُ الرشيد وأمر أن يُزاد
هنا في السلطانيات « وأسأله أن يصلِّيَ عليّ سيدنا محمدٍ عبده ورسوله » كما تقدّم
في موضعه ، جرى الكُتابُ في الإخوانيات على ذلك أيضاً ، وكان الخطابُ يجري
بينهم في ذلك بأنا ، وأنتَ ، ولي ، ولك ، وعندي ، وعندك ، وما أشبه ذلك
من ألفاظ الخطاب ، وكانت خاتمةُ الكتب عندهم بالسلام .

الضرب الثاني

(أن تفتتح المكتبة باسم المكتوب إليه : تفخياً لأمره ، وتعظيماً لشانه)
 وكانت رسمهم في ذلك أن يفتتحوا المكتبة بلفظ « إلى فلان من فلان ، سلامٌ
 عليك ، فإنني أحمدُ اليك الله الذي لا إله إلا هو » وبقاى الكتاب على ما تقدم في الضرب
 الأول في الخطاب والختام وغيرهما .

الطرف الثاني

(في رسوم الإخوانيات المحدثه بعد السلف ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول

(في رسوم إخوانيات أهل المشرق ، وفيه أربعة مهايج)

المهيج الأول

(في صدور الأبتدآت ، وهي على أساليب ^(١))

الأسلوب الأول - أن تفتتح المكتبة بالدعاء ، وعليه أقصر أبو جعفر النعاسُ
 في كتابه " صناعة الكتاب " وكان على رأس الثلثائة في خلافة الراضى ؛ وقد تقدم
 في الكلام على مقدمات المكاتب نقلاً عن " مواد البيان " أن الأدعية كانت
 في الزمن الأول تُستعمل فيما يتعلق بأمر الدين : مثل قولك : أكرمه الله ، وحفظه الله
 ووفقه ، وحاطه ، وما أشبه ذلك ؛ فعُدل عنها قَصداً للإجلال والإعظام إلى الدعاء
 بإطالة البقاء ، وإدامة العِزِّ ، وإسباغ النعمة ، ونحو ذلك : مما يتنافس فيه أبناءُ

(١) لم يذكر منها الا الأسلوب الاول ونبه على أن النحاس أقصر عليه فتنبه .

الدينا ، جريا على عادة الفرس . ثم رتبوا الدعاء على مراتب : فجعلوا أعلاها الدعاء بإطالة البقاء ، ثم بإطالة العمر ، ثم بالمد في العمر ، وكذلك سائر المكاتبات على ما تقدم بيانه هناك .

ثم هو على ستة أضرب :

الضرب الأول

(المكاتبه من المرعوس إلى الرئيس ، وهو على صنفين)

الصنف الأول

(المكاتبه إلى الأمراء)

قد ذكر النحاس أنه يقال في افتتاح مكاتباتهم : أطال الله بقاء الأمير ، فإذا أردت أجل ذلك كله ، كتبت : أطال الله بقاء الأمير في أعز العز وأدوم الكرامة والسرور والغبطة ، وأتم عليه نعمه في علو الدرجة ، وشرف من الفضيلة ، ونتابع من الفائدة ، ووهب له السلامة والعافية في الدنيا والآخرة ، وبلغ بالأمير أفضل ما تجرى إليه همته ، وتسمو إليه أمنيته ، أو بلغ بالأمير أفضل شرف العاجل والآجل ، وأجزل له ثواب الآخرة .

ثم قال : ومن الدعاء له : أطال الله بقاء الأمير في عز قاهر ، وكرامة دائمة ، ونعمة سابعة ، وزاد في إحسانه إليه ، والفضيلة لديه ، ولأخلى مكانه منه .
قال : ومنه أطال الله بقاء الأمير ، وأدام عزه وتأييده ، وعلوه وتمكينه ، وكبت عدوه .

ثم ذكر أدعية أخرى للأمراء عن الفضل بن سهل . منها - أطال الله بقاء الأمير . ويمكن له في البسطة وتزايد النعمة ، وزاده من الكرامة والفضيلة ، والمواهب

الجليله ، في أعزِّ عزِّ وأدوم سلامة ، وأسبل عافية - ومنها - أطال الله بقاء الأمير ، وأدام له الكرامة مرغوباً إليه ، وزاد في إحسانه لديهِ ، وأتمَّ نعمته عليه ، ووصل له خير العاجل بجزيل الآجل .

الصنف الثاني

(المكاتبة إلى القضاة)

وقد قال النحاس : إنه يدعى للقاضي بمثل ما يدعى به للأmir ، غير أنه يجعل مكان الأمير القاضي ، إلا أن الفضل بن سهل قال : يدعى لقاضي القضاة : أطال الله بقاء القاضي ، وأدام عزِّه وكرامته ، ونعمته وسلامته ، وأحسن من كلِّ جميل زيادته ، وألبسه عفوهِ وعافيته . وإنه يدعى له أيضاً : أطال الله بقاء القاضي في عزِّ وسعادة ، وأدام كرامته ، وأحسن زيادته ، وأتمَّ نعمته عليه في أسبغ عافية ، وأشمل سلامة . قال : وقال غير الفضل : إن الكُفَّ يكتب كُفاه ومن ذلك خارجاً من نعمته : أدام الله بقاءك أيها القاضي .

الضرب الثاني

(المكاتبة من الرئيس إلى المرءوس : كالمكاتبة عن الوزير وقاضي القضاة)

وغيرهما ، والخطاب في جميعها بالكاف)

قال النحاس : وهي على مراتب ، أعلاها في حق المكتوب إليه أطال الله بقاءك وأدام عزِّك وأكرمك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وإحسانه إليك وعندك . ودونه « أطال الله بقاءك ، وأعزِّك وأكرمك ، وأتمَّ نعمته عليك وعندك » . ودونه « أدام الله عزِّك ، وأطال بقاءك ، وأدام كرامتك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وأدامها لك » .

ودونه « أعزك الله، ومد في عمرك، وأتم نعمته عليك، وما بعده على توالى الدعاء ^(١) الذي تقدم ». ودونه « أكرمك الله وأبقاك، وأتم نعمته عليك، وأدامها لك ». ودونه « أن تسقط وأدامها لك ». ودونه « أبقاك الله وحفظك وأتم نعمته عليك، وأدامها لك ». ودونه « أن تسقط وأدامها لك ». ودونه « حفظك الله وأبقاك، وأمتع بك ». ودونه « عافانا الله وإياك من سوء » .

قال في "صناعة الكتاب" : هذا إذا جرى الأمر على نسبه ولم تتغير الرسوم، وإلا فقد يعرض أن يكون في الدولة من هو مقدم على الوزير أو مساوي به فتتغير المكاتبه، فقد كان عبد الله بن سليمان (يعني وزير المعتضد) يكتب أبا الجيش (يعني حمارويه بن أحمد بن طولون) : أطال الله يا أخي بقاءك إلى آخر الصدر، للمصاهرة التي كانت بين أبي الجيش وبين المعتضد ولأن المعتضد كناه . ثم قال : فإن كان الرئيس غير الوزير، فربما زاد في مكاتبته زيادة لمن له محل : فيزيده ويكتبه بزيادة التأييد ودوام العز . قال : ويدعى للفقهاء : أدام الله بقاءك في طاعته وسلامته وكفايته، وأعلى جدك وصان قدرك، وكان لك ومعك حيث لا تكون لنفسك . أو : أدام الله بقاءك في أسر عيش وأنعم بال، وخصك بالتوفيق لما يحب ويرضى . وحباك برشده، وقطع بينك وبين معاصيه . أو : أطال الله بقاءك بما أطال به بقاء المطيعين، وأعطاك من العطاء ما أعطى الصالحين . أو : أكرمك الله بطاعته، وتولاك بحفظه، وأسعدك بعونه، وأيدك بنصره، وجمع لك خير الدنيا والآخرة برحمته، إنه سميع قريب . أو : تولاك من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وكان لك من هو بالمؤمنين رؤوف رحيم . أو : أكرم الله عن النار وجهك، وزين بالتقوى تجلك . أو : أكرمك الله بكرامة تكون بك في الدنيا عزاً، وفي الآخرة من النار حرزاً .

(١) لعله على منوال

الضرب الثالث

(المكاتبة إلى النظراء، والمخاطبة فيه بالكاف)

قال في "صناعة الكتاب" وأعلى ما يكتب في ذلك (يعنى بالنسبة إلى المكتوب إليه) ياسيدى «أطال الله بقاءك وأدام عزك وتأييدك إلى آخر الصدر». ودونه «أطال الله ياسيدى بقاءك». ودونه «ياسيدى وأحى أطال الله بقاءك». ودونه «أدام الله يا أحى بقاءك».

الضرب الرابع

(المكاتبة إلى الأبناء، والخطاب فيه بالكاف)

قال في "صناعة الكتاب" يكتب الرجل إلى ابنه : أبى أنت ، أو : فداك أبوك . أو : مات قبلك . أو : أسأل الله عز وجل حفظك وحياتك ورعايتك . أو : أرشدك الله أمرك . أو : أحسن البلاغ بك . أو : بلغ الله بك أفضل الأمل ، وأتم السرور بك ، وجعلك خلفا صالحا ، وبقية زاكية .

الضرب الخامس

(المكاتبة إلى الفتيان، والخطاب فيه بالكاف)

قال النحاس : يدعى لهم : صرف الله السوء عنك ، وعن حظي منك . أو : أطال الله بقاء النعمة عليك وعلى فيك . أو : جعلت أنا وطاري وتالدي فداك . أو : ملأني الله إخوانك ، وأدام بقاءك . أو : أستودع الله عز وجل ما وهب لي من خلقتك ، ومنحني من أخوتك ، وأعزني به من موتك . أو : حاط الله حظي منك ،

وأحسن المدافعة عنك . أو : ببقائك مُتَّعت ، وفقدك مُنِعت . أو : نفسى تَفديك ،
والله يُبقيك ، ويقيني الأسواء فيك . أو : ملأني الله النعمة ببقائك ، وهنأني ما منحني
من إخائك . أو : أبقى الله النعمة لي ببقائها لك ، وبلغتها بك . أو : وفر الله حظي
منك ، كما وفر من المكارم حظك . أو : ملأني الله ببقاك ، كما منحني إخاك .
أو : دافع الله لي وللكارم عن حوبائك ، وأمتعني ببقائك ، وجمع أمني فيك بجمعه
المكارم لك . أو : زادك الله من النعم حسب تزيدك في البر لإخوانك ، وبلغ بك
أملهم كما بلغ بهم آمالهم فيك .

الضرب السادس

(المكاتبه إلى النساء)

قد ذكر النحاس أنهن يكاتبن على نظير ما تقدم من مكاتبه الرئيس والمرئوس
والنظير ، غير أنه قد وقع في الأصطلاح من بعضهم أنه لا يقال في مكاتبتهن وكرامتك
ولا وأتم نعمته عليك ، ولكن وأتم نعمته لديك ، ولا فضله عندك ، ولا سعادتك ،
ولا فعلت ولا أن تفعل ، ولكن يقال : إن رأيت أن تمنى بذلك مننت به ، وما
أشبه ذلك ، وقد تقدم في الكلام على مقدمات المكاتبات بيان كراهتهن لذلك .

قلت : ثم راعى الكُتَّاب في تعظيم المكتوب إليه أن عدلوا عن خطابه بالكاف
عن نظير خطاب المواجهة إلى معنى الغيبة ، فقالوا : له ، وإليه ، وعنده ، ونحو ذلك
وخصوا الخطاب بالكاف بأدنى المراتب في حق المكتوب إليه . على أنه قد تقدم
من كلام النحاس إنكار ذلك على من أعتمده محتجاً عليه بأنه لا أعظم من الله تعالى
مع أنه يقال في الدعاء يا الله ونحو ذلك .

(١) كذا في الأصل ولعل مراده وغير الكاف من ضمير خطاب المواجهة إلى الخ .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان في كتابه "ذخيرة الكتاب" أدعية مرتبة على الغيبة، وقال: أعلاها «أطال الله بقاءه، وأدام تمكينه وأرتقاءه، ورفعته وسنائه، وكبت عدوه». . ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده، وعُلاه وتمهيدته، وكبت عداه». . ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده وحرس حوَّباه». . ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده ونُعماه». . ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام نُعماه». . ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام عزَّه». . ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام توفيقه وتسديده». . ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام سَدَّاه وإرشاده». . ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام حِرَاسته». . ودونه «أدام الله تأييده». . ودونه «أدام الله توفيقه». . ودونه «أدام الله عزَّه وسنائه». . ودونه «أدام الله عزَّه». . ودونه «أدام الله حِرَاسته». . ودونه «أدام الله كرامته». . ودونه «أدام الله سلامته». . ودونه «أدام الله رعايته». . ودونه «أدام الله كفايته». . ودونه «أبقاه الله». . ودونه «حَفِظَه اللهُ». . ودونه «أعزَّه اللهُ». . ودونه «أيدَّه اللهُ». . ودونه «حَرَسَهُ اللهُ». . ودونه «أكرمه اللهُ». . ودونه «وَفَّقَهُ اللهُ». . ودونه «سَلَّمَهُ اللهُ». . ودونه «رَعَاهُ اللهُ». . ودونه «عَافَاهُ اللهُ». . وعلى معنى الغيبة يقال في الدعاء أطال الله بقاء الأمير . أو بقاء القاضي . أو بقاء سيدي . أو بقاء مولاي، وما أشبه ذلك في كل رتبة بحسبها .

وأعلم أن الداهيين من الكُتَّاب إلى إجراء المخاطبة في المكتبة على معنى الغيبة كما هو طريقة ابن حاجب النعمان وغيره، يعبرون عن المكتوب إليه بلقبه الخاص : كالوزير، والأمير، والحاجب، والقاضي، وما أشبه ذلك، وذكره بالسيادة وما في معناها، مفضلين لفظ الجمع، كسيدنا ومولانا على لفظ الإفراد كسيدي ومولاي، وينعتون المكتوب إليه بالجليل أو الحاجب الجليل، ويجعلون الإفراد دون ذلك في الرتبة فيقولون: سيدي، أو مولاي الأمير الجليل، أو الحاجب الجليل،

(١) لعله كالحاجب الجليل . ان لم يكن زاندا من قلم الناسخ .

ونحو ذلك . ثم توسَّعوا في ذلك بفعلوا الدعاءَ متوسِّطاً كلامَ الصدر على القُرب من
الابتداء، مقدِّمينَ بعضَ كلامِ الصدر عليه، ومؤخِّرينَ بعضه عنه . مثل أن يقال
في المكتابة بَشْكُر: إذا كان الشُّكرُ - أطال الله بقاء سيدنا الأمير فلان - ترجمانَ النِّيَّةِ ،
ولسانَ الطَّويِّه ، وشاهدَ الإخلاص ، وعُنوانَ الإختصاص ، وسبباً إلى الزِّيادَةِ ،
وطريقاً إلى السَّعادَةِ ، وكانت معارفه قد أحاطت بمعادِنه ، واستولت على محاسِنه ،
فألْسُنُ آثارها مع الصَّمْتِ أفصحُ من لسانه ، وبيانها مع الجُودِ أبلغُ من بيانه ،
ونحو ذلك . ثم أحدثوا أصطلاحاً آخرَ أضافوه إلى الإِصطلاحِ الأوَّلِ ، فقدموا على
الدعاء لفظ «كاتبنا» أو لفظ «كاتبِي» رُتبهً دونَ رُتبه ، مثل أن كتبوا : كاتبنا - أطال
الله بقاء الأمير - ونحنُ على أفضلِ ما عوَدنا اللهُ من أنتظامِ الأمورِ وسَدادِها ، وأستقامتِها
بحضرتنا وأطرادها . أو كاتبِي - أطال الله بقاء مولاي الحاجب - عن سلامة ينغصها
فقدك ، وينتقصها فراقك ، وما يجري مجرى ذلك . وربما أبدلوا لفظ كاتبنا أو كاتبِي
بلفظ كتبتُ بصيغة الفِعلِ ، وربما ابتدءوا بلفظ أنا ونحوه . ثم خرج بهم الإختيار
إلى مصطلحاتِ أصطلحوا عليها مع بقاء بعضِ المصطلحِ القديمِ : نخطبوا بالحضرة
تارةً ، وبالخدمة تارةً ، وبالمجلسِ أُخرى ، فكتبوا : كاتبِي - أطال الله بقاء حضرة سيدنا
الوزير، أو سيدنا الأمير، ونحو ذلك ، أو أسعد الله الحضرة ، أو أسعد الله الخدمة ،
أو ضاعف الله جلالَ الخدمة ، أو أعزَّ الله أنصارَ الخدمة . وربما كتبوا : صدرت
هذه الخدمة إلى فلان . وقد يكتبون : صدرت هذه الجملةُ ، إلى غير ذلك من
تفنناتهم التي لا يسعُ استيعابها ، ولا يمكنُ اجتماعُ متفرِّقها .

قلت : وبالجمله فضبط صدور الإخوانيات وابتدائها على هذا المصطلح
غير ممكن لأختلاف مذاهبهم في ذلك ، والذي تحصل لي من كلام النحاس

وَأَبْنُ حَاجِبِ النِّعْمَانِ ، وَتَرْسُلُ أَبِي إِسْحَاقَ الصَّابِي ، وَالْعَلَاءِ بْنِ مُوَصَّلَايَا ، وَأَبِي الْفَرَجِ
الْبَيْهَقِيِّ ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُتَّابِ الْمُجِيدِينَ أَنَّ الْغَالِبَ فِي الْمَكَاتِبَاتِ الدَّائِرَةِ بَيْنَ أَعْيَانِ
الدُّوَلِ عَلَى سَبْعَةِ أَسَالِيْبٍ :

الأسلوب الأول

أَنْ تَفْتَحَ الْمَكَاتِبَةَ بِالْدُّعَاءِ

كما كتب أبو إسحاق الصابى إلى الصاحب إسماعيل بن عباد بالشكر والتشوق .

أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ سَيِّدِنَا الصَّاحِبِ الْجَلِيلِ ، فِي سَلَامَةِ دُنْيَا وَدِينِ ، وَنَفَازِ أَمْرٍ وَتَمَكِينِ ،
وَتَمَامِ عِزٍّ وَتَأْيِيدِ ، وَثَبَاتِ وَطَاةٍ وَتَمَهِيدِ ، وَعُلُوِّ قَدْرِ وَسُلْطَانِ ، وَتَعَاظُمِ خَطَرٍ وَشَانِ ،
وَتَوْلَاةٍ فِي نَفْسِهِ وَأَوْلِيَاءِهِ بِأَحْسَنِ مَا عُرِفَ وَأُفِّ ، مِنْ نَعَمِ دَارَةِ الْحَلَبِ ، مَتَفَرِّعَةٍ
الشَّعْبِ ، مَحْمِيَّةِ الْجِهَاتِ وَالْجَوَانِبِ ، مَحْجُوبَةٍ عَنِ النَّوَائِبِ وَالشَّوَائِبِ ، وَأَرَاهُ فِي حُسَادِ
فَضَائِلِهِ ، وَكُفَّارِ فَوَاضِلِهِ ، مَا عَوَّدَهُ فِيهِمْ مِنْ شَقَاءِ جُدُودِهِمْ ، وَفُلُولِ حُدُودِهِمْ ، وَحُلُولِ
النِّكَالِ بِهِمْ ، وَإِثْبَاتِ الْعِصْمَةِ مِنْهُمْ . وَجَعَلَ حُكْمَهُ قُطْبًا لِمَدَارِ الْأَفْلَاقِ ، وَنَهْجًا
لِمَجَارِي الْأَقْدَارِ ، فَلَا يَنْزِلُ مِنْهَا مَحْبُوبٌ مُطْلُوبٌ إِلَّا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَنَحَاهُ ، وَلَا مَحْذُورٌ إِلَّا
أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَحَامَاهُ ، ثُمَّ كَانَ بَرُّوسٍ مَعَانِدِيهِ حُلُولُهُ ، وَبِرْقَابِهِمْ إِحَاطَتُهُ ، وَفَوْقَ
ظُهُورِهِمْ تَحْمَلُهُ ، وَعَلَى صُدُورِهِمْ مَجْتَمُهُ ، أَمْرًا جَزْمًا قَضَاهُ اللهُ لَهُ وَخَصَّهُ بِهِ ، وَأَعْطَاهُ
الْأَيَّامُ عَلَيْهِ عَهْدَ أَمَانِيهَا ، وَأَمَرَتْ لَهُ بِهِ عَقْدَ ضَمَانِيهَا ، عَاطِفَةً عَلَيْهِ بِطَاعَتِهَا وَمُؤَاتَاتِيهَا ،
مُغْضِيَةً لَهُ عَنْ نَوَائِبِهَا وَنَبَوَاتِيهَا ، وَحَقِيقٌ عَلَيْهِ جَلُّ أَسْمِهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ ، وَيَسْمَعَ
هَذَا الدُّعَاءَ فِيهِ ، إِذْ كَانَ مَرْفُوعًا إِلَيْهِ فِي أَوْفَرِ عِبَادِهِ فَضْلًا ، وَأَغْمَرَهُمْ نَيْلًا ، وَأَجْرَلَهُمْ
أَدْبَا ، وَأَكْثَرَهُمْ حَسْبًا ، وَأَعْمَلَهُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَأَوْلَاهُمْ بِإِحْسَانِهِ وَمَعُونَتِهِ ،

كتبت هذا الكتاب أطال الله بقاء سيدنا صاحب الجليل ، ثم آنخرط في سلك مقصده إلى آخره .

الأسلوب الثاني

أن يتوسط الدعاء صدر الكتاب بعد الابتداء بكلام مناسب للحال .

كما كتب أبو إسحاق الصابي أيضا عن بعض الأمراء إلى أمير آخر، مبشرا بفتح :
 ومن أعظم النعم - أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل - خطرا ، وأحسنها أثرا ،
 نعمة سكنت ثوره ، وأطفأت فوره ، وعادت على الناس بحمى الصنع ، وجيل النفع ،
 ونظام الأمور ، وصالح الجمهور ، فتلك التي يجب أن يكون الشكر عليها مترادفا ،
 والاعتداد بها متضاعفا ، بحسب ما أزلت من المضره ، وجددت من المسره ،
 وأماطت من المحذور ، ونشرت من المأمول : وحقيق على الناس أن يعرفوا حقها ،
 ويوفوها من حمد الله قسطها ، ويتنجزوه وعده الحق في أداها ، وإطالة الإمتاع بها ،
 والحمد لله على أن جعلنا ممن يعرف ذلك ويهتدى إليه ، ويعتقده وينطوي عليه ،
 ويؤدى فرض الاجتهاد في الاستدامة والاستراة منه ، وأن خصنا من هذه النعم
 بذوات الفضل السابغ ، والظل الماتع ، الجامعة لكبت العدو ومساءته ، وابتهاج الولي
 ومسرته ، وهو المسؤل جل اسمه وعز ذكره ، أن لا يسلبنا ما البسناه من سرايلها ،
 وأجزاه من فضل ذبولها ، وعودناه من جلاله أقدارها ، وتعاضم أخطارها ، ولا يعدمنا
 معونه منه على بلوغ أقصى الوسع في الاعتداد بها ، ومنتهى الطوق في البشر لها ،
 بمنه وطوله ، وقوته وحوله .

وقد عرف مولانا الأمير فلان ما كان من كذا وكذا ، ثم أتى على ذكر الفتح

إلى آخره .

الأسلوب الثالث

أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ « كِتَابِي » كما كتب الصَّابِي عن الوَزِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الحَسَنِ بْنِ سَعْدَانَ ، إِلَى نَخْرِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهٍ فِي إِشَارَةِ فَتْحٍ .

كِتَابِي - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ مَوْلَانَا الْأَمِيرِ الْجَلِيلِ نَخْرِ الدَّوْلَةِ - وَمَوْلَانَا الْمَلِكِ السَّيِّدِ صَمَّصَامِ الدَّوْلَةِ وَشَمْسِ الْمَلَّةِ ، جَارٍ عَلَيَّ أَفْضَلِ حَالٍ ، جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا فِي تَمَامِ عِزِّ وَنَصْرِ ، وَنَفَازِ أَمْرٍ وَنَهْيٍ ، وَعُلُوِّ كَلِمَةٍ وَرَأْيٍ ، وَسُبُوغِ مَوْهَبَةٍ وَنِعْمَةٍ ، وَشُكْرِ اللَّهِ يَسْتَرِيدُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيَسْتَدِرُّ الْمَادَّةَ مِنْ طَوْلِهِ ، وَأَنَا جَارٍ فِيهَا أَحْمَلُهُ مِنْ أَعْبَاءِ خِدْمَتِهِمَا ، وَأَتَوَلَّاهُ مِنْ تَعَاظِمِ شُؤْنِهِمَا ، عَلَيَّ أَجْمَلُ مَا عَوَّدَ اللَّهُ وَزُرَّاءَ هَذِهِ الْمَمْلُوكَةِ الْمُنَاصِحِينَ لَهَا ، وَأَوْلِيَاءِهَا الْمُحَامِلِينَ عَنْهَا ، مِنْ هِدَايَةٍ إِلَى مَرَّاشِدِ الْأُمُورِ ، وَتَوْفِيقٍ لِصَوَابِ التَّدْبِيرِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَقَدْ كَانَ كَذَا وَكَذَا .

الأسلوب الرابع

أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ « كَتَبْتُ » كما كتب الصَّابِي إِلَى صَاحِبِ الْجَيْشِ فِي تَعْزِيَةٍ :
 كَتَبْتُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِنَا صَاحِبِ الْجَيْشِ - وَالْعَيْنُ عَبْرِي ، وَالكَبِدُ حَرِّي ، وَالصَّبْرُ مَسْلُوبٌ ، وَالْعَزَاءُ مَغْلُوبٌ ، بِالْفَجِيعَةِ فِي سَيِّدِي فَلَانَ نَضَّرَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَكَرَّمَ مُنْقَلَبَهُ ، الَّتِي هَدَّتْ الْجَلْدَ ، وَفَتَّتْ فِي الْعَضُدِ ، وَبَسَطَتْ عُدْرَ الْجَزُوعِ ، وَهَجَّجَتْ حِلْمَ الْحَلِيمِ ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَإِلَى أَمْرِهِ صَائِرُونَ ، وَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَسِبُهُ غُصْنَا ذَوِي ، وَشِهَابًا خَبَا ، وَعِلْقَ مَضِنَّةٍ عَلِقَتْ بِهِ أَيْدِي النَّوَابِ ، وَتَحْخِيرَتِهِ سِهَامُ الْمَصَائِبِ ، وَقَارَنْتُ بَيْنَ قُلُوبِ الْأَبَاعِدِ وَالْأَقَارِبِ ، وَالْحَوَاصِّ وَالْعَوَامِّ فِي التَّأَلُّمِ لِفَقْدِهِ وَالْإِسْتِيحَاشِ لِمَصْرَعِهِ ، وَالكَتَابَةِ لَوْقُوعِ المَحْدُورِ بِهِ ، وَعِزِّي عَلَيَّ أَنْ يَجْرِيَ لِسَانِي بِهَذَا الْقَوْلِ ، وَيَدِي بِهَذَا الْخَطِّ ، إِلَى آخِرِ الْمَكَاتِبَةِ .

الأسلوب الخامس

أن يُفْتَتَحَ الكِتَابُ بِالْحِطَابِ : كما كتب صاحب ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه ، إلى شجاع الدولة وزير دمشق ، بعد هلاك زكي بن آقسنقر .

أيها السيد الرئيس المحامي عن سربه ، والذي قصر إلا في المعالي ، رب ناء بجسمه وهو دان بقلبه ، وغريب إذا نسبت وأمير على دمشق مطاع في صحبه ، وله بالعراق إخوان من حزبه ، إلى آخر المكاتبه .

الأسلوب السادس

أن تُفْتَتَحَ المَكَاتِبَةُ بِلَفْظِ : «أنا» كما كتب الصابي عن نفسه إلى الأثير أبي الحسن يهنئه بعيد .

أنا - أطل الله بقاء سيدنا الأستاذ الأثير - أحاول الخدمة له والقربة منه منذ وصلت إلى العسكر المنصور ، فيعترض دون ذلك عوارض يجرى بها المقدور ، إلى الحين الموقت المسطور ، وقد علم مني وشهر عنى كذا وكذا ، إلى آخر الكتاب .

الأسلوب السابع

أن تُفْتَتَحَ المَكَاتِبَةُ بِلَفْظِ « صدرت » أو « أصدرت » كما كتب صاحب ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه إلى أبي الفرج سعد بن محمد تشوقا .

صدرت هذه الجملة إلى فلان ، ولواعج الأشواق إليه متضاعفة مترادفه ، وأستمرار الصبر على البعد عنه قد رث قواه ، ووهن عراه ، وأعوزنا وجدانه إذ عنت ذكراه ،

وإن كان ذكره سَمِيرَ الخاطر، وتُجَاهَ الناظر، والغريمَ المُلازم، الذي يستحقُّ غالبه اللبيبُ الحازم، إلى آخر الكتاب .

المهيب الثاني

(في الأجوبة على هذا المصطلح ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

أن يُفْتَحَ الجواب بما يُفْتَحُ به الابتداء ثم يقع التعرُّضُ بعد ذلك لوصول الكتاب والجواب عنه : إما ملاصقاً لأوّل الابتداء ؛ وإما بعد كلام طويل .
فأما ما هو متصل بأوّل الابتداء، فكما كتب الصابى .

كتابى - ووصل كتاب مولاى وفهمته ، وجلّ عندى قدره وموقعه ، وسكنتُ إلى مادّل عليه من سلامته ، وسألتُ الله أن يُسبِّغَ عليه ظلّها ، ويملِّه نعمه كلّها ؛ فأما ما ذكره من كذا وكذا، إلى آخر الكتاب .

وأما ما هو بعد كلام طويل ، فكما كتب الصابى أيضاً عن نفسه إلى الصاحب ابن عبّاد .

كتابى - أطال الله بقاء مولانا الصاحب الجليل كافي الكفّاه - وليس من جارحة إلا ناطقةً بشكره وحمده، ولا فى الدهر جراحةٌ إلا عافيةٌ بفضله ورفده، وأنا مستمرُّ له على دعاء: إن خلوتُ من أن يكونَ عائداً لصلاحي، ورأيتُنا لحنّاحى، لآلِترمنه عن الأحرار العائشين فى نداءه، المستظّلين بِدَراهِه^(١)، فكيف وأنا أوّلُ ساهرٍ فى مرّابعه،

(١) الذرى ما يستكن فيه الانسان والظل راجع ج ١٨ من اللسان .

ووارِدٍ لشرائعه، وأحوالى جاريةً على استقامة أقوى أسبابها تصرف الأيام على آرائه،
 واتباعها إثارةً في أوليائه وأعدائه، والحمد لله رب العالمين، قضاءً لحقه وأقتضاءً
 لمزيدة، وأستدامةً للنعمة عنده، التى استخضفت في أيدينا سعتها، وسالت علينا
 شعابها، وغمرتنا سبحانها، وتفتيات لنا ظلالها، وما يزال بين رغبة مولانا الصاحب الجليل
 كافي الكفاة - أدام الله علوه، وكبت عدوه، في عبده ورغبة عبده إليه سر مكنون
 في الصدور، ومستور تحت الضلوع، فهما يتناجيان به على بعد الدار، ويلتقيان
 عليه بالأفكار، فإن تطلع من حجاب القلوب، وشد من ظهور الغيوب، فإن ظهوره
 يكون من جهته في تفحات الإنعام، ومن جهتي في ثمرات الكلام. وقد وصل كتابه
 المخطوط بكرمه لا بقلمه، إلى صنيعة المائل بين يديه بهمه لا بقدمه، فلم يستطع
 أن ينهض من الفكر، إلا بقدر ما يرى ساحتها من الكفر، ويبلغه إلى آخر الاجتهاد
 والعذر، وأسأل الله أن يطيل بقاءه للإفضال المأخوذ منه، والفضل المأخوذ عنه،
 والعلم الذى يزخر به بحره، والفخر الذى يسحب له ذيله، والعز الذى ضرب عليه
 رواقه، والسلطان الذى ألقى إليه استحقاقه، والأمر والنهى اللذين يحويهما ترانا
 وأكتسابا، إذا حواهما غيره غلولا وأغتصابا، بمنه وطوله، وقد كان كذا وكذا.

الضرب الثانى

(أن يفتح الجواب بلفظ «ورد أو وصل» ونحوهما)

كما كتب الصابى عن الوزير أبى عبد الله بن سعدان فى جواب كتاب ورد عليه .
 وصل كتابك - أطل الله بقاءك - وفهمته ، وأدى فلان ما تمنله عنك ووعيته ،
 وأزددت به بصيرة فى سدادك ومعرفتك ، وفضلك وحصافتك ، واجتماع الأدوات
 الجميلة فىك ، الداعية إلى إعلاء محلك ، وحميد حالك ، والثقة بك ، والإستقامة إليك ،

وأنهيتُ ذلك إلى مولانا الملكِ فلان ، فأصغى إليه مستمعا ، وأوجبَ لك به حَقًّا متضاعفا ، وأمرني بكذا وكذا إلى آخر مراده .

وكما كتب أبو الفرج البغواء في جواب كتاب :

ورد كتابك مُشافها من البرِّ ، ومؤدبًا من الفضل ، ومتحملاً من المنن ، ماتجاوز الإنصاف إلى الإسراف ، وقرن الإكرام بالإنعام ؛ ولم أدرِ أيُّ المنح به أشكرُ ، ولا بأيِّ العوارف له أعترف : أبما تحمله من جميل نيته ، أم ما أدنى من جليل مخاطبته ، أم ما ناجتني به فوائد ملاحظته ، أم ما أعمدني من حلاوة مُفاوضته ، إلى غير ذلك من الوصول إلى النعمة التي لا أطاؤها بشكر ، ولا أقاومها بمنة أعتداد : وهو ابتداءه إياي من المكاتب بما أحرز به على عادته قصب السبق ، وزاد على الرغبة مبرهنا وبصايق الودِّ مُخبرًا ، وإلى البسط دليلًا ، وعلى مستأنف الخدمة بالمواصلة باعنا ، ووجدته أيده الله قد فعل كذا وكذا .

المهيع الثالث

(في خواتم الإخوانيات على هذا المصطلح)

وأعلم أنه لم يكن لهم ضابط للاختامات ، ولا ما يقتضى ملازمة اختتام معين لصدر معين ، بل ذلك موكول إلى رأى الكاتب لا يراعى فيه غير علو الرتبة وهبوطها ، حيث تفاوتت رتب الاختتامات عندهم .

ثم الاختتامات لديهم على أنواع شتى .

منها - الاختتامُ باستمحة الرأى ، وهو على مراتب : أعلاها « ولمولانا علو الرأى في ذلك » كما كتب الصابى في خاتمة كتاب : ولمولانا علو الرأى في تشریف خادمه

بالقبول، والتقديم بإعلامه بالوصول، واستخدامه بما يتعلق بآرابه وأوطاره - ومن نظائر ذلك وأشكاله - إن شاء الله تعالى .

ودون ذلك - الأختتام بلفظ « فإن رأى كذا وكذا فعل » كما كتب الصابي في خاتمة كتاب بشاره بفتح، فإن رأى سيدي أن يعرفني موقع هذه البشري منه، ومقابلتها بالشكر الواجب عليها، ويتقدم بإشاعتها في نواحيه وأعماله، ليكتب الله به عدوه وعدونا، ويكاتبني بما أتطلعته من أحواله وأخباره، وأتعمد إسعافه به من مآربه وأوطاره، فإنني أعتده شريكاً لنا مساهماً، وخليطاً مفاوضاً، فعل إن شاء الله تعالى .

ودونه « فرأيت في كذا وكذا » كما كتب أبو الفرج البيهقي في خاتمة كتاب في الحث على مواصلة الكتب، فرأيت في إيناسنا بكتبت متضمنة ما نؤثره من أنيساطك، ونعلمه من أخبارك، موقفاً إن شاء الله تعالى .

وقد تقدم في الكلام على أصول المكاتبات لأي معنى كان فرأيت دون فإن رأيت .

وذكر ابن حاجب النعمان أن أعلى المراتب « وللآراء العالية فضل السمو ومزيد القدرة . ودونه « ولرأى المجلس الفلاني فضله وسموه » . ودونه « ولرأى الحضرة الفلانية فضله » . ودونه « ورأى حضرة مولانا أسمى » . ودونه « ورأى حضرة مولاي العالی » . ودونه « ورأيه موقفاً » . ودونه « ورأيه السيد » . ودونه « ورأيه الأرشد » . ودونه « والمؤثر كذا » . ودونه « فأحب أن يفعل كذا » . ودونه « ويجب أن يفعل كذا » . ودونه « فافعل كذا من غير مخالفة » . ودونه « واحذر المخالفة » .

ومنها - الإختتام بالدعاء، كما كتب الصابى خاتمة كتاب « وأسأل الله أن يطيل بقاءه ، ويصل إياه ، ويحفظه بعيدا وقريبا ، ويرعاه غائبا وحاضرا .

ومنها - الإختتام بطلب مواصلة الكتب ، كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب ، وأنا أسأله أن يواصلني بكتبه ، مضمنة أخباره الطيبة ، وأمره المثل ، وأوطاره ومهمات ، معتمدا بذلك ، إن شاء الله تعالى .

ومنها - الإختتام بترك التكليف بالمكاتبة فى غير الضرورى ، كما كتب الصابى فى آخر مكاتبة ، وما أطلب سيدى بالمكاتبة إلا عند الحاجة العارضة ، فإنه يفيدنى بها جميلا أشكره ، ويستفيد منى سعيًا يحمده ، فأما ما عدا ذلك مما يشغل أوقات راحته ، ويسد فرج خلوته ، فإننى أستعفى منها استعفاء المتقرب إليه ، المؤثر لما خف عليه ، وله فيما سألت فضل النظر فيه ، والإسعاف به ، إن شاء الله تعالى .

ومنها - الإختتام بالتحذير من المخالفة ، كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب إلى جماعة بتحصيل قوم : وليكتب كل واحد منهم بخبر من عسى أن يظفر به من هؤلاء ، أو يقف على موضعه ، أو ينتهى إليه شئ من خبره ، وليحذر من التقصير فى ذلك . إلى غير ذلك من الإختتومات التى لا تحصى كثرة .

وقد ذهب كثير من الكُتَّاب [إلى عدم تفضيل بعض الإختتومات على بعض] على أن^(١) ابن حاجب النعمان قد قال فى «ذخيرة الكُتَّاب» إنَّ أعلى ذلك بالنسبة إلى المكتوب إليه : ولأراء الفلانية فضل السمو ومزيد القُدرة . ودونه « ولرأى المجلس الفلانى فضله وسموه » . ودونه « ولرأى الحضرة الفلانية فضله » . ودونه « ورأى حضرة سيدنا أسمى » . ودونه « ورأى حضرة مولاي العالى » . ودونه « ورأيه

(١) اقتبسنا هذه الجملة من المقام وأضفناها لتتم الكلام وعبارة ابن حاجب النعمان تقدمت فى الصفحة

مَوْفَّقًا . . ودونه « ورأيه السَّيِّدِ » . ودونه « ورأيه الأَرشَدُ » . ودونه « والمُؤَثَّرُ كذا » . ودونه « فَأُحِبُّ كذا » . ودونه « وَيَجِبُ أَنْ يَفْعَلَ كذا » . ودونه « وَسَبِيلُهُ أَنْ يَعْتَمِدَ كذا » . ودونه « فافْعَلْ كذا » . ودونه « فافْعَلْ كذا من غير مخالفة » . ودونه « وَأَحْذَرِ المخالفة » .

المهْيَعُ الرَّابِعُ

(في عُنوانات الكتب على هذا المصطَلَحِ ، وفيها أربعة أحوال)

الحالة الأولى — أن يكون العُنوانُ من الرئِيسِ إلى المرئُوسِ ، قد ذكر في «صناعة الكتاب» أن العُنواناتِ من الوزير والقاضي وغيرهما من الرؤساء على تِسْعِ مراتبَ :

(الأولى) أن يكتَبَ في الجانب الأيمن « لأبي فلانٍ أطال الله بقاءه وأعزّه » ، وفي الجانب الأيسر « من فلان بن فلان » باسم الوزير وأسم أبيه إن لم يكنه الإمام؛ فإن كَنَّاهُ ، كتب « من أبي فلان » ، والقاضي في معنى ذلك .
(الثانية) أن يُكْتَبَ في الجانب الأيمن « لأبي فلانٍ أطال الله بقاءه » فقط ، ويُكْتَبُ الأسمُ ^(١) ولا يُكْتَبُ وأعزّه .

(الثالثة) أن يكتب في الدعاء للمكتوب إليه ، أدام الله عزّه .

(الرابعة) أن يكتب أعزّه الله .

(الخامسة) أن يكتب أشكره الله وأدام كرامته .

(١) أي أسم الوزير في الجانب الأيسر وقوله ولا يكتب وأعزّه أي في الدعاء للمكتوب إليه الذي هو

في الجانب الأيمن فتنبه .

(السادسة) أن يُكْتَبَ أكرمهُ اللهُ، وفي ذلك يُكْتَبُ أَسْمُ الوَظِيرِ في الجَانِبِ الأيسرِ .

(السابعة) أن يُكْتَبَ أبْقَاهُ اللهُ، ولا يذكَرُ أَسْمُ الوَظِيرِ في هذه المرتبة وما بعدها .

(الثامنة) أن يكتب حِفْظَهُ اللهُ ولا يُكْتَبُ أَسْمُ الوَظِيرِ .

(التاسعة) أن يكتب عَافَاهُ اللهُ .

وعلى نحو ذلك جرى أبْنُ حَاجِبِ النُّعْمَانِ في "ذخيرة الكتاب" فقال : إنه يُبْدَأُ في الجَانِبِ الأيمنِ بذكر المكتوب إليه ونُوعِيهِ وَكُنْيَتِهِ وَأَسْمِهِ وَأَسْمِ أبِيهِ وَنَسَبِهِ المشهورِ من ناحيته أو قبيلته أو بلده ؛ ثم يذكَرُ المكتوب عنه في الجَانِبِ الأيسرِ بِأَسْمِهِ وَأَسْمِ أبِيهِ ؛ فإن كان الكُتَابُ عن الوَظِيرِ ، ذَكَرُ كُنْيَتِهِ في الجَانِبِ الأيسرِ ، إن كان الإمام أمره أن يكتب مَتَكْنِيًّا أو مَتَلَقَّبًا .

وقد سبق في الكلام على أصول المكاتبات في أول الباب الثاني من هذه المقالة أن من السلف من كره لأبي فلان وقال : الصواب أن يكتب إلى أبي فلان . قال في "صناعة الكتاب" ويكتب : لأبي الحسن ؛ فإن أعدت الكنية في الناحية الأخرى رفعت فقلت أبو الحسن على بن فلان على المبتدأ والخبر أو على إضمار مبتدأ ، وإن شئت خفضت على البدل ، فإن لم تعد الكنية كان الخفض أحسن فقلت لأبي الحسن ؛ ثم قال : وإن كتبت إلى رجلين كنية كل منهما أبو الحسن ، كتبت لأبوي الحسن إذا لم يكن لهما ولدٌ يقال له الحسن ، فإن كان لكل منهما ولد يقال له الحسن ، جاز أن يكتب لأبوي الحسنين . قال : والاختيار أن يكتب لأبوي الحسن أيضا ، لأن المعنى للذين يقال لكل واحد منهما أبو الحسن . ويجوز أن يكتب إلى الرجلين اللذين يكنيان بأبي الحسن : لأبي الحسن بفتح الباء وكسر الياء على لغة

من قال جاءني أبك ، والأصل فيه لأبين الحسن سقطت النون للإضافة ، ويكتب في الجميع لأبي الحسن بكسر الباء ، الأصل لأبين بكسرها أيضا ، سقطت النون للإضافة على لغة من قال : جاءني أبوك^(١) يعني بضم الواو ، ويجوز أن يكتب لرجل كنيته أبو الحسن لأبا الحسن على لغة القصر ، كما يقال لفتى الحسن .

قال في " ذخيرة الكتاب " وإن كان الكتاب إلى آتين وكأيتهما مختلفة : كأبي جعفر ، وأبي منصور ، وأبي بكر ، كتبت آباء جعفر ومنصور وبكر . وإن كانت كآيتهم متفقة مثل أن تكون كنية كل منهم أبو جعفر كتبت آباء جعفر .

الحالة الثانية — أن يكون العنوان من المرعوس إلى الرئيس . قد ذكر « النحاس » عن الفضل بن سهل أنه إذا خوطب الكُفء يجعلني الله فداءك بالصدر الكامل ، فأحسن دُعائه للعنوان ، أعزّه الله وأطال بقاءه ؛ وذكر أنه إذا كوتب بأعزّه الله فأجمل العنوان مد الله في عمره . قال في " صناعة الكتاب " ولا يتكفى الرجل في كُتبه ، إلا أن تكون كنيته أشهر من اسمه فيتكفى على نظيره ، ويتسمى لمن فوقه ؛ ثم يلحق المعروف بأبا فلان ، أو المعروف بأبي فلان . قال : ويكتب : من أخيه ، إن كانت الحال بينهما توجب ذلك .

الحالة الثالثة — أن يكون العنوان من الرجل إلى أبه ومن في معناه ، قد ذكر النحاس أنه يعنون إليه من فلان بن فلان إلى فلان بن فلان ، ثم قال : وكذا كبير الإخوة والرجل إلى أهل بيته .

(١) كذا في الأصل ولم نعرف في كتب النحو على هذه اللغة ولعله تحريف من الناصح والأصل جاءني أبك

يعني بضم الباء فتأمل .

(٢) لعله إلى آتين فأكثر وكآيتهم ... تأمل .

الحالة الرابعة - أن يكون المكتوبُ إليه امرأةً . قال في "صناعة الكتاب" :
 إن كان المكتوبُ إليه أمّ الخليفة ، كتب : للسيدة أم فلان أمير المؤمنين ، وإن
 كانت امرأة الخليفة وكان ابنها معهودًا إليه بالخلافة ، كتب للسيدة أم فلان ولى
 عهد المسلمين ، وإن كانت امرأة رجل جليل ، كتب للحرّة أم فلان ، ولا يكتب
 اسمها ، ويدعو لها بالدعاء الذى يكون خطابها به .

هذا ما كان الحال عليه فى زمن النحاس فى خلافة الراضى وما حوّلها .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان فى "ذخيرة الكتاب" أنّ الحال تغير عن ذلك عند
 تغير المكاتبات إلى المجلس العالى ، والحضرة السامية ، وما يجرى مجرى ذلك ، ثم قال :
 فعلى هذا إذا كتب إلى المكتوب إليه بالمجلس العالى أو تسمى ونعوته ، فيجب
 أن يكتنى عن نفسه بالملك أو مملوك أو العبد أو الخادم . وإذا كتب : الحضرة
 السامية أو العالمة ونعوتها ، فيجب أن يكتنى عن نفسه الخادم أو خادمها أو عبدها .
 وإذا كتب : حضرة سيدنا ونعوتها ، فيجب أن يكتنى عن نفسه خادمها أو خادمه
 وعبدها أو عبده . وإذا كتب : حضرة مولانا ونعوته ، فيجوز أن يكتنى عن نفسه ماشاء
 من ذلك . قال : وفى الكتابة إلى النظير لا ضابط لعنوانه كما لا ضابط لمكاتبته ،
 بل له أن يكتنى عن نفسه بما شاء مما تقدم ذكره .

ثم قال : وإن كانت المكاتبَةُ من الرئيس إلى المرءوس ، فيجب أن يكتنى : حضرة
 الفلانى بغير مولى - ودونه : الفلانى بغير حضرة ، وكنيته ونعوته وأسمه وأسم أبيه ،
 ويكتنى عن نفسه ما يختار أن يكتبه الرئيس إلى المرءوس مما هو معروف مشهور ، ويزيد
 فى اسمه وأسم أبيه ألفاً ولأما ، إن كانا مما يجوز أن يُزادا [فيهما] ، وإذا كتب المرءوس
 إلى الرئيس وكتنى عن نفسه بما كتني ، فيجب أن يحذف من اسمه وأسم أبيه الألف

واللام . قال : وللرئيس أن يكتب عن نفسه بما شاء من الكليات التي تليق بمنصبه وأسمه وأسم أبيه ونعته المقترن بأمر المؤمنين ، مثل ناصر أمير المؤمنين ، وحسام أمير المؤمنين ، وما أشبه ذلك .

المقصد الثاني

(في [رسوم] إخوانيات أهل المغرب)

وعادتهم فيها أن يكون الخطاب فيها خطاب المواجهة ، مثل : أنت ، وأنا ، ولك ، وعندى ، وعندك . وربما خاطبوا الواحد بجمع تعظيماً للكتوب إليه ، كما يعبر عن المتكلم الواحد بنون الجمع تعظيماً له . قال ابن شيث في "معالم الكتابة" ولا يعرف ذلك لغيرهم ، وربما وقع الخطاب عندهم على الغيبة أيضاً ، وفيه جملتان :

[الجملة الأولى]

(في مفتحات المكاتبات على اصطلاحهم ، وفيها مهيعان)

المهيع الأول

(^(١) في ابتداء المكاتبات ، وهي على طرق)

منها — أن تفتتح المكتبة بالدعاء : إما بطول البقاء كما كتب عبد الله بن طاهر : أطال الله بقاء سيدي الأعلى ، ومفرعي في الجلى ، متممة عليه النعم ، ميسرة لديه المهيم ، أقول بدءاً أيديك الله : لقد أعشى الناظرين سنك ، كما أعيأ الطالبين مسعك ، ولئن فت الجميع ، لقد أبدعت الصنيع ، فلا غاية لمجد إلا وأنت آتيا ، ولا ذروة لعز

(١) بيض لذلك في الأصل وزدناها من نظيرتها الآتية .

إلا ومن ظنك بانيتها؛ لك الهدى والناس ضلال، وفي يدك الضوء والكُلُّ أغفال؛
وإن الأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة : أطل الله بقاء الأيخ السرى الكريم، الحرى
بالتقديم والتعظيم؛ أوحى فرسان الإحسان، وواحد عقبان البيان؛ ولا زال قلمه جالى
بدائع السحر، جالب بضائع الشجر، مغبوط السبق، عند كلال جياذ الكلام، مبسوط
الرزق، فى حال إملاق الأقلام، إن ذكرت - أبقاك الله - البلاغة فمن على مؤردها
يساجلك، أو قيل فى شريعته بنيت على خمس فإنما هى أناملك، صفوها متفجر
من معينك، وشاؤها لا مطمع فيه لغيريمينك، وشاؤها تستوفيه فى هيئة متمهل،
وجناها ترعاه بعزة أحي مهلهل، فقد صرت أمام أمتها، لا بل إمام أئمتها، والراضع
لرسلها، بل الواضع لأصلها . فهينئها أن كنت سابق غايتها، وسائق رايتها، وبشرى
لمهريق وشته يراعك، ومشته براعتك، لقد أوتى من الحسن ما تشتريه القلوب
بجباتها، وتشتهيه النفوس أكثر من حياتها؛ وإن الأمر كذا وكذا .

وإما بالبقاء المجرد .

كما كتب أبو محمد بن عبد البر، إلى بعض أرباب الأقلام :

أبى الله الشيخ فى عزة تالدة طارفه، وسعادة لاتزال طارقة بكل عارفه؛ ولا زال
قاصده محيا من رفته بروض ناضر، ومحوما من مجده على مسرة سمع وقرة ناظر؛
والأمر كذا وكذا .

وإما بالدعاء للحضرة .

كما كتب أبو زيد الفازارى :

أَبِي اللَّهِ حَضْرَةَ السَّيِّدِ نَاضِرَةَ أَدْوَاجِ السَّعْدِ ، عَاطِرَةَ أَفْوَاحِ الْمَجْدِ ، سَاكِبَةَ أَنْوَاعِ
الْجَدِّ ، صَائِبَةَ سِهَامِ الْجَدِّ ، وَلَا زَالَتْ مَغْشِيَةَ الْجَنَابِ ، بَوْفِدِ الْجَدِّ ، مَوْشِيَةَ الْإِهَابِ ،
بُسُودَدِ الْحَفْدِ . الظَّلُّ إِذَا رَحِبَ ، اَزْدَحَمَ عَلَيْهِ الضَّاحُونَ ، وَالْوَرْدُ إِذَا عَدُبَ ،
اَزْدَلَفَ إِلَيْهِ الْمُتَمَاحُونَ ، وَظَلَّ الْحَضْرَةَ الْمَكْرَمَةَ كَثِيفُ الْأَفْيَاءِ ، وَوَرِدَهَا مُغْنِي عَنْ وَسَائِطِ
الْأُرْشِيَةِ وَالِدَّلَاءِ ، فَلَا غَرَوَ أَنْ تُضْرَبَ إِلَيْهَا أَجَادُ الْإِبْلِ ، وَتَغْصُّ بِالْوُفُودِ عَلَيْهَا أَفْوَاهُ
السُّبُلِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِينُ الْحَضْرَةَ الْمَكْرَمَةَ عَلَى الْأَيَادِي تُسَوِّغُهَا ، وَالْأَمَالَ تَبْلَغُهَا ،
بِمَنَّةٍ . وَإِنَّ الْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا .

وإما بالدعاء للمحلِّ .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة في صدر شفاعته .

أَبِي اللَّهِ الْمَحَلَّ الْأَعْلَى حَرَمًا يَتَحَمَّاهُ الْأَنَامُ ، وَعَلَمًا تَتَضَاءَلُ لَهُ الْأَعْلَامُ ، وَلَا زَالَتْ
أَرَاؤُهُ النَّاجِحَةُ ، تَسْتَمِدُّهَا الْعُقُولُ وَالْأَفْهَامُ ، وَمَسَاعِيَهُ الصَّالِحَةُ ، يَشْكُرُهَا اللَّهُ
وَالْإِسْلَامُ . إِنَّ مَجْدًا سَامَى الْكَوَاكِبِ بِمَثْوَاهِ ، وَسَارَى الْفُرِّ السَّوَاكِبِ فِي جَدْوَاهِ ،
لِدَاعٍ إِلَى آسْتِلَامِ كَفِّهِ عَلَيْهِ ، وَإِلِاسْتِهَامِ عَلَى وَصْفِهِ الَّذِي لَهُ حَقِيقَةُ الْأَوَّلِيَّةِ ، وَكَيْفِ
لَا وَقَدِ أَجَارَ مِنَ الدَّهْرِ الْمُخِيفِ ، وَصَارَ قِبْلَةً كُلِّ دَاخِلٍ تَحْتَ التَّكْلِيفِ ، يُعِيدُ مَتَى
أَخْطَاهَا صَلَاةَ الْأَمَلِ ، وَيَرَى الْأَجْتِهَادَ فِي طَلِبِهَا مِنْ رَاحَةِ الْعَمَلِ ، وَإِنَّ الْأَمْرَ
كَذَا وَكَذَا - إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الدَّعَاءِ .

ومنها - أن تفتتح المكاتبة بلفظ « كتابي » كما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى
بعض العلماء .

كتابي إلى سيدي - حفظه الله مُقِيمًا وَسَائِرًا ، وَأَنْقَاهُ لَغَرَّرَ الْبَيَانَ سَاحِرًا ، وَعَنْ وَجْهِ
الْإِحْسَانِ سَافِرًا ، وَلَا زَالَتْ آدَابُهُ تُشْرِقُ وَتُرَوِّقُ سَاهِرًا ، وَمَحَاسِنُهُ كَالشَّمْسِ إِذَا لَمْ

يَلْقَى نَوْرَهَا سَائِرًا - من فلانة - وَالْوَدَّ رَوْضَةً مَطْلُولَةً ، وَرِحْمٌ مَوْصُولَةً ، خَلَصَ مِنْ
الْقَلْبِ إِلَى حَبَّتِهِ ، وَأَخْتَصَّ مِنْهُ بِمَا لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ أَحِبَّتِهِ ، وَأَنَارَ شَوْقًا عَلَى قَدْرِهِ ،
وَهَوَّى نَوَى فِي صَدْرِهِ ، وَأَسْفَأَ عَلَى عَهْدٍ أَصْبُو إِلَى ذِكْرِهِ ، فَاتَتْ ، وَرَدَّ الْفَائِتَ يَعْسُرُ ،
وَقَصُرَ ، وَأَيَّامُ السَّرُورِ تَقْصُرُ ، كَأَنَّمَا كَانَ قِرَاءَةَ سَطْرٍ ، أَوْ إِغْفَاءَةَ بَحْرٍ ، أَوْ زِيَارَةَ
مُجْتَازٍ ، أَوْ عِبَارَةَ ذِي إِجْازٍ . فَمَنْ لَنَا بِذَلِكَ الْأَرْجِ الذَّكِيِّ ، وَالْأَرْيَحِيِّ يَرْتَاحُ لِمَا يَنْتَحِرُ
أَوْ يَنْحِي ، وَمَتَى نَفُوزُ بِنِ يَنْحِتُ مِنْ صَخْرٍ ، وَيُزْرِي بِأَبِي صَخْرٍ ، وَيَعْرِفُ مِنْ بَحْرٍ ،
وَيَجْرِي مَعَ أَبِي بَحْرٍ ، وَيَجْمَعُ إِسْنَادَهُ بَيْنَ الْجَامِعِ وَالْمُسْنَدِ ، وَيُنْشِدُ مِنْ بَدَائِعِ حَفِظِهِ
مَا يُؤَثِّرُ فِي الْمُسْنَدِ ، شَجَرَةٌ عِلْمٌ تُؤْتِي كُلَّ حِينٍ أَكْلَهَا ، وَمِزْنَةٌ فَضْلٌ تَجُودُ مَا نَحْشَى الْجُلْهَا ،
وَضَائِلَةٌ أَدِيبٌ يَقِلُّ لَهَا أَنْ يُجْعَلَ الْقَارِثُ جُعْلَهَا ، فَاتَ عَنَا ، فَاتَعَبَ وَعَنَى ، فَهَلْ مَعِينٌ
عَلَى دَوَاءِ إِنْ نَحْنُ لُسَعْنَا ، أَوْ سَبِيلٌ إِلَى مَا يَفِيدُنَا مِنَ الْكَلَامِ فَنَحْنُ فِي حُرُوفٍ تَجِيءُ بِغَيْرِ
مَعْنَى ، وَإِنْ الْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

ومنها - أن تفتح المكاتبه بلفظ : كتبت .

كما كتب أبو زيد الفازاني .

كُتِبَتْ - كَتَبَ اللَّهُ لِلْأَخِ الْأَبْرَارِ الْأَوْفَى ، وَالْفَاضِلِ الَّذِي آثَارُ مَأْمِرِهِ لَا تَنْحَفِي ، مَجْدًا
هَامِي الرَّبَابَةِ ، سَامِي الرَّابَةِ ، وَذَكَرَا مَتَحَلًّا بِالْإِطَالَةِ وَالْإِطَابَةِ ، وَقَرَنَ أَعْمَالَهُ بِالْقُبُولِ
وَدَعَوَاتِهِ بِالْأَسْتِجَابَةِ - مِنْ مَكَانٍ كَذَا ، وَلَا جَدِيدَ يُبَيِّنُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا صُنْعَهُ الْجَمِيلَ ،
وَلُطْفَهُ الْعَرِيضَ الطَّوِيلَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، حَمْدًا يُؤْمِنُ آيَاتِهِ مِنَ التَّغْيِيرِ
وَالْتَبْدِيلِ ، وَالْأَمْرُ عَلَى كَذَا وَكَذَا .

(١) القارث أجف المسك وأجوده .

ومنها - أن تفتح المكتبة بكفاية عن المكتوب إليه من لقب ونحوه .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة لبعض الرؤساء .

الجناب الرياسي أدام الله أعتلاءه، وحرس مجده وسنائه .

صدرت هذه الخدمة إليه من فلانة، ولا مزيد على ما يجب لجلاله من التعظيم،

ولفضله من التقديم، ولآلائه من الشكر العميم، وإن الأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو بكر بن عيسى شافعا في أنصاري .

السيد العماد، والمجاهد الجواد، والملجأ المنيع المريع لمن يرتاع أو يرتاد، أدام الله

علاءه، وضاعف عنده آلاءه، بذر الجملة الشريفة، وفرع الدوحة المنيفة، من

آل قيس الجود، وقيل بني قيلة الباذلين الموجود، أولئك الذين عز المهاجرون

بإخائهم وسخائهم، فلا غرو أن تكلف الألسنة بمدحه، وتمد الأيدي إلى منحه،

ويصدر باسمه تاريخ الأجداد فهو أحق مفتحته، والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة، عن الأمير أبي جميل زيان، إلى الأمير

أبي زكريا بن إسحاق .

الأمير الأجل الهام الأعلى حرس الله مقامه، وأسعد أيامه، وظاهر بالضرورة

مضائه وأعتزاه، راسخ شرف النجار، ثابت أصل الفخار، مستهل آلاء السحب

الغزار، والعيون إليه سامية، والهيم إلى مالدية مترامية، والصدور بالأمل فيه تُشرح،

والنفوس الحرة إلى استرقاقه تطمح، ولا غرو والكرم من بعض شيمه، والغنى

من فضل ديمه - أن يسير إليه في البر والبحر كل ذي رغبة، وتترامى نحوه ركائب

الرجاء من كل تربة . ومخاطبتنا هذه إلى مجلسه أيده الله عما نعلمه من كبير قدره،

ونوجه لعالى أمره، ونبيح به من طيب خبره، وجميل ذكره، والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو الحسن بن شلبون :

العِمَادُ المَذْحَرُ، والمَلَاذُ الذي بولائه أفضر، جعل الله قدره عالياً، ودهره بحاسنه
حالياً، ولا زال للنعم قابلاً وللأ[سواء] قالياً، كتبتُ من مكان كذا، والوُدُّ حليّةٌ
يتألقُ روتقُها، وشجرةٌ لا يسقط ورقُها، وإنها مغروسة، لا تقبل بذر العوادي،
ومحروسةٌ، لا يقع عليها من يقع في شجر الوادي، والأمر كذا وكذا.

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى بعض الفقهاء شافعاً موصياً :

المحلُّ الأعلى - ضاعف الله أنوار هدايته، وأبق على الجميع آثار عناية - مستودع
الكَمال، ومشرع الآمال، ومقعد أرباب السؤال، ومصعد الصالح من الأعمال،
وإن فلانا من أمره كذا وكذا.

وكما كتب ابن أبي الحِصَال :

الشيخُ الأجلُّ أدام الله عزه ونعمه، ووصل رفعتَه وعُلاه بتقواه، مجلُّ قدركم،
وملتزم برِّكم وشكرِكم، العارفُ بحقكم، فلان، فكتب يعظّمكم كتب الله لكم خيراً
مستمراً، ورضاً على ما رضونه ثابتاً مستقراً، من مكان كذا، على الرسم الملتزم من
توفير علائك، والشكر لآلائك، والربُّ تعالى ينهضُ بحقكم اللازم الأئزم، ويصلُّ
حراسةً مجدكم الأئلد الأقدم، بمنه وفضله، وإن الأمر كذا وكذا.

وأعلم أنه ربّما أتى بعد ذكر النعوت بالسلام، ثم بحمد الله تعالى والصلاة على
النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله، ثم الرضا عن الخلفاء الماضين والخليفة القائم.
وعلى ذلك كانت طريقة كتاب دولة الموحدين أتباع «المهدي بن تومرت» كما كتب
أبو محمد بن عبد البر :

الشيخ الأجل ، أدام الله عزته ، ووصل كرامته ورفعته . مجلُّ قدره ، وملتزم بره
 وشكره ، المسرور بما يُجرّيه إحسانه من طيب ذكره .
 سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد حمد الله العظيم ، والصلاة على سيدنا محمد رسوله الكريم ، وعلى آله -
 والرضا عن الإمام المعصوم مهديه ، وعن خلفائه الأئمة الراشدين - والدعاء لسيدنا
 الخليفة الإمام أمير المؤمنين ، ابن الأئمة الخلفاء أمراء المؤمنين ، بالنصر الأعز ،
 والفتح الأتم الأوفى ، فكتب كتب الله لكم مجدا لا يهَى شرفه ، وسعدا لا يهَى
 طرفه ، من فلانة - حرسها الله - ولا ناشئ عن الله تعالى وعميم لطفه إلا الخير
 الأكمل ، والصنع الأجل ، والحمد لله رب العالمين كثيرا ، وإن الأمر كذا وكذا .

قلت : وعلى هذه الطريقة كانت كتابة أبي عبد الله بن الخطيب : كاتب ابن
 الأحمر بالاندلس على القرب من زماننا .

ومنها - أن تفتح المكاتب بالخطاب ، إمام مع حذف ياء النسب أو مع إثباتها .
 أما مع حذفها ، فكما كتب أبو المطرف بن المثنى :

سَيْدِي وَمَفْخَرِي ، وَعِصْمَتِي وَوَزْرِي ، وَرُكْنِي وَعِمَادِي ، وَذَخِيرَتِي
 وَعَتَادِي ، أَبْقَاكَ اللَّهُ نَاهِجًا سُبُلَ الْمَكَارِمِ وَالْمَعَالِي ، مُوقِّ حَوَادِثَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي .
 كُتِبِي أَعَزَّكَ اللَّهُ عَنْ عَهْدٍ حَسَنٍ لَكَ قَدْ أَحْكَمْتَ مَعَاقِدَهُ ، وَوَدَّ مَحْضُ فَيْكِ قَدْ صَفَتْ
 مَوَارِدَهُ ، وَنَفْسُ تَرْتَاخٍ لِدِذْكَرِكَ ، وَلِسَانٌ لِإِيهِ بَيْنَ مَحَاسِنِكَ وَعُلَاكَ ، قَدْ أَنْفَسَحَ فِي نَشْرِ
 فِضَائِلِكَ مِيدَانُهَا ، وَفَاقَ فِي وَصْفِ فَوَاضِلِكَ بَيَانُهَا ، فَهِيَ تَنْظِمُ عُقُودَ مَجْدِكَ ، عَلَى أَجْيَادِ
 شُكْرِكَ ، وَتَحُوكُ مِنْ بُرُودِ تَقْرِيطِكَ وَشَتَائِكَ ، خِلْعًا لِمَجْدِكَ وَسَنَائِكَ ، وَشَيْهَا الذِّكْرُ
 الْخَطِيرُ ، وَطِرَازُهَا التَّرْفِيعُ وَالتَّوْقِيرُ ، تَكْسِرُ عَضْبَ عَدَنٍ ، وَتُعْفِي عَلَى وَشَى الْيَمَنِ ؛

وَتُطَلَعُ مِنْ رِيَاضِ أَخْلَاقِكَ ، فِي مَنْابِتِ أَعْرَاقِكَ ، مَا يُزِيرِي بِنَسِيمِ الْمِسْكِ تَضْوَعُ
عَرَفَهُ وَأَنْتَشَارَهُ ، وَيُرِيِّي عَلَى حُسْنِ النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ طَوَالِحُ أَزْهَارِهِ وَأَنْوَارِهِ ، وَأَخْلَقَ
بِمَنْ جَمَعَ اللَّهُ الْعَالَمَ فِيهِ ، وَحَرَسَ مَعَاهِدَ الْبِرِّ بِكَرِيمِ مَسَاعِيهِ ، أَنْ لَا تُعْزِي خَلَّةَ نَبِيلَةٍ إِلَّا
إِلَيْهِ ، وَلَا تُقْصِرَ مَنْقَبَةَ جَلِيلَةٍ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَلَا تُؤْثِرَ مَائِرَةَ نَفِيسَةٍ إِلَّا عَنْهُ ، وَلَا تُقْتَبَسَ
سِيرَةٌ جَمِيلَةٌ إِلَّا مِنْهُ ، وَاللَّهُ تَقَدَّسَ اسْمُهُ يَجِي هَذِهِ الْأَوْصَافَ الْبَدِيعَةَ ، وَالْحِلَالَ
الرَّفِيعَةَ ، مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ وَنَوَازِلِ الْغَيْرِ ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهَا يَدَهُ ، وَيَصْرِفُ عَنْهَا مَعْرَةَ
كُلِّ خُطْبٍ وَشَدَّةٍ ، بِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

وَأَمَّا مَعَ إِثْبَاتِ يَاءِ النَّسَبِ ^(١) ، فَكَمَا كَتَبَ أَبُو الْمَطَرِ بْنِ الدَّبَّاحِ إِلَى بَعْضِ الْأُدَبَاءِ
عِنْدَ وَرُودِهِ إِلَى بِلَادِهِ :

يَا مَوْلَايَ ، وَسَيِّدِي ، الْعَظِيمِ شَأْنُهُ وَأَمْرُهُ ، الْعَالِي صِيتُهُ وَذِكْرُهُ ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ
فِي عِزٍّ لَا تَقْصِمُ عُرَاهُ ، وَحِرْزٍ لَا يُسْتَبَاحُ حِمَاهُ ، لَمْ أَزَلْ - أَبِيقِ اللَّهِ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ -
تَسْمُوبِي إِلَى الْكِتَابَةِ هَمَّهُ ، وَتَتْرَامِي بِي إِلَى الْبَلَاغَةِ عَزْمُهُ ، حَتَّى تَذَلَّتْ لِي صِعَابُهَا
فَامْتَطَيْتُ ، وَتَسَهَّلَتْ لِي حُزُونُهَا فَارْتَقَيْتُ . وَلَمَّا رُفِعَتْ لِي عَنْ غَرَائِبِهَا الْأَسْتَارُ ،
وَعَلِمْتُ مِنْ غَوَامِضِهَا الْأَسْرَارُ ، وَفُزْتُ بِالْمَعْلَى مِنْ سِهَامِهَا ، وَالْمَوْفُورِ مِنْ أَقْسَامِهَا ،
جَعَلْتَ بَأَى أُمَّتِهَا أُمَّتِي وَأَهْتَدِي ، وَإِلَى أَيِّ رُؤُسَائِهَا أَنْتَسِبُ وَأَعْتَرِي ، نَاطِرًا فِي ذَلِكَ
إِلَى شَائِعِ الْأَخْبَارِ ، وَمُتَدَاوِلِ الْآثَارِ ، فَوَجَدْتُ الْأَلْسِنَةَ إِذَا تَنَاوَلَتْ صِفَةَ سِوَاهُ ، تَحَلَّتْ
بَعْضَ حِلَالِهِ ، أَوْ أَرْقَتْهُ إِلَى رُتْبَةٍ مِنَ الْعِلْيَاءِ ، تَمَثَّلَتْ بِهِ فِي الرَّفْعَةِ وَالسَّنَاءِ ، ثُمَّ تُفْرَدُ
أَعْرَهُ اللَّهُ دُونَهَا بِالْفَهْمِ الْمَتِينِ ، وَالْعِلْمِ الْمَشْهُورِ ، وَالْحِلْمِ الْمَتَعَارِفِ ، وَالْفَضْلِ الْمُتَوَاصِفِ ،
وَالرُّتْبَةِ السَّامِيَةِ ، وَالْحِلَالَةَ الْمَتَنَاهِيَةَ . فَكُلَّمَا رَأَيْتُ مُحَاسِنَ مَجْدِهِ يُجَلُّ ، وَسُورَ فَضْلِهِ

(١) لم تثبت فيه ياء النسب كما هو ظاهر فتأمل .

سُئِلَ، هَمَّتْ أَنْ أُطِيرَ إِلَى حَضْرَتِهِ بِجَنَاحِ الْإِرْتِيَّاحِ، وَأُرَكَّبَ إِلَى أَفْقِهِ تَوْرَهُ اللهُ أَعْنَاقَ
الرِّيَّاحِ، وَالْأَيَّامُ تُقَطَّعُ بِمَصَائِبِهَا، وَتَقَيَّدُ بِأَحْدَاثِهَا وَبِحَوَائِبِهَا، حَتَّى قَضَى اللهُ أَنْ
يَرِدَ هَذَا الْأَفْقَ فَأَفْرَخَ الْأَمَلَ بِغَيْرِ نَصَبٍ، وَأَنَالَ الْبُغْيَةَ بِغَيْرِ طَلَبٍ :

وَلَيْسَ الَّذِي يَتَّبِعُ الْوَيْلَ رَائِدًا * كَمَنْ جَاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِدُ الْوَيْلِ

ومنها - أَنْ تُفْتَحَ الْمَكَاتِبُ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة :

تُحْصَى الْإِبْنُ مَحَبَّةً وَمِقَّةً، وَالْعِبَادَ أَعْتَدَادًا بِجَانِبِهِ وَثِقَةً، حَفِظَ اللهُ نَجَابَتَهُ، وَجَعَلَ
لِدَاعِي السِّيَادَةِ تَلِيَّةً وَإِجَابَتَهُ، تَحِيَّةً الْإِجْلَالَ وَالتَّكْرِمَةَ، وَالْمَوَدَّةَ الْخَالِصَةَ الْمُتَحَكِّمَةَ،
وَرَحْمَةَ اللهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتُهُ، مِنْ مَكَانٍ كَذَا، وَالْوُدَّ كَلْفًا، وَالْعَهْدُ بِالصُّونِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ
مَكْتَنَفًا، وَتِلْكَ الذَّاتُ السَّنِيَّةُ ذَخِيرَةٌ جَلِيلَةٌ، وَأَمَلٌ لَا تُحْطَى مِنْهُ بِخِيَلِهِ، وَهَبَةٌ يَكْذِبُ
مَعَهَا أَنْ يُقَالَ الْإَيَّامُ بِخِيَلِهِ . وَكُنَّا نَنْظُنُّ أَنَّ بِنَاءَ الْفَكْرَمِ صَمٌّ صَدَاهُ، وَمَرَبَعُ الْفَضْلِ
عَاصِبٌ بَرْدَاهُ، وَغَائِبٌ عَنِ الرَّشْدِ أَدَاهُ، وَنَقُولُ : مَا كُلُّ مَنْ أَعْدَتُهُ الْعَيْلَةُ عُجْمِيلُهُ،
وَمَتَى يَفْطِنُ عَمِيرٌ عَمْرًا وَبِحِيَلِهِ، فَكَمَا بِكِفَاتِهَا، وَهَلْ سِوَى قَيْسٍ لِرِحَى الْعُجُوزِ عَدِمَتْ
جَدَاتِهَا، حَتَّى تَمَثَّلَ هَذَا الْمَجَاهِدُ مِنْ طَرْفِهِ، الْمُسْتَقْبِلُ آثَارَ سَلْفِيهِ، حَفِظَ اللهُ الْأَلْفَاظَ
وَالْأَلْسِنَةَ، وَحَمَلَةَ الْأَقْلَامِ وَالْأَسِنَّةَ .

وكما كتب أبو زيد الفازاري .

السَّلَامُ الْكَرِيمُ الْعَمِيمُ، عَلَى الشَّيْخِ الَّذِي أَثْبَتَ عَلَى وَدِّهِ فَلَا أُتَحَوَّلُ، وَأُطْنَبُ
فِي حَمْدِهِ فَلَا أُسْتَعِيرُ وَلَا أُتَأَوَّلُ، وَأَتَعَلَّلُ بِذِكْرِهِ عِنْدَ عَدَمِ مَرَاتِهِ وَلَا مَرِيئًا أَتَعَلَّلُ بِهِ
فَلَانُ - أَدَامَ اللهُ رِفْعَتَهُ، وَحَرَسَ مِنَ الْأَسَاءِ مُهْجَتَهُ . كَتَبَ أَخُوكُمْ، الْبَرُّ بِكُمْ، الشَّيْقُ

(١) كذا في الأصل ولم تنف عليه في غيره بعد البحث .

إليكم، الشاكر لمحاسنكم، المسرور بما سمعته من صلاح أحوالكم، فلان، ولا جديد
بمن الله تعالى إلا الخير والحمد لله كثيرا والأمر كذا وكذا .

ومنها - أن تفتتح المكتبة بالكفاية عن المکتوب عنه .

كما كتب ابن أبي الحصّال إلى بعض الكُتاب يسأله حاجة :

معظم الشيخ الأجلّ أبي فلان، ومجّله المکبرّ له فلان، أعلى الله قدركم، وأوزع
أولياءكم شكركم، أياديكم أدام الله كرامتكم أوکف من الغام، ونعمكم ألزم للأعناق
من أطواق الحمام، وإن وليكم ومعظمكم يحتاج إلى كذا وكذا .

ومنها - أن تفتتح المكتبة بلفظ من فلان .

كما كتب [بعضهم] من فلان، إلى الشيخ الحافظ الأكرم أبي فلان : أدام الله
كرامته بتقواه، فالكتاب إليكم كتب الله لكم أحوالاً صالحه، وخيرات عليكم غادية
رائحه، من موضع كذا، والبركات متوافره، والخيرات متظاهره، والحمد لله تعالى،
وإن الأمر كذا وكذا .

ومنها - أن تفتتح المكتبة بلفظ إلى فلان .

كما كتب بعضهم إلى والده .

إلى مولاي المعظم وأبي، المتكفل بتعليمي وحسن أدبي، أبقاه الله ناظرًا إلى
بعين رضاه، وأعانني على الجرى في ربه على حكم الشرع القويم ومقتضاه، من ابنك
المعظم لك، بل عبّدك، المتطلع إلى ما يصل من الأنباء الكريمة من عندك، المواسل
المسعى في شكرك وحميدك، فلان : بأبي كتبتك كتب الله لكم لسانا من العيش
وخفضا، وجمع بعد الأفتراق بعضًا منّا وبعضًا، ويسر لي بطوله ومثته أن يصفح
عني وأنت يرضى، من موضع كذا، ولا جديد إلا نعم من الله عز وجل تراوح

وتُغَادِي، وَتَجْرِي الخَوَاتِمُ مِنْهَا عَلَى حُكْمِ المَبَادِي، وَشَوْقٌ إِلَيْكُمْ يَعْمُرُ أَحْنَاءَ ضُلُوعِي
وَفُؤَادِي، وَيَحْسِمُ عَنِّي قَطِيعِي دَمْعِي المَهْتُونِ وَسَهَادِي، وَاللَّهُ جَلٌّ وَعَزٌّ يَسِّرُ أَنْقِضَابَ
غُرْبَةِ النَّوَى، وَيُرِيحُ النُّفُوسَ مِنْ مُحْرِقِ اللُّوْعَةِ وَلَاعِجِ الجَوَى، وَالْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا.

المهيبع الثاني

(في الأجوبة)

(وهي على ما تقدم في أجوبة المشاركة من أنها على ضربين)

الضرب الأول

(أن يفتح الجواب بما يفتح به الأبتداء، ثم يقع التعرض

إلى وُصول الكتاب، وذكر الجواب عنه)

كما كتب أبو عمرو الباجي :

وَعَدُّكَ الكَرِيمُ - أَدَامَ اللهُ عَزَّكَ - دِينٌ، وَقَضَائُوهُ شَرَفٌ وَزَيْنٌ. وَمِثْلُكَ مِنْ تَحَلُّ
بِجَاهِ السَّيِّئِ، وَزِلْخَمٌ فِي السِّيَادَةِ بِالمُنْكَبِ العَمِّ، وَحَفِظَ العَهْدَ لِمَا أُضِيعَ، وَأَشْتَرَى
المَجْدَ بِمَا بِيَعُ، وَالتَّرَمَ لِلوَفَاءِ شَرْطًا لَا يُفْسَخُ، وَرَأَاهُ شَرْعًا لَا يُنْسَخُ، وَوَصَلَ كِتَابُكَ العَزِيزُ
فِي مَعْنَى كَذَا وَكَذَا.

الضرب الثاني

(أن يفتح الجواب بورود الكتاب وُصوله أبتداء)

كما كتب ابن أبي الحِصَالِ :

وَرَدَ كِتَابُكَ فِي أَمْرِ فُلَانٍ يَفْرِضُ الحَمَلَ عَلَيْهِ فِي النُّفُوزِ لِوَجْهَتِهِ، وَالتَّقَدُّمَ إِلَى رُتْبَتِهِ،
وَلَيْسَ عِنْدِي إِلَّا عَوْنٌ وَإِنْجَادٌ، وَطَاعَةٌ وَأَتْقِيَادٌ، غَيْرَ أَنَّ فِي الأَمْرِ كَذَا وَكَذَا.

الجملة الثانية

(في خواتم المكاتبات على أصطلاحهم ، وهي على أساليب)

منها - أن يُختم الكتابُ بالسلام المجرد عن الدعاء .

كما كتب أبو عمرو الباجي في خاتمة كتاب :

وأقرأ عليك سيدي ، وأسنى عُددي ، أجزَلَ السلام وأحفلَه ، وأتمه وأكمله .

ومنها - أن يُختم بالدعاء .

كما كتب أبو المطرف بن الدبَّاغ في خاتمة كتاب :

والله لا يُنجلي مولاي من عبدٍ يسترِّقه ، ومنمَّ يُنعم عليه [بما] يستحقُّه ، وجميل يُؤليه ، وصنع يُسديهِ ، بمنه وجميل صنعه .

ومنها - أن يُختم بذكر التودد والمحبة .

كما كتب أبو جعفر الكاتب في آخر كتاب :

وإن لم يكن لي من الحقِّ ما لا أتبسِّط به عليه ، فلي من الودِّ ما أمَّتْ به إليه ، فحسى به سلماً إلى فضلك ، وذريعةً إلى مجدك ، إن شاء الله تعالى والسلام .

ومنها - أن يُختم باستمache النظر في أمرِ المكتوب عنه .

كما كتب أبو المطرف بن المثني في خاتمة كتاب :

ولك الطول العام ، والفضل الزاهر ، في اعتبار أمرِي ، وتحقيق خبرِي ، والسلام ؛

إلى غير ذلك من الخواتم التي تستدعيها المكاتبُ وتستوجبها المقاصد ، وفيما ذكر

من الصدور والخواتم ابتداءً وجواباً مَنعَ لمن تأمل ، والله المستعان في الأمر كله .

المقصد الثالث

(في الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية، وفيه ثلاثة مصطلحات)

المصطلح الأول

(ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية وماقاربه مما جرى عليه ابن عبد كان وغيره، وفيه ثلاثة مهايغ)

المهَيِّعُ الأول

(في الصدور، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الابتدآت، ولهم فيه أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكتبة بالدعاء، وعليه غالب كتابتهم، وهي على أنماط)

منها — الدعاء بطول البقاء وما في معناه .

كما كتب ابن عبد كان في صدر مكتبة : أطال الله بقاءك ، ففي إطالته حياة الأنام وأنس الأيام والليالي ، وأدام عزك ، ففي إدامته دوام الشرف ونمو المعالي ؛ وأتم نعمته عليك فإنها نعمة حلت محل الاستحقاق ، ونزلت منزلة الاستيجاب ، ووقفت على من لا تتركه الآلاء مكانه ، ولا تُنكر الفواضل محله .

وكما كتب : عمر الله بك الأزمنة والدهور ، وآنس ببقائك الأيام والشهور ، وأمتع بدوام عزك السعداء بحفظهم منك .

ومنها - الدعاء بدوام النعمة .

كما كتب : أسبغ الله عليك نعمة الراهنة بنعمة المستظفر، وصانها لديك بإيزاع الشكر عليها ، فلم أرو الله الحمد نعمة قصدت مستقرها ، وتوخت وليها ، وتمنت كفوها ، إلا نعمتك أكسبت أولياءها عزا ونصرة ، وملأت أعداءها ذلة وغضاضة ، وتمكنت بحل الصيانة والرعاية ، وخيمت بمسقر الشكر والحمد .

ومنها - أطراح الدعاء بدوام النعمة لتقيدها بموجباتها منها .

كما كتب : قد كفى الله عز وجل مؤونة الدعاء ، لنعمتك بالنماء : لأنها توخت لديك محلها ، فحلت بفنائك ساره ، مطمئنة فاره ، تستوثر مهادها قبلك . وتستنني مواردنا عندك ، ولم تزل تائقة إليك ، متطلعة نحوك بما أستجمع لها فيك : من لطيف السياسة وحسن الاحتمال لأعباء المغارم ، فهنا كها الله متصلة البقاء بطول مدة بقائك ، ومتحلية بحسن فنائك ، فلا زلت لعوارف النعم مستدعيا ، وللشكر بالزيادة فيها ممتريا ، وبدوام الحمد لردفها مستمريا .

ومنها - الدعاء يجعل فداك .

كما كتب : جعلني الله فداك ، فإن في ذلك شرفا في العاجل ، وذخر العقبى في الآجل ، وخير تراث لمخلفي من بعدى . دعاء أخلصته إليه ، وصدقته الطويبه .

ومنها - أستكراه الدعاء بالتفدية .

كما كتب : إن قلت في كُتبي إليك : جعلني الله فداك ، فأكون قد نحسنت حظ إحسانك إلي ، وحق مفترضك علي : لأنها نفس لا توازن ساعة من يومك ، ولا توازي طرفه من دهرك ، وإنما يفدى مثلك بالأنفس التي هي أنفس من الدنيا وأعرض من أقطار الأرض .

ومنها - تَفْدِيَةُ النَّعْمَةِ إِعْظَامًا لَهَا :

كما كتب : جعلني الله فِدَاءَ نِعْمَتِكَ الَّتِي عَلَتْ ذِرْوَةَ سَنَامِهَا ، وَفَاضَتْ دِرَّةُ سَمَائِهَا ، فَعَمَّرْتَ أَقْطَارَ الْآمِلِينَ ، وَنَضَّرْتَ جَنَابَ نَاحِيَةِ الْمُعْتَمِدِينَ .

ومنها - الدِّعَاءُ بِصَلَاحِ الدُّنْيَا وَغِبْطَةِ الْآخِرَةِ :

كما كتب : أَسْعَدَكَ اللهُ بِعَوَاقِبِ قَضَائِهِ وَقَدْرِهِ ، وَوَهَبَ لَكَ الصَّلَاحَ فِي دِينِكَ وَالسَّلَامَةَ فِي دُنْيَاكَ .

ومنها - الدِّعَاءُ بِكِبْتِ الْعَدُوِّ :

كما كتب : مَكَّنَ اللهُ يَدَكَ مِنْ نَاصِيَةِ عَدُوِّكَ بِالصَّوْلَةِ عَلَيْهِ ، وَمِنْ زِمَامِ وِلَايِكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَبَأْفَاكَ مِنْ كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ مَا يُبْنِي عَلَى تَأْمِينِكَ ، وَيُوفِي عَلَى تَمْنِيكَ .

ومنها - الدِّعَاءُ الْمَشْتَرَكُ بَيْنَ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ وَالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ :

كما كتب : أَدَامَ اللهُ أُنْسِي بِحَيَاتِكَ ، وَحَرَسَنِي مِنَ الْغَيْرِ فِي نِعْمَتِكَ ، وَأَكْرَمَنِي بِصِيَانَةِ أَيَّامِكَ وَلِيَالِيكَ ، وَأَعَزَّنِي بِذُلِّ عَدُوِّكَ وَقَمَعِ حَاسِدِيكَ .

ومنها - الدِّعَاءُ بِطَيِّبِ الْحَيَاةِ :

كما كتب : عِشْ أَطْيَبَ الْأَعْمَارِ ، مُوفِيٌّ مِنْ سُوءِ الْأَقْدَارِ ، مَبْلُغًا نِهَاجَةَ الْأَمَالِ ، مَغْبُوطًا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ ، لَا يَنْقُضِي عَنْكَ حَقٌّ عَارِفَةٌ حَتَّى تُجَدِّدَ لَكَ أُخْرَى أَجَلَّ مِنْهَا ، وَلَا يَمُرُّ بِكَ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ إِلَّا كَانَ مُؤَمَّنًا عَلَى أَمْسِهِ مَقْصَرًا عَنْ فَضْلِهِ غَدَهُ .

ومنها - الدعاء باقتضاء العدل والإنصاف :

كما كتب : جعلك شئ من ينظر بعين العدل ، وينطق بلسان القسط ، ويزن بقسطاس الحق ، ويكيل بمِيعار الإنصاف .

ومنها - الدعاء بإيزاج الشكر .

كما كتب : وصل الله لك كل نعمة يُنعمها عليك من الشكر بما يكون لحقها قاضيا ، وللزيد إليها داعيا ، ومن الغير مؤمنا ، وللسلامة موجبا .

ومنها - الدعاء للحاج بالبلاغ .

كما كتب : أوطاك الله في مسيرك أوثر المطايا ، وخولك فيما نويته أسبغ العطايا . وأوردك الهداية إلى كريم المشاهدة وزكى المواقف وأولاها بالرفقة المقبولة ، والقربة المأمولة .

ومنها - الدعاء للمسافر .

كما كتب : جعلك الله في حفظه وكنفه ، وأحاطك بحيطته ، وجعل سفرك أيمن سفر عليك ، ورجع لك بدرك الحاجه ، وبلوغ الأمل ، ونجح الطلبة ، ونيل السؤل .

ومنها - الدعاء بالعافية من المرض .

كما كتب : مسح الله ما بك ، وعاد بالبر عليك ، وعجل الشفاء لك ، ومحص بلوانك .

ومنها - الدعاء للولادة .

كما كتب : أجرى الله بالخير يدك ، وصما () بالعز طرفك ، وأوطأ كل مكرمة قدمك ، وأطال إلى كل غاية هممك ، وبلغك أقصى محبتك .

ومنها — الدعاء في الأضحىة بقبول النُّسك .

كما كتب : جعلك الله بقبول النسيكة والقربان ، فائزاً بالأجر والرضوان ، مُخلصاً لله بالإيمان ، في السر والإعلان ، مؤدياً لما أقرضَ عليك ، شاكرًا لإحسانه إليك .
ومنها — الدعاء بالهناء في الأعياد .

كما كتب : عرَّفَكَ اللهُ في هذا العيدِ المباركِ من السَّلامَةِ وعمومِها ، والعافيةِ وشُمولِها ، والعارِفةِ وسُبوغِها ، والحِياطةِ وكِمالِها ، والحِمايةِ وجمالِها ، أفضلَ . اعرفَّكَ في ماضِي أعيادِكَ ، وسالِفِ أعوامِكَ .

ومنها — الدعاء بدفع النوايب .

كما كتب : كان اللهُ جاركَ من بَجاجِ الدَّهرِ ونُوبِهِ ، ووليَّ إنعامِ النِّعمةِ فيما آتاك من فَضله ، وتَطوَّلَ عليك من حُسنِ الحِياطةِ لما تولاكَ والذَّبِّ عمَّا أفادَكَ .

الأسلوب الثاني

(أن تفتح المكتبة بلفظ : كتابي أو كتبت)

فأما كتابي ، فكما كتبَ ابنُ عبدِ كان : كتابي إليك ، وأنا أستعيب الأيام فيك ، وأصانعُ الزَّمانَ في تقريبيك ، وربُّعُ الحوارِ الذي كما نسكنُ تحتَ ظلاله ، ونتفياً برونقِ جماله ، بأجلِّ مُحفِّه ، وأيسرِ ألقه ، وأعدبِ مُشاهدة ، وأصدقِ مُشاهدة ، ولعل أن يرتاحَ فيشعبَ صدعا ، ويؤلفَ جمعا .

وأما كتبت ، فكما كتبَ ابنُ عبدِ كان أيضا ، كتبتُ وأنا من حنينِ الصِّبابةِ إليك ، وإرزامِ الشُّوقِ نحوكَ ، وأليمِ التشوقِ إليك ، ولايجعُ اللُّوعةُ بك ، على ما أسألُ الله أن يرحمَ ضعفي ويتصدقَ على برؤيتك ، ويهبَ لي النظرَ إلى وجهك وجمالِ عُمرتك ، التي هي حليفُ الجذل ، ونزْهة الأمل .

الأسلوب الثالث

(أن تُفَتِّحَ المَكَاتِبَ بِالْحِطَابِ بَأَنَا)

كما كتب : أنا من جُملة صَنَائِعِكَ ، وحَفَظَةِ ودَائِعِكَ ، وشَكَرَةِ إِحْسَانِكَ ،
متى تَصَرَّفْتُ في البلادِ ، فأنا المَعْرُوفُ بِمَعْرُوفِكَ ، والعائِشُ بِجَدْوَالِكَ ، وأنتَ مَتَرَعُ
هَمَّتِي وَقُرَّةُ عَيْنِي ، ومَدَارُ أَمَلِي ، ومَحَلُّ رَجَائِي .

الضرب الثاني

(الأَجْوِبَةُ)

وَأبتدأوها إما كما في الصُّدُورِ الأَبْتِدَاءَاتِ كما تَقَدَّمَ ثم يقع التَعَرُّضُ لَوُصُولِ الكِتَابِ ،
وإما بأن تُصَدَّرَ بَوُصُولِهِ وهو الأَكْثَرُ .

كما كتب ابن عبد كان : وصل كِتَابُكَ فِدْفَعُ تَبَارِيحِ الشُّوقِ ، وَقَمَعَ كَأَبَّةِ البَيْنِ ،
وأطفأ لَهيبَ الحُرْقَةِ ، وبرَّدَ حَرَّ الصَّبَابَةِ .

وكما كتب : وصل كِتَابُكَ مَشْتَمِلاً من أنواعِ البرِّ ، على ما يَقْصُرُ في جَنْبِ أَيْسَرِهِ
أَعْظَمُ الشُّكْرِ .

وكما كتب : وصل كِتَابُكَ المَصَدَّرُ بِجِوَاهِرِ لَفْظِكَ ، وبدائعِ مَعَانِيكَ ، ومحاسِنِ
نَظْمِكَ ، مستودِعاً ما لا يُقَدَّرُ على حَمْدِهِ وشُكْرِهِ إلاَّ بالإِعْتِرَافِ بالعِجْزِ عَنْهُ ، وما
أشبه ذلك .

المهيمع الثاني

(في خواتم الكتب)

وكان آختامُ المكاتبات عند أهل هذا المصطلح على ما تقدم في مكاتبات أهل
المشرق من استمحة الرأي : إما بلفظ فإن رأيت :

كما كتب ابن عبد كان : فإن رأيت أن تأتي فيه مؤتلفا، ما لم ترزل تأتيه سلفا، فعلت .
وإما بلفظ فرأيتك .

كما كتب : فرأيتك فيه بما أنت أهله ، فإن الرأي [الذي] أنت أهله ، فوق
ما يلتمسه المسرف في همته ، والمتبسط في أمنيته .

وكما كتب : فرأيتك في ذلك بما تقضي به الحق وتصل به الذمام ، وتحفظ به
الحُرمة وتصدق به الأمل ، وتقتعد به الصنعة ، وتستوجب به الشكر .

المهيمع الثالث

(في عنوانات الكتب)

ومصطلحهم فيه على نحو ما تقدم في مكاتبات أهل المشرق : من كتابة إلى فلان
من فلان ؛ أو من فلان إلى فلان .

فأما ما يكتب إلى فلان من فلان . فكما كتب ابن عبد كان : للسيد الذي
استعبد الأحرار بفضله .

وكما كتب : لمن قربه يمن وسعادة ، ونأيه نكد ومحنة .

وأما ما يكتب من فلان . فكما كتب : من صريع الشوق إليه ، وأسير الرقبة عليه .

وكما كتب : ممن لا يمتنى الحير إلا له ، إذ كان لا يناله إلا به .

المصطلح الثاني

(من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال في الدولة الأيوبية مما جرى عليه القاضي الفاضل ومن بعده . وهو على قسمين)
القسم الأول - الأبتداء : وليس لمصطلحهم ضابط في الأبتداء ولا في الترتيب في الرفعة والضعة ، بل أفتاحاتهم في ذلك متباينة .

فمن ذلك الأفتتاح بالدعاء ، وهو أكثر ما يقع في مكاتباتهم ، والغالب في ذلك الدعاء للمجلس ، كما كتب القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني : أدام الله أيام المجلس التي لحسنات المدلّ مديله ، ولعثرات المقلّ مقيله ، ولمعاطف العزّ مميّله ، ولمقاطف الفوز مميّله ، ولقداح الجدوى مجيّه ، ولا زالت الآراب بمكارمه باجحه ، والآراء بمراسمه ناجحه ، ومتاجر المقاهر بمولاته راجحه ، وأيدي الآمال لآياديه بمصافاته مصاحفه ، وأرواح أوليائه بروح آلائه في مواطاة أعظياته عابقه فائحه ، وأدعية الداعين لآيامن آيامه ، المدعين لعهود إنعامه ، طيبة صالحه .

ومن ذلك أفتاح العماد الأصفهاني في اعتذار تأخر المكاتبات : إن تأخرت مكاتباتي ، فإن العذر معلوم ، والأجر محتوم ، والقلم مضدود ، واللحم مسدود ، والبلد محصور .

إلى غير ذلك من أساليبهم المشهورة التي لا يسع أستيعابها ، ولا حاجة إلى الإمعان في ذكرها .^(١)

(١) لم يذكر القسم الثاني وهو قسم الكلام على الخواتم ولم يترك له بيانا نعم يفهم ذلك مما تقدم في الكلام على الخواتم العمومية فنبه .

المصطلح الثالث

(من مصطلحات الديار المصرية في الإخوانيات، ماجرى عليه الاصطلاح في الدولة التركية، مما رتبته القاضي حمى الدين بن عبد الظاهر، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، والمقر الشهابي بن فضل الله، ومن جرى مجراهم: من فضلاء الكتاب إلى زماننا، مما هو دائريين أعيان المملكة وأكابر أهل الدولة: من تواب السلطنة وسائر الأمراء والوزراء، ومن في معنهم: من أعيان الكتاب ومن نهج نهجهم من أرباب الوظائف)

وفيه مهيئات:

المهيئ الأول

(في رتب المكاتب المصطلح عليها)

وقد اختلفت مقاصدهم في ترتيبها اختلافًا متقاربًا في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير، مع مراعاة أصول المراتب. وها أنا أذكر ما استقر عليه الحال من ذلك، وأنبه على ما خالفه من ترتيبهم المتقدم الذكر: لتحصل الإحاطة به، ويعلم ماجرى عليه أهل كل عصر منهم مما لعل مختارًا يختاره، أو ينسج على منواله، منها على وهم من وهم في شيء من ذلك.

وأعلم أنهم قد بنوا هذا النوع من الإخوانيات على قاعدتين، تتعين معرفتهما قبل الخوض في رتب المكاتب:

القاعدة الأولى — فيما يتعلق بورق هذه المكاتب.

قد جرت العادة أن تكون جميع هذه المكاتب: من الأعلى إلى الأدنى، ومن الأدنى إلى الأعلى، ومن النظر إلى النظر، في ورق قطع العادة دون ما فوقه من مقادير

قَطَعَ الورق المتقدمة الذكر ، غير أن أعيان أهل الديار المصرية يُكاتبون في الورق المِصرى ، وأعيان أهل الشام يُكاتبون في الورق الشامي : لكثرة وجوده عندهم ، والمعنى في ذلك أن كُتِبَ السلطان الصادرة عنه إلى جميع أهل المملكة من الثواب وغيرهم في هذا القطع ، فلا جائز أن تَعْلُو مَكاتِبُهُ أحدٍ منهم على مكاتبه السلطان في ذلك .

ثم قد أصطلحوا على أن يكون في أعلى المكاتب عن كل أحد من أعيان الدولة قبل البسمة وصل واحد بيضا ، إذ كان أقل ما يجعل بيضا في كتب السلطان وصلين فاقتصروا على وصل واحد ، كي لا يساويه غيره في ذلك . وأصطلحوا أيضا على أن لا تنقص المكاتب المذكورة عن ثلاثة أوصال : الوصل الأبيض في أعلى المكاتب على ما تقدم ، ووصلان مكتوبان : إذ لو نقص عن ذلك ، لخرج الكتاب في القصر عن الحد فيزدري ، أما لو دعت الضرورة إلى الزيادة على الثلاثة لزيادة الكلام فلا مانع منه . وأصطلحوا على أن يترك للكتاب حاشية بيضاء تكون بقدر ربع الدرّج على ما تقدم ذكره في غير هذا الموضع .

القاعدة الثانية - فيما يتعلق بخط هذه المكاتب ، وكيفية أوضاعها .

قد أصطلحوا على أن جميع هذه المكاتب تُكتب بقلم الرقاع على ما تقدم ذكره في الكلام على قطع الورق [من] أن لقطع العادة قلم الرقاع . وأصطلحوا أيضا على أن تكون كتابة البسمة في أول الوصل الثاني من المكاتب ، وأن يكون تحت الجلالة من البسمة لقب المكتوب عنه المضاف إلى ملكه أو أميره ، فإن كان المكتوب عنه من أتباع السلطان كثواب السلطنة وغيرهم من الأمراء والوزراء ومن في معناهم من رؤساء الكُتّاب السلطانية ، كتب المَلِكِيّ الفلاني - بلقب ملكه السلطان ، مثل المَلِكِيّ الظاهري ونحو ذلك كما في هذه الصورة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَلِكِ الظَّاهِرِيّ

وإن كان المكتوبُ عنه من أتباع الأُمراء كاستدّار أميرٍ ونحوه، أنتسب في كتابته إلى لقب أميره الخاصِّ مما يُضَاف في التلقب إلى الدّين ؛ فإن كان أميره لقبه سيفُ الدّين مثلاً، كتَبَ بدلَ المَلِكِ الفلانيّ : اسيفيّ ؛ وإن كان لقبُ أميره ناصر الدّين كتب الناصريّ ؛ وإن كان لقبه علاء الدّين كتب العَلّائيّ ؛ ونحو ذلك . وإذا كتب تحتَ الجلالة من البسملة المَلِكِ الفلانيّ ونحو ذلك ، جعل ما قبله في السطر بياضاً وما بعده بياضاً ، ويكون ذلك قطعةً من سطر مفردةً بذاتها . وأصطلحوا على أنه كلما دقَّ القلمُ وتقاربتِ الأسطُرُ، كان أعلى في رتبة المكتوبِ إليه ، وكلما غلظَ القلمُ وتباعدتِ الأسطُرُ كان أنزلَ في رتبة المكتوبِ إليه . وأصطلحوا على أن في الرتبة العليّة من المكاتبات يكون السطرُ الأوّل من المكاتبَةِ تلوَ المَلِكِ الفلانيّ وما في معناه ملاصقاً له ، وفيما دونَ ذلك من المكاتبات يُترك بياضٌ يسير ، ولا يكتَبُ فيه شيءٌ ؛ وكأن المكتوبَ عنه يقول للمكتوبِ إليه هذا محلُّ العلامة ، ولكنّي قد تركت الكتابة فيه وكتبت بحاشية الكتاب تأديباً معك ورفعةً لقدرك ؛ وفيما دونَ ذلك يُترك بياضٌ أوسع من ذلك ويكتَبُ فيه المكتوبُ عنه علامته على ما سيأتي بيانه في مواضعه إن شاء الله تعالى . وأصطلحوا على أنه بعد انتهاء الكلام في المكاتبَةِ يكتَبُ ”إن شاء الله تعالى“ في خطّه ؛ ثم يكتَبُ التاريخُ في سطرين : اليومُ والشهرُ في سطر ، والسنةُ في سطر ؛ ثم تكتبُ الحمدُ والصلاةُ على النبيّ صلّى الله عليه وسلم في سطر ؛ ثم الحسبَةُ في سطر على ما تقدّم بيانه في الكلام على الفوائح والحواتم في المقالة الثالثة .

وليعلم أن هذه المكاتبات على قسمين :

القسم الأول - الابتداءات ، وهو على أربع درجات سبق توجيه ترتيبها في الكلام على أصول المكاتبات ، في أول هذه المقالة

الدرجة الأولى - [المكاتبة] بتقيل الأرض ، وهي أعلاها رتبةً بالنسبة إلى المكتوب إليه .

وأعلم أن كثيراً من كتّاب الزمان يظنون أن المكاتبة يقبل الأرض من مخترعات كتّاب الدولة التركية ، بل بعضهم يظن أنها من مخترعات المقرّ الشهابي بن فضل الله وليس كذلك ، بل المكاتبة بذلك كانت موجودة في أواخر الدولة العباسية ببغداد ، ثم سرت إلى الديار المصرية في أوائل الدولة الأيوبية ، فاستعملت بعض الاستعمال ، والمكاتبة بذلك موجودة في كلام القاضي الفاضل في بعض المكاتبات الملوكية ، ومن ذلك ما كتّب به عن نفسه إلى السلطان « صلاح الدين يوسف بن أيوب » في صدر كتاب تهنئة بمولود :

المملوك يقبل الأرض بالمقام العالی الناصري ، نصر الله الإسلام بمقامه ، وأهلك أعداء الحق بانتقامه ، ولا أعدم الأمة المحمدية عقد التزامه ، بكفالتها ومضاء اعترامه . ثم توسّع فيه الكتاب بعد ذلك حتى كاتب به الآحاد بعضهم بعضاً ،

وقد رتبوا المكاتبة بتقيل الأرض في المصطلح المستقر عليه الحال على خمس مراتب :

المرتبة الأولى - الإتيان بالإنهاء بعد يقبل الأرض من غير تعرض لذكر دعاء ولاثناء ، مع مراعاة الاختصار وعدم السجع وتقارب السطور ، مثل أن يكتب بعد البسمة ولقب المكتوب عنه الذي تحت البسمة :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ ، وَسؤالُ الْمَمْلُوكِ مِنَ الصَّدَقَاتِ الْعَمِيمَةِ بِرُوزِ
 الْأَوَامِرِ الْعَالِيَةِ بِكَيْتَ وَكَيْتَ ، أَوْ وَالْمَمْلُوكِ يُعْرَضُ عَلَى الْأَرَاءِ الْعَالِيَةِ كَيْتَ وَكَيْتَ ،
 وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَيُخْتَمُّ الْكِتَابُ بِقَوْلِهِ : أَنْهَى ذَلِكَ ، أَوْ طَالَعَ بِذَلِكَ ، وَاللَّارَاءِ الْعَالِيَةِ مَزِيدُ
 الْعُلُوِّ ، وَيُعْبَرُّ عَنِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ فِي خِلَالِ الْمَكَاتِبَةِ بِالْمَمْلُوكِ . وَيَخْتَلَفُ الْحَالُ فِي خِطَابِ
 الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ : فَإِنْ كَانَ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَهُوَ نَائِبُ سُلْطَنَةِ خُوطِبَ بِمَوْلَانَا
 مَلِكِ الْأَمْرَاءِ عَزَّ نَصْرُهُ أَوْ عَزَّ اللَّهُ أَنْصَارَهُ ، وَإِنْ كَانَ أَمِيرًا غَيْرَ نَائِبِ سُلْطَنَةِ ،
 خُوطِبَ بِمَوْلَانَا الْمُخْدُومِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ ، وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا رَبِّ سَيْفِ
 خُوطِبَ بِمَوْلَانَا الْوَزِيرِ ، وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا رَبِّ قَلِيمٍ ، خُوطِبَ بِمَوْلَانَا الصَّاحِبِ ،
 وَرَبِّمَا قِيلَ مَوْلَانَا الْوَزِيرِ ، وَإِنْ كَانَ قَاضِيًا خُوطِبَ بِمَوْلَانَا قَاضِيِ الْقَضَاةِ ، وَإِنْ كَانَ
 عَالِمًا كَبِيرًا ، خُوطِبَ بِمَوْلَانَا شَيْخِ الْإِسْلَامِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ مَشَائِخِ الصُّوفِيَةِ ، خُوطِبَ
 بِمَوْلَانَا شَيْخِ الشُّيُوخِ . وَعَلَى ذَلِكَ بِحَسَبِ الْمَرَاتِبِ وَالْوِظَائِفِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ رَأْيُ
 الْكَاتِبِ بِمَا يُنَاسِبُ الْحَالَ .

وَالعنوانُ فِي هَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ : الْفُلَانِيَّ مَطَالَعَةُ الْمَمْلُوكِ فُلَانٌ ، وَيُعْبَرُّ عَنِ ذَلِكَ : بِالْفُلَانِيَّ
 بِمَطَالَعَةٍ . وَقَدْ يُعْبَرُّ عَنِ ذَلِكَ عَنِ نَفْسِ الْمَكَاتِبَةِ . وَصُورَتُهُ : أَنْ يَكْتُبَ فِي رَأْسِ ظَاهِرِ
 الْمَكَاتِبَةِ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ « الْفُلَانِيَّ » بِاللَّقَبِ الْخَاصِّ بِالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ، كَالسَّيْفِيِّ ،
 وَالنَّاصِرِيِّ ، وَالشَّمْسِيِّ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ مَمْتَدًّا إِلَى نَحْوِ رُبْعِ عَرْضِ
 الدَّرَجِ ، وَتَحْتَهُ فُلَانٌ بِمَا يَقْتَضِي تَعْرِيفَهُ مِنْ وَظِيفَةٍ أَوْ شُهْرَةٍ . فَإِنْ كَانَ نَائِبَ سُلْطَنَةِ
 كَتَبَ تَحْتِ الْفُلَانِيَّ : مَوْلَانَا مَلِكِ الْأَمْرَاءِ بِالْمَكَانِ الْفُلَانِيَّ . وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا كَتَبَ :
 مَوْلَانَا الْوَزِيرِ بِالْمَكَانِ الْفُلَانِيَّ . وَإِنْ كَانَ قَاضِيًا قَضَاةً ، كَتَبَ : مَوْلَانَا قَاضِيِ الْقَضَاةِ

(١) لعله وقد يعبر بذلك عن نفس الخ تأمل .

المرتبة الثانية - أن يأتي بعد « يقبل الأرض » بذكر الدعاء دون الثناء مع تقارب الأسطر أيضا واجتناب السجع . وقد أصطلحوا في هذه المكاتب على أن يكتبوا تحت البسمة مع لقب المكتوب عنه الذي هو المَلِكُ الفلاني ونحوه لقب المكتوب إليه : كالسيفي ونحوه ، على سمت المَلِكِ الفلاني من الجهة اليمنى مع بياض بينهما ، بحيث يقع بعض اللقب في حاشية الكتاب ، وبعضه تحت أول البسمة على هذه الصورة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الملك الظاهري

السيفي

ثم يأتي بصورة المكاتب بعد ذلك . ويختلف الحال في هذه المكاتب باختلاف حال المكتوب إليه ، فإن كان نائب سلطنة ، كتب « يقبل الأرض وينهى بعد رفع الأذعية الصالحة ، أو بعد آتبهاله إلى الله تعالى بالأذعية الصالحة ، تقبلها الله تعالى من المملوك ومن كل داغ مخلص ، ببقاء مولانا ملك الأمراء ، أو بدوام أيام مولانا ملك الأمراء ، وخلود سعادته ، ومزيد تأييده ، وعلو درجاته في الدنيا والآخرة ، بحمد وآله : أن الأمر كيت وكيت ، والمملوك يسأل الصدقات العيمة ، أو الصدقات الكريمة ، أعز الله تعالى أنصارها بروز الأوامر المطاعة بكيت وكيت . ثم يقول : والمملوك مملوك مولانا ملك الأمراء وعبدُ بابه ونشءُ إحسانه ، ويسأل تشریفه بمراسيمه وخدمه ، أو والمملوك يستعرض المراسيم الكريمة ، والخدم العالية ، ليأدر إلى امتثالها ، والقوز بقضائها ، أو والمملوك مملوك الأبواب العالية ونشؤها وغلأمها ، ويسأل دوام النظر الكريم عليه في أحواله كلها ، ونحو ذلك مما يقتضيه الحال ، وقد جهز المملوك

بهذه المكاتبه فلاناً أو مملوكه فلانا . فإن كان قد حملَه كلامَ مشافهةٍ ، قال : وحمله من المشافهة ما يسأل الصدقةَ عليه بسماعه والإصغاءِ إليه ونحو ذلك . ثم يقول : طالعِ بذلك والرأى العالى أعلاه الله تعالى أعلى . وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة ، كتب « بدوام أيام مولانا المخدم » بدل مولانا ملك الأمراء . وإن كان قاضياً ، كتب « ببقاء مولانا قاضى القضاة ، أو بدوام أيام مولانا قاضى القضاة » . وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب « ببقاء مولانا شيخ الشيوخ » ونحو ذلك ، وبقى المكاتبه على ما تقدم بحسب ما يقتضيه الحال . والعنوانُ فى هذه المكاتبه « الأبوابُ الفلانية ، مطالعةُ المملوك فلان » ويعبر عن ذلك بالأبواب بمطالعة ، ويختلف الحال فى ذلك باختلافِ حالِ المكتوبِ إليه : فإن كان المكتوب إليه نائب سلطنة ، كتب : الأبوابُ الكريمةُ ، العالمةُ ، الملوويةُ ، الأميريةُ ، الكبيرةُ ، المالكيةُ ، المخدميةُ ، الكافيةُ ، بلقبه الخاص كالسيفية ونحوها ، أعلاها الله تعالى فلان الفلانى ، باسمه وشهرته . وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة أسقط منه الكافية . وإن كان وزيراً رب سيف ، كتب بعد الأميرية : الوزيرية . وإن كان وزيراً رب قلم ، أسقط الأميرية ، وكتب قبل الفلانية الصاحبية . وإن كان من رؤساء الكُتاب ممن فى معنى الوزراء : ككتاب السرّ ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش ، ونحوهم ، أبدل لفظ الأميرية والوزيرية بالقاضوية . وإن كان قاضى حُكم ، أتى مع القاضوية قبل الفلانية بالحاكية . وإن كان من مشايخ الصوفية أبدل القاضوية بالشيخية ونحو ذلك .

وصورته أن يكتب الألقاب من أول عرض الدرّج سطرًا إلى آخر المالكية ، ويحلّ بياضًا فى آخر السطر بقدر رُبْع الدرّج ، ثم يكتب المخدمية الفلانية فى أول

السطر الثاني مُلاصقًا للأول ، ثم يُخلى بياضًا يسيرًا ، ثم يكتبُ : أعلاها الله تعالى ، ثم يخلى بياضًا يسيرًا ، ثم يكتبُ « فلان الفلاني » تحت آخر السطر الأول ؛ ثم يكتب في آخر الدَّرج من الجهة اليسرى بعد خلوِّ بياض « مطالعة المملوك فلان » ثلاثة أسطر على ما تقدم في العنونة بالفلاني بمطالعة كما في هذه الصورة :

الأبوابُ الكريمةُ ، العالِيَةُ ، المولويَّةُ ، الأميرِيَّةُ ، الكبيريَّةُ ، المالكيَّةُ ، مطالعة
المخدومية ، السيفِيَّةُ أعلاها الله تعالى أمر دَوادار الظاهري المملوك
فلان

والعلامة « المملوك فلان » بقلم ضئيلٍ مُسامتٍ يقبلُ كما في المكاتبه قبلها .

قال في « التثقيف » : وبهذه المكاتبه يكتبُ عن أكابر أمراء الديار المِصريَّة إلى نائب الشام وحلب فيما أُظنُّ .

قال : وكذلك كان يكتبُ المقرُّ العلاءيُّ بن فضل الله كاتب السرِّ الشريف إلى المشار إليه ، يعني نائب حلب ، إلا أنه كان يكتب له العلامة أسفل الكتاب دون أعلاه .

قلت : وعلى هذا يكون للعلامة في هذه المكاتبه رُتبتان ، إن عظمه ، كتب له العلامة على سُمِّت يقبل ، وإلا ففى أسفل الكتاب ؛ ومن ثم ذكرت قول صاحب « التثقيف » هنا وإن كان محله رُتب المتكاتبين على ما سيأتى ذِكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

المرتبة الثالثة - أن لا يكتبُ في أول المكاتبه عن يمين أسنل البسملة الفلاني ويأتي بذكر الدعاء والثناء مسجوعًا ؛ مثل أن يكتب بعد البسملة ولقب المكتوب عنه الذي هو المَلِكُ الفلاني : يقبل الأرض ، ويُنبى بعد رَفَعِ دعائه ، وإخلاصه في محبته وولائه ، وأعترافه بإحسان مولانا وجزيل آلائه ؛ أن الأمر كيت وكيت ؛

والمملوك يسأل إحسان مولانا، أو صدقات مولانا، أو إحسان المخدوم، أو صدقاته في كِتَ وَكِتَ ، ثم يقول : والمملوكُ فهو مملوك مولانا ومُجِبُّهُ ، والداعي لإحسانه ، ويسأل تشریفه بمراسيمه وخدمه ، وقد جهز المملوك بهذه العبودية فلانا ، أو مملوكه فلانا ، وحمله من الدعاء والولاء ما ينهيه من لسانه ، ويُعرب عنه بيانه ، أو وقد حمَّاه المملوك ما يقوم عنه به في إنهائه ، من رصف الأديعة ، ووصف الأثنية ، والمملوك يسأل الإصغاء إليه ، والتشريف بالمراسيم العالية والخدم الكريمة : ليفوز بإقبالها ، ويأدر إلى أمثالها . طالع بذلك ، أو أنهى ذلك ، أو والمملوك يستعرض المراسيم العالية ، والخدم الكريمة المتواليه : ليتشرف بقضائها ، ويتشوف إلى إمضائها .

صدر آخر : ويُنهى بعد رفع الأذعية ، وبث المحامد والأثنية ، والمؤالاة التي يحمل منها على الألوية ، أن الأمر كِتَ .

آخر : ويُنهى بعد رفع دعائه الذي لا يفتر لسانه عن رفعه ، ولا يخفى إن شاء الله إبان نفعه ، وأبتهاله الذي يرفع السحب ، وشوقه الذي يهدي النجب ، أن الأمر كِتَ وَكِتَ .

آخر : ويُنهى بعد دعائه المقبول ، وشوقه الذي لا يحول عنه ولا يزول ، وسلامه الذي يعجز عن شرحه القلم ويضعف عن حملة الرسول .

آخر : ويُنهى بعد دعاء يرفعه بالغدو والآصال ، وولاء لا يتغير مادامت الأيام والليال ، وثناء أطيب من عرف الروض إذا مرَّ عليه نسيم الشمال ، أن الأمر كِتَ وَكِتَ .

آخر : ويُنهى بعد رفع الدعاء . ونصب لواء الولاء . وجر ذيل الفخر بالانتساب إلى عبودية مولانا والاعتداء . أن الأمر كِتَ وَكِتَ .

آخِرَ : وَيُنْهَى بَعْدَ دَعَائِهِ الْمَرْفُوعِ ، وَثَنَائِهِ الَّذِي هُوَ كَالْمَسْكَ يَضُوعٌ ، وَشُكْرِهِ الَّذِي يُسْمَعُ مِنْهُ وَيُسْمَعُ أَطْيَبُ مَسْمُوعٌ ، أَنَّ الْأَمْرَ كَيْتَ وَكَيْتَ .

وَالْعُنْوَانُ لِهَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ «الْأَبْوَابُ الْفَلَانِيَّةُ» بِغَيْرِ مَطَالَعَةٍ ، وَيَخْتَلِفُ الْحَالُ فِيهِ : فَإِنْ كَانَ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَهُوَ نَائِبُ سُلْطَنَةٍ ، كَتَبَ «الْأَبْوَابُ الْكَرِيمَةُ ، الْعَالِيَةُ ، الْمُؤَلَوِيَّةُ ، الْأَمِيرِيَّةُ ، الْكَبِيرِيَّةُ ، السَّيْدِيَّةُ ، الْمَالِكِيَّةُ ، الْمُخْدُومِيَّةُ ، الْكَافَلِيَّةُ ، الْفَلَانِيَّةُ ، أَعْلَاهَا اللَّهُ تَعَالَى» ثُمَّ يُقَالُ : نَائِبُ السُّلْطَنَةِ الشَّرِيفَةِ الْمَحْرُوسَةِ ، أَوْ كَافِلِ الْمَمْلَكَةِ الْفَلَانِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ ، وَبَاقِي عُنْوَانَاتِ أَرْبَابِ الْوِظَائِفِ : مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْعُنْوَانَةِ بِالْأَبْوَابِ بِمَطَالَعَةٍ .

وَصُورَةٌ وَضَعَهُ أَنْ يَكْتُبَ «الْأَبْوَابُ الْكَرِيمَةُ إِلَى آخِرِ الْكَافَلِيَّةِ» مِثْلًا سَطْرًا وَاحِدًا مِنْ أَوَّلِ عَرَضِ الدَّرَجِ إِلَى آخِرِهِ ؛ ثُمَّ يَكْتُبُ «الْفَلَانِيَّةُ أَعْلَاهَا اللَّهُ تَعَالَى» فِي أَوَّلِ السَّطْرِ الثَّانِي مَلَاصِقًا لَهُ ؛ ثُمَّ يَتْرِكُ بِيَاضًا قَدْرَ رَأْسِ إِبْهَامٍ ؛ ثُمَّ يَكْتُبُ فِي آخِرِ السَّطْرِ الثَّانِي «كَافِلِ الْمَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ الْفَلَانِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ» كَمَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ :

الْأَبْوَابُ الْكَرِيمَةُ ، الْعَالِيَةُ ، الْمُؤَلَوِيَّةُ ، الْأَمِيرِيَّةُ ، الْكَبِيرِيَّةُ ، السَّيْدِيَّةُ ، الْمَالِكِيَّةُ ، الْمُخْدُومِيَّةُ ، الْكَافَلِيَّةُ ، السُّيْفِيَّةُ ؛ أَعْلَاهَا اللَّهُ تَعَالَى

كَافِلِ الْمَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ بِالشَّامِ الْمَحْرُوسِ

وَالْعَلَامَةُ فِي ذَيْلِ الْكِتَابِ مُقَابِلَ تَحْتِ الْبِسْمَلَةِ بِقَلَمِ الرَّقَاعِ «الْمَمْلُوكُ فَلَانٌ» وَكَأَنَّهِمْ لَمَّا أَنْحَطَّتْ رُتْبَةُ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ عَنْ أَنْ تُكْتُبَ الْعَلَامَةُ إِلَيْهِ عَلَى سَمْتِ «يَقْبَلُ» لِيَكُونَ فِي مَعْنَى الْقِصَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ ، أَخَذَ الْمَكْتُوبُ عَنْهُ فِي التَّنَازُلِ إِلَى آخِرِ الْمَكَاتِبَةِ تَوَاضِعًا لِلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ وَتَأْدُبًا مَعَهُ .

قَالَ فِي «التَّحْقِيفِ» وَبِذَلِكَ كَانَ يُكْتُبُ عَنِ الْأَمِيرِ يَلْبُغَا الْعَمْرِيِّ : يَعْنِي الْخَاصِيكِيَّ وَهُوَ أَتَابِكُ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ إِلَى نَائِبِ الشَّامِ وَحَلَبَ .

قال : وكذلك كتب بعده إلى المذكورين : الأمير منكلي بغا ، والأمير الجاى ،
ونواب السلطنة بالديار المصرية .

المرتبة الرابعة - أن يأتى بصدر المكاتبه على ماتقدم فى المكاتبه قبلها من
الإبتداء بيقتبل الأرض ويُنهى بعد رفع دعائه وما فى معناه على ماتقدم من غير فرق :
ولا يختلف الحال فى الصدر ولا فى متن الكتاب ، والعنوان «الباب الكريم» ولا يكون
إلا بغير مطالعة . فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب «الباب
الكريم ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ،
المالكي ، المخدومى ، الفلانى ، أعلاه الله تعالى ، فلان الفلانى - باسم المكتوب إليه .
وإن كان من أرباب الأقلام أو غيرهم فعلى ماتقدم فى «الأبواب بمطالعة» من إبدال
الأميرى بالقضائى ، أو الشيخى ، وزيادة قاضى الحكم الحاكمى قبل الفلانى .

وصورة وضعه : الباب الكريم - بالألقاب المتقدمة إلى آخر المالكي سطرًا
واحدًا من أول عرض الدرّج إلى آخره ، ثم يكتب المخدومى الفلانى أعلاه الله تعالى
فى أول السطر الثانى ، ويترك بياضًا ، ثم يكتب فلان الفلانى باسم المكتوب إليه
أو شهرته كما فى هذه الصورة :

الباب الكريم العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، المالكي .
المخدومى ، السيفى ، أعلاه الله تعالى
بهادر أمير اخور الأشرقى .

تنبيه - كل ما كان العنوان فى الباب الكريم ، كان العنوان فى المسافر «المخيم»
بدل الباب . وبقى الألقاب على حالها كما نبه عليه فى «التثقيف» وغيره ، والعلامة
فى آخر المكاتبه مقابل حسبي الله ، إذ لمّا كانت العلامة فى أسفل الكتاب مقابل

تحت الحَسْبِلَة كانت العلامةُ فيما فَوْقَ ذلك أنزَلَ في رُتْبَة المَكْتُوبِ إليه وأعلى
في رُتْبَة المَكْتُوبِ عنه .

المرتبة الخامسة - يُقْبَلُ الأرضَ بالمَقَرِّ الشريف . والرسمُ فيه أن يترك بعد
البسْمَلَة وما تحتها من المَلِكِ الفلاني قدرَ سطرٍ أو سطرين بياضاً ، ثم يكتب يقْبَلُ
الأرضَ بالمَقَرِّ الشريف ، ويختلف الحال فيه : فإن كان المَكْتُوبِ إليه من أرباب
السُّيُوفِ ، كتب « يقْبَلُ الأرضَ بالمَقَرِّ الشريف ، العالی ، المَوْلَوِي ، الأميری ،
الكبیری ، العالی ، العادلی ، المؤیدی ، الذُّخْرِي ، الظَّهْرِي ، المسندی ، الزَّعِيمِي ،
المالکی ، المخدومی ، الفلانی ، أعزَّ اللهُ تعالى أنصاره ، وأعلى مناره ، وضاعف مباره ،
وینہی بعد وصف محبته ، وبث أثنيته ، كيت وبيت ، والمسئول من إحسانه
كيت وكيت » وربما كتب : « والمملوك يسأل كيت وكيت » كما في المكاتبات
السابقة ؛ أو « والمملوك يسأل تشريفه بمراسمه وخدمه ، والله تعالى يُديم عليه
سوايغ نعيمه » .

دعاء آخر لهذه المكاتبة : أعزَّ اللهُ تعالى أنصاره ، وأدام انتصاره ، وجعل
على غايات النجوم اقتصاره ، وینہی .

آخر : لا زالت الرقابُ لمهابته خاضعة ، والركابُ به فوق النجوم واضعة ،
وأجنَّة السيفِ بمضاربه من ماء الأعداء راضعة ، وینہی .

آخر : لا زالت أعلامه مُشرِّفه ، وأقلامه مُصرِّفه ، وأيامه بطيبِ ثنائه بين
الخافقين معرفة .

آخر : لا زالت الدنيا ببقائه مجتله ، والعلیاء لارتقائه مؤمله ، والنعم
على اختلافها جواهر مكله ، وینہی .

قلت وربما أتى بصورة الإنهاء مسجوعة أيضا؛ مثل أن يكتب : وَيُنْهَى بعد
نَعْبُدُهُ بِوَلَاتِهِ ، وقيامه بحقوق آلائه . أو وَيُنْهَى بعد دعاء يقوم بوظائفه ، وولاء يتردى
بمطارفه . أو وَيُنْهَى بعد رَفَعٍ أَدْعِيَتِهِ ، وقَطْعِ العُمُرِ في مَوالاته وعبوديته ، ونحو ذلك .
وعلى ذلك جرى في " عرف التعريف " إلا أن الغالب في كتابة أهل الزمان
إهماله . والعنوان إن قصد تعظيمه : الباب العالى - باللقاب الباب الكريم
في المكتبة قبلها ، إلا أنه يُحذف منها الكريم . وإن لم يُقصد تعظيمه فالمقر الشريف
بالألقاب التي في صدر الكتاب . وصورة وضعه في الباب العالى على ما تقدم
في الباب الكريم : أن يأتى به في سطرين كاملين من أول عَرْضِ الدَّرَجِ إلى آخره ،
كما في هذه الصورة :

المقر الشريف ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الذخرى ، الظهيرى ،
المسندى ، الزعيمى ، المالكى ، المخدومى ، السبى ، أعز الله تعالى أنصاره أمير حاجب بالشام المحروس
والعلامة في هذه المكتبة « المملوك فلان » بقلم الرقاع ، بأسافل الكتاب ، مقابل
إن شاء الله تعالى .

وأعلم أن هذه المراتب الخمس هي الدائرة في المكتبات بين كُتَّابِ زماننا بمملكة
الديار المصرية وما جرى على نهجها ، والمعنى في ترتيبها على هذا الترتيب أنه في المرتبة
الأولى منها حُذِفَ الدعاء والثناء المقتضيان للدلالة من المكتوب عنه على المكتوب
إليه ، وأقتصر على السير من الكلام دون الكثير الذى فيه سامة المكتوب إليه
وإضجاره ، عند قراءة الكتاب ، وعُنُونَتِ بالفلانى كالسيفى ونحوه . من حيث
إنه لَقَبٌ مؤد إلى رَفْعَةٍ ، وأتى فيه بمطالعة المملوك فلان ، إشارة إلى التصريح بالرق
والعبودية من المكتوب عنه للمكتوب إليه مع إقامته في مقام الرَفْعَةِ بذكر لقبه
المؤدى إلى رفعة قدره - وفي المرتبة الثانية أتى فيها بالفلانى داخل المكتبة دون

العنوان فكانت أنزل مما قبلها : من حيث إن العنوان ظاهر وباطن المكتبة خفي^١ والظاهر المؤدى إلى الرفعة أعلى من الخفي من ذلك ، وأتى بالدعاء فكانت أنزل رتبة من التي قبلها لما تقدم من أن الدعاء فيه معنى الدالة ، وأجنب فيه السجع من حيث إن في الإتيان به تفصيحا على المكتوب إليه ، وعنون بالأبواب إشارة إلى شرف محل المكتوب إليه من حيث الإشعار بأن له أبوابا يوقف عليها ، وجعلت دون المرتبة الثانية من حيث إن العنونة في المرتبة الأولى باللقب المؤدى إلى الرفعة مع دلالة على الذات . وفي الثانية عنون بالأبواب الموصلة إلى محل الشخص ، ولا يخفى أن ما دل على نفس الشخص أعلى مما هو موصل إلى محله ، وأتى فيها بمطالعة المملوك فلان إشارة إلى التصريح للمكتوب إليه بالرق والعبودية كما تقدم في المرتبة الأولى - وفي المرتبة الثالثة حذف منها الفلاني المؤدى إلى الرفعة من داخل المكتبة فكانت أنزل من التي قبلها فأتى فيها بذلك ، وأتى بالدعاء مسجوعا فكانت أنزل مما قبله لما في السجع من التفاضح على المكتوب إليه ، وأسقط من عنوانه مطالعة المملوك فلان فكانت أنزل من حيث إنه لم يقع فيه تصريح برق وعبودية كما في المرتبة الأولى والثانية - وفي المرتبة الرابعة بقى الصدر على حاله وعنون فيها بالباب بلفظ الأفراد ، فكانت أنزل مما قبلها ، من حيث إن الأفراد دون الجمع بدليل أنه بعض من أبعاضه - وفي المرتبة الخامسة قيل يقبل الأرض بالمقر ، يعنى مقر المكتوب إليه ، فكانت أنزل مما قبلها من حيث إشعار ذلك بالقرب من محله بخلاف يقبل مطلق الأرض فإنه لا يتحصر في ذلك ، ثم إن عنونت بالباب العالی مجردا عن الكريم ، كانت أنزل مما عنون فيه بالكريم لما جرى عليه الاصطلاح من رفعة رتبة الكريم العالی

(١) لعله دون المرتبة الأولى ، ومراده أن العنونة بالأبواب أقل من العنونة بالألقاب للعللة التي ذكرها .

(٢) مراده - يقبل الأرض بغير أن تقيم المقر .

على العالى المجرد عن الكريم ، على ما تقدم في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة ، وإن عُنُونَت بالمَقَرِّ الشريف فهي على أنْحَطَاطِ الرتبة عمَّا قَبَلَهَا من حيثُ إشعاره بِقُرْبِ المَحَلِّ من المَكْتُوبِ إليه . على أن في عُنُونَةِ هذه المَكْتُوبَةِ بالمَقَرِّ الشريف نظراً ، فَإِنَّ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِبْتِدَاءِ فِي المَكْتُوبَةِ بالدعاء هي الدعاء للمَقَرِّ الشريف ، وهو بعد تَقْيِيلِ البَاسِطِ والبَاسِطَةِ واليَدِ على ما سَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الدَّرَجَةِ الثَّلَاثَةِ فِيمَا بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

فُرُبَّمَا التَّبَسُّعُ عُنْوَانُ هذه بَعُنْوَانِ تِلْكَ قَبْلَ فَضَّهَا ، وَالْوَقُوفِ عَلَى صَدْرِهَا هَلْ هُوَ مُفْتَتَحٌ بِقَبْلِ الأَرْضِ بِالْمَقَرِّ أَوْ بالدعاء للمَقَرِّ ، إِلَّا أَنَّ كُتَّابَ الزَّمَانِ قَدْ رَفَضُوا المَكْتُوبَةَ بالدعاء للمَقَرِّ الشريف وَأَقْتَصَرُوا عَلَى الدعاء للمَقَرِّ الكريم ، إِذْ كَانَ هُوَ أَعْلَى مَا يَكْتُبُ بِهِ عَنِ السُّلْطَانِ لِأَكْبَرِ أَمْرَاءِ المَمْلَكَةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي الكَلَامِ عَلَى مَكَاتِبَاتِ السُّلْطَانِ إِلَى أَهْلِ المَمْلَكَةِ فِي المَقَالَةِ الرَّابِعَةِ .

قلت : وفي الدساتير المؤلفة في الإخوانيات في الدولة التركية في الزمن السابق ما يخالف بعض هذا الترتيب ، بفعل في "عُرف التعريف" أعلى المراتب يقبل الأرض وينهى كيت وكيت ، والعنوان «الفلائي بمطالعة» على ما تقدم ذكره في الترتيب السابق . ودونه : الصدر بعينه ، والعنوان «الأبواب بمطالعة» . ودونه : كذلك والعنوان «الأبواب» بغير مطالعة . ودونه : «يقبل الأرض بالمقر الشريف ، والعنوان إما الباب العالى أو المقر الشريف» .

وفي دستور يعزى لبعض بني الأثير أن أعلى المراتب يقبل الأرض وينهى كيت وكيت على ما تقدم . ودونه . «يقبل الأرض ويدعو مثل يقبل الأرض وينهى بعد رفع دعائه الذي لا يفتتر لسانه عن رفعه ؛ ولا يخفى إن شاء الله إبان

نَفَعَهُ . . ودونه : « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَدْعُو لَهَا ، مثل : يَقْبَلُ الْأَرْضَ حَمَاهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ الزَّمَانِ ، وَآكْتَفَىهَا بِالْأَمَانِ ، مِنْ صُرُوفِ الْحَدَثَانِ ، وَلَا زَالَتْ مَحَطُّ وَفُودِ الْجَدَا ، وَكَعْبَةُ قُصَادِ النَّدَا ، وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ » . ودونه « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَصِفُهَا ، مثل أن يكتب : يَقْبَلُ الْأَرْضَ الَّتِي هِيَ مُلْجَأُ الْعَفَاةِ ، وَمَلْتَمَّ الشَّفَاةِ ، وَمَحَلُّ الْكَرَمِ الَّذِي لَا يَنْجِبُ مَنْ اقْتَفَاهُ ، وَمَقْصِدُ الرَّاجِحِ الَّذِي إِذَا عَوَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ ، وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ » . ودونه « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَدْعُو لَهَا ، مثل أن يكتب : يَقْبَلُ الْأَرْضَ لِأَزَالَتْ مُحْرُوسَةَ الرَّحَابِ ، هَامِيَةَ السَّحَابِ ، فَسِيحَةَ الْجَنَابِ ، لَمَنْ أَنَابَ ، وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ » .

وجرى في "التثقيف" على الترتيب المتقدم في المرتبة الأولى والثانية والثالثة والرابعة على ما تقدم في المراتب الخمس السابقة، وجعل المرتبة الخامسة يقبل الأرض مع وصفها على ما تقدم في الدستور المنسوب لبعض بني الأثير مع العنونة بالباب العالی، وجعل يقبل الأرض بالمقر الشريف مرتبة سادسة مع العنونة بالباب العالی أو المقر الشريف .

وفي غير هذه الدساتير ما يخالف بعض ذلك في الترتيب والتقديم والتأخير؛ وفي بعض الدساتير بعد تقبيل الأرض تقبيل العتبات، مثل أن يكتب : يَقْبَلُ الْعَتَاتِ الْكَرِيمَةَ ، لِأَبْرَحَتِ مَطْلَعِ السُّعُودِ ، وَمَنْبَعِ الْجُودِ ، وَمَهِيَعًا لِلْقَامِ الْحُمُودِ . أو : يَقْبَلُ الْعَتَاتِ الْكَرِيمَةَ ، لِأَزَالَتِ الْأَفْلَاكِ تَمَّتْ بِهَا تَحْفٌ ، وَأَنَّهَا لِنَجُومِهَا إِلَيْهَا بِحَوْضِ الْوَالِدِينَ (؟) تَرْفٌ . أو : يَقْبَلُ الْعَتَاتِ الْكَرِيمَةَ ، لِأَزَالَتِ الْأَمَالِ بِهَا مُطِيفُهُ ، وَالسُّعُودِ لَهَا حَلِيفُهُ ، وَسَعَادَتِهَا لِأَسْتِخْدَامِ كُلِّ ذِي إِمَامٍ مُضِيفُهُ .

هذه المرتبة تقدمت قبل بأسطر إلا أن يكون الخطاطها من حيث صيغة الدنا، تأمل .

ولا يخفى أن بعض هذه الاختيارات غير مُحكَّم الأساس، ولا موضوع على أصل يقتضى صحة الترتيب فيه، بل الكثير من ذلك راجع إلى التشبُّه، كلما تقدم متقدم في دولة من الدول أحب أن يؤثر مخالفة غيره، ويجعل له شيئا يُخدِّثه لينسب إليه ولا يبالي وافق في ذلك غرضًا صحيحًا أم لا، وقلَّ من يصيب الغرض في ذلك . على أن تقديم بعض هذه المراتب على بعض في العلوِّ والهبوط إنما هو من جهة استحسانه، لو تكلف المتكلف تأخير ما تقدم فيها أو تقديم ما أخر، لأمكنه ذلك .

الدرجة الثانية

(المكاتبة بتقريب اليد، وقد رتبوا ذلك على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - يُقبَّل الباسط الشريف، وهي الأعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه . والرسم فيها أن يترك الكاتب تحت المَلِكِيّ الفلاني بعد البسملة قدر سطرين بياضًا كما في المسألة قبلها، ويختلف الحال في ذلك : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف، كتب : يقبَّل الباسط الشريف، العالى، المولوى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، السيدى، المالكى، المخدومى، المحسنى، الفلانى؛ لزالَت ساحتُه مقبله، وسماحتُه مؤمله، ويُنهى بعد وصف خدَمه، وثبوت قيامه فيها على قدمه، أن الأمر كيت وكيت، والمسئول من إحسانه كيت وكيت، والله تعالى يحرسه بمنه وكرمه .

دعاء آخر : يليق بهذه المكاتبة، يقال بعد تكلمة الألقاب : لزالَت نِعْمه باسطه، وأيامه لعقود الأيام واسطه، ويُنهى كيت وكيت .

(١) يعنى المرتبة الخامسة .

آخر : لآزال جناح كرمه مبسوطا ، وجناب حرمه من المخاوف محوطا ،
ويُنهي كيت وكيت .

آخر : لآزال يُصرف الأئنة والأسنه ، ويقلد أعناق أعدائه كُلك أجل
وأعناق أودائه كُلك منه ، ويُنهي .

آخر : لآزالت حمائل السُيوف تتسابق إلى بنانه ، وأعقاب الرماح تأوي
إلى أنامله : ليُمكّنها من قلوب أعداء الله يوم طعانه ، ومُتون الخيل متحصنة بعزائم
فيقوى جنانها بجنانه .

آخر : لآزالت رحي حرويه على أعدائه تُدار ، وأسنة رماحه تُادي الأعداء
البِدَار البِدَار ، وجنوده تقابل سفرة الوجوه إذا قاتل الأعداء في قري محصنة أو
من وراء جدار .

آخر : لآزالت أعلام النصر معقودة بأعلامه ، وجواري اليم السعيد معدودة
من خدامه ، وسطور البأس والكرم مُثبتة إما بأقلام الخط من رماحه وإما برماح
الخط من أقلامه .

آخر : لآزالت الأئنة والأسنه طوعَ يمينه وشماله ، والآمال والأحوال
تحت ظلال كرمه وكرم ظلاله ، والسُيوف والأقلام : هذه جارية بعوائد بأسه ،
وهذه جارية بعوائد نواله .

آخر : ولازالت وجوه النصر تترأى في مرناة صفاحه ، وثمار النصر تُجنى
من أغصان رماحه ، ولا يرح السُيف والقلم يتباريان في ضرر الأعداء بئسه ونفع
الأولياء بسماحه — وإن كان المكتوب إليه وزيراً رب سيف ، كتب بعد الأميرى
«الوزيرى» — وإن كان وزيراً رب قلم ، كتب قبل الفلانى أيضا الصاحبى —

وإن كان من أعيان الكُتَّاب : ككاتب السَّرِّ وناظر الخاصِّ وناظر الجيش وناظر
الدَّولة وکُتَّاب الدَّست ونحوهم ، كتب بدل الأميری القَضائيّ ؛ ثم يكتب للجميع
بعد الوزير أو القضاة ؛ العالمیّ ، العادليّ ، الممهّديّ ، المشيّدیّ ، المالکیّ ،
المخدومیّ ، المحسینیّ ، الفلانیّ ؛ أسبغ الله تعالى ظلاله ومدّها ، وشيّد به مباني الملك
وشدّها ، ووهب الأيام منه هبةً لا تستطيع الليالي ردّها ؛ وينهى كيت وكيت .

دعاء آخر يليق بهذه المكتبة ، يقال بعد تكلمة الألقاب ، ولا زالت أقلامه
تُرَوِّع الأسد في آجامها ، وتزید على الغيوث في أنسجامها ، وتعلم الرِّماح الإقدام
إذا نكصت لإحجامها ، وينهى .

آخر : ولا زالت الدول مشيّدَةً بتصرفه ، مجدّدةً لتصرفه ، مؤيّدَةً بين صرير
القلم وصريره .

آخر : ولا زالت أقلامه تهزأ بالغيوث الهامية ، وأنعامه تفوق على البحار
الطامية ، وموارد إحسانه تأوى إليها الوفود الظامية .

آخر : وأدام القصد لبابه ، ونزول الآمال برحابه ، وصعودها إلى سبحابه .

آخر : لا زال فسيحا للمفاسد جنابه ، مجرّبا للمناجح بابه ، صريحاً في آبتغاء خير
الدنيا والآخرة طلابه — وإن كان من القضاة الحُكَّام ، كتب : يُقبَّل الباسط
الشريف ، العالی ، المولوی ، القضاة ، العالمیّ ، الإمامیّ ، العلّامیّ ، السيّدیّ ،
المالکیّ ، المخدومیّ ، المحسینیّ ، الحاکیّ ، الفلانیّ ؛ أعزَّ الله تعالى أحكامه ،
وجمّل به الدهر وحكامه ، وثبّت به الأمر وزاد أحكامه ، وينهى كيت وكيت .

دعاء آخر يناسبه . يقال بعد تكلمة الألقاب : أعزَّ الله تعالى أحكامه وأنفذها ،
وتدارك به الأمة وأثقدها ، وأسعف به الملة الإسلامية وأسعدّها ، وينهى .

آخر : نَصَّرَ اللهُ الدِّينَ بِنُورِهِ ، وَسَقَى الْغَمَامَ بَاقِيَ سُورِهِ ، وَحَمَى حِمَى الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِمَا ضَرَبَ عَلَيْهِ مِنْ سُورِهِ .

آخر : وَجَمَّلَ الدَّهْرَ بِمَنَاقِبِهِ ، وَزَيَّنَ سَمَاءَ الْعِلْمِ بِكَوَاكِبِهِ ، وَلَا زَالَ الزَّمَانُ يَقُولُ لِمَنْصِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِشَخْصِهِ وَرَأْيِهِ : * عِزُّ يَدُومٌ وَإِقْبَالٌ لِصَاحِبِهِ * .

آخر : وَأَمْضَى بِيَدِهِ سُيُوفَ الشَّرْعِ الَّتِي هِيَ أَقْلَامُهُ ، وَأَعْلَى طُرُوسِ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ فَإِنَّهَا أَعْلَامُهُ ، وَلَا زَالَتْ يَدُ الْقَصْدِ مُشِيرَةً إِلَيْهِ ، وَلَا يَنْعَقِدُ إِلَّا عَلَى ثَنَائِهِ خِنِصْرٌ وَلَا يَنْجَلِي إِلَّا يَهْدَاهُ إِيَّاهُمْ .

آخر : وَسَدَّدَ سِهَامَ الْحَقِّ بِأَقْضِيَّتِهِ ، وَشَيَّدَ أَرْكَانَ الشَّرْعِ بِأَبْنِيَّتِهِ ، وَأَيَّدَ الْإِسْلَامَ بِأَقْلَامِ سَجِيَّاتِهِ الْقَائِمَةِ لِلنَّصْرِ مَقَامَ أُلُويَّتِهِ — وَإِنْ كَانَ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ مَشَائِخِ الصُّوفِيَّةِ ، كَتَبَ : يُقْبَلُ الْبَاسِطُ الشَّرِيفُ ، الْعَالِيُّ ، الْمَوْلَوِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْخَاشِعِيُّ ، النَّاسِكِيُّ ، الْسَيِّدِيُّ ، الْمَالِكِيُّ ، الْمَخْدُومِيُّ ، الْمُحْسِنِيُّ ، الْفَلَانِيُّ ؛ لَا زَالَ يِقَاتِلُ بِسِلَاحِهِ ، وَيُقَابِلُ فِسَادَ الدَّهْرِ بِصَلَاحِهِ ، وَيَجْلُو دُجَى الظُّلْمَاءِ بِصَبَاحِهِ ، وَيُنْهَى .

آخر : وَنَفَعَ بِبِرَّكَاتِهِ فِي الرُّوحَاتِ وَالغَدَوَاتِ ، وَجَمَّلَ بِيَقَائِهِ الْمَحَافِلَ وَالْمَلَوَاتِ ، وَبَسَطَ فِي صَالِحِ الدُّوَلِ [يَدَهُ] : إِمَّا فِي مَبَاشَرَتِهِ بِصَالِحِ التَّذْيِيرِ وَإِمَّا فِي أَنْقِطَاعِهِ بِصَالِحِ الدَّعَوَاتِ .

والعنوان في هذه المكاتبة «الباسط الشريف» بالألقاب التي في صدر المكاتبة على السواء، والدعاء له بأقول سَجْعَةٍ من دعاء الصدر أو نحوها، بحسب حال المكتوب إليه ، مثل أن يكتب لمن هو من أرباب السيوف ، أعزَّ اللهُ تعالى نصره ؛ أو عزَّ

نصره . ولمن هو من رؤساء الكُتَّاب : أسبغ الله ظلاله . ولمن هو قاضى حُكْم :
أعزَّ الله أحكامه . ولمن هو من مشايخ الصوفية : أعاد الله من بركاته .

وصورة وضعه في الورق أن تكتب الألقاب والدعاء والتعريف في سطرين
كاملين من أول عرض الورق إلى آخره ، إلا أنه يفصل بين الألقاب والدعاء
ببياض لطيف ، وبين الدعاء والتعريف ببياض لطيف كما في هذه الصورة .

الباسط الشريف ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، السيدى ،
المالكي ، المخدومي الحسيني ، الفلاني أعزَّ الله أنصاره أمير حاجب بحلب المحروسة

وقد ذكر في "عرف التعريف" : أنه إن قصد تعظيمه ، عنونه بالمقر الشريف
بالألقاب المتقدمة على السواء ، ولا تخفى صورة وضعه بعد ما تقدم ، والعلامة
«المملوك فلان» بقلم الرقاع مقابل إن شاء الله كالمكتبة بالمقر الشريف المتقدمة .

(١)
المرتبة الثانية - [يقبل الباسطة الشريفة] والرسم فيها أن يترك تحت الملكي
الفلاني قدر سطرين بياضاً كما في المكتبة قبلها ، ثم يكتب يقبل الباسطة الشريفة
بالتأنيث ، ويجرى الحال في ذلك كما في الباسط - فإن كان المكتوب إله من أرباب
السيوف ، كتب : يقبل الباسطة الشريفة ، العالمة ، المولوية ، الأميرية ، الكبرى ،
العالمية ، العادلية ، المؤيدية الذخرية ، المالكية ، الحسينية ، الفلانية ، لازالت سحائبها
مستهلها ، ومواهبها للبحار مستقلة ، ويُنهي كيت وكيت ، والمستمد من محبته كيت
وكيت . وربما قيل والمسئول ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

دعاء آخر يليق بذلك : لازالت سيولها تملأ الرحاب ، وسيوفها تُسرع
السُّل إلى الرقاب .

(١) زدنا هذه العبارة أخذاً مما سيأتي على الأثر ولعلها سقطت من قلم الناسخ تأمل .

آخر : لا زالت خناصر الحمد على فضل بنانها معقوده ، وما أثر البأس والكرم لها ومنها شاهدة ومشهودة ، وبواتر السيوف مسيرة القصد إلى مناصرة أعلامها المنضوده .

آخر : ضاعف الله تعالى مواد نعيمها ، وجواد كرمها ، واتصال الآمال بمساقط ديمها .

آخر : لا زالت الآمال لائذة بكرمها ، عائذة بحرمتها ، مستنجدة على جذب الأيام بسقي ديمها .

آخر : لا زالت لرُسوم الكرم مقيمها ، ولصنائع المعروف مديمها ، ولأيادي الإحسان متابعها إذا قصرت عن البروق ديمها — وإن كان المكتوب إليه من رءوس الكتاب كتب بدل الأميرى القضاى ، والباقي على ماتقدم ، ثم يدعى له بما يناسبه .
دعاء يناسب ذلك : لا زالت السيوف خاضعة لأعلامها ، والنجوم خاشعة لكلامها ، والجبال متواضعة لإعلاء أعلامها .

آخر : لا زالت مولاتها فريضة ، وأجنحة أعدائها منهضة ، ومقل الأسنه إذا خاصمتها أعلامها غضيضة .

آخر : أسبغ الله ظلها ، وهنأ بها أمة قرب مبعث زمانها وأظللها ، وهدى الآمال وقد حيرها الحرمان وأضلها .

آخر : لا زال قلمها مفتاح الرزق لطالبه ، وإلجاء لكاسيه ، والنصر لمستنيب كتبها عن كتابه .

آخر : لا زال رفذها المطوب ، وسعدتها المكتوب ، وقلمها المخاطب في مصالح الدول والمخطوب .

آخر : بسط الله ظلها ولا قلصها ، وزادها من فضله ولا نقصها ، ولا جرع
كيد حاسدها الظامية إلا غصصها .

آخر : ولا زال عمياً إنعامها ، قديماً وحديثاً ديمها وإكرامها ، قاضية بسعدها
النجوم التي هي خدامها .

آخر : لا زالت بسيطاً ظلها ، مديداً فضلها ، سريعاً إلى داعي الندى والردى
قلمها في المهيات ونصلها - وإن كان من قضاة الحكم زاد مع القاضوى قبل الفلانى
الحاكمى ودعا بما يناسب .

دعاء : أعز الله شأنها ، وأذل من شأنها ، وأغص بأدمع أعدائها الضريجة شأنها .^(١)
دعاء آخر يليق بذلك : ولا زالت الآمال إليها وإفده ، والصلوات عائده ،
ومعاني الفضل عن أخبار معنا زائده .

آخر : لا زالت خناصر الحمد معقودة على فضل بنانها ، وفصل بيانها ، وعوائد
الفضل والكرم شاهدة بالحسين من فضلها وأمتنانها - وإن كان من مشايخ
الصوفية أبدل القضاية بالشيخية وأسقط العادلية والحاكمية ودعاه نحو قوله :
ومتع الإسلام ببقية الصالحه ، وبيض صحائف أعماله التي لأيدى الملائكة الكرام
مُصالحه .

آخر : لا أخل الله من بركات خلواته ، وأعاد من نواى دعواته ، وسوامى
درجاته وتوجهاته ، ونحو ذلك .

والعنوان الألقاب التي فى صدر المكاتبه ، والدعاء بالسجعة الأولى من الدعاء
باطنه أو نحوها .

(١) الشان مجرى الدمع الى العين . قاموس .

وصورة وضعه أن تكتب الألقاب والدعاء والتعريف في سطرين كما تقدم في الباسط كما في هذه الصورة .

الباسطة، الشريفة، العالية، المولوية، الأميرية، الكبيرة، العالمية، العادلية، الذخرية، السندية، الكاملة، المحسنية أعز الله تعالى أنصارها أمير حاجب بحماة المحروسة .
والعلامة « المملوك فلان » بقلم الرقاع في أول الوصل الثالث على القرب من اللصاق .

المرتبة الثالثة - يقبل اليد الشريفة بألقاب الباسطة المتقدمة؛ ثم اليد الكريمة؛ ثم اليد العالية مع حذف الكريمة رتبة بعد رتبة، والألقاب بحالها ويدعى له؛ ثم يقال والمستمد من محبته كيت وكيت؛ والله تعالى يؤيده . والحال في اختلاف بعض ألقابها بالنسبة إلى أرباب السيوف وغيرهم على ما تقدم في الباسطة .

وهذه أدعية لأرباب السيوف في هذه المكاتب

دعاء من ذلك : يقال بعد استكمال الألقاب : لازالت مقبلة البنات، مؤملة الإحسان، مفضلة على أنواء الشحب بكل لسان، وينهى .

آخر : لازالت ترد بالسيف صدور الكائب، وترد الظماة منها موارد السحاب، وتحدث عن البحر وكم في البحر من العجائب .

آخر : لازالت برّبها مأمونه، وبذبها ممنونه، وأيامها تصبح الأعداء بأستها الزرق المسنونه .

آخر : لا أخلى الله من ودها، ولا قطع وظائف حمدها، ولا قضى مغيبها لأجعل لها ذكرى بعدها .

آخر : لازالت مصالحتها تظفر بالمتى ، وتحصل على الغنى ، وتطلق لسانه
بعاطر الثنا .

آخر : لا زالت لتقليد المنى سابقة في الجود العدل ، مقسمة في مكارم
التكريم : باطنها للندى وظاهرها للقبل .

وهذه أدعية تناسب أرباب الأقلام

يقال بعد استيفاء الألقاب : لازالت مستهلة بالندا ، مستقلة بكتب العدا ،
مطلة على النجوم على بعد ما بينهما من المدى .

آخر : لا برحت مفاخرها مفصلة ، ومحبتها في الخواطر ممثلة ، والكواكب
تود لو فارقت فلكتها وأصبحت لديها مسبله .

آخر : لازالت لصحائف الإحسان مسطره ، ولقلوب الأعداء مفطره ،
ولصنائع المعروف إذا أمسكت الأنواء ممطره .

آخر : أعلى الله تعالى شأنها ، وضاعف إحسانها .

والعنوان . اليد الشريفة ، أو اليد الكريمة ، أو اليد العالية ، بالألقاب التي في صدر
الكتاب من غير زيادة ولا نقص ، والدعاء بأول سبعة من المدعوبه في صدر الكتاب
أونحوها ، والتعريف بعد ذلك .

وصورة وضعه في الكتابة أن يكتب سطران على ما تقدم في الباسط والباسطة كما
في هذه الصورة :

اليد الشريفة ، العالية ، الملووية . الأميرية ، الكبيرة ، العالمية ، العادلة ، الذخرية ،
المالكية ، المحسنة ، الفلانية . أعلى الله تعالى شأنها نائب ملطية المحروسة

والعلامة «المملوك فلان» بقلم التوقيعات، في آخر الوصل الثاني من الكتاب، على
التقرب من موضع لصاقه^(١).

وأعلم أنه ربما وُصِفَ التقبيل في هذه المراتب بعد الدعاء بالأوصاف الدالة على
زيادة التأدب ورفعة قدر المكتوب إليه، وعلى ذلك جرى في "عُرف التعريف".
وقد يستعمله بعض كتّاب الزمان، وذلك مثل أن يقول في تقبيل الباسط بعد استعمال
الدعاء: تقبيلًا يحوم على مناهله، ويحلّق نسر السماء على منازلها، أو يقول: تقبيل
عقب أخلص ولاءه، ومحض الصّدق وفاءه - أو تقبيلًا يواليه، وينظّم لآله -
أو تقبيلًا يواصل به الخدم، ويؤدّ لو سعى لأدائه على الرأس إن لم تُسَعِف القدم -
أو تقبيلًا لا يروى الكرم إلا عنه، ولا تُستفاد المكارم إلا منه - أو تقبيل واردة على ذلك
لرّلال، رائد في ذلك الروض المتمدّ الظلال - أو تقبيل مسارع إليها، مزاحم عليها.
وربما أتى في الإنهاء بما يلائم المقام، مثل أن يقول: وينهى بعد وصف
خدمته، وتمنيه لو وقف في صفّ خدمته، وما أشبه ذلك.

قلت: وفي بعض الدساتير بعد تقبيل اليد العالية، يُقبّل يد الجناح الكريم،
العالي، الأميري، الكبير، العالمي، المؤيدي، النصيري، الزعيم، الفلاني،
وبعد ذلك: يخدم الجناح الكريم بنحو هذه الألقاب، وفي "التثقيف" يُقبّل يد
الجناح العالي، ويخدم الجناح العالي، بدون الكريم، ثم يقال بعد ذلك ويؤدى
لعلمه كيت وكيت، والقصد من محبته كيت وكيت، فيحيط علماً بذلك. وبعض
الكتّاب يستعمل ذلك إلى الآن، وهو ذُهور، إذ سيأتي في أول الدرجة الثالثة أن
أعلى المراتب المفتحة بالدعاء الدعاء للمقرّ الشريف على المصطلح الأول، وللمقرّ الكريم
على ما استقرّ عليه الحال الآن، وإذا كان كذلك فكيف يتأتى أن تكون مرتبة من
مراتب الجناح الكريم أو الجناح العالي قبل المقرّ الشريف أو المقرّ الكريم.

(١) الأظهر من موضع لصاقه.

الدرجة الثالثة

(المكاتبة بالدعاء)

وقد رتبوا المكاتبة بالدعاء على^(١) [ثلاث] مراتب :

المرتبة الأولى — الدعاء للمقرّر ، والرسم فيه أن يُترك بعد «الملكى الفلانى» قدر

عَرَض ثلاثة أصابع بياضاً، ثم يُؤتى بصدر المكاتبة على سمت البسملة .

ويختلف الحال في ذلك : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب

أعزّ الله تعالى أنصار المقرّر الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ،

العادلى ، العونى ، النصيرى ، الفلانى ؛ ثم يدعى له بما يناسب ، نحو: ولا زالت

جيشه جائله ، وجنوده بين الأعداء وبين مطالبها حائله ، وأولياؤه على صهوات

خيلها لديه قائله ؛ أصدرناها إلى المقرّر الكريم ، تُهدى إليه من السلام أطيبه ، ومن

الثناء أطنبه ، وتبدي لعلمه الكريم أن الأمر كيت وكيت ؛ والقصد من أهتامه

كيت وكيت ؛ فيحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

وهذه أدعية تناسب ذلك :

دعاء يليق بذلك : يقال بعد تكلمة الألقاب : وأيد عزائمهم ونصرها ، وأعلى

أعلامه ونشرها ، ودقق في مقاتل الأعداء حيث تزور الأسننة نظرها ، وينهى .

آخسر : ولا برحت الآمال بكرمه تعترف ، وبوارق صوارمه لأبصار الأعداء

تختطف .

(١) بياض في الأصل .

آخر : وأعلى قدره ، وأنفذ أمره ، أصدرناها .

وإن كان من رؤساء الكُتَّاب ، كتب : بسطَ اللهُ ظِلُّ المَقْر . أو أسبغَ اللهُ ظِلَّالَ المَقْر الكَرِيم ، العَالِي ، القَضَائِي ، الكَبِيرِي ، العَالِمِي ، العَالِي ، المُوَيْدِي ، السَيِّدِي ، السَّنَدِي ، المَالِكِي ، المَخْدُومِي ، المَحْسِنِي ، الفَلَانِي ، وباقي المكاتبه كما في أرباب السيوف .

وهذه أدعيةٌ تناسب ذلك :

دعاءٌ يليق به : ولا زالتِ الأمورُ إليه مَفْوُضَه ، ومَضَارِبُ العِزِّ إلا عنه مَقْوُضَه ، وصحائفُ الحَسَنَاتِ بتسويده على أثناءِ الدَّهْرِ مُبَيَّضَه ، أصدرناها .

آخر : وصرفَ لسانَ قلمه ، وشرفَ مكانَ قدمه ، وعرفَ من كان يُناوِيه أنه أصبحَ لا يُعَدُّ من خَدَمه .

قلت : وقد ذكر في "عرف التعريف" أن القضاة والحكام لا مدخل لهم في المكاتبه بالمقر ، وعلى ذلك جرى في مشايخ الصوفية . على أنه قد كُتِبَ بذلك . وقد رأيتُ المكاتبه بذلك في بعض الدساتير ، وحينئذ فيكتب : أعزَّ اللهُ تعالى أحكامَ المَقْر العَالِي ، القَضَائِي ، الكَبِيرِي ، العَالِمِي ، العَالِمِي ، الإِمَامِي ، المَالِكِي ، المَحْسِنِي ، الحَاكِمِي ، الفَلَانِي ، ويُدعى له بما يناسب . مثل : وجدده إقبالا ، وبلغه من الدارين آمالا ، وأحسنَ إليه مَبْدَأَ وَمَا آلا ، ونحو ذلك . والباقي على نحو ما تقدم .

وهذه أدعيةٌ تناسب ذلك :

لا برحتِ الشريعةُ مَحْوُطَةٌ بِأَقْلَامِهِ ، مَضْبُوطَةٌ بِأَحْكَامِهِ ، مَنُوطَةٌ بِمَا يُسَيِّدُ مَبَانِيهَا وَمَثَانِيهَا من أحكامه ، مؤرَّخَةٌ أَيَّامَ سُعُودِهَا بِأَيَّامِهِ .

آخر : حرس الله بأحكامه سرح المدى ، ولا برحت فتاويه بها يقتدى ،
ويظهر على المناوين والمبتدعين من تجريدها مهندا مهندا .

آخر : لا برحت أنوار فتاويه لامعه ، وسيوف أقلامها بها قاطعه ، وحدودها
إلى [موارد] أحكام الشريعة المحمدية شارعه .

والعنوان لهذه المكاتبه المقر الكريم بنظير ما في الصدر ، والدعاء بأول سبعة
في الصدر من الدعاء .

وصورة وضعه في الورق أن يكتب في سطرين الألقاب والدعاء والتعريف
كما في هذه الصورة :

المقر الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالى ، العادلى ، العونى ،
النصيرى ، الفلانى ، أعز الله تعالى أنصاره . فلان الفلانى

والعلامة « المملوك فلان » بقلم الثلث مقابل السطر الثانى من المكاتبه .

المرتبة الثانية : الدعاء للجناب ، وهو على ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى - أعز الله تعالى نصره الجناب الكريم . والرسم فيه أن يترك

تحت « الملكى الناصرى » عرض ثلاثة أصابع بيضا كما في المسئلة قبلها .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : أعز الله تعالى نصره

الجناب الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالى ، العادلى ، العونى ،

الذخرى ، العضىدى ، الفلانى ، ويدعى له ، نحو : وأعلى قدره ، وأنفذ أمره ،

صدرت هذه المكاتبه إلى الجناب الكريم ، تهدي إليه سلا من راقنا ، وثناء عابقا ،

وتوضّع لعلمه الكريم كيت وكيت ، والقصد من اهتمامه كيت وكيت ، فيحيط علمه

بذلك ، والله تعالى يحرسه بمنه وكرمه .

وهذه أدعية تُناسِبُ ذلك .

دعاء منه : ولا زالت عزائمهُ تُعيرُ السُّيُوفَ المَضَاءَ ، وتُعَلِّمُ السَّهَامَ النُّفُوزَ
في القَضَاءِ .

آخر : ولا زال جنابهُ عَرَّتَمَا ، وسحابهُ مَرَّبَعَا ، ورُعبهُ لا يدع من قلوب
الأعداء مَوْضِعَا .

آخر : ولا زالت عزائمهُ تُباري السُّيُوفَ ، وتَشُقُّ الصُّفُوفَ ، وتُجَارِي
إلى مَقَاتِلِ الأعداء الخُتُوفَ ، صدرت .

الذكر من الكتاب ، كتب : أدام الله تعالى جلال الجناب الكريم . العالی ،
الضَّيْفِ الكِبْرِيَّ ، الصَّدْرِيَّ ، الرَّئِيسِيَّ ، العَوْنِيَّ ، الغِيَاثِيَّ ، المَلَاذِيَّ ، الفَلَانِيَّ ،
وَيَسْتَأْذِنُ مِنْهُ ، والباق من نسبة أرباب السُّيُوفِ .

دعاء من بحرس السماء التي تغني عن المصاييح ، ونعماء التي هي للنعم
مفاتيح .

آخر : وبأعنه أشرف الرتب ، وملا به قلوب الأعداء غاية الرهب ، وشكر
ندى قلمه الذي لم يدع للغمَامِ إلا فضل ما وهب ، صدرت .

وإن كان قاضياً ، كتبت : أعز الله تعالى أحكام الجناب الكريم العالی ،
القَضَائِيَّ ، الإِمَامِيَّ ، العَالِمِيَّ ، العَلَامِيَّ ، الأَوْحَدِيَّ ، الفَلَانِيَّ . ويدعوله ، نحو :
ونور بعلمه البصائر ، وسر بجمعه السرائر ، وجعل فيض يمه مما لا تُودع دُرره إلا
في الضمائر . والباق من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتبت : أعاد الله تعالى من بركات الجناب
الكريم ، العالی ، الشَّيْخِيَّ ، الإِمَامِيَّ ، العَالِمِيَّ ، العَامِلِيَّ ، الوَرِثِيَّ ، الزَاهِدِيَّ ، الفَلَانِيَّ .

ويُدعى له ، نحو : ولا زال يُقاتل بسِلاحه ، ويُقابل فسادُ الدهرِ بصِلاحه ، ويُجلى
دُجى الظُّلماءِ بصِباحه ؛ صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجنبِ الكريمِ تُهدى إليه
سلاماً يزدان بعرضِ بخدمته ، ويزدادُ نُصرةً بنظرتِه .

والعنوان لكلِّ منهم باللقابِ الصدرِ ، والدعاء بأولِ سَجعةٍ من دعائه أو نحو ذلك .
وصورة وُضعه أن يكتب في سطرين ألقابه ودعائه وتعريفه كما في هذه الصورة :
الجنبِ الكريمِ ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادى ،
النصيرى ، الفلانى ، أعز الله تعالى نُصرته فلان الفلانى

والعلامة « المملوك فلان » بقلم الثلث مقابل السطر الثانى كما في المكاتبة
التي قبلها .

الطبقة الثانية — من المرتبة الثانية : ضاعف الله تعالى نعمة الجنبِ العالى .
والرسم فيه أن يترك تحت المَلَكى الفلانى قدر أربعة أصابعٍ بياضاً . ثم يختلف الحال
في ذلك .

فإن كان المكتوبُ إليه من أربابِ السُّيوف ، كُتِبَ : ضاعفَ اللهُ تعالى
نعمة الجنبِ العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادى ، المؤيدى ، العونى ،
النصيرى ، الذُخرى ، الفلانى ، ثم يدعى له ، نحو : ونصره في جِلاده ، وأيده
في مواقفِ جهاده ؛ صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجنبِ العالى تُهدى إليه سلاماً
سُوقاً ، وثناءً يروق ، وتوضيحاً لعلمه كيت وكيت ، فالجنبِ العالى ، يتقدمُ بكيت
وكيت ، فيحيطُ علمه بذلك ، واللهُ تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

دعاء آخر يناسب هذه المكاتبة : يقال بعد استيفاء الألقاب ، ولا زال
عزيمه مؤيداً ، وعِزُّه مؤبداً ، وأجتهاده وجهاده : هذا بسراً الأولياء وهذا يسوء العِداب

صدرت هذه المكاتب إلى الجنب العالی تُخَصُّه بالسَّلام، والثناء الوافر الأقسام،
وتوضَّح لعلمه كيت وكيت .

آخر : ولا زالت آراؤه كواكب يهتدى بلوامعها ، وتقرأ سورة النصر
في جوامعها ، وتسير كالسحب فترمي الأعداء بصواعقها وتأتي الأولياء بهوامعها .

وإن كان من الكُتَّاب ، كتب : ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالی ، القضاة ،
الكبرى ، الصُدري ، الرئيسي ، القوامي ، النظامي ، الفلاني ، ثم يدعى له نحو :
ولا زال يُرجى لكل جليل ، ويُؤمل لكل جميل . ويؤهل لكل منهي تقصردونه
أصابع النيل ؛ صدرت هذه المكاتب ، والباقي على ما تقدم في أرباب السيف .

وإن كان من القضاة ، كتب : ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالی ، القضاة ،
العالمية ، الفاضلية ، الأوحدي ، الصُدري ، الرئيسي ، الفلاني ؛ ويدعى له نحو :
ودفع عنه الأباطيل ، وأرشد بهداه من الأضاليل .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : أعاد الله تعالى من بركة الجنب العالی ،
الشيخي ، الإمامي ، العالمة ، الكامل ، الورعي ، الزاهدي ؛ ويدعى له ، نحو : ولا زال
تُكشَفُ به اللأواء ، وتطبُّ به الأدواء . صدرت هذه المكاتب إلى الجنب العالی
تهدي إليه سلاماً ، وتفضُّ عن مثل المسك ختاماً ، وتوضَّح لعلمه .

دعاء آخر : فَعَّ اللهُ بدَعَوَاتِهِ التي لا حاجب لها عن الإجابة ، ولا عارض يمنعها
عن الإصابه ، وأمتع ببركاته التي هي أمنٌ للناس ومثابه . صدرت .

والعنوان الألقاب التي في صدر المكاتب . والدعاء : ضاعف الله تعالى نعمته ؛

ثم التعريف .

وصورة وضعه في الورق أن يُكْتَبَ في سطرين ألقابه ودعاؤه وتعريفه كما في هذه

الصورة :

الجناب العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، العونى،
النصيرى، الذخرى، الفلانى . ضاعف الله تعالى نعمته فلان الفلانى
والعلامة «المملوك فلان» بقلم الثلث الثقيل مقابل السطر الأول من المكاتبه .
الطبقة الثالثة — أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى وما فى معنى ذلك . والرسم
فيه أن يُترك تحت الملكى الفلانى بحيث يبقى من الوصل الذى فيه البسمله
ما يسع سطرين فقط . ثم يختلف الحال فيه .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : أدام الله تعالى نعمة
الجناب العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العونى ،
النصيرى ، الذخرى ، الفلانى . ويدعى له ، نحو : وأيد عزمه وأظهره ، وكتب
عدوه وقهره ؛ صدرت هذه المكاتبه إلى الجناب العالى تهدي إليه سلاما طيبا ، وثناء
مطنبا ، وتوضيح لعلمه كيت وكيت ؛ فالجناب العالى يتقدم بكيت وكيت ؛ فيحيط
علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

دعاء آخر يناسبه : وموه بجهاده كل سنان ، ونبه بجلاده جفن كل سيف
وسنان . صدرت هذه المكاتبه تحية بسلام بيطيب ، وثناء يهتر غصنه الرطيب ،
وتوضيح لعلمه .

وإن كان من الكُتاب ، كُتب : أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى ، القضاى .
والألقاب من نسبة ما تقدم فى ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى . والدعاء ،
نحو : ولا زال قلمه لأبواب الأرزاق فاتحا ، ونجم رفته [لأنواء الفضل مانحا]
صدرت .

(١) بيض فى الأصل لقبه هذه السجعة فاشتدناها لبقم الكلام .

وإن كان من القضاة ، كتب : أدام الله تعالى نعمة الجنب العالى ، والألقابُ
من نسبة ما تقدم في ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى . والدعاء ، نحو :
ولا أخلى الله أفق الفضل من كوكبه ، ولا مجال الجدال من مركبه . صدرت .
وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : أدام الله تعالى نعمة الجنب العالى
الشيخى . وبقية الألقاب من نسبة ما تقدم مع ضاعف الله تعالى نعمة الجنب .
والدعاء ، نحو : نفع الله ببركات خلواته التى كم أنجلت عن الرشاد ، وبان فى مرءاتها
نور الهدى للعباد ، وأنارت إنارة الشمس لإنارة الرناد .
والعنوان بنظير الألقاب التى فى صدر المكاتبه ، والدعاء أدام الله تعالى نعمته .
وصورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين الألقاب والدعاء والتعريف
كما فى هذه الصورة :

الجنب العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العونى ،
النصيرى ، الذخرى ، الفلانى ؛ أدام الله نعمته فلان الفلانى
والعلامة «المملوك فلان» تحت البسمله بقلم مختصر الطومار .

المرتبة الثالثة - الدعاء للمجلس ، ويختص بالمجلس العالى ، والبياض فيه تحت
الملكى الفلانى بحيث يبقى من الوصل قدر سطرين كما تقدم فى الجنب العالى .
ويختلف الحال فيه .

فإن كان من أرباب السيوف ، كتب : أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ،
الأميرى ، الكبيرى ، العالى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذخرى ، العونى ، الفلانى ؛
ويدعى له ، نحو : وأيد عزمه ، ووفر من الخيرات قسمه ؛ صدرت هذه المكاتبه
إلى المجلس العالى نهدي إليه سلاماً ، ونوفر له من الخير أقساماً ، وبوضع لعلمه المبارك

كَيْتَ وَكَيْتَ ، فَالْمَجْلِسُ يَتَقَدَّمُ بِكَيْتَ وَكَيْتَ ، وَيَحِيطُ بِذَلِكَ عِلْمًا . وَاللَّهُ تَعَالَى
يُؤَيِّدُهُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

وهذه أدعية تليق بهذه المكاتبة .

دعاء من ذلك : وَلَا زَالَ مَشْكُورَ الْأَهْتِمَامِ ، مَوْصُوفَ الْحَاسِنِ وَصَفَ الْبَدْرِ
الْتِمَامِ ، مَعْرُوفًا بِجَمِيلِ الْأَثَرِ مِثْلَ مَا تُعْرَفُ مَوَاقِعُ الْغَمَامِ . صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ
إِلَى الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا ، وَتُسَدَّدُ لِرَأْيِهِ الصَّائِبِ سِهَامًا ، وَتَوْصَّحَ
لِعِلْمِهِ الْكَرِيمِ .

آخِرُ : وَلَا زَالَ سَيْفًا يُدْفَعُ بِحَدِّهِ ، وَيَجْرِي مَاءُ النُّصْرِ مِنْ فِرْنِدِهِ ، وَيَتَنَوَّعُ بِهِ
الظَّفَرُ فَيَقْتُلُ بِتَجْرِيدِهِ وَيُخَافُ وَهُوَ فِي غَمْدِهِ .

وَإِنْ كَانَ مِنَ الْكُتَّابِ ، كَتَبَ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ ، الْقَضَائِيَّ ،
الْأَجَلِّيَّ ، الْكَبِيرِيَّ ، الرَّيِّسِيَّ ، الْمَاجِدِيَّ ، الْأَوْحِدِيَّ ، الْأَثِيرِيَّ ، الْفِلَانِيَّ ،
وَيُدْعَى لَهُ ، نَحْوُ : وَسَدَّدَ رَأْيَهُ وَوَفَّقَهُ ، وَصَدَّقَ فِيهِ الظَّنَّ وَحَقَّقَهُ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَ
السَّعَادَةِ ثُمَّ لَافَرَّقَهُ . صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ تَشْكُرُ مَسَاعِدَهُ ، وَأَهْتِمَامَهُ
الَّذِي بَانَ طَرْفُ النَّجْمِ وَهُوَ يُرَاعِيهِ ، وَتَوْصَّحَ لِعِلْمِهِ الْكَرِيمِ .

آخِرُ : وَلَا تَزَعْ عَنْهُ ثَوْبَ سَعَادَةٍ ، وَلَا غَيْرَ مِنْهُ جَمِيلَ عَادَةٍ ، وَلَا عُرْفَ سِوَى
بَابِهِ الَّذِي لَوْ كَانَ لَهُ الْحَقُّ فِي جَهَّةِ الْأَسَدِ لِأَسْتَعَادَهُ . صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى
الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ تُهْدَى إِلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالثَّنَاءُ الَّذِي تَنْطِقُ بِهِ أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ ، وَتَوْصَّحَ
لِعِلْمِهِ .

وَإِنْ كَانَ مِنَ الْقَضِيَّةِ ، كَتَبَ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ ، الْقَضَائِيَّ ،
الْكَبِيرِيَّ ، الْعَامِلِيَّ ، الْعَامِلِيَّ ، الْفَاضِلِيَّ ، الْأَوْحِدِيَّ ، الْفِلَانِيَّ ، وَيُدْعَى لَهُ ،

نحو : ولا بَرِحَتْ طُلُبته مَفِيدهَ المَطالِب ، مُورِيهَ المُهدى في الغيَهِب ، قائمهً أَقلامُ هدايتها في ليالى الحيرةَ مقامَ الكواكب .

آخر : ولا بَرِحَتْ الدنيا مَمطورةً بغمامِهِ ، مجبورةً بدخولها تحت ذمَامه .

إن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : أدام الله تعالى بركة المجلس العالى ، الشَّيخى ، الإمامى ، العالمى ، العاملى ، العايدى ، الورعى ، الزاهدى ، الأوحدى ، الفلانى ، ويدعى له نحو : ولا زال نُورهُ يسعى بين يديه ، ويدعى باسمه إليه .

آخر : أعاد الله من بركاته على الراعى والرعيه ، وجعل خلواته خلوات كلِّ نفسٍ راضيةٍ مرَضِيه ، والباقي على ما تقدم .

والعنوان الألقاب التى فى الصِّدر ، والدعاء : أدام الله تعالى نعمته . ثم التعريف .
وصورة وضعه فى الورق أن تُكتب ألقابه والدعاء والتعريف كما فى هذه الصورة :

المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ،

الدُّخرى ، العونى ، الفلانى ؛ أدام الله تعالى نعمته فلان الفلانى

والعلامة « المملوك فلان » بقلم مختصر الطومار تحت الملكى الفلانى ، على ما تقدم فى المنكاتبه قبلها .

وأعلم أن ترتيب هذه الدرجة على هذه المراتب : من الدعاء بأعزَّ الله تعالى أنصار المقرِّ الكريم ؛ ثم أعزَّ الله تعالى نُصرةَ الجناب الكريم ؛ ثم ضاعفَ الله تعالى نعمةَ الجناب العالى ؛ ثم أدام الله تعالى نعمةَ الجناب العالى ، ثم أدام الله تعالى نعمةَ المجلس العالى - هو المستقرُّ عليه الحال بين كتاب الزمان بالديار المصرية . وجعل فى "عُرف التعريف" أعلى المراتب فى الدعاء : أعزَّ الله تعالى أنصار المقرِّ الكريم ؛

(١) الطلبة من معانيها السفر البعيدة ولعلها المرادة إن لم تكن مصحفة عن طلعه .

ثم أعزَّ الله تعالى نُصْرَةَ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ ؛ ثم أعزَّ الله تعالى نُصْرَةَ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ ؛ ثم أدام الله تعالى نُصْرَةَ الْجَنَابِ الشَّرِيفِ ؛ ثم أدام الله نُصْرَةَ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ ؛ ثم ضاعف الله تعالى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي ، وحرسَ الله تعالى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي ، مع اختصار الألقاب وحذف بعضها ؛ ثم أدام الله تعالى نِعْمَةَ الْمَجْلِسِ الْعَالِي . وعلى كثيرٍ من ذلك كان الحال جارياً إلى آخر الدولة الأشرافية «شعبان بن حسين» ثم أخذ الناس في التغيير إلى أن صار الأمرُ على ما هو عليه الآن .

قلت : وكانوا في الزمن السالف في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وما والاها لا يأتون مع المُقَرَّرِ الشَّرِيفِ ، والمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ ، والمُقَرَّرِ الْعَالِي ، والجناب الشريف ، بأصدرناها ولا بصدرت هذه المكاتبه كما هو الآن ؛ بل بعد الدعاء يقولون مع «أعزَّ الله تعالى أنصار المُقَرَّرِ الشَّرِيفِ» : المملوكُ يقبلُ الباسطة . ثم يأتي بالإنها بعد ذلك مثل أن يقول : المملوكُ يقبلُ الباسطة الكريمة التي هي معدن السَّاحِ ، وموطن ما يوهن العدا من صدور الصفاح ، وينهى . أو يقول : يقبلُ الباسطة الكريمة ، ويرتفع منها في كلِّ ديمه ؛ وينهى . أو والمملوك يقبلُ اليدَ الشريفة ، ويلجأ إلى ظلِّها الوريقة ، وينهى . ومع «الجناب الشريف» لفظُ «المملوك يخدم» . ثم يقول : ويدي مثل أن يكتب : المملوك يخدم بأثنيته ، ويفضُّ عقودَ الشُّكرِ على أنديته ، ويدي لعلمه الكريم . أو المملوك يخدم بأثنيته التي تزيد الطيب طيباً ، وتسرِّي سرِّي السُّحبِ فلاتدع في الأرض جريباً ؛ ويدي لعلمه الكريم . وربما أعاض ذلك بقوله : صدرت هذه الخدمة ، مثل أن يقول : صدرت هذه الخدمة وسلاستها يتصوع ، وثناؤها السافر لا يتبرقع .

الدرجة الرابعة

(الابتداء بصيغ محترعة من صدور مكاتبات الأوعية)

اعلم أن صدور المكاتبات المفتحة بالأوعية يقال فيها بعد الدعاء المعطوف :
أصدرناها أو صدرت هذه المكاتبه ؛ ثم يقال : وتبدي لعلمه أو وتوضّع لعلمه .
ومن أجل ذلك جعلت هذه الدرجة دون درجة الافتتاح بالدعاء ؛ لأن هذه فرع
من فروع تلك ، وحينئذ يكون الصدر مُشتملاً بعد الدعاء على ثلاثة أشياء .

أحدها - [افتتاح] صدور المكاتبه بقوله : أصدرناها أو صدرت .

والثاني - الإشارة إلى المكاتبه بقوله : هذه المكاتبه .

والثالث - الإعلام بما صدرت بسببه المكاتبه . فانتظم من ذلك ثلاث مراتب .

المرتبة الأولى - الافتتاح بصدور المكاتبه ، وفيها طبقتان .

الطبقة الأولى - صدرت والعالى ؛ وهى أن تُفتح المكاتبه ، بأن يقال : صدرت

هذه المكاتبه إلى المجلس العالى . ويختلف الحال فيها .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب الشيوف ، كتب : صدرت هذه المكاتبه

إلى المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذخرى ، الأوحدي ،

الفلانى ، ويدعى له نحو : أدام الله تعالى نعمته ، ووفر من الخير قسمته ، تتضمن

إعلامه كيت وكيت . فالمجلس العالى يتقدم بكيت وكيت ؛ فيعلم ذلك ويعتمده

والله الموفق .

وإن كان من الكُتاب ، كتب : صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى ،

القضائى ، الكبيرى ، الرئيسى ، الكمالى ، الماجدى ، الأثيرى ، الأوحدي ،

الفلانى ، ويدعى له ، نحو : حرس الله مجده ، وأنجح قصده ؛ والباقي على ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى ،
القضائى ، الأجلّى ، الإمامى ، الصّدرى ، الفقيهى ، الكاملى ، الفاضلى ، الفلانى ؛
ويدعى له ، نحو : أيد الله أحكامه ، ووفّر من الخير أقسامه ؛ والباقي على ماتقدم .
وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى ،
الشيخى ، الإمامى ، العالمى ، العاملى ، الزاهدى ، العابدى ، الورعى ، الأوحدى ؛
ويدعى له نحو : أعاد الله من برّكته ، ونفع المسلمين بصالح أدعيته ؛ والباقي
على ماتقدم .

والعنوان بالألقاب التى فى الصّدر وأول سجع من الدعاء فيه . وتكون الألقاب
والدعاء والتعريف فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذخرى ،

الأوحدى ، الفلانى أدام الله رفعتَه فلان الفلانى

والعلامة « المملوك فلان » تحت « الملكى الفلانى » بقلم مختصر الطومار الثقيل ،
وربما جعل بعضهم العلامة « أخوه » .

الطبقة الثانية – صدرت والسامى . وهى أن تُفتح المكاتبه بأن يقال :
صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس السامى ، والبياض فيها تحت الملكى الفلانى كما
فى المكاتبه التى قبلها : بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يسع سطرين فقط
على ماتقدم .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : صدرت هذه المكاتبه
إلى المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، العضىدى ، الذخرى ،
الأوحدى ، الفلانى ؛ ويدعى له نحو : أدام الله سعده ، وأنجح قصده . ثم يقال :

تتضمن إعلامه كيت وكيت . فالمجلس السامي يتقدم بكيت وكيت ؛ فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه ، والله الموفق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبُ إلى المجلس السامي القضائي ، الأجلّي ، الكبيرى ، الزينى ، الماجدى ، الأثيرى ، الأوحدي ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : ضاعف الله تعالى إقباله ، أو أدام الله سعادتَه ، وبلغه إرادته ؛ والباقي على ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبُ إلى المجلس السامي ، القضائي ، الصُدري ، الفقيهى ، الإمامى ، العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، الأوحدي ، فلان الدين . والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبُ إلى المجلس السامى ، الشىخى ، العالمى ، العالمى ، الورعى ، الزاهدى ، الأوحدي ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : لا أخلاه الله من أنسه ، ولا أبعدَه من حضرة قُدسه . والباقي على نحو ما تقدم .

والعنوانُ الألقابُ التى فى صدرِ المكاتبِ بالسَّجعة الأولى مما فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، العضدى ، الذخرى ،

الأوحدي ، الفلانى . أدام الله سعده فلان الفلانى

والعلامة «أخوه فلان» تحت المَلِكى الفلانى ، بقلم مختصر الطومار الثقيل .

المرتبة الثانية - الأفتاح بالإشارة إلى المكتبة ، وهي أن يُكْتَبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى بغير ياء فى ألقابه ، ويعبر عنه بالسامى بغير ياء ، والبياض فيها تحت الملكى الفلانى متسع أيضا : بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يسع سطرين فقط . ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحى ، الذخر ، فلان الدين ، ويدعى له نحو : أدام الله إقباله ، وبلغه آماله ، أو أنجح الله قصده ، وأعذب ورده ، تعلمه كيت وكيت : فالمجلس يتقدم بكيت وكيت : فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه ، والله الموفق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الكبير ، الصدر ، الرئيس ، الأوحى ، ويدعى له ، نحو : أدام الله سعادته ، وبلغه من الخير إرادته ، تعلمه كيت وكيت . والباقى على ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحى ، فلان الدين . والباقى من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : هذه المكتبة إلى المجلس السامى الشيخ ، الصالح ، الورع ، الزاهد ، فلان الدين ، نفع الله تعالى بركته ، ولا أخلى مجالس الذكر من محاسن سمته وسمته . والباقى من نسبة ما تقدم .

والعنوان الألقاب التى فى صدر الكتاب ، وأول سبعة من الدعاء الذى فيه وتعريفه ، ويكون فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحى ،
الذخر ، فلان الدين . أدام الله إقباله فلان الفلانى

المرتبة الثالثة - الافتتاح بالإعلام بالقصد ، وهو أن يكتب : يعلم فلان ، وقد تقدم في الكلام على مقدمة المكاتبات من هذه المقالة أن الصواب فيها ليَعْلَمَ بإثبات لام الأمر في قوله ، فحذف كتابُ الزمان منها اللام اللازم إثباتها وأجرؤها مجرى الخبر. والرسم فيه أن يُترك تحت المَلَكِي-الفلاني بياضٌ : بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يسعُ سطرين كما في المكاتبة قبلها وما قبل ذلك .

ثم إن كان المكتوب له من أرباب السُيوف ، كُتِبَ : يعلمُ الأمير، الأجلُّ، الكبيرُ، المؤيدُ، الذُّخرُ، المُرتَضَى، المختارُ، فلان الدين ، ويدعى له ، نحو : أدام الله عزَّه ، ووفَّر من الخير كثره ، كَيْتَ وكَيْتَ ، فمجلس الأمير يتقدم بكَيْتَ وكَيْتَ ، فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه ، والله الموفق بمنه وكرمه .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : يعلم مجلسُ القاضي ، الأجلُّ ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحيد ، فلان الدين ، كَيْتَ وكَيْتَ ، والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كتب : يعلم مجلس القاضي ، الأجلُّ ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحيد ، فلان الدين ، كَيْتَ وكَيْتَ ، والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : يعلم مجلسُ الشيخ ، الصالح ، الورع ، الزاهد ، الأوحيد ، الكامل ، فلان الدين ، كَيْتَ وكَيْتَ ، والباقي من نسبة ما تقدم .

والعنوان لهذه المكاتبة الألقابُ التي في الصدر والدعاء بأول سبعة مما فيه من

الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه في الورق أن يكتب ذلك في سطرين كما في هذه الصورة .
المجلس الأمير ، الأجل ، الكبير ، المؤيد ، الذخر ، المرتضى ، المختار ،
فلان الدين . أدام الله عزّه . فلان الفلاني

والعلامة تحت البسمة الأسم بقلم مختصر الطومار الثقيل .

قلت : وما يجب التنبيه عليه أن الألقاب المذكورة في صدور المكاتبات
عنواناتها ليست موقوفاً عندها ، بل لكل واحد فيها اختيارٌ من تقديم وتأخير ،
وتبديل لقبٍ بلقبٍ ، وزيادة ونقص ؛ إلا أن الزيادة والنقص يكونان على المقاربة .
مثل زيادة لقبٍ ولقبين وثلاثة ، ونقصها . على أنهم في الزمن السابق كانوا يتعاطون
في الإخوانيات الألقاب المركبة في الصدور والعنوانات فيما يبدأ فيه بالدعاء وما بعد
ذلك إلى آخر المراتب كما هو في السلطانيات .

فإن كان من أرباب السيوف قيل مع الدعاء للمقتز الشريف لأرباب السيوف
بعد استيفاء الألقاب المفردة : عز الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء في العالمين ،
زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، عون الأمة ، غياث الملة ، مهبط الدول ، مسيد
الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين . ومع الدعاء للمقتز الكريم :
عز الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء في العالمين ، نصرة الغزاة والمجاهدين ، زعيم
جيوش الموحدين ، عماد الدولة ، عون الأمة ، دخر الملة ، ظهير الملوك والسلاطين ،
سيف أمير المؤمنين ، وعلى ذلك إلى آخر كل مرتبة بحسبها .

وإن كان من رؤساء الكُتَّاب ، قيل : جلال الإسلام والمسلمين ، سيد الكبراء
في العالمين ، رئيس الأصحاب ، قوام الأمة ، نظام الملة ، مدبر الدولة ، دخر الممالك ،
ظهير الملوك والسلاطين ، وكذلك إلى آخر المراتب كل مرتبة بحسبها . وكذلك القول

في القضاة ومشايخ الصوفية كلُّ أحد منهم بما يناسبه من الألقاب لوظيفته ورتبته .
ثم اقتصروا بعد ذلك على استعمال اللقب المضاف إلى الملوك والسلاطين ، مثل ظهير
الملوك والسلاطين ونحو ذلك ؛ فحذف كتاب الزمان هذه الألقاب المركبة جملةً
أختصاراً ، وهو مستحسن : لما في ذلك من ميل النفوس إلى الاختصار ، ولتخالف
المكاتبات الصادرة عن السلطان ، فتكون مختصةً بالألقاب المركبة دون غيرها .

القسم الثاني

(من المكاتبات الإخوانيات الدائرة بين أعيان المملكة وأكابر
أهل الدولة ، الأجوبة ؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يُفتَح من ذلك بما تُفتَح به الأبتداءات المتقدمة الذكر)
والرسم فيها أن يكتب صدر الكتاب كما يكتب أن لو كان ابتداءً ؛ ثم يذكر ورود
الكتاب المجاوب عنه ، ويُؤتى بالجواب عما تضمنه ؛ وهو على أربع مراتب :
المرتبة الأولى - وهي أعلاها في تعظيم الكتاب الوارد ، أن يعبر عنه بالمثال .
وذلك مع الإبتداء بلفظ يقبل الأرض ويُنهى كيت وكيت . وصورته أن يقول بعد
كمال الصذر : ورود المثال الكريم العالی أعلاه الله تعالى على الملوك على يد فلان ،
ويذكر ما يليق به من المجلس العالی أو المجلس السامی أو غيرهما ؛ ثم يقول : فقبل
الملوك لوروده الأرض ، وأدى من واجبه الفرض ؛ وتضاعف دعاء الملوك لتأهيله
لغلمانية الأبواب الكريمة ، وأتتهج بوروده ، وحمد الله وشكره على ما دل عليه : من
عافية مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره - إن كان المثال قد ورد من نائب سلطنة -
أو من عافية مولانا قاضي القضاة - إن كان قاضياً - أو من عافية المخدم وصحة مزاجه

(١) أي الذي منه وينهى ورود المثال الخ وهكذا في الآتي .

المحروس . وقابل المملوك المراسيم الكريمة بالأمثال ؛ ففهم ما رسم له به من كيت وكيت ؛ والمملوك لم يكن عنده غفلة ولا إهمال فيما رسم له به . وإن كان ثم فصول كثيرة ، قال : فأما ما رسم له به من كيت وكيت فقد أمثله المملوك ؛ ويجاب عنه . ثم يقول : وأما ما رسم له به من كيت وكيت ، فالأمر فيه كيت وكيت ، حتى يأتي على آخر الفصول ؛ فإذا انتهى إلى آخرها ، قال : وسؤاله من الصدقات العميمة ، إمداده بمراسيم الكريمة وخدمه ، ليفوز بقضائها ، ويبادر إلى أمثالها ؛ والمملوك مملوكه وعبدُ بابه الشريف .

المرتبة الثانية — أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمثل العالى بدون الكريم ، وذلك مع الابتداء بلفظ يقبل الأرض وينهى بعد آتبهاله إلى الله تعالى ؛ والابتداء يقبل الأرض بعد رفع دعائه ؛ ويقبل الأرض بالمقر الشريف ؛ ويقبل الباسط الشريف . فأما مع يقبل الأرض بعد آتبهاله ، فالأمر على ما تقدم في جواب المكتبة قبلها ، إلا أنه يقتصر على المثال العالى دون الكريم كما تقدمت الإشارة إليه . وأما مع يقبل الأرض بعد رفع دعائه ، فإنه يقول بعد تكلمة الصدر : ورود المثال العالى أعلاه الله تعالى على يد فلان ، فقبله حين قابله ، ووقف على ما تضمنه من كيت وكيت ، وفرح بما دل عليه من عافية المخدم ، وحمد الله تعالى وشكره على ذلك ، وفهم ما أشار إليه من كيت وكيت ؛ ويجاب عنه ، ثم يقول : والمملوك يسأل إحسان المخدم بتشريف المملوك بمهمات ومراسيمه ليفوز بقضائها ، فإن المملوك وقف المالك ؛ طالع بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه ، أو نحو ذلك . وأما مع يقبل الأرض بالمقر الشريف ، ويقبل الباسط الشريف ؛ فإنه يقال ورود المثال العالى أيضا ، وربما قيل ورود مثاله العالى . وقد يقال المشرف الكريم العالى على ما تقتضيه رتبة المكتوب إليه ، ويرتضيه المكتوب عنه ؛ والباقي على نحو ما تقدم .

المرتبة الثالثة - أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمشرفة، على التانيث؛ وذلك مع يقبل الباسطة ويقبل اليد. ويختلف الحال في ذلك بحسب المراتب. فيقال: يقبل الباسطة وينهى ورود المشرفة الكريمة. ومع اليد الشريفة، والكريمة، والعالية؛ وفي معنى ذلك يختم إذا كتب بها؛ وكذلك أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم، وإن كان المكتوب عنه يكتفى عن نفسه بنون الجمع المقتضية للتعظيم. ثم يقول: في كل منها تنبيه المملوك حين قابنها. ووقف على ما تضمنته من محبته ومودته؛ وفهم ما شرعه من أمر كيت وكيت، ويجاوب عنه؛ ثم يقول: والمستمد من محبته شريفة المملوك بمراسميه ومشرفاته وخدمته: ليفوز بقضاءها، ويأدر إلى أمثالها؛ لأن المملوك ما عنده عفاة فيما يقتضيه رأيه العاى، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه.

المرتبة الرابعة - أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمكاتبة. وذلك مع الإبتداء بالدعاء بالنظر؛ ضاعف الله تعالى نعمة الجناح العاى؛ وأدام الله تعالى نعمة المجلس العاى؛ وما قدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العاى، أو المجلس السامى؛ أو هذه المكاتبة إلى المجلس السامى؛ أو يعلم مجلس. فيقال: وتوضع لعلمه، أو موضحة لعلمه، أو تتضمن إعلامه، أو تعلمه، أو يعلم على حسب المراتب المتقدمة، وورد مكاتبة، فوقفنا عليها، وأحفظنا علما بما تضمنته من كيت وكيت، ويجاوب عنه؛ ثم يقول: فيتقدم الجناح أو المجلس أو مجلس الأمير ونحو ذلك مما يقتضيه الحال، بإعلامنا بأخباره وضروراته وحوادثه.

وأعلم أن لكاتب السر أجوبة لنواب السلطنة وغيرهم ممن ترد عليه مكاتباتهم بتألب الملاحظة عند عرض مكاتباتهم على الحضرة السلطانية؛ وتحسين السفارة في ذلك؛ ويقع الخطاب في جواب كل منهم على حسب رتبته.

ففى جوابِ نائبِ السلطان بالشام المحروس يُكتب ما صورته : ويُنبى بعد رفعِ
أدعيته الصالحةِ تقبلها اللهُ تعالى من المملوكِ ومن كلِّ داعٍ مُخلصٍ ، بدوامِ أيامِ مولانا
ملكِ الأُمراءِ ، أعزَّ اللهُ تعالى أنصاره ، وخلودِ سعادته عليه ، أنَّ المثالَ الكريمَ وردَ
على المملوكِ على يدِ فلانٍ ؛ فهَضَّ له المملوكُ ، وأجملَ فى تلقَّيه السلوكُ ؛ وفضَّه عن
صدقاتِ عميمه ، وتفَضُّلاتِ جسيمه ؛ وفرِحَ بما دَلَّ عليه من سلامةِ مولانا ملكِ
الأُمراءِ - أعزَّ اللهُ أنصاره - وعافيته ، وصحَّةِ مزاجه المحروسِ ؛ وتضاعفَ سرورُ المملوكِ
بذلك ، وتزايدَ أبتهاجُه به ، وسألَ اللهُ تعالى أنْ يُديمَ حياةَ مولانا ملكِ الأُمراءِ ،
أعزَّ اللهُ أنصاره ، ويُبقِّيه ؛ وأتتهى إلى ما تضمَّنته الإشارةُ الكريمةُ فى معنى تجهيزِ
المشارِ إليه إلى خِدمةِ الأبوابِ الشريفةِ بما على يده من المكاتبَةِ الكريمةِ ، وما رسمَ به
من القيامِ فى خِدمتها وعرضها بين يدي المواقِفِ الشريفةِ شرفها اللهُ تعالى وعظمتها ؛
وقابلَ المملوكُ الإشارةَ الكريمةَ بالأمثالِ بالسَّمعِ والطاعةِ ، وبأدرَ إلى ما رسمَ به ؛
وقد عرَضَ المملوكُ المكاتبَةَ الكريمةَ على المسامعِ الشريفةِ ، وكُتِبَ الجوابُ الشريفُ
عن ذلك بما ستُحيطُ به العلومُ الكريمةُ ؛ وعادَ بذلك إلى خِدمةِ مولانا ملكِ الأُمراءِ
أعزَّ اللهُ أنصاره . والمملوكُ مملوكُ مولانا ملكِ الأُمراءِ عزَّ نصره ، ومحبُّه القديمُ ،
والمعترفُ بإحسانه وصدقاته ؛ ويسألُ تشریفه بالمهمَّاتِ والخدمِ ، أنهى ذلك ، إن شاء
الله تعالى .

وفى جوابِ بقيةِ التَّوابِ بالممالكِ الشاميةِ : كَتَّابِ السلطنةِ بحمَّةِ وطرا بلسِ وصفَدِ
والكركِ ، ومقدِّمِ العسكرِ بغزَّةِ ، يكتبُ : ويُنبى بعد رفعِ دُعائه ، وإخلاصه فى محبته
وولائه ، وأعترافيه بإحسانِ مولانا وآلائه ، أنَّ المثالَ العالى - أعلاه اللهُ تعالى -
وردَ على المملوكِ على يدِ فلانٍ ، فقَبَّله المملوكُ ، وأحسنَ فى تلقَّيه السلوكُ ؛ وفرِحَ بما دَلَّ
عليه من عافيةِ مولانا وسلامته ، وصحَّةِ مزاجه المحروسِ ، وحمدَ اللهُ تعالى على ذلك ،

وَأَنْتَهَى إِلَى مَا أَشَارَ إِلَيْهِ : مِنْ تَجْهِيْزِ الْمَطَالَعَةِ الْكَرِيْمَةِ إِلَى الْأَبْوَابِ الشَّرِيْفَةِ ، شَرَفَهَا اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهَا ، وَفَهَّمَهُ الْمَمْلُوكُ ذَلِكَ ، وَأَمْتَلَّ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، وَوَقَّفَ فِي خِدْمَتِهَا عِنْدَ الْعَرَضِ عَلَى الْمَسَامِعِ الشَّرِيْفَةِ ، وَأَحَاطَتْ الْعُلُومُ الشَّرِيْفَةُ بِمَضْمُونِهَا ، وَكَتَبَ الْجَوَابَ الشَّرِيْفَ عَنْ ذَلِكَ بِمَا سَبَّحِيطَ بِهِ عِلْمُ مَوْلَانَا ، وَقَدْ عَادَ فُلَانٌ بِالْجَوَابِ الشَّرِيْفِ وَبِهَذِهِ الْخِدْمَةِ ، وَحَمَلَهُ الْمَمْلُوكُ مِنَ السَّلَامِ وَالشُّوقِ وَالِدَعَاءِ وَالْوَلَاءِ وَتَقْبِيلِ الْأَرْضِ مَا يُبْدِيهِ لِمَسَامِعِ مَوْلَانَا . وَالْمَمْلُوكُ يُسَالُ إِحْسَانَهُ الْإِصْفَاءَ إِلَى ذَلِكَ ، وَالتَّشْرِيفَ بِمِرَاسِمِهِ وَخِدْمَتِهِ : لِيبَادِرَ إِلَى قَبُولِهَا . وَاللهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ وَيَحْرُسُهُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

وعلى قياس ذلك في غير هذه من المكاتبات بحسب ما تقتضيه رتبة كل واحد من أصحابها .

الضرب الثاني

(من الأجوبة ما يفتح بورد المكاتبه مصدرا بلفظ : وردت أو وصلت)

أو وقفت على المكاتبه ، وما أشبه ذلك)

مثل أن يكتب . ورد المثال الكريم الفلاني ، وذكرك سلامته أحلى من ذكر الأوائل ، وقد تطرر منه طرازاً أشرف من طراز الغلائل ، وما سكن القلب إلى شيء كسكونه إليه ، ولا رأى وارداً أكرم منه عليه ، فقابل نعمة قدومه بدوام شكرها ، وطوى صحائف الآمال إلا من نشرها ، وإذا كان وجه الأيام مقطباً استغنى بيشير وجهه الميمون عن بيشيرها ، فإن حسن في رأيه الإجراء على عوائد إحسانه [من التشریف (١) ممراسميه وخدمته] والمواصله بها ، [نالت] النفس من ورودها نهاية أربها .

(١) بياض في الأصل قليل ، وما أثبتناه مأخوذ من المقام .

قلت : أما الأجوبة المطلقة : وهي الدائرة بين الأصدقاء والأصحاب من أفاضل الكُتَّاب ، وعيون أهل الأدب ، ممن له مملكة في الإنشاء ، وقوة في النظم والنثر ، فإنها لا تتوقف على ابتداءٍ مخصوص ، آبتداءً ولا جواباً ، بل قد تكون مبتدأة بما تقدم من الابتداءات ، وقد تكون بغير ذلك من الافتتاحات التي يختارها صاحب الرسالة ، بل أكثرها مفتتح بالشعر المناسب للحال المكتوب فيها ، بل ربّما أقتصر فيها على الشعر خاصة دون النثر .

المهيع الثاني

(في بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم : من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية ، وما يستحقه كل منهم من رتب المكاتبات السابقة على ما أحال مستقر عليه في زماننا)

اعلم أن المكتوب عنهم من أعيان الدولة على طبقات ، لكل منهم مكاتبات بصدر يختص به ، إلى من فوق رتبته أو مساو له في الرتبة أو دونه فيها ، مرتبة على ترتيب المكاتبات الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الدولة :

الطبقة الأولى — من المكتوب عنهم من يكتب إليه عن السلطان « أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم » ككافل السلطنة : وهو نائب السلطان بالحضرة ، وأتابك العساكر ، ونائب السلطنة بالشام . والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على مراتب : المرتبة الأولى — من يكتب له عن هذه الطبقة « الفلاني بمطالعة » ، ومن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام فيما رأيته — أتابك العساكر بالأبواب الشريفة ، وكان ما كتب له « المخدومي الأتابكي فلان الفلاني » باللقب المضاف إلى لقب السلطان ، « أتابك العساكر المنصورة » .

المرتبة الثانية — من يكتب إليه « الأبواب بمطالعة » ومن يكتب إليه بذلك عن النائب الكافل بالحضرة . والأتابك - نائب السلطنة بالشام . فقد قال في « التثيف » :
 إن بهذه المكتبة يكتب من أكابر أمراء الديار المصرية إلى نائب الشام وحلب فيما أظن . ومن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام - الدوادار ، وأمير أخور ، ومقدمو الألواف بالديار المصرية ، وأكابر الأمراء مقدمي الألواف بالشام ، وكافل المملكة الشريفة الحلبة .

المرتبة الثالثة — من يكتب له عن هذه الطبقة « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب عن كاتب السلطنة بالحضرة إلى نائب السلطنة بحلب . وقد ذكر في « التثيف » أنه كان يكتب بذلك عن الأمير بلنغا العمري (يعني الحاصكي) وهو أتابك الديار المصرية ، إلى نائب الشام أيضا . ثم قال : وكذلك كتب بعده إلى نائب الشام وحلب ، الأمير منكي بغا ، والأمير الحامي ، ونواب السلطنة بالديار المصرية ، وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى كل من قضاة القضاة الأربعة بالديار المصرية ، وكذلك الوزير وكاتب السربها .

المرتبة الرابعة — من يكتب له عن هذه الطبقة « الباب الكريم والباب العالي » أما الباب الكريم ، فإنه يكتب بذلك عن النائب الكافل والأتابك^(١)

وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى الأمراء الطبلخاناه بالديار المصرية ، وإستادار الأملاك الشريفة ، وناظر الجيوش المنصورة بالأبواب السلطانية ، وناظر الخواص ، وناظر الدولة ، وحاجب الحجاب بالشام ، وقاضي القضاة الشافعي بالشام ، وكاتب

(١) بيض في الأصل بقدسضر والساقط هو المكتوب إليهم . ولعله إلى نائب الشام ونائب طرابلس

في آخر ما يأتي بعد . وحرر .

السَّرْبَه ، ونائب السلطنة بطرَابُلُس ، ونائب السلطنة بِحَمَاة ، ونائب السلطنة بِصَفَد ،
ونائب السلطنة بِالكَرْك .

أَمَّا مَنْ يَكْتُبُ لَهُ عَنِ نَائِبِ الشَّامِ الْبَابُ الْعَالِي بِدُونِ الْكَرِيمِ ، فَمُقَدَّمُ الْعَسْكَرِ
الْمَنْصُورِ بَغَزَّةَ ، وَالْقَضَاةُ الثَّلَاثَةُ بِالشَّامِ ، مَا خَلَا الشَّافِعِيَّ الْمُقَدَّمِ ذِكْرَهُ ، وَالْوَزِيرَ
بِالشَّامِ .

المرتبة الخامسة — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ عَنِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « يَقْبَلُ الْأَرْضَ بِالْمَقَرِّ
الشَّرِيفِ » وَبِذَلِكَ يَكْتُبُ عَنِ النَّائِبِ الْكَافِلِ وَالْأَتَابِكِ ، إِلَى نَائِبِ طَرَابُلُسَ ،
وَنَائِبِ حَمَاةَ ، وَنَائِبِ صَفَدَ ، وَنَائِبِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ . وَأَمْرَاءُ الْأُلُوفِ بِالْبُدْيَارِ الْمِصْرِيَّةِ بِأَ
وَبِهِ يُكْتُبُ عَنِ نَائِبِ الشَّامِ .

المرتبة السادسة — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ عَنِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « الْبَاسِطُ الشَّرِيفِ » وَبِذَلِكَ
يَكْتُبُ عَنِ النَّائِبِ الْكَافِلِ وَالْأَتَابِكِ ، إِلَى مُقَدَّمِ الْعَسْكَرِ بَغَزَّةَ ، وَمُقَدَّمِ الْعَسْكَرِ بِسَيْسَ ،
وَنَائِبِ السُّلْطَنَةِ بِالكَرْكِ ، وَحَاجِبِ الْحُجَّابِ بِالشَّامِ ، وَحَاجِبِ الْحُجَّابِ بِحَلَبَ .

المرتبة السابعة — مَنْ يَكْتُبُ لَهُ عَنِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « الْبَاسِطَةُ الشَّرِيفَةُ » وَمَنْ
يَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ عَنِ نَائِبِ الشَّامِ قَاضِي الْقَضَاةِ الشَّافِعِيِّ بِحَلَبَ .

المرتبة الثامنة — مَنْ يَكْتُبُ لَهُ عَنِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « الْيَدُ الشَّرِيفَةُ » أَوْ « الْيَدُ الْكَرِيمَةُ »
أَوْ « الْيَدُ الْعَالِيَةُ » . وَبِذَلِكَ يَكْتُبُ عَنِ النَّائِبِ الْكَافِلِ وَالْأَتَابِكِ ، إِلَى نَائِبِ الْوَجْهِ الْقَبِيضِيِّ
وَالْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ بِالْبُدْيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَنَائِبِ الْقُدْسِ ، وَنَائِبِ حِمَصَ ، وَنَائِبِ الرَّحْبَةِ ،
وَنَائِبِ الْبَيْرَةِ ، وَنَائِبِ قَلْعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَنَائِبِ مَلْطِيَّةَ ، وَنَائِبِ دَبْرُكِي ، وَنَائِبِ الْأَبْلَسِيِّينَ ،
وَنَائِبِ طَرَسُوسَ ، وَنَائِبِ أَدْنَةَ ، وَنَائِبِ بَهْسُنِيَّيَا ، وَأَمْرَاءُ الْأُلُوفِ بِالشَّامِ وَحَلَبَ .
وَبِذَلِكَ يُكْتُبُ [أَيْضًا] عَنِ نَائِبِ الشَّامِ إِلَى أَمْرَاءِ الْعَشْرَاتِ بِالْبُدْيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَقَضَاةِ

العسكر بها ، وحاجب الحُجَّاب بِحَلَب ، والقُضَاة الثلاثة : الحنفى ، والمالكي ،
والحنبلى ، بها .

المرتبة التاسعة — مَنْ يُكْتَبُ له عن هذه الطبقة « أعزَّ اللهُ تعالى أنصارَ المقرِّ
الكريم » . وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى كاشف الصَّفْقَةِ القِبلِيَّةِ ، وإلى الأُمراء
مقَدِّمِي الأُلوف بالشام ، وناظر الجيش به ، وأمير آلِ فَضْلِ ، ونائبِ حِمص ، وكاتب
السَّرِّ بِحَلَب ، ونائب المملِكة بها ، ونائب دَوْرَكِي ، ونائب دَرَنْدَة .

المرتبة العاشرة — مَنْ يُكْتَبُ له عن هذه الطبقة « أعزَّ اللهُ تعالى نُصْرَةَ المقرِّ
الكريم » . وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى نائب قلعة دِمَشقَ ، والحاجبِ الثاني بها ،
ووكيل بيت المال بها ، ومقَدِّمِي الأُلوف بِحَلَب ، ونائب الجيش بها ، ونائب الرَّحْبَةِ ،
ونائب الأَبْلُسْتَيْنِ ، ونائب مَلْطِيَّةَ ، ونائب قلعة المسلمين ، ونائب بَهْسَنِي ، ونائب
البِيرَةِ ، ونائب جَعْبَرِ ، ونائب الرُّها ، ونائب حُسْبَانِ .

المرتبة الحادية عشرة — مَنْ يُكْتَبُ له عن هذه الطبقة « أعزَّ اللهُ تعالى نُصْرَةَ
الجنابِ الكريم » . وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى أمراء الطَّبْلَخَانَاهُ بالشام ، ونائب
الْقُدس ، ونائب بَعْلَبَكْ ، ومتولَّى صَيْدَا ، وأمراء الطَّبْلَخَانَاهُ بِحَلَب ، ووكيل بيت
المال بها ، والمحتسِبِ بها ، وناظرِ خاصِّ البريدِ بها ، وأمير حاجبِ بَصْفَد .

المرتبة الثانية عشرة — مَنْ يُكْتَبُ إليه عن هذه الطبقة : « ضاعفَ اللهُ تعالى
نعمةَ الجنابِ العالی » . وبذلك يكتب عن نائب الشام ، إلى والي قَطِيَا ، ورُبَّمَا زيد
فيه الكَريم .

المرتبة الثالثة عشرة — مَنْ يُكْتَبُ إليه عن هذه الطبقة : « أدامَ اللهُ تعالى نعمةَ
الجنابِ العالی » . وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى أمراء العَشْرَاتِ بِمِصرَ ، وأمراء

العشريات بالشام، والمحتسب بها، والحاجب الكبير بغزة، ومقدم عرب بنى عتبة،
وأكار عرب آل فضل، وأمير عرب آل علي، وأمير آل موسى، ونائب مضياف،
ومتولى يروت

المرتبة الرابعة عشرة - من يكتب إليه عن هذه الطبقة : «المجلس العالى
مع الدعاء». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى العشرات بدمشق، ووالى المدينة،
ووالى البرية، والحاجب الثانى بغزة، وأمير آل مرآ، ومقدم عرب جزم، ومقدم
بنى مهدي، وأمراء العشريات بحلب .

المرتبة الخامسة عشرة - من يكتب إليه عن هذه الطبقة : «صدرت والعالى» .
وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى كاشف الوجه البحرى من الديار
المصرية، وكاشف الفيوم والبهنساوية، ووالى أسوان، وكشاف الجسور من أمراء
الطبلخاناه بالوجهين : القبلى والبحرى بالديار المصرية، ونائب قلعة حلب، ونائب
آياس، ونائب جعبر، ونائب درندة، وحاجب الحجاب بطرابلس، وحاجب الحجاب
بجماة، وحاجب الحجاب بصفد، وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى أجناد
الحلقة بمصر، والحاجب الكبير بمحصر، وأمراء العشرات بحلب .

المرتبة السادسة عشرة - من يكتب إليه عن هذه الطبقة : «صدرت والسامى» .
وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى والى قوص، ووالى منفلوط،
ووالى الأشمونين، ووالى البهنسى، ووالى منوف، ووالى الغربية، ووالى الشرقية،
ووالى قطيا، ونائب مضياف، ونائب بعلبك، ونائب قلعة صفد، ونائب عينتاب،
والحاجب الكبير بغزة. وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى مقدم الحلقة بالشام،
وأعيان الجند بها، ومقدم بنى مهدي، ومتولى الصلت وعجلون، ومتولى صرخد.

والحاجب الصغير بمخص، ووالى تدمر، ومقدم إقليم الخروب بصيدا، ومقدم إقليم النعاج، ووالى البقاعين، ووالى بلنياس.

المرتبة السابعة عشرة — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ «هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ»
وبذلك يَكْتُبُ عَنِ النَّائِبِ الْكَافِلِ وَالْأَتَاكِ، إِلَى وَالِي الْحِزْيَةِ، وَوَالِي إِطْفِيحٍ،
وَوَالِي قَلْبُوبٍ، وَوَالِي أُشْمُومِ الرُّمَّانِ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ. وَبِذَلِكَ يَكْتُبُ أَيْضًا إِلَى
نَائِبِ الْكَحْتَا، وَنَائِبِ كَرْكِرٍ، وَنَائِبِ حَجْرِ شُغْلَانَ، وَنَائِبِ سِرْفَنْدَكَارٍ، وَنَائِبِ الْقُصَيْرِ،
وَنَائِبِ بَغْرَاسٍ، وَنَائِبِ الرَّائِدَانَ، وَنَائِبِ الشُّغْرِ وَبَكَاسٍ، وَنَائِبِ الرَّهَاءِ، وَنَائِبِ
الدَّرْبَسَاكِ، وَنَائِبِ شِزْرِ بِالْمَمْلَكَةِ الْحَلِيَّةِ، وَإِلَى نَائِبِ اللَّاذِقِيَّةِ، وَنَائِبِ صَهْبُونَ،
وَنَائِبِ حِصْنِ الْأَكْرَادِ، وَنَائِبِ حِمَصٍ، وَنَائِبِ الْمَرْقَبِ، وَنَائِبِ بَلَّاطُنُسٍ، وَنَائِبِ
الْكَهْفِ، وَنَائِبِ الْقَدْمُوسِ، وَنَائِبِ الْخَوَائِي، وَنَائِبِ الْعَلِيْقَةِ، وَنَائِبِ الْمَيْنَقَةِ:
مِنْ أَعْمَالِ طَرَابُلُسٍ، وَنَائِبِ شَقِيفِ تَبْرُونَ مِنْ مَعَامِلَةِ صَفَدٍ. وَبِذَلِكَ يَكْتُبُ [أَيْضًا]
عَنْ نَائِبِ الشَّامِ إِلَى صِغَارِ الْأَجْنَادِ بِمِصْرٍ، وَإِلَى كَاشِفِ الرَّمْلَةِ، وَمَتَوَلَّى حُسْبَانَ،
وْحَامِي الْخَرِبَةِ.

المرتبة الثامنة عشرة — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ «يَعْلَمُ». وَبِذَلِكَ يَكْتُبُ
عَنْ نَائِبِ الشَّامِ إِلَى صِغَارِ الْأَجْنَادِ بِالشَّامِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ وَرَاءَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ عَنْ نَائِبِ الشَّامِ مَكَاتِبَاتٍ أُخْرَى إِلَى مَنْ هُوَ
خَارِجٌ عَنِ الْمَمْلَكَةِ، وَهِيَ عَلَى صَرَاطٍ.

المرتبة الأولى — مَنْ يَكْتُبُ لَهُ عَنْهُ: «يَقْبَلُ الْأَرْضَ» — صَاحِبُ بَغْدَادَ:
كَمَا كَانَ يُكْتُبُ لِلْقَانِ أَحْمَدَ بْنِ أُوَيْسٍ، كَانَ يُكْتُبُ إِلَيْهِ فِي وَرَقٍ قَطَعَ نِصْفَ الْحَمْوِيِّ
بِقَلَمِ الثَّلَاثِ الصَّغِيرِ: يَقْبَلُ الْأَرْضَ لَدَى الْحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ، الْعَالِيَةِ، الْمَوْلَوِيَّةِ،

السلطانية، العالمة، العادلية، المؤيدية، المالكية، القانية، ولا زالت عزماؤها مؤيده، وآراؤها مسدده، ويُنهى إلى العلم الكريم - صاحب السراى : ودشت القَبْجاق مثله بأبسط ألقاب .

المرتبة الثانية - من يكتب إليه : « أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرِّ الشريف »
 ابنُ السلطان أحمد بن أويس المذكور . وورقه نظيرُ ورق والده ، وقلمه نظير
 قلمه - صاحب هَرَاة : مثله .

المرتبة الثالثة - من يكتب إليه : « أعزَّ الله أنصارَ المقرِّ الكريم » - صاحبُ
 ماردين : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرِّ الكريم العالى ، المولوى ، الكبيرى ، العادلى ،
 السلطانى ، الملكى ، الفلانى ، ورفق مقداره ، وأجزل مَبَّارَه . المملوك يجدد الخدمة
 العالیه ، ويصفُ أشواقَه المتواليه ، ويُنهى لعلمه الكريم - صاحب بُرْصا : من بلاد
 الروم ، وهو ابن عُثْمَان . والرسم فيه على ما كان يكتب لأبى يزيد بن مراد بك بن
 عثمان : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرِّ الكريم ، العالى ، المولوى ، الكبيرى ، العالى ،
 العادلى ، العونى ، الغيائى ، المهدي ، المشيدى ، الزعيمى ، الغازى ، المجاهدى ،
 المشاغرى ، المرابطى ، العابدى ، الناسكى ، الزاهدى ، المقدمى ، الأتابكى ، المحسنى ،
 الظهيرى ، الملكى ، الفلانى ، معزَّ الإسلام والمسلمين ، سيد الأُمراء فى العالمين ،
 ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، مُبيد المشركين ، قاصع أعداء
 الدين ، مقتلِع الحُصون من الكافرين ، عون الأُمة ، عمادِ الملة ، ذُخر الدولة ، ظهير
 الملوك والسلاطين ، حاكم البلاد الرومىة ، صاحب بُرْصا وقيسرية ، سيف أمير
 المؤمنين ، قَهْر [الله] أعداء الدين الحنيفى بعزائمهِ وسَطَوَاتِهِ ، وجعله مؤيدا فى حركاتهِ
 وسكَّاتِهِ ، وأيده فى جهَّاده وأجتهداه بالنصر الذى لا يفارق ألويةَ أعلامه وراياته ،

ولا زالت رعاياه محبوبه، وعساكره منصوره؛ هؤلاء بجوده [وهباته]، وهؤلاء بوجوده وحياته . المملوك يقبل اليد التي لازال القصد بها يزيد ، وبحر البر من أناملها مديد، ونوالها يناله الوافدون حيث أموه من قريب وبعيد؛ ويصف صفاء محبة يتضاعف نماؤها كل يوم جديد ، وترادف تحيات أشواقها بالموالاة والتحميد ، ويتوأم بهادي رسائلها بصدق المودة الدائمة على التأييد ؛ ويؤدي إلى العلم الكريم .

قلت : كذا رأيته في دستور بخط القاضي ناصر الدين بن أبي الطيب : كاتب سر الشام كان . وفيه اضطراب وتخليط من نعته في ألقابه [بقوله] الملكى الفلانى ؛ وقوله سيد الأمراء فى العالمين ، حيث وصفه أولا بأوصاف المملوك ، ثم وصفه بأوصاف الأمراء ؛ إلى غير ذلك من الخبط الذى لا يخفى على متأمل .

المرتبة الرابعة — « أعز الله أنصار المقر العالى » — وزير صاحب بغداد ، وورقه فى قطع الحموى بقلم الثلث الخفيف — قاضى بغداد : مثله سواء — صاحب لارندا : من بلاد الروم بمملكة بنى قرمان ؛ ويقال فى ألقابه : الأصيلى نون التوامين ، مجهز المقاب ، ذخر القانات — صاحب سيواس : من البلاد الرومية أيضا — صاحب آياس لوق : من البلاد الرومية — صاحب جولمرك : من بلاد الأكراد .

المرتبة الخامسة — « الجناب الكريم » — صاحب حصن كيفا : من بلاد الجزيرة ، ويقال فيه : الملكى الفلانى — مقدم التركان البيضاء .

المرتبة السادسة — « الجناب العالى » — صاحب أرزنجان — صاحب جزيرة ابن عمر من بلاد الجزيرة — صاحب أنطاليا من بلاد الروم — ابن الشيخ عبد القادر الكيلانى شيخ الجبال .

المرتبة السابعة - « المجلس العالى » - صاحب مياْفَارِقِينَ : من بلاد
 الجزيرة - صاحب أَكَلَّ : من الجزيرة أيضا - صاحب أَرْقِين - صاحب
 قَلْعَة الجَوْز - صاحب جرموك - صاحب أَمَاسِيَا : من بلاد الروم - نائب
 مَآرِدِينَ - خادم صاحب مَآرِدِينَ - صاحب بُطْنَانَ - صاحب سِنْجَارَ : من
 بلاد الجزيرة - صاحب حاسك (؟) - صاحب أَزْبَك - صاحب المَوْصِل -
 صاحب سَنُوبَ - صاحب بوشاظ - صاحب الدَّرْبَنْد - صاحب عَيْنِ دَارَا -
 صاحب الحَمَّة - صاحب خِلَاطَ - صاحب طِلَان - صاحب تَاخ - صاحب
 جَمَشَكَزَاك - نائب كَرَبْزَاك - صاحب القَنْطَرَة - نائب نَخْرَتِ بَرْت - صاحب
 البَارِعِيَّة - صاحب حَرَّانَ - صاحب العِمَادِيَّة - صاحب حَانِي - نائب مازكرد -
 نائب صالحية مَآرِدِينَ - أمير التركمان الشهرية - صاحب أَشْنُو .

الطبقة الثانية - ممن يكتب عنهم من أعيان الدولة بالديار المصرية، مَنْ
 يُكْتَب إليه عن السلطان : « أعزَّ الله تعالى نُصْرَة الجَنَاب الكَرِيم » وهو نائب
 السلطنة بِحَلَب .

والكتابة عنه على مراتب :

المرتبة الأولى - « الفلانى بمطالعة » وهو النَّائِب الكَافِل بالحضرة السلطانية .
 وَأَتَائِكُ العسَاكِر المنصُورة .

المرتبة الثانية - « الأبواب بمطالعة » وهو نائب السلطنة بالشام، والامير الدَّوَادَارُ
 بالأبواب السلطانية، وأستاذ الدَّارِ بها، وأكابرُ الأمراء المقدمين الخاصكية .

المرتبة الثالثة - « الأبواب بغير مطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب الشام

المرتبة الرابعة - «البابُ الكريم» . وبذلك يكتب إلى نائب السلطنة بطرأبلُس ،
ونائب السلطنة بِحَمَّاءَ ، ونائب السلطنة بَصَفَدَ ، وكذلك يكتب به إلى الطبقة الثانية
من الأمراء المقدمين بالْحَضْرَة من دون الخاصِكية ، وفي معنى ذلك الوزير ، وكاتبُ
السَّرِّ ، وناظرُ الخَاصِّ ، وناظرُ الجَيْشِ ، ومن في معناهم .

المرتبة الخامسة - «يُقْبَلُ الأَرْضَ بالمَقَرِّ الشريف» . وبذلك يُكتب إلى حاجب
المُجَبَّابِ بالشَّامِ .

المرتبة السادسة - «يُقْبَلُ البَاسِطَةَ» وبذلك يُكتب إلى الحاجب الثاني بالشَّامِ ،
وحاجبِ المُجَبَّابِ بِحَلَبَ ، وحاجبِ المُجَبَّابِ بِحَمَّاءَ ، وحاجبِ المُجَبَّابِ بِطَرَّابُلُسَ ،
وقاضي القضاة الشافعي بِحَلَبَ ، وكاتبِ السَّرِّ بها .

المرتبة السابعة - «يُقْبَلُ اليَدَ الشريفة» . وبذلك يُكتب إلى نائب البيرة ، ونائبِ
مَلَطِيَّةَ ، ونائبِ قَلْعَةِ المسلمين ، ونائبِ جَعْبَرِ ، ونائبِ الرَّهَّاءِ ، ونائبِ الأبلستينِ ،
ونائبِ حِمَصَ ، وأمراءِ الطَّبْلَخَانَاهِ بدمشق .

المرتبة الثامنة - «أعز الله تعالى أنصارَ المَقَرِّ الكريم» . وبذلك يكتب إلى نائب
طَرَسُوسَ ، ونائبِ الرَّحْبَةِ ، والحاجبِ الثاني بِطَرَّابُلُسَ ، ومقدمي الألوْفِ بها ،
والقضاة الثلاثة : المالكي ، والحنفي ، والحنبلي بِحَلَبَ . إلا أنه يقال : «أعز الله
تعالى أحكامَ المَقَرِّ» .

المرتبة التاسعة - «أعز الله تعالى أنصارَ المَقَرِّ الكريم العالی» وبذلك يُكتب
إلى نائبِ بَهَسْنَى ، ونائبِ الرَّحْبَةِ ، وأكابرِ الطَّبْلَخَانَاهِ بالشَّامِ ، ومن تولى الإمرة من
عربِ آلِ قُضَيْلٍ ثم عُزَلِ ، وقضاةِ العساكرِ المنصورة بِحَلَبَ ، وناظرِ المملكةِ بها ،
وأمرِ آلِ عَلِيٍّ .

المرتبة العاشرة - « أعز الله تعالى نُصْرَةَ الجَنَابِ الكَرِيمِ ». وبذلك يُكْتَبُ إلى أعيان أمراء الطبلخاناة بِحَلَبَ ، والحاجبِ الثالث والرابع بها ، وأكابر أولاد أمراء عرب آل فضيل .

المرتبة الحادية عشرة - « ضَاعَفَ اللهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الجَنَابِ العَالِيِ » وما في معناه مما يُكْتَبُ به إلى أرباب الأقلام وغيرهم . وبذلك يكتب إلى نائب شيزر، وأمراء الطبلخاناة بِحَلَبَ ، غير الأعيان ، وناظر الأملاك الشريفة بِحَلَبَ ، وناظر خاص البريد وموقعي الدست بها .

المرتبة الثانية عشرة - « صَدَرَتْ وَالْعَالِيِ ». وبذلك يُكْتَبُ إلى نائب عينتاب ، ونائب الراوندان ، ونائب الكختا ، ونائب كركر ، ونائب بغراس ، ونائب الدر بساك ، ونائب الشغر وبكاس ، ونائب القصير ، وأمراء العشرينات بِحَلَبَ ، وأعيان العشرات بها .

المرتبة الثالثة عشرة - « صَدَرَتْ وَالسَامِيِ ». وبذلك يُكْتَبُ إلى مُقَدِّمِي الحَلَقَةِ بِحَلَبَ ، ومقدمي البريديَّةِ بها ، وأعيانهم .

المرتبة الرابعة عشرة - « السَامِيِ » بغير ياء . وبذلك يُكْتَبُ إلى والي سمرين ، ووالي الباب ، ووالي غزاز ، ووالي أنطاكية ، ووالي حارم ، ووالي كفر طاب ، ووالي الجبول ، ووالي منبج ، ووالي تل بآشر ، وأجناد الحلقة بِحَلَبَ ، وصغار البريديَّةِ بها ، وعداد التركان وعداد الأكراد .

وأعلم أن وراء ما تقدم من المكاتبات الصادرة عن نائب حلب [مكاتبات أخرى] إلى من هو خارج عن المملكة ، كما تقدم في المكاتبات الصادرة عن نائب الشام ، وهي على مراتب :

المرتبة الأولى — المكتوبة بـ «يُقْبَلُ الأَرْضَ» — القان صاحب بغداد : كما كان يُكْتَبُ إلى القان أويس ، وأبنيه أحمد : يُقْبَلُ الأَرْضَ بالمقام الشريف العالی ، المولوی ، السلطانی ، الأعظمی الأوحدي ، الملاذی ، العطوفی ، المحسني ، القانی ، المَلِكِي الفلانی ، الجلالی ؛ أعلى الله تعالى شأنه ، وأعز سلطانه ، وأمكن من رقاب الأعداء مكانه ؛ ولا زال لوائه يتأزر بالنصر ويرتدى ، وفناؤه يروح إليه العز وبعثدي ، وعزمه يثقف صرف الزمان فلا يعتاد أن يعتدي ؛ ولا برح محموداً في موقف النصر موقفه ، ماضياً في هامات أعدائه مرهفه . وينهى بعد أدعية رفعها إلى مواطن الإجابة ﴿ فَتَقْبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنِ ﴾ وموالاة شفعتها بالإخلاص ، فعجز عن وصفها ذوو البلاغة واللسن ، وأثنية جمعها فلذت بها الأسماع لذادة الأعين الساهرة بالوسن ؛ أن الأمر كيت وكيت .

المرتبة الثانية — من يكتب له «أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف» — صاحب ماردین . والرسم أن يكتب إليه : أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف ، العالی ، المولوی ، الكبيری ، العالی ، العادلی ، السلطانی ، المَلِكِي ، الفلانی ؛ ويدعى له ، نحو : لازالت أيامه مسعوده ، وأبوابه مقصوده ، وألوية النصر بنواصي خيله معقوده ؛ المملوك يقبل اليد الشريفه ، ويقوم من الخدمة بأكل وظيفه ؛ وينهى لعلمه الكريم بعد السلام الزكي ، والثناء المسكي ؛ كيت وكيت ، فيحيط بذلك علمه الكريم ، ويثقف بالمشرفات على عادة فضله العميم .

المرتبة الثالثة — «أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم» . وبذلك يكتب إلى ابن قرمان نائب السلطنة بالبلاد القرمانيّة — حاكم جولمرك — صاحب برضا وهو ابن عثمان — صاحب آياس لوق .

المرتبة الرابعة — « المَقْرُّ العالى » وبذلك يكتب إلى صاحب حصن كَيْفَا،
والوزير بالممالك القانية وقاضيا .

المرتبة الخامسة — « أعز الله تعالى نُصْرَةَ الجَناب الكريم » . وبذلك يكتب
إلى صاحب أَنْطَالِيَا من بلاد الروم .

المرتبة السادسة — « ضاعف الله تعالى نعمة الجَناب العالى » . وبذلك يُكتب
إلى نائب كَرْبَزَاك ، وحاكم جَمَشَكْزَاك ، وحاكم سِيوَأَس ، وحاكم أَمَاسِيَا ، وحاكم
سَنُوب ، والحاكم بِجَرْتِ بَرْت .

المرتبة السابعة — « أدام الله تعالى نعمة الجَناب العالى » . وبذلك يكتب إلى نائب
صاحب مَارِدِين ، ونائب الصَّالِحِيَّة ، وبعض خدام صاحب مَارِدِين :

المرتبة الثامنة — « صَدَرْت والعالى » . وبذلك يكتب إلى حاكم حَرَّان ، ونائب
ماز كَرْد ، وحاكم قَلْعَة الجَوَز .

الطبقة الثالثة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية —
مَنْ يكتب إليه عن السلطان : « ضاعف الله تعالى نعمة الجَناب العالى » كوزير المملكة
بالديار المصرية ، وناظر الخَاص ، على ما استقر عليه الحال آنحرا ، وأرباب الوظائف
من الأمراء المقدمين بها : كأمير سلاح ، وأمير مجلس ، وأمير أخور ، والدَّوَادَار .
وإِسْتَادَار ، وحاكِم الجُجَّاب ، ونائب الإسكندرية ، وكذلك نواب السلطنة
بَطْرَابُلُس ، وحمَاة ، وصدفَد ، من الممالك الشامية .

والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على [تسع] مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلانى بمطالعة » وهم : النَّائب الكَافِل ، وأتايكُ العساكر ،

ونائب الشام .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب حلب .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائب طرابلس ،

ونائب حماة ، ونائب صفد ، ونائب الكرك ، وأمير سلاح وغيره من سائر من في هذه الطبقة .

المرتبة الرابعة — « الباب الكريم » . وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين القبلي

والبحري بالديار المصرية ، ومقدمي العسكر بغزة وسيس ، والأمراء المقدمين

المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة وقبض الغلال .

المرتبة الخامسة — « يقبل الأرض بالمقر الشريف » إن قصد تعظيمه ، أو الباسط

الشريف إن لم يقصد ، وبذلك يكتب إلى ^(١)

المرتبة السادسة — « يقبل اليد العالية » . وبذلك يكتب إلى أمراء الطبلخاناه

المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة والقبض . وربما

أنحطت رتبة أحد هؤلاء فكُتب إليه : أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم ، أونصرة

الجناب الكريم ، أو ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالی .

المرتبة السابعة — « ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالی » . وبذلك يكتب إلى

كاشف الوجه البحري وكاشف الفيوم والبهنساوية .

المرتبة الثامنة — « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی » . وبذلك يكتب إلى الولاة

الطبلخاناه بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية : كقوص والمحلة ، وغيرها .

وربما كُتب « صدرت والعالی » لأحدهم .

(١) ياض بالأصل بقدر كلمة .

المرتبة التاسعة — « صَدَرَتْ وَالسَّامِي » . وبذلك يكتب إلى ولاة العشرات بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية .

الطبقة الرابعة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية ، من يكتب إليه عن السلطان « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی » . ككاتب السرّ وناظر الجيش ، وكذلك الحُجَّاب الطبلخانا بالديار المصرية . وعلى ذلك كان ناظر الخاص في الزمن المتقدم . فلما جُمِعَ للصاحب شمس الدين المقسى بين الوزارة ونظر الخاص ، كان يُكتب عنه بما يُكتب به عن الوزراء كما تقدم . فلما انفصل الخاص عن الوزارة رُوعِيَ في الخاص ذلك القدر ، فكتب عن ناظر الخاص كما كتب عن الوزير ، والأمر على ذلك إلى الآن .

والمكاتب الصادرة عن هذه الطبقة على مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلاني بمطالعة » . وبذلك يكتب إلى النائب الكافل ، والأتابك ، ونائب الشام ، وألحقوا بهذه الرتبة نائب حلب ، فكتبوا إليه الفلاني .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب عن هذه الطبقة إلى نواب السلطنة بطرأبلس ، وحمّاة ، وصفد ، ونغر الإسكندرية .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية ، ومقدمي العسكر بقرّة وسيس ، ور بما كتب إلى أحدهم « الباب الكريم » .

المرتبة الرابعة — « الباسط الشريف » . وبذلك يكتب إلى نائب الكرك .

المرتبة الخامسة — « يقبل الباسطة » . وبذلك يكتب إلى نائب القدس الشريف ، ونائب الرّحبة ، وكاشف الوجه البحري ، وكاشف الفيوم بالديار المصرية .

المرتبة السادسة — « يقبل اليد العالية » . وبذلك يكتب إلى الولاية الطبلخاناه ،
بالوجهين القبلي والبحري ، بالديار المصرية .

المرتبة السابعة — « يخدم الجناح العالى » . وبذلك يكتب إلى الولاية العشرات
بالوجهين القبلي والبحري أيضا .

قلتُ : وعلى هذه الطبقات الأربع يُقاس مَنْ دونهم ممن يكتب إليه عن
السلطان ، صدرت والعالى ، كائني القُدس والرَّحبة ، ومَنْ يُكتب له : صدرت
والسامي ، كالكاشف بالوجه البحري ، وكاشف الفيوم ، ومن يكتب له : هذه
المكاتبه ، كالولاية الطبلخاناه بالوجهين القبلي والبحري ، ومن يكتب له : « يَعْلَمُ »
كالولاية العشرات بالوجهين أيضا . على أن الغالب في مثل هؤلاء أن تكون الكتابةُ
عندهم لأعيان الدولة « الفلاني بمطالعة » وفيمن هو مثلهم أو دونهم يقاس على
ما تقدم .

وأعلم أن هذه المراتب المضمَّنة للطبقات ليست على سبيل اللزوم في الوقوف
عند حدِّها ، بحيث لا يجوز تجاوزها بزيادة ولا التناحر عنها بنقص ، بل هي على
سبيل التقريب ، والأمر في زيادة رتبة المكتوب إليه زيادة لا تُخرجه عن حدِّه
في المقدار موكولٌ إلى اختيار الكاتب ، يزيد في ذلك وينقص ، بحسب ما يقتضيه
الحال : من رفعة قدر المكتوب إليه ، لمزيد رفعتِه عن نوعه ، أو محاباته لأستمالته
إلى القصد المطلوب منه ، أو الغضِّ منه بحطيطة رُتبته أو نحو ذلك .

الفصل السابع

من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في مقاصد المكاتبات ، وهي الأمور التي تكتب المكاتبات بسببها)
وهي الجزء الأعظم من صناعة الترسُّل ، وعليها مدارُ صنعة الكتابة ، إذ الولايات
من مقاصد المكاتبات ، وهي أهمُّ ما تَضَعُّ به الكاتبُ ، وألزمُ ما مهَرَ فيه ؛ وهي قسمان :

القسم الأول

(مقاصد المكاتبات السلطانيات ، وهي على نوعين)

النوع الأول

(ما يُكْتَبُ عن الخلفاء والملوك ، وهو على ثلاثة أضرب)

الضرب الأول

(ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن ضاهاهم)

مما هو مستعمل الآن ممَّا كان عليه الحال في الزمن القديم مما يقلُّ ويكثرُ ،
ويَتَكَرَّرُ تَدَاوُلُهُ في الكتابة وسائر المكاتبات في الحوادث المألوفة التي يكثر تداولها ،
وتتكرر الكتابة فيها بتكرُّر وقائعها ؛ وما رَسَمُ الكتابة به باقٍ إلى زماننا ، وإن تغير
مصطلح الأبتداء والخطاب وغيرهما من رسوم المكاتبات . وهو على أصناف :

الصنف الأول

(الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة)

قال في "مواد البيان" : جرت العادة أن تُنْفَذَ الكتبُ إلى ولاة الأعمال في مثل
هذه الحالة ، مُتَضَمِّنَةً ماجرى عليه الأمر بالحضرة : من أنقياد الأولياء والرعايا

إلى الطاعة، ودُخولهم في البيعة بصدورٍ مُنشرحة، وحض من الأعمال من رجال السلطان ورعيته على الدخول فيما دخل فيه أمثالهم، وإعطاء الرعايا على ذلك صفةً أيمانهم .

وقد كان الرسم فيها أن تُصدر بحمد الله تعالى على عوارفيه التي لم تزل تكشف الخطب، وترأب الشعب، وتدفع المهيم، وترفع المليم، وتجبر الوهن، وتُسبغ الأمن، والصلوة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر خصائصه ومناقبه، وتشريف الله تعالى له بإقرار الإمامة في أقاربه، وتخصيصها بنبي عمه الذين هم أحق الناس به، وما أمر به الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم من طلب موذتهم من الأمة بقوله جل من قائل : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ . وما أشار إليه صلى الله عليه وسلم من بقاء الخلافة فيهم بقوله لعنه العباس : « أَلَا أُبَشِّرُكُمْ بِأَنَّ فِي خِيَمَتِ النَّبُوَّةِ وَبَوْلْدِكَ تَحْتُمُ الْخِلَافَةَ » وما يجري مجرى ذلك . ثم يتلو ذلك بالإفصاح عن شرف الخلافة وفضلها، والإبانة عن رفيع مكانها ومحلتها، وأنها ظل الله الممدود، وحبلة المشدود، ومسك الدين ونظامه، وملاك الحق وقوامه . وأمتنان الله تعالى على العباد بأن جعل فيهم أئمة يُسِطُونَ العدل عليهم ، وَيُقِيمُونَ الْحُدُودَ فِيهِمْ ، وَيُقِيمُونَ أَدْيَانَهُمْ ، وَيَهْدُونَ إِيْمَانَهُمْ ، وَيُرْهِفُونَ بَصَائِرَهُمْ ، وَيَهْدُونَ حَاثِرَهُمْ ، وَيَكْفُونَ ظُلُومَهُمْ ، وَيُنْصِفُونَ مَظْلُومَهُمْ ، وَيَجْمَعُونَ كَلِمَتَهُمْ ، وَيَجْمَعُونَ ذِمَارَهُمْ ، وَيَحُوطُونَ دِيَارَهُمْ ، وما يجري مجرى ذلك . ثم يذكر ما أوجبه الله تعالى على أهل الإسلام للإمام من الطاعة وحسن التباة أيام حياته ، والالتقياد لأمره في طاعة من ينص عليه في القيام مقامه بعد وفاته : لِيَتَّصِلَ حَبْلُ الْإِمَامَةِ بَيْنَهُمْ ، وَيَمْتَدَّ ظِلُّ الْخِلَافَةِ عَلَيْهِمْ . فإن كان قد تلقى الخلافة بعهد عن خليفة قدم مات : من أب أو غيره ، أتى بمقدمة في ذكر الموت ، وأن الله تعالى سوى فيه بين برئته ، وجعل في تطرفه

(١) لعله يفيضون العدل .

إلى رسوله أُسوةً خَلِيقته؛ وتَفَرَّدَ بالبقاء، وأمتنع عن الفناء. ثم يقال: وإن الله تعالى لما اختار لعبده ووليه فلان النُّقْلَةَ إلى دار كرامته، والحُلُولَ بِفِنَاءِ طاعته؛ وأعانه على سياسة بريته، وأنهضه بما حَمَلَهُ، وأيده فيما كَفَّلَهُ؛ من الذبِّ عن المسلمين، والمراماة عن الدين؛ والعملِ بِكتابه وسُنَّتِهِ في القول والفعل، وأستشعارِ خِيفَتِهِ ومُرَاقَبَتِهِ في السرِّ والجهر؛ وما يليق بهذا - استخلص عبده وولِيَهُ فلاناً الإمامَ الفلانيَّ لخلافته، وأهمى سماءَ الرحمة بإمامته؛ وأحلَّ عزيز النصر بولايته، وألقى في نفيس رأيه النصَّ عليه، والتفويضَ إليه؛ لما علم سبحانه في ذلك من شمول المصلحة للعباد، وعموم الأمانة للبلاد؛ فأمضى - قدس الله روحه - ما أُلْهِمَهُ، وَكَلَّمَهُ قبل خروجه من دار الدنيا وتممه؛ عالمًا بفضل اختياره، وأنه لم يَمِلْ به الهوى في إشارته؛ فقام أمير المؤمنين الإمامُ الفلانيُّ مقامه، وحَفِظَ نِظَامَهُ؛ وسَدَّ ثُلُمَتَهُ، وَعَفَى رِزِيَّتَهُ؛ وأقر الله تعالى الإمامة به في نِصَابِهَا ومَقَرَّهَا، وزاد باستخلافه في صِيَتِ الخِلافةِ وَقَدْرَهَا.

وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى أن يخص وليه السعيد بقربه بأفضل صلواته، وأشرف تحياته؛ ويحسن جزاءه في سعيه في صلاح العباد، وسداد البلاد؛ وأن يلهم أمير المؤمنين الصبر على تجرع الرزية فيه [ويجزيه] أفضل ما جزى به ضابراً مُحْتَسِباً، وأن يجبر كسرَه في فقده، ويوفقه لجميل العزاء من بعده؛ وبُسْتَدِهِ في مصادره وموارده، ويهديه لما يُرضيه في جميع مقاصده؛ وَيُعِينَهُ على تأليف الأهواء، وجمع الآراء؛ ونظم الشمل، وكف القتل، وإرخاء الظل.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد اجتمع من بحضرته، من ذوى جهته وأمرائه دولته؛ وكافة جنده وجماعة حوزته على بيعته، وإعطائه صَفْقَةَ أيمانهم على طاعته

ومشايسته ؛ عن صدور مُحْلِصة نَقِيَّة ، وسَرَّاءِ رِصَافِيَّة سَلِيمة ، وعقائد مُشتملة على الوفاء بما عَقَدُوا عليه ، وأنقادوا مُختارين إليه ؛ وشَمِلَتَهُم بِذلك الرِّحْمه ، وَضَفَّتْ عَلَيْهِم النعمه ؛ فما رَحُوا الرِّزِيَّة ، حتَّى فَرِحُوا بالعطيه ، ولا وَجَعُوا للصببه ، حتَّى بَسَمُوا للرغيبه ؛ ولا أَظلموا لفقد الماضي ، حتَّى أَضاء الوجود بالآتى .

فله الحمد على هذه النعمة التي جَبَرَتِ الوَهْنَ ، وحَقَّقَت في فضله المنِّ ؛ حمدا يَسْتَدِرُّ أخلافَ فَضله ، وَيَسْتَدْعِي سابغ طَوْلِه ؛ وَصَلَّى اللهُ على محمد وآله . وأميرُ المؤمنين يراك من أهل مخالسته ، والمتحققين بطاعته ؛ وهو يأمرُك أن تأخذ البيعةَ له على نفسك ، وعلى جميع أوليائه المقيمين قبلك ، وكافة رعاياه الذين هم في عملك ؛ وتُسْعِرَهُم بما عنده للمسارعين لطاعته ، المبادرين إلى أتباعه ؛ من تيسير الإنصاف والعدل ، وإفاضة الإحسان والفضل ؛ وما لمن نَكَبَ عن الطريقة المثلى ، وحَادَ عن الأولى ، من الكَفِّ الرَّادِع ، والأدب الوازع ؛ وَيَتَوَسَّعُ في هذا المعنى توسعاً يشرح صدور أهل السلامه ، المستمرِّين على نهج الاستقامه ؛ وَيَرُدُّعُ أهل الفساد ، وَيَغْضُ من نواظر ذوى العناد . ويُحَلِّي الكتاب آيات من القرآن الكريم تحسُنُ استعارتها في باب العزاء ، ويليق ذكرها في باب الإشادة بالخلافة والخلفاء . فان كان الكتاب مما يقرأ بالحضرة . قال في موضع «وكتاب أمير المؤمنين إليك» : «وأتم معاشر أقارب أمير المؤمنين : من إخوته وبنى عمه وخوَّاص الدولة وأمرائها وأجنادها وكُتَّابها وقضائها وكافة رعيها ، ومن أشتمل عليه ظل مملكتها - أحقُّ من حافظ على عوارف أمير المؤمنين وأعدت بلطائفه ؛ وقام بشكر نعمته ، وسارع إلى أتباعه واعتصم بحبل دعوته ؛ فأجمعوا على متابعتة ، وإعطائه صفة أيمانكم على مبايعته ؛ ليجمع الله على التاليف كلمتكم ، ويحمي بالتأزر بيضتكم » ويتبع ذلك من وعد أهل الطاعة

بما يضاعف جُدودهم ، ومن وعيد اهل المعصية بما يصفرُّ خُدودهم ؛ على نسق ما سبق في الترتيب .

وهذه نسخة كتاب في المعنى ، كُتِبَ به عن الأمر بأحكام الله تعالى عند استقراره في الخلافة بعد أبيه المستعلي بالله ، والدولة مشتملة على وزير ، من إنشاء ابن الصيرفي ، وهي :

الحمد لله المتوحد بالبقاء ، القاضى على عباده بالفناء ، الذى تمجد بالأزلية والقدم ، وتفرد بالوجود وتزّه عن العدم ؛ وجعل الموت حتماً مقضياً على جميع الأمم .

يحمده أمير المؤمنين على ما خصّه به من الإمامة التى قمّصه سرّ بالها ، ووّرثه نحرها وجمالها ، حمد شاكر على جزيل عطية ، صابر على جليل الرزية ، مُسلم إليه فى الحكم والقضية ؛ ويسأله أن يصلّى على جدّه محمد الذى ثبتت حجته ، ووضّحت محجّته ؛ وعلت كلمته ، وأنافت على درج الأنبياء درجته ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى جعل [الله] الإمامة كلمةً فى عقبه باقيه ، رُحبه جنة يوم الفرع الأكبر واقبه ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الطاهرين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين .

وإن الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين قدس الله روحه وصلّى عليه ، كان من أوليائه الذين أصطفاهم لخلافته فى الأرض ، وجعل إليهم أزيمة البسط والقبض ؛ وقام بما حمّله من أوق الإمامه ^(١) ، ولم يزل عاملاً بمرضاة الله إلى أن نقله إلى دار المقامه ؛ فإننا لله وإنا إليه راجعون ، رضا بقضائه ، وصبرا على بلائه ؛ وإلى الله يرغب أمير المؤمنين فى إلهامه حُسن الصبر على هذا المصاب ، وإجزال حظّه عليه من الأجر والثواب ؛ وإمداده فى خلافته بمواد الإرشاد والصواب ؛ بكرمه .

(١) الأوق النقل . فاموس .

وكتاب أمير المؤمنين يوم كذا من الشهر الفلاني من سنة كذا؛ بعد أن جلس للحاضرين بحضرتة من الأمراء: عُومَتِهِ وأوليائه وخدم دولته، وسائر أجناده وعبيد مملكته، وعامة شيعته، وأصناف رعيته؛ وأنوار الخلافة عليه مُشْرِقه، وأغصان الإمامة مُثْمرة مُورِقه؛ والسيد الأجلُّ الأفضَلُ الذي أمدّه الله في نصرته الدولة العلوية بالتأييد والإظهار، وأبان به برهان الإمامة الآمرية فوضّحت أنوارها للبصائر والأبصار، وشهرله من المناقب ما سار مسير الشمس في جميع الأقطار؛ يتولى الأمر بحضرتة تولى الكافل الزعيم، ويباشر النظر في بيعته مباشرة القسيم الحميم؛ والناس داخلون في البيعة بانسراح صدور، وإظهار أبتهاج وسرور؛ يُعطون صفقة أيمانهم، ويعلمون ما لهم من الحظ في طاعة إمام زمانهم؛ قد تحققوا شمول السعد وعموم الرشاد، وتيقنوا الخيرة لهم في العاجلة والمعاد؛ وأمير المؤمنين يعزبك ومن قبلك من أولياء دولته، وسائر رعيته؛ عن المصيبة في الإمام المستعلي بالله - صلى الله عليه - التي قطعت من النفوس أملاها، وأسكنت الأبواب جزعا وولها، ويهنك وإياهم بمجدد دولته التي تهلل لها وجه الزمان، وأستهلت بها سحائب الفضل والإحسان. وأمير المؤمنين يحمد الله الذي أقر الحق في منصبه، وأفرده بما كان والده الإمام المستعلي بالله أفرده به .

فأعلم ما أعلمك أمير المؤمنين من هذا الخطب الجسيم، والنبأ العظيم؛ وأشكر الله على ما جنده لك ولكافة المسلمين، من النعمة بامامة أمير المؤمنين؛ التي أوفت بساءة الزمان، وجنابته، وشفقت من داء كلمه ونكايته؛ وتقدم إلى الدعاء(?) قبلك بأخذ البيعة على نفسك وعلى كافة من في ولايتك، وأستحمد إلى أمير المؤمنين أنت وهم بالإخلاص في طاعته، والأجتهاد في مناصحته، والتمسك بعصم شايسته؛ لتنالوا

في العاجلة حظاً جسيماً ، وتُحْرِزُوا في الآجلة أجراً كريماً : ﴿ وَمَنْ أَوْقَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وطالع بالكائن منك بعد قراءة كتاب أمير المؤمنين عليّ الحاضرين قبلك ، وإذاعته في الواردين عليك والمستوطنين عمّلك ؛ ليحمدوا الله على ما أنالهم بخلافة أمير المؤمنين من جميل الصنع العائد على العباد ، وصلاح البلاد - وكتب في اليوم المذكور .



وهذه نسخة كتاب عن الأمر بأحكام الله المقدم ذكره ، كُتِبَ به إلى ولاة الأطراف بعد قراءة عهده ، مهنتاً بخلافته ، وتجديد ولايته ؛ من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً ، وهي .

أما بعدُ ، فالحمد لله مولى المناجح من نعمه ، ومجزل العطايا من مواهبه وقسمه ، ومعود الصنع الجميل من لطفه وكرمه ، الذي له الحكم الظاهر عدله ، ولديه الطول الفائض فضله ، وعنده مفاتيح الغيب وإليه يرجع الأمر كله .

يحمد أمير المؤمنين عليّ ما أفرد به من سنيّ المواهب ، ونظّمه له من عقود المناقب ؛ ونقله إليه من تراث آبائه الكرام الذين جلا ضياؤهم ظلام العياهب ؛ وتزينت بهم الأرض تزين السماء الدنيا بزينة الكواكب ؛ ويسأله أن يصليّ على جدّه محمد الذي نشر الله به الرحمة ، وكشف الغمّه ، وأنقذ الأُمّه ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وأبن عمّه عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين ، والمذكور في زُبر الأولين ، وعلى الصفوة من ذريتهما الهداة الراشدين ، صلاةً باقيةً إلى يوم الدين .

وإن النعم تتفاضل أقدارها بحسب مواقعها ، وتتفاوت أخطارها بقدر مواضعها ؛ ومن أطفها مكاناً ، وأشرفها محلاً وشاناً ؛ وأولاها بأن تُسْتَنْطَقَ به الأقلام ، وأحقها بأن يتناقل ذكرها الخاص والعام ؛ ما خصّ الله به أمير المؤمنين من المنن الظاهرة ،

وتولّاه من المنح المتظاهرة ؛ وأصاره إليه من الخِلافة في أرضه ، وأستخلفه عليه من القيام بسُننِ دينه وفرضه ؛ وأسترعاه إياه من حياطة بلاده ، وأوجبه من طاعته على كافة خلقه وعباده ؛ وذخره لدولته من كفيله وخيليه ، ومقيم أدلة حقه وموضع سبيله ؛ السيد الأجلّ الأفضّل الذي آرتضاه الله للذبّ عن الإسلام ، وانتضاه لنصرة إمام بعد إمام ؛ وشهر مناقبه في كلّ موقف ومقام ، وخصّه بفضائل لم تُرَ مجتمعاً لملك من ملوك الإسلام ؛ لاجرم أنّ أمير المؤمنين قد أحله منه محلّ الروح من الجسد ، والوالد من الولد ؛ وفوض الأمور إليه تفويض معول على يمن قبيته معتمد ، مبالغ في حسن الاختيار للأمة مجتهد ؛ والله تعالى يتعّ أمير المؤمنين ببقائه الكافل ببلوغ الأمل ، ويجازيه عن تشييد مملكته أحسن ما جرى به مُخلصاً جمع في الإيمان بين القول والعمل ؛ بكرمه .

ولما وقف أمير المؤمنين بما طالعه به السيد الأجلّ الأفضّل عند مثوله بحضرتة ، وإنهائه أمور دولته وأحوال مملكته ؛ على أمرك الذي أستحمدته في الخدمة ، وأستحققت به إفاضة الإحسان وإسباغ النعمة ؛ وأن لك في الدولتين : المستنصرية والمُستعلية من الخدم المشكوره ، والمساعي المبروره ؛ ما يدلّ على مناصحتك وإخلاصك ، ويبعثُ على أصطناعك وأستخلاصك - أمر بكتب هذا السجلّ لك مؤكداً لأواخيك ، ومُعرباً عن رأيه الجميل فيك ، ومجدداً من ولايتك ، ومُجرباً لك فيها على مُستمرّ رسمك ومستقرّ عادتك . فقابل نعمة أمير المؤمنين من الإخلاص في طاعته بما يرتبطها ، ووفّها من حقّ الاجتهاد ما يُقرّها عندك ويُنبتّها ؛ وأجعل تقوى الله تعالى عمادك ، وأطو عليها طويّتك وأعتقادك ؛ ومكّن في نفوس الأولياء جميل رأي أمير المؤمنين فيهم ؛ وإحماده لمواقفهم في الخدمة ومساعدتهم ؛ وحقّق عند كافة المُستقرّين لديك ، والواردين عليك ؛ ما يُكثّفون به من الأمر الشامل ،

ويغمرُونَ به من حُسْنِ النظر المتواصل ؛ وأبْرَ على العادة المألوفة في إفاضة العدل والإنصاف ، وتَنَكَّبَ سبيلَ الجَوْرِ والإِجْحَافِ ؛ ومَهَّدَ السَّبِيلَ قِبَلَكَ ، وأَحْمٍ من أسباب الفساد ولايتك وعملك ؛ وَأَخْصَصَ مُتَوَلَّى الحُكْمِ والدعوة الهادية - ثبثها الله تعالى - بالإعزاز والرعاية ، ووفَّرَ حَظَّهُم من الملاحظة والعناية ؛ وَخَذَ المُسْتَعْدِمَ في الخطبة العَلَوِيَّةَ باقامتها في أوقاتها ، على أفضل قوانينها وواجباتها ؛ مُعَلِّناً فيها بذكر أمير المؤمنين الذي يَتَوَجَّحُ فَرُوقَ المنابر ، وَيُسَنِّفُ أَسْمَاعَ البوادي والحواضر ؛ وَتَوَفَّرَ على مائِمَةِ الأموال وأئِمَّاهَا ، وغَزَّرَها ورخَّاهَا ، وقَضَى بُوُفُورَها وحصولها ، ودعا إلى دُرُورِها ومواصلة حُمُولِها ؛ وَأَنْظَرَ في أمر الرجال المُسْتَعْدِمِينَ معك نظراً يؤدِّي إلى مصلحتهم . فأعلم هذا من أمير المؤمنين ، وأغْتَبِطَ بِمَا أَسَاءَ اللهُ إِلَيْهِ اغْتِبَاطَ أمثالك من المخلصين ، وأَعْتَقِدْ طَاعَتَهُ أَعْتِنَادَ مَنْ يَجَارِيكَ من أهل اليقين ، وأَعْمَلْ بوضاياه ومراشده تَحْفَظْ في الدنيا والدين ؛ وَطَالِعْ بِالكَاتِنِ مِنْكَ بَعْدَ قِرَاءَةِ هَذَا السَّجِلِّ على كافة الناس أجمعين ؛ وَكُتِبَ في كَذَا وكَذَا .

وأعلم أن العادة جارية بينهم أنه إذا كتب كتاب عن الخليفة بانتقال الخلافة إليه ، يُكْتَبُ ملطف عن الوزير ، يُلَفُّ كتاب الخليفة ضِمْنَهُ ، وَيُوجَّهُ به إلى حَيْثُ المُقْصِدُ :



وهذه نسخة ملطف في هذا المعنى ، كُتِبَ به عن وزير في الدولة الفاطمية ، لُفِّ كتاب الخليفة طِيَّهُ ، وهو :

يَنْطَوِي هذا الأمرُ الوارد على الأمير ، على كتاب مولانا وسيدنا الإمامِ المَلَانِيِّ لدين الله ، أمير المؤمنين ؛ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آبَائِهِ الطَّاهِرِينَ ، وَأَبْنَائِهِ الأَكْرَمِينَ ، أَوْ أَبْنَائِهِ المُتَنَطِّرِينَ ، إِنْ كَانَ لا ولدَ له - بِمَا أُصَادِرُ إِلَيْهِ من شَرَفِ

الإمامه ، وبوأه إياه من مقام العظمة والكرامة ؛ إثر انتقال الإمام فلان أمير المؤمنين - قدس الله روحه - إلى جوار ربه . فاعتمد العمل بمضمونه في أخذ البيعة على نفسك ومن يليك ، وتلاوته على رؤوس الأشهاد ، وإذاعة مكنونه في الحاضر والباد ، على الرسم المعتاد ؛ فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

قلت : وهذا المعنى في الكتابة بانتقال الخلافة إلى الخليفة جارٍ في زماننا بانتقال السلطنة إلى السلطان ؛ ويعبر عن ذلك بجلوسه على تخت الملك ، والأمر على ما تقدم في الخلافة من التعزية بالماضي ، والتهنئة بالمستقر ، ونحو ذلك مما يجري مجراه .



وهذه نسخة مكتابة بالبشارة بجلوس الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون على التخت ، في شهر رجب الفرد سنة آنتين وحمسين وسبعائة ، بعد خلع أخيه الملك الناصر [حسن] . وصورتها بعد الصدر والألقاب :

وأورد عليه من البشائر أسنى البشر ، وأسמע من التهانى ما أنتشى حديثه بين البرايا وانتشر ، وحفظ عليه وعلى الأمة ما أراد لهم من الخير وولى عليهم خيارهم وجعل ملكهم صالح البشر .

صدرت هذه المكتابة إلى فلان^(١) وبصرها مقدماً بالظفر ، وذكرها قد لا الأقطار بجمع عليه كل قلب كان قد نقر ، تُهدى إليه سلاماً عن وجه الشكر سفر ، وثناء يحصل منه على النصيب الأوفر ، وتوضح لعليه أن الجنابات العالية الأمراء الأكابر ، أمراء الدولة الشريفة ، ضاعف الله نعمتهم ؛ كانوا قد عظموا أخاناً الناصر ، وحكوه ، ومشوا إلى خدمته على أحسن سنن ، وما أبقوا في خدمته ممكناً من التعظيم ، والإجلال والتحكيم ، وأمثال الأمر في كل جليل وحقير ؛ فلم يرع لهم

(١) كذا بالأصل على هذه الصورة .

ذلك ، ولا آلتفت إلى ما لهم عليه من حقوق الخدمة ؛ واتفق مع الصبيان ، وأراد القبض على الأمراء ، وإمساك الجنابات العالية الأمراء الأكابر والإيقاع بهم . فلما تحققوا منه ذلك ، اجتمعت الأمراء ، واتفقت الكلمة على خلع من الملك الشريف وإقامتنا . فخلع المشار إليه ، وكان جلوسنا على تخت الملك الشريف وكرسى السلطنة المعظمة في يوم الاثنين المبارك ، بحضور الإمام المعتضد بالله أمير المؤمنين أبي الفتح أبي بكر ، ابن الإمام المرحوم أمير المؤمنين أبي الربيع سليمان المستكفي بالله ، ومبايعته لنا ، وحضور المجالس العالية قضاة القضاة بالأبواب الشريفة ، أعز الله تعالى أحكامهم ؛ وحلف لنا أمراء الدولة الشريفة على جارى العادة في ذلك ؛ وضربت عند ذلك البشائر ، وشهد هذا الهناء كل بادٍ وحاضر ، وتشنفت الأسماع وقرت العيون وأستقرت الحواطر ، وأتتهجت بذلك الأمم ، وتباشرت بهذا السعد الذى كتبت لنا من القدم ؛ وأصبح كل من أنصار دولتنا الشريفة مبتهلا بالدعاء مبتهجا .

فليأخذ المقر حظه من هذه التهنیه ، وليذع خبرها لتكون المسار معيدة ومبديه ؛ ويتحقق ماله عندنا من المكانه ، والمحلى الذى زان بالإقبال الشريف زمانه ؛ ويتقدم أمره الكريم بتهنئة المجالس العالية والسامية ومجالس الأمراء بالملكة الفلانية ، ويتقدم أيضا بضرب البشائر وبالزينة على العادة .

وقد تجهز إلى الجنب العالى نسخة يمين شريفة يحلف عليها ؛ ويكتب خطه . ويجهزها إلينا صحبة المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، العضد ، الأخرى . النصيرى ، الأوحدى ، عضد الملوك والسلاطين ، يلغا الحموى الصالحى ، أدام الله علوه ، المتوجه بهذا المثال الشريف . وقد جهزنا نسخة يمين شريفة ليحلف عليها لنا الأمراء بطرابس ويكتبوا خطوطهم ، ويجهزها إلينا على العادة صحبة المشار إليه .

وقد جهزنا للجناب العالی صحبة المشار إليه تشریفاً شریفاً كاملاً، فیتقدم الجناب العالی بتسلمه منه ولبسه، ویتحقق ماله عندنا من المکانة والمنزلة، وبعيد الأمير سيف الدين يلغا المشار إليه إلى الباب الشريف، فيحيط علمه بذلك.

الصنف الثاني

(من الكتب السلطانية المكتوب في الدعاء إلى الدين، وهو من أهم المهمات)
قال في "مواد البيان": أشرف ما ينشئه الكاتب الدعاء إلى دين الإسلام الذي أظهره الله تعالى على كل دين، وأعزّه على كره المشركين، وأستجرار مخالفه إليه، وأجتذاب الخارجين عن دائرته إلى الدخول فيه، عملاً بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده، لأنه قوام الملك ونظام السلطان اللذان لا يصحان إلا به.

قال: والكاتب يحتاج في إنشاء هذه الكتب إلى علم التوحيد وبراهينه، وشرع الرسول صلى الله عليه وسلم خاصه وعامه، ومعجزاته، وآيات نبوته: ليتوسع في الإبانة من ظهور حجته، ووضوح محجته.

ثم قال: والرسم فيها أن تفتح بحمد الله الذي آختر دين الإسلام فأعلاه وأظهره، وقدسه وطهره، وجعله سبيلاً إلى رضاه وكرامته، وطريقاً إلى الرزق في جنته، وشفيعاً لا يقبل عمل عامل إلا به، وبأباً لا يصل وأصل إلا منه، فلا تغفر السيئات إلا لمن اعتصم بحبله، ولا تتقبل الحسنات إلا من أهله. وشكره تعالى على الهداية إليه، والتوقيف عليه، وزيادته عن مجاهل الضلالة بما أوضحه من برهانه، ونوره من تبيانه، وتمجيد من تعظيم آياته، وباهر معجزاته، وحكم صنعته، وبديع فطرته، وتزويده عما لا يليق بسطانه، ولا تجوز إضافته إلى عظيم شأنه. وتسييحه

عما يصفه به الملحدون، ويحتلُّه الجاحدون؛ والصلاة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، والإفصاح عن دلائل نبوته، وبراهين رسالته؛ وما خصه الله تعالى به من إعلاء ذكره وإمداده بالمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة.

ثم يتبع ذلك بالدعاء إلى الدين والحض عليه. وإيضاح ما في التمسك به من الرشد في داري المبدأ والمعاد. والتبشير بما وعد الله به المستجيبين له، والداخلين فيه؛ من تمحيص السيئات، ومضاعفة الحسنات، وعز الدنيا وفوز الآخرة. والإنذار بما أوعده الله به الناكين عن سبيله، الغادلين عن دليله؛ من الإذلال في هذه الدار، والتخليد بعد العرض عليه في النار؛ وتصريف المخالفين بين الرغبة والرغبة، في العاجل والمغيب.

قال: وينبغي أن يتأني الكاتب فيما يورده من هذه الأغراض، ليقع في المواقع اللائقة به، ويحلوا الحجج في أسنن المعارض، ويفصح عنها بأقرب الألفاظ من النفوس. فإنه إذا وفق لذلك، ناب كتابه مناب الجيوش والأجناد، وأقر السيوف في الأعماد. ثم قال: ومن صدقت في هذا الفن رغبته، أيد الله تعالى غريزته، وعصده بديته ورويته.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية قد بطل في زماننا، فلم يعهد أن ملكاً من الملوك كتب إلى بلاد الكفر بالدعاية إلى الدين. إذ مثل ذلك إنما يصدر مع الغلبة والقوة والقهر. كما كان الخلفاء في الزمن المتقدم، والكفر مقهور معهم. مذلول لديهم. أما الآن فلولا ما أخبر به صلى الله عليه وسلم بقوله: «ونصرت بالرعب مسيرة شهر» وفي رواية «ونصرت أمتي» لأجتاح أهل الكفر الإسلام؛ ولكن الله وعد دينه أن لا يُخذل.

الصنف الثالث

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ بالحثِّ على الجهاد)

قال في " مواد البيان " : كما أن الدين يَنْتَظِمُ بالدعاء إليه والترغيب فيه ، كذلك يَنْتَظِمُ بصيانه حوزته ، وما دخل في مملكته ؛ وكف أعدائه عن تنقُّص أطرافه ، والتغلب على بلاده . ولهذا فرض الله تعالى الجهاد وأوجبه ، وأكد الأمر فيه وشدده ؛ والسلطان يحتاج عند الحوادث التي تحدث من تطرُق المخالفين إلى بعض الثغور ، أو شن الغارة على أهل الإسلام ، ان يدعو إلى الجهاد ومقارعة الأعداء ؛ وصون حريم الملة ، وحفظ نظام الدولة .

ثم ذكر أن الرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على جميل صنعه : على إعزاز الكلمة ، وإسباغ النعمة باظهار هذه الملة ، وما وعد الله به من نصر أوليائه ، وخذلان أعدائه ؛ وإدالة الموحدين ، وإدالة الملحدين ؛ والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وذكر طرف من مواقفه في الجهاد ، ومقارعته لشيع الإلحاد ، وتأيد الله تعالى أنصاره على أهل العناد . ثم يذكر الحادثة بنصها ، ويشرح القصة على فصها ، ويندب من جاوره وداناه من أهل الملة أجمعين ، ويخاطبهم بما يرهف قلوبهم في نصره الدين وكافة المسلمين ، وأتباع سبيل السلف الصالحين ، الذين خصهم الله تعالى بصديق الضمائر . ونفاذ البصائر ، وصحة الدين ، ووثافة اليقين ؛ فلم يكونوا يروموا مرأما إلا سهل لهم ما توعدوا ، ويسر عليهم ما تعسروا ؛ وسما بهم إلى ما هو أقصى منه مرعى وأبعد مدى ؛ رغبة فيما رغبهم فيه من نصرته ، وتعرضا لما عرضهم له من جزيل مثوبته ؛ وأن يحضهم على التمسك بعزائم الدين ، والعمل على سائر المخلصين ؛ وأقتراض ما فرض الله عليهم من جهاد أعدائه ، وتجهيز ما وعدهم به

من الإظهار بهم والإظهار عليهم؛ وأن يجاهدوا مُسْتَنْصِرِينَ، وَيُؤَدُّوا الْحَقَّ مُحْتَسِبِينَ، وَيُقَدِّمُوا رِسَالًا لَنَا كَصِينٍ وَلَا شَاكِينَ وَلَا مُرْتَابِينَ؛ مُتَّبِعِينَ الْحَقَّ حَيْثُ يَمُوقَصِدُ، وَمُضَارِبِينَ دُونَهُ مِنْ صَدِّعِهِ وَعَنْدَهُ؛ وَيُبَالِغُ فِي تَنْخِيَةِ أَهْلِ الْبَسَالَةِ وَالنَّجْدَةِ، وَالْبَأْسِ وَالشَّدَةِ؛ وَيُعِثُّهُمْ عَلَى نَصْرِ حَقِّهِمْ وَطَاعَةِ خَالِقِهِمْ؛ وَالْفَوْزِ بِدَرْكِ الثَّوَابِ وَالرِّضْوَانِ، وَتَنْوِيرِ الْبَصَائِرِ فِي الْإِيمَانِ؛ وَفَضِيلَةِ الْأَنْفِ مِنَ الضَّمِّ، وَالْبُعْدِ مِنَ الذَّمِّ؛ إِلَى غَيْرِ هَذَا مِمَّا يَعْدِلُ الْأَرْوَاحَ وَالْمُهَجَّ، وَالْإِقْدَامِ عَلَى مَصَارِعِ التَّلَفِّ. فَإِنَّ الْمُلُوكَ الْمَاضِينَ - لِعِلْمِهِمْ أَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يُجُودُونَ بِذَلِكَ لِلْفَوَائِدِ الَّتِي تُوجِبُهُ - كَانُوا يَبْدُلُونَ لِمَنْ يَدْعُوهُ إِلَى الْمَكَافِحِ، وَيُعْرِضُونَهُ لِلذَّابِحِ؛ الرَّغَائِبَ الَّتِي تُهَوِّنُ عَلَيْهِمْ إِقْلَاءَ نَفْسِهِمْ فِي الْمَهَالِكِ تَارَةً، وَيَذَكِّرُونَهُمُ الْأَحْقَادَ وَالضَّغَائِنَ وَيُنْخَوِّفُونَهُمْ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْمَذَلَّةِ الْآخَرَى .

ثم قال : وينبغي للكاتب أن يُقَدِّمَ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ مُقَدِّمَاتٍ، يَرْتَبِهَا عَلَى تَرْتِيبِ يَهْرُ الْأَرْبَابِ، وَيُسْحِدُ الْعَزَائِمَ؛ لِيَجْمَعَ بَيْنَ خِدْمَةِ سُلْطَانِهِ وَالْفَوْزِ بِنَصِيبِ مِنَ الْأَجْرِ.

قلت : وهذا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبِ السُّلْطَانِيَّاتِ مُسْتَمِرَّ الْحُكْمِ إِلَى زَمَانِنَا . فَمَا زَالَتِ الْمُلُوكُ يَكْتُبُونَ إِلَى مَا يَلِيهِمْ بِالْحَثِّ عَلَى الْجِهَادِ، وَالْقِيَامِ بِأَمْرِهِ، وَالْحِصْنِ عَلَى مَلَاقَةِ الْعَدُوِّ، وَالْأَخْذِ بِنُصْرَةِ الدِّينِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى مُقَدِّمَاتِ الْمَكَاتِبِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ : أَنَّ الشَّيْخَ شَهَابَ الدِّينِ مَجْمُودًا الْحَلَبِيَّ ذَكَرَ فِي "حُسْنِ التَّوَسُّلِ" أَنَّهُ إِذَا كُتِبَ عَنِ الْمَلِكِ فِي أَوْقَاتِ حَرَكَاتِ الْعَدُوِّ إِلَى أَهْلِ الثُّغُورِ، يُعَلِّمُهُمُ بِالْحَرَكَاتِ لِلِقَاءِ عَدُوِّهِمْ - أَنَّهُ يَبْسُطُ الْقَوْلَ فِي وَصْفِ الْعَزَائِمِ، وَقُوَّةِ الْهَيْمِ، وَشِدَّةِ الْحَمِيَّةِ لِلدِّينِ، وَكَثْرَةِ الْعَسَاكِرِ وَالْجِيُوشِ، وَسُرْعَةِ الْحَرَكَاتِ، وَطَيِّ الْمَرَاكِحِ، وَمُعَاجَلَةِ الْعَدُوِّ، وَتَخْيِيلِ أَسْبَابِ النَّصْرِ، وَالْوُثُوقِ بِعَوَائِدِ اللَّهِ فِي الظُّفْرِ، وَتَقْوِيَةِ الْقُلُوبِ مِنْهُمْ، وَبَسْطِ آمَانِهِمْ، وَحَثِّهِمْ عَلَى التَّقَيُّظِ، وَحَضِّهِمْ عَلَى حِفْظِ مَا بَأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَشْبَهَهُ . وَأَنَّهُ يُبْرِزُ

ذلك في أبين كلام وأجله ، وأمكنه وأقربه من القوة والبسالة ، وأبعده من اللين والرفقة ، ويبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى وأستنزال نصره وتأييده ، والرجوع إليه في تثبيت الأقدام ، والأعتصام به في الصبر ، والأستعانة به على العدو ، والرغبة إليه في خذلانهم ، وزلزلة أقدامهم ، وجعل الدائرة عليهم ، دون التصريح بسؤال بطلان حركتهم ، ورجاء تأخيرهم ، وانتظار العرضيات في تحلّفهم ، لما في ذلك من إيهام الضعف عن لقاءهم ، وأستشعار الوهن والخوف منهم ، وأن زيادة البسط ونقصها في ذلك بحسب المكتوب إليه .

وهذه نسخة مكاتبة من ذلك عن السلطان إلى بعض نواب الثغور ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، أوردها في "حسن التوسل" وهي :

أصدرناها ومنادي النصر قد أعلن بياخيل الله آركي ، وياملئكة الرحمن أضحى ،
وياوقود الظفر والتأييد أقربي ، والعزائم قد ركضت على سوابق الركض إلى العدا ،
والهمم قد نهضت إلى عدو الإسلام فلو كان في مطلع الشمس لأستقربت ما بينها
وبينه من المدى ، والسيوف قد أنفت من الغمود فكادت تنفر من قريبا ، والأسنه
قد ظمئت إلى موارد القلوب فتشوقت إلى الأرتواء من قلبها ، والكأمة قد زارت
كالليوث إذا دنت فرائسها ، والجياد قد مريحت لما عودتها من الانتعال بجاجم
الأبطال فوارسها ، والجيوش قد كآرت النجوم أعداها ، وسارها للهجوم على
أعداء الله من الملائكة الكرام أمدادها ، والنفوس قد أضرمت الحمية للدين نار
غضبها ، وعداها حر الإشفاق على ثغور المسلمين عن برد الثغور وطيب شنيها ،
والنصر قد أشرقت في الوجود دلائله ، والتأييد قد ظهرت على الوجوه محايله ،
وحسن اليقين بالله في إعزاز دينه قد أنبات بحسن المال أوائله ، والألسن باستنزال

(١) في حسن التوسل (ص ٩٤) "النير" .

نَصَرَ اللهُ لِهَيْجِهِ ، والأرجاءُ بأرواحِ القُبُولِ أَرْجَهُ ، والقُلُوبُ بعوائدِ لُطْفِ اللهِ بهذه الأُمَّةِ مَبْتَهَجِهِ ، والحَمَاءُ وما منهم إلا من آسَظْهَرِ بِإِمْكَانِ قُوَّتِهِ وَقُوَّةِ إِمْكَانِهِ ، والأبْطَالُ وليس فيهم من يسأل عن عَدَدِ عُدُوِّهِ بَلْ عَنِ مَكَانِهِ ، والنِّيَّاتُ على طَلَبِ عَدُوِّ اللهِ حيث كان مُجْتَمِعِهِ ، والخَوَاطِرُ مطمئنةٌ بكونها مع الله بصدقها و«مَنْ كَانَ مَعَ اللهِ كَانَ اللهُ مَعَهُ» ، وما بَقِيَ إِلَّا طَىُّ المَراحِلِ ، والنزولُ على أطرافِ الثُّغُورِ نزولَ الغَيْثِ على البَلَدِ المَاحِلِ ، والإِحاطَةُ بعَدُوِّ اللهِ من كلِّ جانبٍ ، وإِنزَالُ نفوسهم على [حُكْمِ] ^(١) الأَمْرين [الآخرين] : من عذابٍ وَأَصِيبٍ وَهَمٍّ نَاصِبٍ ، وإِحالةٌ وجودهم إلى العَدَمِ ، وإِحالةُ السُّيُوفِ التي إِنْ أَنْكَرَتْهَا أَعْنَاقُهُمْ فَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قَدَمٍ ، وَأَصْطِلَامُهُمْ على ما بأيدي العِصَابَةِ المؤيَّدةِ بنصرِ اللهِ في حربها ، وَأَبْتِلَاؤُهُمْ مِنْ حَمَلَاتِهَا بِرِيحِ عَادٍ التي تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ، فليكن مُتَرَقِّبًا طُلُوعَ طلائعها عليه ، مُتَيَقِّنًا مِنْ كَرَمِ اللهِ أَسْتِئْصَالَ عَدُوِّهِ الذي إِنْ فَزَأَدَرَكَتَهُ مِنْ ورائه وَإِنْ ثَبَتَ أَخَذَتْهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَلِيَجْتَهِدَ فِي حِفْظِ ما قَبْلَهُ مِنَ الأَطْرافِ وَضَمْنِهَا ، وَجَمْعِ سَوَائِمِ الرعايا مِنَ الأَمَاكنِ المَخُوفَةِ وَلَمَّهَا ، وإِصْلاحِ ما يُحْتَاجُ إلى إِصْلاحِهِ مِنْ مَسالِكِ الأَرَباضِ المُنْتَطِرَةِ وَرَمَّهَا ، فَإِنْ الأَحْتِياطُ على كُلِّ حالٍ مِنْ آكِدِ المِصْالِحِ الإِسلاميةِ وَأَهْمِهَا ، فَكأنَّهُ بِالْعَدُوِّ يَقْدِرُ زَالَ طَمَعُهُ ، وَزادَ ظَلْمُهُ ، وَذَمَّ عُقْبَى مَسيرِهِ ، وَتَحَقَّقَ سُوءَ مُنْقَلَبِهِ وَمَصيرِهِ ، وَتَبَرَّأَ مِنْهُ الشَّيْطانُ الذي دَلَّاهُ بِغُرُورِهِ ، وَأَصْبَحَ لِحْمَهُ مُوزَعًا بَيْنَ ذِئابِ الفِلا وَضِبابِها وَبَيْنَ عِقبانِ الجَوِّ وَنُسُورِهِ ، ثِقَةً مِنْ وَعْدِ اللهِ وَتَمَسُّكًا مِنْهُ بِاليقينِ ، وَتَحَقُّقًا أَنَّ اللهُ يَنْصُرُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَالعاقِبَةُ لِلتَّقِينِ .

+

وهذه نسخة مرسومة كريم في المعنى ، بل هو أصرح في ذلك مما قبله ، كُتِبَ بِهِ عِنْدَ ظُهُورِ الفَرَجِ اللوسارية والشوال بالبحر: من إنشاء الشيخ بدر الدين حبيب

(١) الزيادة من "حسن التوسل" (ص ٩٤) .

الْحَلِيِّ ، وهو وإن لم يكن عن السلطان فإنه في معناه ، لقيام النائب بالمملكة قيامَ السلطان الذي آستنابه ، وهو :

المرسوم بالأمر العالی أعلاه الله تعالى ، لازالت مراسمه النافذة تُبلِّغُ أهلَ العِصَابَةِ الْمُحَمَّديَّةِ غَايَةَ الآمالِ ، وأوامره الْمُطَاعَةُ تَقْضِي بِكسر اللُّوسَارِيَّةِ وشَيْنِ الشَّوَالِ ؛ أن تتقدّم العساكرُ المنصورةُ بالمملكة الطَّرَابُلسِيَّةِ أيدَ الله تعالى عزائمهم القاهره ، وأذَلَّ بسيفهم الطائفةَ الكافره ؛ بارتداء ملابس الجهاد ، والتَّحَلِّيَ بِمرارة الصَّبْرِ على آجتلاء الجِلَادِ ؛ وأن يجيبوا داعيَ الدِّينِ ، وَيَكْفُوا أيدى الْمُعْتَدِينَ ؛ وَيُفوقُوا سِهَامَهُمْ ، وَيَجْعَلُوا التَّقْوَى أَمَامَهُمْ ؛ وَيُشْرِعُوا رِمَاحَهُمْ ، وَيَحْمِلُوا سِلاحَهُمْ ؛ وَيُومِضُوا بروقَ السيفِ ، وَيُرسلُوا نِبَالَ الحُتُوفِ ؛ وَيَهْدُمُوا بُنيَانَ الكُفَّارِ ، وَيُطْعَمُوا أَهْلَةَ القِسِيِّ بِمدِّ الأوتارِ ؛ وَيَهْضُمُوا جانبَ أهلِ العِنَادِ ، وَيَقَابِلُوا البَحْرَ بِمَلءِ بَحْرٍ مِنَ الجِيَادِ ؛ وَيَنَاطِرُوا أمواجهَ بِأمواجِ النَّصَالِ ، وَيَقَاتِلُوا الفِرْقَةَ الفَرَنْجِيَّةَ أَشدَّ القتالِ ؛ وَلَا يَهْمُهُمُ بالنهارِ وَلَا بالليلِ ، وَيُعِدُّوا لَهُمُ مَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ ؛ وَيُنَوِّبُوا بِمصاييحِ الرِّبَاطِ فِي سبيلِ الله ظِلَامَ الدُّجْنَةِ ؛ وَأَنْ يُصَايِرُوا وَيَصِيرُوا ، فَإِذَا اسْتَنْفَرُوا فَلْيَنْفِرُوا ؛ وَبِالنَّوَا فِي الغُدُوِّ وَالرَّوَاحِ يُبَلِّغُوا الرَّعِيَّةَ مِنَ الأَمْنِ أَمَانِيهَا . فقد قال صلى الله عليه وسلم : «أَغْدُوهُ فِي سبيلِ الله أَوْ رَوْحَهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» . وَيَعْتَمِدُوا على القريبِ المحيِّبِ ، وَيَجْتَهِدُوا فِي كَسْرِ أَصْلَابِ أَهْلِ الصَّلِيبِ ؛ وَيَنَافِسُوا فِي أمرِ الآخِرَةِ وَيَدْعُوا الدِّينَ ، وَيَقَاتِلُوا لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا ؛ وَيَشْهَدُوا المَوَاقِفَ ، وَيَبْدُلُوا التَّالِدَ وَالطَّارِفَ ؛ وَلِيَبْرُزَ الفَارِسُ وَالرَّاجِلُ . وَيَظْهَرُ الرَّامِحُ وَالنَّابِلُ ؛ فَإِنَّ الجِهَادَ ، سَطْوَةُ اللهِ تَعَالَى على ذَوِي الفَسَادِ ، وَنَقْمَتُهُ القَائِمَةُ على أَهْلِ الشَّرِكِ وَالعِنَادِ ؛ وَهُوَ مِنَ المُفْرُوضِ الواجِبِ . التي لم تزلْ سِهَامُ أَصْحَابِهِ صَائِبَةً ؛ فَوَاطِبُوا على فَعْلِهِ .

ولا تذهبوا عن مذاهبه وسبله ؛ وأطلبوا أعداء الله براً وبحراً ، وقسموا بينهم الفتكات
قتلاً وأسراً ؛ وفاجئوهم بمكروه الحرب ، وناجوهم برسائل الطعن والضرب ؛ وخذوا
من الكفار باليمين ، وجدوا في تحصيل الرّيح الثمين ؛ ولازموا النزول بساحل البحر
لمنازلة الطغاة والمشركين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا
فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وسابقوا الأعداء ، وهزوا أعطاف الأسيه ؛
وشمروا عن ساق العزائم ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ؛ واتخذوا الخيام مساكن ،
وأجعلوا ظهور الخيل لكم مواطن ؛ وأنصبوا الألوية والأعلام ، وأطفئوا بحمرة
الشرذمة الغائظة للإسلام ؛ ولا تخشوا من جمعهم الآئيل إلى التفريق ، وحشدهم
الذي هو عمّا قليل إن شاء الله تعالى غريق ؛ ولا تبعثوا بسفنه البحرية ، فإن
سفنكم الخيل المخلوقة من الرياح ؛ ولا تنظروا إلى مجاديفهم الحشبية ، فإن
مجاديفكم السيوف والرماح ؛ فأقلعوا قلوبهم ، وشئتوا جموعهم ؛ وأذهبوا الحنف
والحنف ، وخاطبواهم بالسيف ؛ وأوقدوا في قلوبهم بالتحصين والأحترار
نارا ، وأدعوا الله أن لا يذر على الأرض من الكافرين دياراً ؛ ونكسوا صلبهم
المنصوب ، وبادروا إلى حرب حزبهم المغلوب ؛ وأرفعوا باليقين شك هذه المحنة .
وقاتلوهم حتى لا تكون فتنه ؛ وأهجروا في ذات الله طيب المنام . وأنقلوا الأقدام
إلى الأقدام ؛ وأكشفوا عنكم أستار المال والمال ، وأهتموا بما يعلى كلمة الإسلام
والسلام ؛ فليرفعنكم الله إلى منازل العز والتميز ، ﴿ وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ
لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

الصَّنْفُ الرَّابِعُ

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ في الحثِّ على لزوم الطاعة وذمِّ الخِلافِ)

قال في "موادِّ البيان" : طاعةُ السلطانِ والانتِقادُ إليه ، والرجوعُ إلى رأيه والاعتمادُ عليه ، أبدى الأسبابُ ، في استمرارِ الاتِّساقِ والاستِتابِ ؛ وهي فرضٌ أوجبهُ اللهُ تعالى . فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ولا تصح مملكةٌ ولا تدومُ دولةٌ إلا بأمرين : أحدهما عدلُ السلطانِ ، والآخر طاعةُ الرعيَّةِ له ؛ فمتى ارتفع أحدهما ، فسَدَ السَّائِسُ والمَسُوسُ . ولم تزل ملوكُ الأزمنةِ يقدمون إلى الرعايا لزومَ الطاعةِ ، والاعتصامَ بحبلِ الشريعةِ والنهيَ عن مفارقةِ الجماعةِ .

قال : والرسمُ فيها أن تفتحَ بالحمدِ لله على النعمِ في تأليفِ قلوبِ أهلِ الدينِ ، وجمعِ كلمةِ الموحِّدين ؛ وعايةِ أهوائهم إلى الاتِّفاقِ ، وصيانةِ عصاهم عن الانشقاقِ ؛ والصلاةِ على رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلم ، والتنبيهِ على فضائلِ الطاعةِ ، فإنها العروةُ الوثقى ، والمعقلُ الذي لا يُرْقَى ؛ والحِصْنُ الحصينُ ، والكنفُ الأمينُ ؛ والحِمَى الأَمْنَعُ ، والمَرْقَبُ الأَرْفَعُ ؛ وأنَّ مَنْ حافظَ عليها فازَ وسَلِمَ ، ورَجَحَ وغَنِمَ ؛ ومَنْ فارقها حَسِرَ وخَابَ ، ونَكَبَ عن سبيلِ الصَّوابِ ؛ وإيضاحِ ما في سبيلِ الطاعةِ من اتِّفاقِ الكلمةِ ، وانتظامِ شَمْلِ الأُمَمِ ؛ وشُمُولِ الخيراتِ ، وعمومِ البركاتِ ؛ وعمارةِ البلادِ ، وصَلَاحِ العبادِ ؛ وما في المُشاققةِ من الفسادِ العامِ ، العائدِ بانتشارِ النَّظامِ ؛ وأنبئاتِ الحَبْلِ ، وتفرُّقِ الشَّمْلِ ، وأجتناثِ الأُصْلِ ؛ وطُمُوسِ الديارِ ، وصيَالِ الأشرارِ ، وأنقِمَاعِ الأخيارِ ؛ وتواليِ الفتنِ التي لا تُصِيبُ الظالمَ خاصَّةً دونَ العادلِ ، ولا المُشاقِقَ دونَ الموافقِ ؛ وحلولِ النَّوائِبِ المُزِيلَةِ للنعمِ ؛ وإتباعِ ذلك بما يجبُ من إعدارِ وإنذارِ ، وترهيبِ وترغيبِ ، وتذكيرِ وتبصيرِ ، ووعظِ وتخويفِ ؛ وبعثِ العُلَمَاءِ

الحُصَفَاءُ ، عَلَى رَدِّعِ الْجُهَلَاءِ السُّخَفَاءِ ، وَتَبِيهِ أَهْلِ السَّلَامَةِ وَالصَّلَاحِ ، عَلَى كَفِّ ذَوِي الْعَيْثِ وَالطَّلَاحِ ؛ إِلَى نَجْوِ هَذَا مِمَّا يَجَارِيهِ . وَأَنْ يَبَالِغَ فِيمَا يُورِدُهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَإِنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ إِذَا كَانَتْ بَلِيغَةً مُسْتَوْفَاةً جَيِّدَةً الْعِبَارَةَ ، أَخَذَتْ بِجَمَاعِ الْقُلُوبِ ، وَأَغْنَتْ عَنِ الْكُتَائِبِ فِي إِدْرَاكِ الْمَطْلُوبِ .



وهذه [مكتبات] في معنى ذلك أوردها أبو الحسين بن سعد في ترسله ، وهي :
أما بعد ، فإن الله أقرض الطاعة وأوجبها ، وأمر بها ورغب فيها ، وجعلها عِصْمَةً مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ ، وَضِيَاءً مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ ، وَسَلَامَةً مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ ؛ وَسَبَبًا لِلظَّفَرِ بِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؛ مِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا وَقَفَّهَ لَهَا ، وَأَلْزَمَهُ الْمَحَافِظَةَ عَلَيْهَا وَالْإِعْتَصَامَ بِحَبْلِهَا ؛ فَتَعَجَّلَ عِزَّهَا وَشَرَفَهَا ، وَسَعَتَهَا وَأَمْنَهَا ؛ وَأَسْتَحَقَّ السَّعَادَةَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ بِهَا ، وَالْمَثُوبَةَ عَلَيْهَا .

آخر : وقد علمتم ما جعل الله في الطاعة ولزومها ، والمحافظه عليها : من العز والمنة والأيد والقوة والفوز بخير الدنيا والآخرة [وما] في خلافها من صنوف المخاوف ، وأنواع المتالف .

آخر : وقد كانت الطاعة أنافت بك على كل ظليل ، وأفضت بك إلى لين مهادٍ عند إقضاض المضاجع ، وصفاء المشارب عند تكدر المناهل ، وأتصال أمانة عند حدوث المخاوف ؛ حتى فعلت كذا وكذا .

آخر : فلم يترق من طاعته مارق ، ولا فارقها مفارق ؛ إلا صرع الله خده ، وأتس جده ؛ وخصد شوكته ، وأكذب ظنه وأمنيته ، وجعله لسيوف الله غرضا ، ولأوليائه غنيمة .

آخر: والطاعة هي العروة الوثقى، والطريقة المثلى، والغنيمة لاهلها في الأخرى والأولى.

«عبد الحميد»: - فان الفتنة تشوف لأهلها بأنق منظر، وأزين ملبس، تجر لهم أذيالها، وتعدهم تتابع لذاتها، حتى ترمي بهم في حومات أواجها، مسلمة لهم: تعدهم الكذب وطمعهم الخدع، فاذا لزمهم عضاضا، ونفر بهم شماسها، تحلت عنهم خاذلة لهم، وتبرأت منهم معرضة، قد سلبوا أجل لباس دينهم، وأستزلوا عن أحصن معاقل دنياهم: من الغناء البهي منظره، الجميل أثره، حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم، والإيجاف في التعب، وسوء المنقلب، فمن آثر دينه على دنياه تمسك بطاعة ولآته، وتحجز بالدخول في الجماعة، تاركًا لأثقل الأمرين، وأوبل الحالين.

«ابن عبد كان، في ذم الخلاف»: - وإن فلانا كان عبدا من عبيدنا، آتوره إنعامنا، ونوه به إكرامنا، وشرفه ولأونا، وحسن عنده بلاؤنا، وأبتينا له الأموال، وأسبنا له الأعمال، وأوطأنا عقبه الرجال، فلم تقع النعم منه عند شاكر، ولا الصنعة عند محتمل، فلما رفع الله بمكاننا خسيسته، وبلغه من شرف الذكر ونباهة القدر، وأنبساط يده ما كانت همته تعجز عنه، وآماله تقصر دونه، أضراه ذلك وأبطره، وأطغاه وأكفره، فأختال زاهيا، وأستكبر عاليا، وغدر باغيا، وشاق عاصيا، وأوضع في الفتنة لنا حربا، ولأعدائنا حربا، ولمن أنحرف عنا يدا، ولمن مال إلينا ضدا، من غير سبب أوجبه، ولا أمر دعاه إليه، فكان كما قال الله عز وجل في كتابه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ﴾ وكقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ فلما ورد الخبر بما هيا الله لنا من الرجوع إلى الفسطاط على الحال السارة لأوليانا، الغائظة لأعدائنا، سقط في يده، وفكر في غليظ جرمه

وخيانته ؛ فأذاه الخوف الذي أستشعره ، والإشفاق الذي خامرته ؛ إلى أن ركب
عظيماً من الأمور ، وكاشف بالعصبيّة والغرور ؛ مكاتفاً أعداء (١) ، وموالي
ذوى العداوة والشنّارة ؛ ورجو بحول الله وقوّته ، وإرادته ومشيتته ، وما لم يزل الله
- تقدّس اسمه - يُجْريه عندنا من جميل عاداته فيمن سَفِه الحق ، وزاغ عن القصد ؛
أن يُبْسِلَ هذا الخائن بجَبَائِثِ أعماله ، ويُسَلِّمَهُ لقبائح أفعاله ، وأن يصرعه بأسوأ مصارع
أمثاله ؛ فإنّ أحداً لم يحمّد النعمة ، إلا استدعى النّعمه ؛ ولم يدع الشكر ، ويستعمل
الكفر ؛ إلا كانت العثرة منه قريبه ، والبلايا محيطه ؛ قولاً لا يُبدّل رسمه ولا يُحوّل .

من كتاب موسى بن عيسى .

أما بعد ، فإنّ أمراً لو خلّص من فلتات الخطأ وخطوات الملا^(٢) ، بفضيلة رأي
ولطافة بصر بالأمور ، كُنْتَ أَحْجَى بِذَلِكَ دُونَ أَهْلِ زَمَانِكَ ، لِذِي جَرَتْ لَكَ عَلَيْهِ
تصاريف التبع ، وتعرضت لك به وجوه العبر ؛ ولياً استقبلت من موارد أمور
نفسك ، وتعمّقت من مصادر أمور غيرك ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا جَعَلَ لَهُ
من قضائه سبباً ، ومن مقاديره عللاً ؛ فمن مقادير علل البلاء تضييع المعرفة ، وإلغاء
ما تُفيدُه التّجربة ؛ ومن أسباب السّلامة الأنتباه بالعبر ، والاستدلال بما كان
عليّ ما يكون . وأنت أمرؤ جرّت لك وعليك أنحاء من النعم ، وأنحاء من الحجج ،
عرفت بها مالك وعليك ؛ فإن تأخذ بها ، عرفت كيف تسلك مسالكه ، وإن تدع
الأخذ بذلك ، تدعه على علم . وقد رأيت الذي أتقادت لك به النّعمة ، ووهبت لك
به العافية ؛ فيما ألهمك الله من طاعة ولاة أمورك ، والصبر لها على مواطن الحق التي
رفع الله بها ذكرك ، وأحسن عليها عُقبك وذُحرك ؛ فلم تمض بك في طاعتهم
رُتبه ، إلا قرّبك الله بها في الخير عقبه ، ولا تبذل من نفسك نصحاً ، إلا أوجب

(١) بياض في الأصل ولعله الامارة .

(٢) الملا هنا مناه الظن والطمع .

لك به مُجْحَا ، ولم تَفْتَأُ تَوَاتُرُ ذَلِكَ : من مناصحتك وحُسن طاعتك ، حَتَّى طُلَّتْ بِهَا
 عَلَى من طاولك ، وَفَضَلْتَ بِهَا من فاضلك ، وَجَرَيْتَ مَمْدُودًا عِنَاؤَكَ إِلَى قُصُوصِ غَايَاتِ
 أَمَلِكْ ، فَاصْبَحْتَ قَرِيحَ الْمُسْلِمِينَ ، بَعْدَ خَلِيفَةِ اللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَيْرَتِهِ من خَلْقِهِ ،
 بَعْدَ ذَوِي الْفَضْلِ من أَهْلِ بَيْتِهِ ؛ حَتَّى مَالَكَ من رِجَالِ الْعَرَبِ نَظِيرًا فِي مَنْزِلَةٍ ،
 وَلَا نَدِيدًا فِي حَالٍ وَلَا رُتْبَةٍ ؛ بَلْ هُمْ فِيكَ رِجَالَانِ : إِمَارَاهِبٌ مِنْكَ ، وَإِمَارَاغِبٌ فِيكَ .
 قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستمر الكتابة إلى زماننا . فما
 زالت الملوك يكتبون إلى من يَخَيَّلُونَ منه خَلْعَ الطاعة من التواب ومن في معناهم ،
 وَيُحْتَوِنُهُمْ عَلَى لزوم الطاعة ، وَيُحَذِّرُونَهُمُ المخالفةَ والخروجَ عن الجماعة .



ومن ذلك ما كتب به الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي إلى مملك سبيس عند
 كَسْرَةِ التتار ، بَعْدَ قِيَامِهِ معهم فِي الْمَصَافِّ ، وَمُسَاعَدَتِهِ إِيَّاهُمْ ، وَهُوَ :
 بَصَّرَهُ اللَّهُ بِرُشْدِهِ ، وَأَرَاهُ مَوَاقِعَ غِيَّهِ فِي الْإِصْرَارِ عَلَى مَخَالَفَتِهِ وَنَقْضِ عَهْدِهِ ،
 وَأَسْلَاهُ بِسَلَامَةِ نَفْسِهِ عَمَّنْ رَوَعَتْهُ السُّيُوفُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِفَقْدِهِ .

صَدَرَتْ تَعْرِفُهُ أَنَّهُ قَدْ تَحَقَّقَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْعَدُوِّ الَّذِي دَلَّاهُ بِغُرُورِهِ ، وَحَمَلَهُ
 التمسك بخداعه على مجانبة الصواب في أموره ؛ وأنهم آستنجدوا بكل طائفه ، وأقدموا
 على البلاد الإسلامية بنفوس طامعة وقلوب خائفة ؛ وذلك بعد أن أقاموا مدة
 يَسْتُرُونَ المخادعة بالموادعة ، وَيُسِرُّونَ المصارمة في المسالمة ؛ وَيُظْهِرُونَ في الظاهر
 أموراً ، [وَيُدَبِّرُونَ في الباطن أموراً] ^(١) وَيَعِدُّونَ كُلَّ طَائِفَةٍ من أعداء الدين ويمنونهم
 وما يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ؛ وَكَمَا بَمَكْرِهِمْ عَالِمِينَ ، وَعَلَى معاجلتهم عاملين ؛ وحين

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩٧) .

تَبَيَّنَ مَرَادُهُمْ ، وَتَكَلَّلَ أَحْتِشَادُهُمْ ؛ أَسْتَدْرَجْنَاهُمْ إِلَى مَصَارِعِهِمْ ، وَأَسْتَجْرَرْنَاهُمْ لِيَقْرَبُوا
 فِي الْقَتْلِ مِنْ مَضَاجِعِهِمْ ، وَيَبْعَدُوا فِي الْهَرَبِ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ ؛ وَصَدَمْنَاهُمْ بِقُوَّةِ اللَّهِ
 صَدْمَةً لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهَا قَبْلُ ، وَحَمَيْنَا عَلَيْهِمْ حَمَلَةً أَلْجَاهُمْ طُوفَانُهَا إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ : وَهَلْ
 يَعِصِمُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ جَبَلٌ ؟ فَحَصَرْنَاهُمْ فِي ذَلِكَ الْفَضَاءِ الْمَتَّسِعِ ، وَضَايَقْنَاهُمْ كَمَا قَدْ رُؤِيَ
 وَمَزَّقْنَاهُمْ كَمَا قَدْ سَمِعَ ؛ وَأَنْزَلْنَاهُمْ عَلَى حُكْمِ السَّيْفِ الَّذِي نَهَلَ مِنْ دِمَائِهِمْ حَتَّى رَوَى
 وَأَأْكَلَ مِنْ لُحُومِهِمْ حَتَّى شَبِعَ ؛ وَتَبِعْتَهُمْ جِيُوشُنَا الْمَنْصُورَةَ تَخَطَّفَهُمْ رِمَاحُهَا ، وَتَتَلَقَّفَهُمْ
 صِفَاحُهَا ؛ وَيَبِيدُهُمْ فِي الْفَلَوَاتِ رُعْبُهَا ، وَيُفَرِّقُهُمْ فِي الْقِفَارِ طَعْنُهَا الْمُتَدَارِكُ وَضَرْبُهَا ؛
 وَيَقْتُلُ مَنْ فَاتَ السِّيُوفَ مِنْهُمْ الْعَطَشُ وَالْجُوعُ ، وَيُجَيِّلُ لِلْحَيِّ مِنْهُمْ أَنْ مَوْضِعَهُ كَالدُّنْيَا
 الَّتِي لَيْسَ لِلَّيْتِ إِلَيْهَا رَجُوعٌ ؛ وَلَعَلَّهُ قَدْ رَأَى مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ مَا وَصَفَ عَيَانًا ، وَتَحَقَّقَ
 مِنْ كُلِّ مَا جَرَى مَا لَا يَحْتَاجُ أَنْ تَزِيدَهُ بِهِ عِلْمًا وَلَا تُقِيمَ عَلَيْهِ بُرْهَانًا .

وقد علم أن أمر هذا العدو المخذول ما زال معنا على هذه الوتيرة، وأنهم ما أقدموا
 إلا ونصرنا الله عليهم في مواطن كثيرة؛ وما ساقهم الأطماع في وقت ما إلا إلى حتوفهم،
 ولا عادتهم قط في وقعة إلا آحاداً تُخبر عن مصارع ألوفهم؛ ولقد أضاع الحزم من
 حيث لم يستدتم نعمة الله عليه [بطاعتنا] التي كان في مهاد أمنها، ووهاد يمينها؛ وحماية
 عفوها، وبرد رأفتها التي كدرها بالمخالفة بعد صفوها؛ يصون رعاياه بالطاعة عن القتل
 والإسار، ويحجي أهل ملته [بالحذر عن الحركات] التي ما نهضوا إليها إلا وجرؤا ذبول
 الخسار؛ ولقد عرض نفسه وأصحابه لسيوفنا التي كان من سطواتها في أمان، ووثق
 بما ضمن له التآر من نصره وقد رأى ما آل إليه [أمر] ذلك الضمان؛ وجر لنفسه بموالاته
 التآر عناء كان عنه في غنى، وأوقع روجه بمظاهرة المغل في حومة السيوف التي تخطفت

(١) بياض بالأصل والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ٩٨) .

أولياءه من هنا ومن هنا؛ وأقتحم بنفسه موارد هلاك سلبت رداء الأمن عن منكبائه، وأغتره وقومه بما زين لهم الشيطان من غروره ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتَانَ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ وما هو والوقوف في هذه المواطن التي تتزلزل فيها أقدام الملوك الأكاسره؟ وأنى لضعاف النقاد قدرة على الثبات لوثبات الأسود الضارية والليوث الكاسره؟ لقد أعترض بين السهم والهدف ببحره، وتعرض للوقوف بين ناب الأسد وظفره؛ وهو يعلم أننا مع ذلك نرعى له حقوق طاعة أسلافه التي ماتوا عليها، ونحفظ له خدمة آبائه التي بذلوا نفوسهم ونفائسهم في التوصل إليها؛ ونجريه وأهل بلاده مجرى أهل ذمتنا الذين لا تؤيسهم من عفونا ما استقاموا، ونسلك فيهم حكم من في أطراف البلاد من رعايانا الذين هم في قبضتنا: تزحوا أو أقاموا؛ ونحن نتحقق أنه ما بقى ينسى ملازمة ربة الحنف خناقه، ولا يرجع يورد نفسه في موارد الهلاك وهل يرجع إلى الموت من ذاقه؟ فيستدرك باب الإنابة قبل أن يغلق دونه، ويصون نفسه وأهله قبل أن تبذل السيوف الإسلامية مصونه؛ ويبادر إلى الطاعة قبل أن يبذلها فلا تقبل، ويتمسك بأذيال العفو قبل أن ترفع دونه فلا تسبل؛ ويعجل بحمل أموال القطيعة وإلا كان أهله وأولاده في جملة ما يحمل منها إلينا، ويسلم مفايح ما عدا عليه من فتوحنا وإلا فهو يعلم أنها وجميع ما تأخر من بلاده بين يدينا؛ ويكون هو السبب في تمزق شمله، وتفرق أهله، وقلع بيته من أصله؛ وهدم كائسه؛ وأبتدال نفسه ونفائسه؛ وأسترقاق حرمه، وأستخدام أولاده قبل خدمه؛ وأستفلاق قلاعه، وإحراق ربوعه ورباعه؛ وتمجيل رؤية ما وعد به قبل سماعه. ومن لغازان أن يجاب إلى مثل ذلك، أو يسمع له مع الأمن من سيوفنا ببعض ما في يده من الممالك؛ ليتفع بما أهدت جيوشنا للتويلة في يده من الخيل والحول، ويعيش

في الأمان ببعض ما نسمع له به ومن للعوام بالحول ؛ والسيوف الآن مُصغية إلى جوابه لتكف إن أبصر سبيل الرشاد، أو تتعوض برعوس حمايته وكفايته عن الإغماد إن أصر على العناد؛ وانحير يكون إن شاء الله تعالى .

الصنف الخامس

(من الكتب السلطانية المكتبة إلى من نكث العهد من المخالفين)

قال في "مواد البيان" : إذا نقض معاهد عهده ، أو نقض من شروط الهدنة يده ؛ فالرسم أن يصدر ما يكتب به بالحمد لله تعالى على موهبتة في إظهار الدين ، وإعزاز المسلمين ؛ وما تكفله من النصر على الباغين ، ووعده به أهل العدل من الإدالة والتأمين ؛ والصلاة على سيدنا محمد النبي صلى الله عليه وعلى آله أجمعين ؛ وإيراد طرف من معجزاته وفضائله ، وآياته ومناقبه ؛ التي تنخرط في هذا النظام ، وتليق بهذا النمط من الكلام ؛ ثم يتبع ذلك بمقدمة تدل على متانة البصائر في الدين ، ووثاقة العقائد في إذالة المحاديين ؛ ومضياء العزائم في مجاهدة المعتدين ، والأستطالة على المعاندين ؛ مع ما تضمنه الله تعالى من نصره وإظفاره ، ووعده به من تأييده وإقراره ؛ وسهله من إهواء الأهوية إليه ، وجمع الكلمة عليه ؛ بما خوله من بأس وشده ، وعديد وعدة . وما يليق بذلك مما يُعرب به عن علو السلطان ، ووفور الإخوان ؛ وأتساع القوة والأيد ، وصدق العزم والجد . ثم يذكر الحال التي انعقدت الهدنة عليها ، وأن الإجابة إليها لم تقع قصورا عن غزوهم في عقر دارهم ، وتشريدهم بالفارات المبتوثة براً وبحرا عن قرارهم ؛ وإنما قبولا لمساءلتهم ، وأمثالاً لأمر الله تعالى في مسألتهم . ويأخذ في تعديد الوقائع التي أوقعها أهل الإسلام بهم ؛ والمشاهد التي نصر الله تعالى فيها عليهم ، والمعائل المنتزعة من أيديهم ؛

وَأَنَّ تِلْكَ الْعِزَائِمَ مُضْطَرَمَةٌ مُتَوَقَّدَةٌ ، وَتِلْكَ السُّيُوفُ مُشْحَذَةٌ مُهَيَّئَةٌ ؛ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَبَاحَ حَرَمَ مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ ، وَنَقَضَ مِنَ الدِّمَامِ يَدَهُ ؛ وَأَنَّ كَاتِبَ اللَّهِ مُوجِبَةٌ وَرَاءَ هَذَا الْكِتَابِ ، فِي جَيْشٍ يُلْحَقُ الْخَبِيثَ بِالْهَضَابِ ؛ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مَبَادِرَةٌ إِلَى الْإِقْلَاعِ وَالْإِنَابَةِ ، وَمَكَاتِبَةٌ فِي الصَّفْحِ وَالْأَسْتِابَةِ ؛ وَأَنَّهُ قَدْ قَدَّمَ الْأَعْذَارَ ، وَبَدَأَ قَبْلَ الْإِقْدَامِ بِالْإِنْدَارِ ؛ وَمَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ مِنْ هَذَا وَمِثْلِهِ .

قال : فَإِنْ كَانَ الْكِتَابُ جَوَابًا عَنِ كِتَابٍ وَرَدَّ ، أَجِيبَ بِمَا يَنْقُضُهُ ، وَبُنِيَ الْأَمْرُ فِيهِ عَلَى مَا يَبْسُطُ الْهَيْبَةَ ، وَيَدْعُو إِلَى التَّزْوِلِ عَلَى أَحْكَامِ الطَّاعَةِ . وَيَخْتَلِفُ الْحَالُ فِي ذَلِكَ بِاخْتِلَافِ الْأُمُورِ الْحَادِثَةِ ، وَالْأَسْبَابِ الْعَارِضَةِ ؛ فَيَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يَحْتَمِطَ فِيمَا يُطْلَقُ بِهِ قَلَمُهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الْخَطِيرَةِ : لِأَنَّهَا مِرْآحِمَةٌ بِالْأَمْرِ وَالْمَلِكِ ، وَحُجْجٌ تَحْصُلُ مِنْ كُلِّ دَوْلَةٍ عِنْدَ الْآخَرِينَ ؛ وَدَرَكٌ مَا يَقَعُ فِيهَا عَائِدٌ عَلَيْهِ ، وَمَنْسُوبٌ إِلَيْهِ .



وهذه نسخة كتاب كُتِبَ بِهِ عَنِ الْحَافِظِ لَدِينِ اللَّهِ الْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِيِّ بِالْبَيْتِ الْمِصْرِيِّ ، إِلَى بَهْرَامِ النَّصْرَانِيِّ الْأَرْمِينِيِّ الَّذِي كَانَ آسْتُورَهِ ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْهِ رِضْوَانُ بْنُ وَخْشِي ، أَرْتَغَامًا لِلدِّينِ ، لَتَحْكُمَ نَصْرَانِيٌّ فِي أَهْلِ الْمِلَّةِ ، وَوَلِيَ الْوِزَارَةَ مَكَانَهُ ، فَفَرَّ هَارِبًا إِلَى الشَّامِ نَاقِضًا لِلْعَهْدِ ، وَكُتِبَ إِلَى الْحَافِظِ يُطَلَبُ أَهْلَهُ وَجَمَاعَتَهُ مِنَ الْأَرْمِينِيِّ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِي جُمْلَةِ جُنْدِ الْبَيْتِ الْمِصْرِيِّ ، مَظْهَرًا لِلطَّاعَةِ وَالرَّغْبَةِ إِلَى التَّخَلُّقِ عَنِ الدُّنْيَا ، وَالْإِنْقِطَاعِ فِي بَعْضِ الدِّيَرِ لِلتَّعَبُّدِ مَكْرًا وَخَدِيعَةً ؛ فَكُتِبَ لَهُ بِذَلِكَ جَوَابًا عَنِ كِتَابِهِ الْوَارِدِ مِنْهُ . وَنَصُّ مَا كُتِبَ إِلَيْهِ :

عُرِضَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْكِتَابُ الْوَارِدُ مِنْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، الْمَقْدَمُ ، الْمُؤَيَّدُ ، الْمَنْصُورُ ؛ عَزَّ الْخِلَافَةُ وَشَمَّسَهَا ، تَأَجُّدًا لِلْمَلِكَةِ وَنِظَامُهَا ؛ فَخَرُّ الْأَمْرَاءِ ، شَيْخِ الدُّوَلَةِ

وعمادها، ذو المجدين، مصطفى أمير المؤمنين . ووقف على جميعه، وأستولى بحكمه على مضمونه .

فأما ما وسعت القول فيه وبسطته ، وتفسحت فيما أوردته منه وذكرته ؛ مما فحواه ومحصوله ما أنت عليه من الطاعة ، والولاء والمشايعة ؛ والاعتراف بنعم الدولة عليك ، والإقرار بإحسانها إليك ؛ فلعمر أمير المؤمنين إن هذا الذي يليق بك ويحسن منك ، ويحسن أن يرد عنك ، ويجب أن يعرف لك ؛ وقد كانت الدولة أسلفتك من حسن الظن قديما ، ونقلتك في درجة التنويه حديثا ؛ حتى رفعتك إلى أعلى المراتب ، وبلغتك ما لم تسم إليه همة طالب ؛ وأوطأت الرجال عقبك ، وجعلت جميع أهل الدولة تبعك ؛ مما أغنى اعترافك به عن الإطالة بشرحه ، والإطناب في ذكره .

وأما ما ذكرته مما كان أمير المؤمنين أعطاك التوثيق عليه ، فأجابك منه إلى ما رغبت فيه ، فاستقر بينه وبينك في معناه ما أطمأنت إليه ؛ فلم يزل أمير المؤمنين على الوفاء باطنا وظاهرا ، ونية وعلانية ؛ واعتقاده أن لا يرجع عنه ، ولا يغير ما أحكمه منه ؛ وإنما حال بينه وبين هذا المراد أن كافة المسلمين في البعد والقرب غضبوا لمبتهم ، وأمتعضوا مما لم تجر به عادة في شريعتهم ؛ ونفرت نفوسهم مما يعتقدون أن الصبر عليه قاذح في دينهم ، ومضاعف لآلامهم ؛ وأنه ذنب لا يغفر ، ووزر لا يتجاوز ولا يصفح [عنه] حتى إن أهل المشرق أخذوا في ذلك وأعطوا ، وعزموا على ما اتفقوا عليه مما صرفه الله وكفى مشونته والأشتغال به .

وأما ما ألمسته من تسيير من الباب من طائفتك إليك ، فهذا أمر لا يسوغ ولا يمكن فعله ، ولو جاز أن يؤمر به لمنع المسلمون منه فلم يفسحوا فيه . والآن فلن

يَحُلُّوْ حَالِكَ مِنْ أَحَدِ قَسْمَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَغَيْرِ مُتَفَصِّلٍ عَنْهَا ، فَامِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُحَيِّرُكَ فِي وِلَايَةِ أَحَدِ ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : إِمَّا قُوْصُ ، أَوْ إِحْمِيْمُ ، أَوْ أَسْبُوْطُ ؛ فَإِيَّهَا آخَرْتَ وَأَلَاكَ إِيَّاهُ ، وَرَدَّ أَمْرَهُ وَالنَّظَرَ فِيهِ إِلَيْكَ ؛ عَلَيَّ أَنْ تَقْتَصِرَ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ عَلَيَّ نَحْسَيْنِ أَوْ سَتَيْنِ فَارِسًا ، وَتُسَيِّرَ الْبَاقِيْنَ إِلَى الْبَابِ لِيُجْرُوا عَلَيَّ عَادِلَتَهُمْ ، وَرَسُوْمَهُمْ فِي وَاجِبَاتِهِمْ وَإِقْطَاعَاتِهِمْ ؛ إِذْ كَانُوا عِيْدَ الدَّوْلَةِ وَمُتَقَلِّبِينَ فِي فَضْلِهَا ، وَأَكْثَرَهُمْ مُتَوَلِّدُونَ فِي ظِلِّهَا . وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلَيَّ الْقَضِيَّةَ الَّتِي مَا زِلْتَ تَذَكَّرُ رَغْبَتَكَ فِيهَا وَإِيثَارَكَ لَهَا : مِنَ التَّخَلِّيِّ عَنِ الدُّنْيَا وَلِزُومِ أَحَدِ الدِّيَرَةِ ، وَالْإِقْطَاعِ إِلَى الْعِبَادَةِ ؛ فَإِنْ كُنْتَ مَقِيْمًا عَلَيَّ ذَلِكَ فَتَخَيَّرْ ضَيْعَةً مِنْ أَىِّ الضِّيَاعِ شِئْتَ يَكُونُ فِيهَا دَيْرٌ تَقِيْمُ فِيهِ وَتَقْطَعُ إِلَيْهِ ؛ فَتُعَيِّنِ الضَيْعَةَ لِيَجْعَلَهَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَسْوِيْفًا لَكَ مُؤَبَّدًا ، وَإِقْطَاعًا دَائِمًا مُخَلَّدًا ؛ وَتَجْرِي مَجْرَى الْمَلِكِ ، وَيُكْتَبُ لَكَ بِذَلِكَ مَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ ، مِمَّا تَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ وَتَسْتَحْكِمُ نَفْسَكَ بِهِ . وَإِنْ أَبَيْتَ الْقِسْمَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ وَلَمْ يُرِضِكَ الْأَوَّلُ مِنْهُمَا ، وَلَا رَغِبْتَ فِي الثَّانِي ، فَتَحَقَّقْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بِأَجْمَعِهِمْ ، وَكَأَقْتِهِمْ وَأَسْرَهُمْ ؛ وَكُلٌّ مِنْ يَقُولُ بِالشَّهَادَتَيْنِ : مِنْ قَاصٍ وَدَانٍ ، وَقَرِيْبٍ وَبَعِيْدٍ ، وَكَبِيْرٍ وَصَغِيْرٍ ، يَنْفِرُونَ إِلَيْكَ ، وَيَتَّفِقُونَ عَلَيَّ الْقَصْدِ لَكَ ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِي التَّوْجُّهِ نَحْوَكَ ؛ وَهُوَ عَمَلٌ دِيْنِيٌّ ، لَا يَرِيْثُهُ أَمْرٌ دُنْيَوِيٌّ ؛ فَتَأَمَّلْ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْإِجَابَةُ مِنَ الْأَقْسَامِ ، وَطَالِعْ بِمَا عِنْدَكَ فِي ذَلِكَ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ لَا وُجُودَ لَهُ فِي زَمَانِنَا لِعَدَمِ وَقُوعِ الْمُهْدَنِ الْمُرْتَبِّ عَلَيْهَا هَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبِ ؛ فَإِنْ أَحْتَجِجُ إِلَى ذَلِكَ مَشَاهِدِ الْكَاتِبِ عَلَيَّ الْقَاعِدَةِ الْقَدِيْمَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ .

الصنف السادس

(من الكتب السلطانية ، الكتب إلى من خلَعَ الطاعة)

قال في "موادالبيان" : وهذه الكتب تختلف رسومها بحسب اختلاف أقدار المكاتبين وأحوالهم في الخروج عن الطاعة . قال : وجمع أوضاعها كلها في قانون كلي عسير المرام ، إلا أننا نرسم فيها رسوماً يمكن الزيادة فيها والنقص منها . ثم قال : والعادة أن تنفذ هذه الكتب إلى من تُرجى إنايته ، وتؤمل مراجعته . فأما من وقع الإياس من استصلاحه ، ودعت الضرورة إلى كفاحه ، فلا حاجة إلى معاتبته ، ولا وجه لمكاتبته .

قال : والرسم فيها أن تفتح بالتحميد المناسب لمعنى الكتاب ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، بما يدعو إلى إيناسه ، ويزيل أسباب استيحاشه ، ويعود بثبات جاشه ، ويبعثه على مراجعة فكره ، ومعاودة النظر في أمره ، ويذكره ما أسدى من العوارف إليه ، وأفيض من النعم عليه ، وأنه لا ينفر سربها بمجدها وكفرها ، ويوحش ربها بإهمال حمدتها وشكرها ، ويربطها بحسن الطاعة ، ويسترنها بالتأدب في التباعة ، ولا يجز الوباك إلى نفسه بالخروج عن العصمه ، في عاجل ذم الوصمة وفي آجل ألم النقمه . ويصره بعاقبته ومن يليه من ذوى الجند بما يقتضى رب الإنعام لديهم ، وإقرار الفضل عليهم ، وأن يسلبهم ملابس الظل الظليل ، وأن يعطلهم من حلي الرأي الجميل ، ويتدرع في أثناء ذلك بشعار النفاق ، ويتسم بميسم الشقاق ، ويتعجل إزاعاجه من دلمه ، وبعده من قراره ، وهدم ماشيده الإخلاص من ذكره ، وتقويض ما رفعت الطاعة من قدره ، ويعود بعد أن كان مجاهداً عن الحوزة مجاهداً مجتهداً ، وبعد أن كان مرامياً عن السدة مرماً بيدها ، ويضيع

مَأْسِدِي إِلَيْهِ، وَأَفِضَ مِنَ الْإِحْسَانِ عَلَيْهِ؛ وَمَا ذَهَبَ مِنَ الْيَقِينِ فِي تَدْرِيجِهِ إِلَى مِرَاقِي
السِّيَادَةِ، وَمِنَ الرَّغَائِبِ فِي الْخَاقَةِ بِأَهْلِ السَّعَادَةِ؛ وَلَا يَغْتَرُّ بِمَنْ يُزِينُ لَهُ عَاجِلَ الْآجِلِ،
وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِخِدَعِ الْبَاطِلِ؛ وَيَجْعَلُ أَقْوَالَهُمْ دَبْرَ سَمْعِهِ، وَيُبْعِدُ أَشْخَاصَهُمْ عَنِ نَظَرِهِ؛
نَاطِرًا فِي عَاقِبَتِهِ، وَحَارِسًا مُهْجَتَهُ؛ وَرَاغِبًا فِي حَقْنِ دَمِهِ، وَصِيَانَةً حُرْمِهِ؛ وَلِيَرْجِعَ
إِلَى الْفِئَاءِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُحْرِزُهُ، وَالْكَنْفِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُعِزُّهُ؛ وَلَا يَجْعَلُ مُسَالِمَهُ بِالْعُنُودِ
مَنَازِعًا، وَمُوَاصِلَهُ بِالْجُحُودِ مَقَاطِعًا؛ وَوَاهِبَهُ بِالْكَفْرِ سَالِبًا، وَمَطْلَعِ النِّعْمَةِ بِضِيَاعِهِ
حَقًّا مَغْرِبًا؛ وَقَدْ بَقِيَ فِي الْحَبْلِ تَمْسِكٌ، وَفِي الْأَمْرِ مُسْتَدْرِكٌ؛ لِأَنَّ يَهْبَ مِنْ رَقْدَتِهِ،
وَيَسْتَبْدِلُ مِنْ لِفَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِلِقَاءِ حَضْرَتِهِ . ثُمَّ يَقُولُ : فَإِنْ كَانَ مَا جَنَاهُ قَدْ هَدَّ
سِرْبَهُ، وَكَدَّرَ شِرْبَهُ؛ وَأَحْسَ فِي نَفْسِهِ سُوءَ الظَّنِّ، وَأَخَافَهُ بَعْدَ الْأَمْنِ؛ فَلْيَبْعَثْ
رَسُولَهُ يَسْتَوْثِقُ وَيُعَاقِدُ، وَيَتَوَكَّدُ وَيُعَاهِدُ؛ فَإِذَا عَادَ إِلَيْهِ بِمَا يَمَلَأُ فُؤَادَهُ أَمْنًا،
وَيَكُونُ عَلَيْهِ حِصْنًا؛ سَارِعًا إِلَى أَمْتَالِ الْمَرَاسِمِ، وَجَرِيًّا فِي الطَّاعَةِ عَلَى سَنَنِهِ الْمُتَقَادِمِ؛
وَلَا يَسْتَمِرَّ عَلَى الْمُدَافَعَةِ وَالْمَطَاوَلَةِ، وَيَقْتَصِرَ عَلَى الْمَغَايِظَةِ وَالْمَمَاطِلَةِ .

ثم يقال بعد هذا : وقد قدَّم أمير المؤمنين كتابه هذا إليك نائباً عنه في استصلاحك،
وقائداً يقودك إلى طريق نجاحك؛ قبل تجريد مواضيه، وإلحاق مستأنفه في الحرب
بمواضيه؛ وخيوله تُجاذِبُ الأَعِنَّةَ، وَذَوَابِلُهُ مُشْرَعَةُ الأَسِنَّةِ؛ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا قَصْدُكَ
فِي أَمْتِ دَارِكَ الَّتِي بَوَّأَكَهَا، وَأَنْتَزَعُ نِعْمَتَهُ الَّتِي أُعْطَاكَهَا؛ لِتَنْوِقَ مَرَارَةَ الْمَخَالِفَةِ،
وَتَرْزِيهَا بِجَلَاوَةِ الْمَوَافَقَةِ؛ فَكُنْ عَلَى نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ حَاجِكًا، وَلَا تَكُنْ لَهَا ظَالِمًا؛
وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَلِيْقُ بِهِ .

وإن كانت المكتوبة إلى رجلٍ قد سبقَتْ له سَابِقَةٌ بِجَمْعِ الطَّاعَةِ، ثُمَّ سَأَلَ الْإِقَالََةَ
فَأَقِيلَ بَعْدَ مُشَارَفَةِ الْإِحَاطَةِ بِهِ وَالنَّكَايَةِ فِيهِ، ثُمَّ رَاجَعَ الْعَصِيَانَ؛ فَالرَّسْمُ أَنْ تُفْتَحَ

بِحَمْدِ اللَّهِ جَاعِلِ الْعَاقِبَةِ لِلتَّقِيْنَ ، وَالْعُدْوَانِ عَلَى الظَّالِمِينَ ؛ وَالْعِزَّةِ لِحَزْبِهِ ، وَالذَّلَّةَ لِحَرْبِهِ ؛
وَالِإِظْهَارِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَالْحَسَارِ لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ ؛ وَدَائِرَةِ السُّوءِ عَلَى الْخَالِعِينَ طَاعَةَ
خَلْفَائِهِ ، الْقَائِمِينَ بِحُجَّتِهِ . ثُمَّ يُقَالُ : أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا يَرَاكَ تَتَخَوَّلُهُ بِهِ مِنْ تَصَدِيقِ
أَمَالِهِ ، وَتَوْفِيقِ أَعْمَالِهِ ؛ وَتَسْدِيدِ مَرَامِيهِ ، وَهَدَايَةِ مَسَاعِيهِ ؛ وَاجَابَةِ دَعْوَتِهِ ،
وَتَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ ؛ بِإِدَالَةِ مُوَالِيهِ ، وَإِذَالَةِ مُعَادِيهِ ؛ وَمَعُونَتِهِ عَلَى مَاوَلَاهُ ، وَتَمَكِينِهِ
مِنْ نَاوَاهُ ؛ وَيُسَالَهُ الصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

ثُمَّ يُؤْتَى بِمَقْدَمَةٍ تَدُلُّ عَلَى جَمِيلِ عَاقِبَةِ الطَّاعَةِ ، وَذَمِيمِ مَغْبَةِ المَعْصِيَةِ ؛ يَبْسُطُ الْقَوْلَ
عَلَيْهَا ، وَيَتَوَسَّعُ فِيهَا ، لِتَكُونَ فِرَاشًا لِمَا يَتْلُوهَا . ثُمَّ يُقَالُ بَعْدَهَا : وَإِنَّمَا يَجْعَلُ ذَلِكَ
أَهْلَ الْغَرَارَةِ الَّذِينَ لَمْ يَلُوكُوا شِكَاثَ التَّجَارِبِ ، وَلَمْ يُمَارِسُوا ضَرَامِ النُّوَابِ ؛
وَأَنْتَ فَقَدْ تَذَوَّقْتَ مِنْ كِرَاهَةِ المَعْصِيَةِ وَمِرَارَتِهَا ، وَعُدُوَّةِ الطَّاعَةِ وَخِلَاطِهَا ؛
مَا يَرْجُو أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونَ قَدْ وَعَظَكَ وَأَدَبَكَ ، وَقَوَّمَكَ وَهَدَّبَكَ ؛ وَكَشَفَ لَكَ
عَنْ عَاقِبَتَيْهَا ، وَعَرَّفَكَ بِغَايَتَيْهَا ؛ فَدَعَتْكَ الطَّاعَةُ إِلَيْهَا بِمَا أَسْبَغَتْهُ عَلَيْكَ مِنْ لِبَاسِ
شَرَفِهَا وَمَجْدِهَا ، وَأَسْتَخْدَمَتْهُ لَكَ مِنْ أَنْصَارٍ إِقْبَالُهَا وَسَعْدِهَا ؛ وَنَهَتْكَ المَعْصِيَةُ عَنْهَا
بِمَا بَلَّوْتَهُ مِنْ نَوَائِبِهَا وَصِنَائِعِهَا ، وَجَرَّبْتَهُ مِنْ مَرْمِضِ مَرَامِيهَا وَمَوَاقِعِهَا ، لِأَنَّهَا أَقَلَّتْ
عَدَدَكَ ، وَمَزَّقَتْ مُطْرَفَكَ وَمُتَلَدَكَ ؛ حَتَّى تَدَارَكَكَ مِنْ عَطْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَنْبَتَكَ
بَعْدَ الْحَصْدِ ، وَرَاشَكَ بَعْدَ الْحِصِّ ؛ وَأَتَتْهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْكَ حَنِيتَ إِلَى أَتْبَاعِ
الضَّلَالَةِ الَّذِينَ غَرُّوكَ ، وَمِلْتَ إِلَى أَشْيَاعِ الْفِتْنَةِ الَّذِينَ آسْتَهْوَوْكَ ؛ فَأَصْغَيْتَ إِلَى أَقْوَالِهِمْ
الَّتِي ظَاهَرَهَا نُصْحٌ وَبَاطِنُهَا غِشٌّ ، وَأَرَائِهِمُ الَّتِي مَوَارِدُهَا صِلَاحٌ وَمَصَادِرُهَا فِسَادٌ ؛
وَمِلْتَ إِلَى مَعَاوِدَةِ الشَّقَاقِ وَالْأَرْتَكَاسِ فِي الْعِصْيَانِ ، وَمُقَابَلَةِ النُّعْمَى بِالْكَفْرَانِ ؛
فَقَدَّمَ كِتَابَهُ إِلَيْكَ مُذَكِّرًا ، وَمَنَعَكَ خُطَابَهُ مُعَذِّرًا مُنْذِرًا ؛ لِيَعْرِفَكَ حَظَّكَ ، وَيَهْدِيكَ
رُشْدَكَ ؛ [وَيَدُلُّكَ] عَلَى الْأَحْسَنِ لَكَ فِي مَبْدَيْكَ وَعَاقِبَتِكَ ، وَيُحَدِّثُكَ مِنْ مَرَاجِعَةِ

ماقارفته ، وأن تنزل عن المنزلة التي رقاك إليها ، وتُجذب رباعك من النعمة التي ارتعك فيها ، وتغفل عن مراع الدعة التي أوردك عليها ، فانظر لنفسك حسنا ، وكُن إليها مُحسنا ، وانتفع بمرشد أمير المؤمنين ، ولا تُفسد بخلافك عن أمره نصيبك من الدنيا والدين ، فارجع إليه مسترغما فإنه يقتدى بالله في الرحمة للمحسنين ، مادام مؤثرا لرب النعمة لديك ، وإقرارها عليك . فاعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

قال : وإن كانت المكاتبه إلى رعية قد خرجت عن الطاعة كتب إليها بما مثاله :

أما بعد ، وفقكم الله لطاعته ، وعصمكم من معصيته ، فإن الشيطان يُدلي الإنسان بغروره ، ويقم له الضلال في صورة الهدى يهتانه وزوره ، مستخفا لطائفي الألباب ، ومستترا للأقدام عن موقف الصواب ، محسنا بكيد الاعتقاد الأباطيل ، مزينا بغيه أتباع الأضاليل ، صارفا بمكره عن سواء السبيل ، مصورا للحق في صورة المين ، مغطيا على القلوب بشغاف الرين ، والحازم اليقظ من تحرز من أشراكه وحبائله ، وتحفظ من محاييله وغوائله ، وآتهم هواجس فكره ، وأستراب بوساوس صدره ، وعرض ما يعرض له على عقله ، وكرر فيه النظر متحرزا من مكر الشيطان وختله ، فإن ألفاه عادلا عن الهوى ، مائلا إلى التقوى ، بريئا من خدع الشيطان ، آمنا من عوادي الأفتان ، أمضاه وإثقا بسلامة مغبته وعاقبته ، وشمول الأمن في أولاه وأخراه .

وأتتهى إلى أمير المؤمنين أن الشيطان المرید استخف أحلام جماعة من جهالكم ، وأستولى على أفهام عدة من أراذلكم ، وحسن لهم شق عصا الإسلام ، ومعصية الإمام ، ومفارقة الجماعه ، والأئسلاخ من الطاعه ، التي فرضها الله تعالى على الجمهور ، وجعلها نظام الأمور ، فقال جل قائلا : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) واختيار الفرقة التي نهى الله عنها . فقال :

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ) وَمُجَانِبَةَ الْأُلْفَةِ
التي عدها في جلائل نعمه ، فقال ممتنًا بها على عباده : (وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) وسؤل لهم التعرّي من آداب
الدين ، والمجاهرة بالخلاف على أمير المؤمنين ؛ فنبذوا ما بأيديهم من بيعته ، وسلبوا
من ظلّ دعوته ؛ وركبوا من ذلك أوعر المراكب ، وسلكوا أخشن المسارب ؛
وسعوا في البلاد بالفساد ، وقاموا في وجه الحقّ بالعناد ، واستخفوا بحمل الآثام ،
وبسطوا أيديهم إلى الدماء الحرام ، وشنوا الغارات على أهل الإسلام .

وقد علمتم أن من أقدم على تأثير مثل هذه الآثار ، فقد استزل في هذه الدار سُخْطَ
الجبار ، وتبوأ في الآخرة مقعده من النار ؛ وجرى على غير الواجب في إقامة الفروض
والصلوات ، وتأدية العبادات والزكوات ، وعقد العقود والمناكحات ؛ لأن هذه
الأحوال إنما ترضى وترفع ، وتُجَاب وتُسْمَع ؛ إذا تولّاها أمير المؤمنين ، أو من
يستخلفه من صلحاء المسلمين ؛ فأما إذا استبددتم فيها بأنفسكم ، وأقتديتم في تأديتها
بناكب عن سبيله ، مُجَانِبٍ لدليله ؛ فقد تسكتم في الضلالة ، وتطابقت على الجهالة ؛
وكل راضٍ منكم بذلك ، عاصٍ لله ورسوله وللإمام .

ولما أطلع أمير المؤمنين على ما ذهبت إليه بسوء الاختيار ، وركبتموه من مراكب
الأغترار ؛ لم ير أن يلغىكم ويهجركم ، ويفلکم ولا يبصرکم ؛ فقدم مكاتبتكم معذرا
منذرا ، ومخوفا محذرا ؛ وبدأكم بوعظه مشفقا عليكم من زلة القدم ، وموقف الندم ؛
وجاذبا لكم عن مضال الغواية ، إلى مرشد الهداية ؛ وافتحكم باللفظ الأحسن ،
والقول الألين ؛ وهداكم إلى السبيل الأوضح ، والمتجر الأربح ؛ وأختار أن يهديكم
الله تعالى إلى طريق الرشاد ، ويدلکم على مقاصد السداد ؛ ويعيدکم إلى الأولى ،

وَيَبْعَثَكُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِيَّةِ ؛ وَأَنْ تَعْرِفُوا الْحَقَّ فَتَمْتَصِمُوا فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ بَيْعَتِهِ ،
وتقوموا بما فرض عليكم من طاعته ؛ وترجعوا إلى إجماع المسلمين ، وما أنفقت عليه
كلمة إخوانكم في الدين ؛ وتبشعوا مذاهب أهل السلامة ، وأولى الاستقامة ؛ فإن وقع
ما ألقاه إليكم الموقِع الذي قدره فيكم ، وسألتكم الإقالة ، فالتوبة تنفعكم ، والعفو
يسعكم ؛ وإن تماديت في غيِّكم وباطلِكُمْ ، وغرورِكُمْ وجهلِكُمْ ؛ تقدمت إليكم جيوش
أمير المؤمنين موقومه ، ومن عصاتكم متقمه ؛ وذلك مقام لا يتميز فيه البرىء من السقيم ،
ولا الجاهل من العليم ؛ ألا تسمعون الله تعالى يقول : ﴿ وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ ؟ وأي فتنة أشد من طاعة الشيطان ، ومعصية السلطان ؛ وشقَّ
العصا ، وإراقة الدِّماء ، وإثارة الدهما ؟ فاتقوا الله وأرجعوا ، وتأملوا وراجعوا ؛
وتبصروا وأستبصروا ؛ وقد أوضح لكم أمير المؤمنين المحجَّه ، وبدأكم بالمحجَّه ؛ فأوجدوه
السبيل إلى ما ينويه لكم ولكافة أهل الإسلام : من حقن الدماء ، وصيانة الحرم ،
وتحصين الأموال ، وشمول الأمن والأمان ؛ وأجيبوا عن كتابه هذا بما يوفقكم الله
تعالى [إليه] : من إجابة دعائه والعمل برأيه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة ما كتب به عبد الحميد إلى بعض من نرج عن الطاعة ، وهو :
أما بعد : بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المرد على الجرد ؛ فسترد عليك جنود الله
المقربون ، وأولياؤه الغالبون ؛ ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول ، على
الفحول ؛ كأنها الوعول ، تخوض الوحول ؛ طوال السبال ، تختضب بالخريال ، رجال
هم الرجال ؛ بين راح وناسب ، ليس معهم إلا كلب محارب ؛ ولا ينكفون عن الأصحاب .
قد ضروا بضرب الهام ، وأعتادوا الكتر والإقدام ، ليسوا بدوى هينة ولا إجمام ؛
يقضون بالسيوف ، ويخالطون الزحوف ، في أعتهم الختوف ؛ يزارون زئير الأسود ،

وَيَتَّبِعُونَ وَتُوبَ الْفُؤُودِ؛ لَيْسَ فِيهِمْ إِلَّا شَاكٌ مُحْتَبِكٌ، فِي الْحَرْبِ مُجْرَبٌ؛ قَدْ شَرِبَ عَلَى
 نَاجِدِ الْحَرْبِ وَأَكَلَ، ذُو شِقْشِقَةٍ وَكَلْكَلٍ؛ كَأَنَّمَا أَشْرَبَ وَجْهَهُ تَقْيِيعَ الْحِنَاءِ؛ قَدْ رَمِمَ
 الْحَرْبَ وَرَضَعَهَا، وَغَدَّتْهُ وَالْفَهَا؛ فَهِيَ أُمُّهُ وَهُوَ ابْنُهَا، يَسْكُنُ إِلَيْهَا وَيَأْتِسُ بِقُرْبِهَا؛
 فَهُوَ بَطْلُهَا أَرَبٌ، وَعَلَى أَهْلِهَا حَرْبٌ؛ لَا يَرُوعُهُ مَا يَرُوعُ، وَلَا يَزِيغُهُ مَا يَزِيغُ الْعُمَرَ
 الْجَبَانَ؛ حِينَ يَسْتَدُّ الْوَعْيُ، وَتَخْطُرُ الْقَنَاءُ؛ وَتُقَلِّصُ الشَّفَاهُ، وَتُسْفِرُ الْكُمَاهُ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ
 تُسَلِّمُكَ الْمُرْدُ، وَتُكْشِفُ عَنِ الْجُرْدِ. فَتَاهَبُ لَذَلِكَ أَهْبَتَكَ، وَأَخْطُبُ لَهُ خِطْبَتَكَ،
 مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْحَوَاكِيَةِ؛ ثُمَّ كَيْدُونِي جَمِيعًا فَلَا تُنْظِرُونَ؛ فَمَا أَسْرَنَا إِكْتَارَكَ الْجَمُوعِ،
 وَحَشْدُكَ الْخِيُولِ؛ فَإِنَّكَ لَا تُكْتَفَى جَمْعًا، وَلَا تُسْرَبُ خَيْلًا؛ إِلَّا وَثِقْنَا بِأَنْ سَمِدْنَا
 اللَّهُ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، وَيَزِيدُنَا مِنْ نَصْرِهِ؛ بِمَا قَدْ جَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُ، وَسَلَفَتْ بِهِ عَادَتُهُ؛
 وَنَحْنُ نَجْرِي مِنْ ذَلِكَ عَلَى نَقَمَاتٍ مِنَ اللَّهِ وَنَكَالٍ وَسَطَوَاتٍ مُهْلِكَةٍ؛ فَرَأَيْتُمْ ذَلِكَ
 فِي الْمَنَازِلِ، وَعَرَفْتُمُوهُ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَجْمَعُهَا الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ؛ فَأَبْشِرْنَا بِمَا سَاءَ كَ
 صَجْرًا، وَمَشَّاكَ تُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ .



وَمِنْ أَحْسَنِ الْكُتُبِ الْمَكْتُبَةِ فِي هَذَا الْبَابِ مَا كَتَبَ بِهِ قِيَامُ الدِّينِ (بِحْيِ بْنِ زِيَادَةَ)
 وَزَيْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِ لِدِينِ اللَّهِ الْخَلِيفَةِ بَغْدَادَ إِلَى (طَغْرُل) مُقَطَّعِ الْبَصْرَةَ بِأَمْرِ
 الْخَلِيفَةِ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ بَلَغَهُ أَنَّهُ نَزَحَ عَنْهَا، قَاصِدًا بَعْضَ الْأَطْرَافِ، مَفَارِقًا لَطَاعَةِ الْخَلِيفَةِ،
 عِنْدَ مَا طَلِبَ مِنْ دِيْوَانِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَالِ، فَأَوْجِبَ ذَلِكَ أَنْتَاءَهُ عَنْ عَزْمِهِ وَتَوَجُّهُهُ
 إِلَى بَغْدَادَ دَاخِلًا تَحْتَ الطَّاعَةِ، وَمُقَابَلَتَهُ بِالصَّفْحِ وَتَلْقِيهِ بِالْقَبُولِ . وَهَذِهِ نَسِخَتُهُ :
 أَصْدَرْتُ هَذِهِ الْخِدْمَةَ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ، الْأَمِيرِيِّ، الْأَسْفَهْسَلَارِيِّ، الْأَجَلِيِّ،
 الْكَبِيرِيِّ، السَّيِّدِيِّ، الْعِمَادِيِّ، الرَّكْنِيِّ، الظَّهِيرِيِّ، الْمُحْتَرَمِيِّ، الْعَزِيِّ، الْجَمَالِيِّ،
 أَمِيرِ الْجُيُوشِ؛ أَطَالَ اللَّهُ بِقِصَّةِ، وَأَدَامَ عُلوَّهُ وَنِعْمَتَهُ؛ وَأَنَا أَوْقَعُ الْأَقْوَالَ الْمُتَوَاتِرَةَ،

والأموال المتناصرة، مُسْتَفْرَبًا لها، مُتَعَجِّبًا منها، كأنى أسمعها فى المنام، وتخطبني بها
أَصْفَاتُ أَحْلَامٍ؛ فلولا أن الأيام صَحَائِفُ العجائب، ولا يأنس بمتجدداتها إلا من
حَنَنْتَهُ التَّجَارِبُ؛ لم أَصَدِّقْ هذه الحركة المباركة التى وقعت منه بسعادته؛ فإنى
ما أراها إلا عَثْرَةً من جَوَادٍ، وعورة على كماله؛ وإلا فمن أين يدخل الزلُّ على ذلك
الرَّأْيِ السَّيِّدِ، والعقل الراجح، والفكر الصائب؟ الذى يَعْلَمُ الآراءَ كَيْفَ تُتِيرُ، وَيُعَرِّفُ
النجومَ كَيْفَ تُسِيرُ، ويهدى غيره فى المُشْكَلاتِ إلى صواب التديير. والفائتُ لا كَلَامَ
فيه، غير أن العقلَ يَقْضِي بِأَسْتِدْرَاكِ المُمْكِنِ وتَلَاْفِيهِ؛ بالانحراف عن الهوى إلى الرَّأْيِ
الصَّادِقِ، والرُّجُوعِ عن تاويل النفس إلى مراجعة الفكر الناصح؛ فالعُودُ إلى الحق
أولى من التَّمَادِي على الباطل، وأَحْبُّ أن تسمع ما أقولُ بأُذُنٍ واعية وقلْبٍ حاضر؛
وَحُوشِيَّ أن تُسْتَدْفِعَهُ الكَوَادِبُ عن تَدَبُّرِ الحقائق، وَعِرْفَانِ النِّصَاحِ؛ فإن من القول
ما بُرْهَانُهُ لا يَحْتَاجُ إلى شاهد من غيره .

قبل كُلِّ شَيْءٍ: ما الذى أُحَوِّجُ إلى هذه الحال القبيحة السُّمَّعة، وركوب الخطر
فى هذه الحركة، وأَحْتِمَالِ هذه المَشَاقِّ، والأنزاع من غير أن تَدْعُوَ إليه حاجة؟
هل هو إلا شَيْءٌ بَجَرَّتْ للعادة بمثله، وبمطالبة ديوانه بما كان يندفع الأمر ببعضه؟
كما بَجَرَّتْ عادة الدواوين، وخدمُ السلاطين؛ ثم إنه عمْد - أدام الله نعمته - بأقول
خاطره، وبادئ رأيه فى هذه العجالة، من غير تثبت ولا روية. لم لا راجع فكره
الكريم، ويقول لنفسه: إلى أين أمضى؟ ولمن أُخْذِمُ؟ وعلى أى باب أقف؟
وتحت أى لواءٍ أسير؟ وبأى غبارٍ أكتحل؟ وفضل من أطلب؟ وعلى حكم
من أنزل؟ بعد أن رُبِّيتُ فى عَرَصَةِ الخِلافة، ودار النبوة، وحضن
المملكة؛ أنشأني نعيمها صغيراً، وقدمني كبيراً؛ وكنتُ مأموراً بفعلنى أميراً، وطار
صبيتي فى الدنيا ولم أكن شيئاً مذكوراً؛ فإنا خيرٌ من ملكٍ أقصده، وأمثلٌ من كُلِّ

مَنْ أَرْجُوهُ وَأَسْتَنْجِدُهُ، أَفَأَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْحَضِيضِ، وَأَهْدِمُ مَا بَنَى الْإِنْعَامُ عِنْدِي فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ الْعَرِيضِ؟ ! هَذَا هُوَ الْمَكْرُوهُ الْأَعْظَمُ، الَّذِي تَعَوَّذَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حِينَ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ» وَمَنْ يَكُونُ حَضِيْنَ خِلَافَةَ كَيْفَ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ تَابِعَ إِمَارَةٍ؟ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَا هَجَمَ عَلَيْهِ إِلَّا هَذَا لَكَفَى. ثُمَّ لِمَ لَا يَلْتَفِتُ فِي هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، الَّتِي صَحِبَتْهُ بَوَفَائِهَا، وَيَسْمَعُ خَطَابَهَا بِلِسَانِ حَالِهَا ثُمَّ؟ تَقُولُ لَهُ: يَا عِمَادَ الدِّينِ! أَمَا هَذِهِ خِيَامُ الْإِنْعَامِ عَلَيْكَ؟ أَمَا هَذِهِ الْخَيْلُ الْمُسَوِّمَةُ تَحْتِكَ؟ أَمَا هَذِهِ مَلَابِسُهُ الْفَاخِرَةُ مُفَاضَةً عَلَيْكَ؟ أَمَا هَذِهِ مَمَالِكُهُ حَافَةٌ بِكَ؟ أَلَيْسَ الْأَصْطِنَاعُ رَفَعَ قَدْرَكَ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي ثَقُلَ عَلَيْكَ بَعْضُ الْأَنْحِطَاطِ عَنْهَا، وَوَهَبَ لَكَ الْهَمَّةَ الَّتِي أَبَيْتَ الضَّمِيمَ بِهَا؟ فُخُوشِيَتَ أَنْ تَكُونَ مَمَّنْ تَوَاتَرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ فَلَمَّهَا، وَتَكَاثَّرَتْ عَلَيْهِ فَضَعَّفَ عَنْ حَمْلِهَا؛ فَيَا لَيْتَ شِعْرِي! مَاذَا يَكُونُ جَوَابُهَا؟ وَاللَّهِ إِنِّي أَقُولُ لَهُ بِسَعَادَتِهِ وَلَا أُعَقِّبُ: وَلَوْ أَنَّهُ قَدْ تَحَقَّقَ - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - وَقُوعَ كُلِّ مَحْذُورٍ، وَحُلُولَ كُلِّ مَكْرُوهٍ؛ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ مَعْذُورًا، فَكَيْفَ بَظَنِّ مَرَجِّمْ، وَقَوْلِ مُسَوِّفٍ مُتَوَهِّمٍ؛ وَرَأْيِ فَطِيرٍ غَيْرِ مُخْتَمِرٍ. وَلَقَدْ كَانَ أَسْتِسْلَامُهُ لِمَالِكِ الرَّقِّيِّ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - أَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا وَأَحْمَدَ فِي الْعُقْبَى؛ وَاقِعًا ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِ حَيْثُ وَقَعَ. وَالْآنَ فَالْوَقْتُ ضَاقَ فِي إِصْدَارِ هَذِهِ الْمَكَاتِبِ، عَنْ أَسْتِقْصَاءِ الْعِتَابِ وَالْمُحَاقَقَةِ؛ وَإِيرَادِ كُلِّ مَا تَلَزَمَ بِهِ الْحُجَّةُ، لَكِنِّي أَقُولُ عَلَى سَبِيلِ الْجُمْلَةِ:

إِنِّي أَخَافُ عَلَى سَدِيدِ ذَلِكَ الرَّأْيِ إِجَابَةَ دَاعِيِ الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَبَاحَ مِنْ أَوْسَعِ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَحُوشِي كَالَهُ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ.

وَالثَّانِي أَسْتَشْعَارُهُ بِسَعَادَتِهِ مِنْ بَادِرَتِهِ، وَأَسْتِيحَاشُهُ مِنْ عَجَلَتِهِ؛ وَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَدَقِّ مَكَائِدِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَإِنَّهَا تُوَمِّنُ مِنَ الْخُوفِ، وَتُخَوِّفُ مِنَ الْمَأْمُونِ،

وَتَسْحَرُ الْعَقْلَ بِالتَّحِيرِ وَالشَّكِّ ، فَلَا تَصِحُّ لَهُ عَزِيمَةٌ ، وَلَا تَصْفُو لَهُ فِكْرُهُ ؛ وَهَذَا النَّوعُ إِذَا عَرَّضَ فِي الصَّدْرِ يَجِبُ دَفْعُهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْحَقِّ وَشَجَاعَةِ الْقَلْبِ ، وَالْإِخْلَادِ إِلَى مُنَاطَرَةِ النَّفْسِ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ ، وَالزَّلَلُ فِي الرَّأْيِ لَيْسَ مِنْ أَوْصَافِ الْجَمَادِ ، بَلْ مِنَ الْأَوْصَافِ اللَّازِمَةِ لِلْبَشَرِيَّةِ ؛ وَلَيْسَ الْكَمَالُ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلوَاحِدِ الصَّمَدِ .

فَإِذَا عَرَّضَ لَهُ بِسَعَادَتِهِ هَذَا الْأَسْتِشْعَارَ ، فَيُدْفَعُهُ عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَلَيْسَ سُلْطَانُ الْوَسْوَاسِ الْخَنَاسِ ، إِلَّا فِي صَدُورِ النَّاسِ ؛ فَلِهَذَا لَا يَنْبَغِي لِمُذْنِبٍ أَنْ يَقْنَطَ ، وَلَا لِمُسِيءٍ أَنْ يَسْتَوْحِشَ ؛ لِاسْتِمَا إِذَا أَتَبَعَ الذَّنْبَ بِالْأَسْتِقَالَةِ وَالْأَسْتِغْفَارِ ، وَالْأَعْتَادِ وَالْإِقْلَاعِ ؛ وَعَلَى الْخُصُوصِ إِذَا كَانَتْ الْخِيَانَةُ عِنْدَ مَنْ لَا يَتَعَاطَمُهُ عَفْوُهَا ، وَلَا يَضِيقُ حِلْمُهُ عِنهَا ؛ فَإِنَّ كُلَّ كَبِيرَةٍ تُوجِبُ الْمَخَافَةَ ، تَفْرُقُ فِي بَحْرِ عَفْوِ الْخِلَافَةِ ؛ فَيَجِبُ أَنْ يُقَرَّرَ بِسَعَادَتِهِ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ، وَيُخْرَجَ سَوْءَ الظَّنِّ وَالْأَسْتِشْعَارَ مِنْ خِيَالِهِ ؛ فَإِنْ مَثَلَهُ مِنْ خُلَصَانِ الْمَمَالِكِ لَا يُسْمَعُ بِهِ ، وَلَا يُسْتَنْبَغُ عَلَيْهِ عِنْدَ هَفْوَةٍ بَادِرَةٍ .

وَالثَّلَاثُ الْأَنْقِبَاضُ وَالْحَيَاءُ . فَانَّهُ رُبَّمَا يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : بَأَى وَجْهِ أَلْقَى مَوْلَايَ ؟ وَبَأَى عَيْنِ أَبْصَرَ مَوَاطِنَ الدَّارِ الْعَزِيزَةِ ؟ رَبَّائِي وَأَنْشَانِي ! . وَهَذَا أَيْضًا لَا يَصْلُحُ خُطُورُهُ بِيَالِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، فَإِنَّهُ مِنْ ضَعْفِ التَّحِيرَةِ ، وَالْمِيلِ مَعَ خَوَادِجِ الطَّبَعِ ، عَنْ نَصَائِحِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ ؛ فَإِنَّ الْحَيَاءَ إِتْبَاعُ زَلَّةِ الْقَدَمِ بِالنَّدَمِ وَالْأَعْتَادِ ، لَا التَّهَوُّكُ فِي اللَّجَاجِ وَالْإِصْرَارِ . فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُلُوكِ لِحَصِيصٍ مِنْ خَوَاصِّهِ ، عَصَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ :

«بَأَى عَيْنٍ تَلَقَّانِي وَقَدْ عَصَيْتَ أَمْرِي ؟» فَقَالَ : «بِالْعَيْنِ الَّتِي أَلْقَى بِهَا رَبِّي فِي الصَّلَوَاتِ الْحَمِيسِ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَرَانِي عَلَى فَوَاضِحِ الْمَعَاصِي» . وَقَدْ أَسْنَى اللهُ سَبْحَانَهُ عَلَى مَنْ أذْنَبَ ثُمَّ تَابَ ، وَشَرَّدَ عَنْ طَاعَتِهِ ثُمَّ أَنْابَ . وَبِحَمْدِ اللهِ تَعَالَى مَا جَرَى مَا يَقْتَضِي قَرُطَ الْأَسْتِشْعَارِ . هَلْ هُوَ إِلَّا عَيْدٌ خَافَ بَادِرَةَ مَوْلَاهُ ، فَتَنَحَّى مِنْ مَكَانِهِ إِلَى أَنْ يَعْطِفَ

(١) فِي الْأَصْلِ "بَل" وَلَا مَعْنَى لَهَا .

عليه برحمته؟ وليس هذا ببديع، ولا من الصَّفحِ ببعيد. على أنه بسعادته لو أنصف من نفسه لما استشعر. فكم أخرجت الخزائن الشريفة عليه من الأموال حتى نبت عرقه، وأورق غضنه، وكبر شأنه، وجميع ضمان البصرة عشر معشار ذلك.

والرابع إصغاؤه - والعباد بالله - إلى قول من لا ينصحه، ويغويه ولا يرشده؛ ويتقرب إليه بمتابعة هواه. وهذا ما لا يخفى عن لَمحة الناقد، ولا يحتاج في الإعراض عنه إلى باعث؛ فقدما قيل: «صديقك من نَهاك، وعدوك من أغراك» والله تعالى يوفقه لتحقيقه النظر في هذه الأقسام الأربعة، التي أحذرهما عليه، وأحذرهما منها؛ ويسره لليسرى.

وبعد ذلك فإنا أنصفه من نفسى، وأقول الحق: إن نفساً ربَّاهَا خليفةُ الله في أرضه - صلوات الله عليه وسلامه - بإنعامه، وأعلى همَّتها باختصاصه، وشرفها بنسب عبوديته؛ لا تحتمل الهوان، ولا تقرُّ على الأبدال؛ فغالِبُ ظنى أن نفوره بسعادته إنما هو من ديوان الزمام المعمور. والآن فإنا وهو بسعادته عبْدان، ولكنى أنفردُ عنه بالسِّن والتَّجريب؛ وطريقتى هو بسعادته يعرفها، وإنى لأدخِر عن أحد نصحا. فالصواب أن يقبل قولى، ويتحقق صححة مقصدي في نصيحتة ومقصده، فإنى أوجب ذلك له على نفسى، وأراه من واجبات خديم مالك الرِّق - صلوات الله عليه وسلامه - أيضا.

وقد علم الله تعالى أنى قد أوضحت من عُدْرته، وأحسنْتُ المناب عنه بسعادته، ما لو حضره وتولاه بنفسه لما زاد عليه؛ ورأيتُ الإنعام يستغنى عن كل شرط ولا يحتاج إليه، وتقررت قاعدته بسعادته أن لا يكون له مع ديوان الزمام المعمور حديث، ولا مع غيره ممن لا يعرف حقه، ولا يوفيه من الاحترام وأجبه؛ فإن أمر

أن أتولى وساطته فأنا أعتمد ذلك في مراضيه، وتمشية أمره أكثر مما في نفسه .
 وإن آختر بسعادته أن يكون غيري وسيطه وسفيره ، فعيين من يختاره : ليكون
 حديثه معه . وقد أسلفت من وظائف إحسان المناب أني تجزئت له بسعادته أماناً
 متوجاً بالقلم الأشرف المقدس ، على نفسه الكريمة وماله وأولاده والأمان المذكور
 طي كتابي هذا - مقررنا بخاتم أمان ثان ؛ فيجب أن يكون هو بسعادته جواب
 ذلك . إذ لا يجوز أن يكون الجواب إلا هو بنفسه الكريمة ؛ فلا يشعربه أحدٌ
 إلا وهو مقابل التاج الشريف ، ملقياً نفسه بين يدي مالکها الذي هو أرحم لها ،
 وألطف بها ، وأشفق عليها منها ؛ تالياً ما حكاه القراءان المجيد عن يونس عليه السلام ،
 إذ نادى وهو مكظومٌ : (سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فإنه يرى -
 بمشيئة الله تعالى وتوفيقه - كل ما يحب ، ويؤمن كل ما يحذر . وأنا أستسرع وُصوله
 عن استعراض مهماته ، ولرأيه كرمه ، إن شاء الله تعالى .

قلت : فإن اتفقت المكتبة في معنى ذلك في زماننا ، راعى الكاتب فيه صورة
 الحال ، وجرى في ذلك على ما يلائم حاله ، ويناسب ما هو فيه ؛ مع النظر في كلام
 من سبقه إلى شيء من ذلك ؛ والنسج على منوال المجيد ، والافتداء بالمحسن في إirاده
 وإصداره .

الصنف السابع

(الكتب في الفتوحات والظفر بأعداء الدولة وأعداء الملة ،

وأسترجاع المعامل والحصون ، والأستيلاء على المدن)

وأصلها من فتح الأقفال ودخول الأبواب . كأن المدينة أو الحصن كان مقفلاً

ممتنعاً بالأغلاق على قاصده حتى يفتح له فيدخل .

قال في "مواد البيان" : وهو من أعظم المكاتبات خطراً ، وأجلها قدراً ؛ لأشتمال أغراضها على إنجاز وعد الله تعالى الذي وعد به أهل الطاعة في إظهار دينهم على كل دين ، وتوفير حظهم من التأييد والتأمين ، وما يترتب فيها من الأساليب المختلفة التي يشتمل هذا القانون عليها .

قال : والكتاب يحتاج إلى تصريف فكره فيها ، وتهذيب معانيها : لأنها تُتلى من فوق المنابر على أسماع السامعين ، ويُجعل نصب عيون المتصفحين .

ثم قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله العفو الحليم ، الغفور الرحيم ، العليم الحكيم ، ذى البرهان المبين والفضل الجسيم ، والقوة المتين والعقاب الأليم ، مُبِيدِ الظالمين ، ومُبِيرِ القاسطين ، ومؤيدِ العادلين ، وجاعِلِ العاقبة للمتقين ، المُمِلِ إِمَهالاً وإنذاراً ، والمُعاقِبِ تنبيهاً وإذكاراً ، الذى لا يُنجِي منه مهربٌ ، ولا يبعد عليه مَطْلَبٌ ، وكَيْفَ يُعْتَصَمُ منه وهو أقرب من جبل الوريد ، وله على كُلِّ لَظْفِ رَقِيبٌ وَعَتِيدٌ ؟ . والصلاة على رسوله الأمين ، الذى ختم به النبيين ، وفضله على المرسلين ، وأيده بأوليائه التائبين ، الذين قاموا فى نُصْرَتِهِ ، وإِعْزَازِ رَأْيَتِهِ ، المقام الذى فازوا فيه بالْحَصْلِ ، فَاسْتَوْلَوْا بِهِ عَلَى قَصَبَاتِ الْفَضْلِ ، فَشَرَكَهُمْ مَعَهُ فى الوصف والثناء ، فقال جَلَّ قَائِلًا : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ثم يُوتَى بِمُقَدِّمَةٍ تشتمل على التحدث بنعمة الله فى شحذ العزائم لنصرته ، وتثبيت الأقدام فى لقاء عدوه ومجاهدته ، وإنجازه وعده فى الإعزاز والإظهار ، والظفر والإظفار ، والأستبشار بموقع النعمة فى الفتح الحليل ، والإشادة بإبقاء هذا الأثر الجميل . ثم يفيض بما جرت العادة به فى مقارنة العدو ومداناته ، وبثّ الطلائع لتنفيذ السرايا فى مبادئ ملاقاته ، وما أفضى إليه الأمر فى التقابل

والمَوَاتِبِ ، والتَّوَأُّجِ فِي المَطَاعِنَةِ والمُضَارَبَةِ ؛ وَذِكْرُ مَوَاقِفِ الشُّجْعَانِ فِي الكِفَاحِ
والمُجَاهَدَةِ ، وَالدَّبِّ وَالمُجَالِدَةِ ؛ وَثُبُوتِ الأَقْدَامِ ، وَالجُودِ بِالنُّفُوسِ ، وَاشْتِدَادِ الأَيْدِي ؛
وَقُوَّةِ الشَّكَاكِمِ ، وَاسْتِصْحَابِ العِزَائِمِ ؛ وَتَفْخِيمِ أَمْرِ العَدُوِّ : بِوصفه بِكثرة الرِّجَالِ
وَالأَجْنَادِ ، وَالقُوَّةِ وَالأَسْتِعْدَادِ : لِأَنَّ تَوَقُّعَ الظَّفَرِ بِمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ أَعْظَمُ خَطَرًا ، وَأَوْقِعَ
فِي النُّفُوسِ أَثْرًا .

ثم يذكر ما جال بين الفريقين من قِرَاعٍ وَمِصَاعٍ ، وَمُضَارَبَةٍ وَدِفَاحٍ ؛ وَمُصَاوَلَةٍ
وَمِنَاضِلَةٍ ، وَمُنَاهِدَةٍ وَمُكَاحَفَةٍ ؛ وَحِمَايَةٍ وَمُنَافَعَةٍ ، وَثَبَاتٍ وَمُصَافَقَةٍ ؛ وَمُقَاوَمَةٍ وَمُوَاقِفَةٍ ،
وَمُخَادَعَةٍ وَمَطَامَعَةٍ ؛ وَيَنْعَتِ المَوَازِبَ وَالكِتَابِ ، وَالجِيُولَ وَالأَسْلِحَةَ ؛ وَالجَرْحِيَّ
وَالْمُجَدِّلِينَ ، وَالأَسْرَى وَالمُقْتَلِينَ . وَاسْتِعْمَالَ التَّشْبِيهَاتِ الفَائِقَةِ ، وَالأَسْتِعَارَاتِ الرَّائِقَةِ ؛
وَإِرْدَافِ المَعَانِي فِي الإِبَانَةِ عَنِ لَمَعَانِ أَسِنَّةِ الدَّوَابِلِ ، وَبَرِيْقِ صَفَحَاتِ المَنَاصِلِ ؛
وَإِعْمَالِ المَقَاصِلِ فِي القِيمِ ، وَظُهُورِ نَجُومِ السُّيُوفِ مِنْ لَيْلِ الحَرْبِ فِي دِيَاغِي الظُّلَمِ ؛
وَيَنْعَتِ الدَّمَاءِ المُنْبَعَثَةِ مِنَ الجِرَاحِ ، عَلَى مَتُونِ الرَّمَاحِ وَالصَّفَاحِ .

ويذكر ما أظهره الله تعالى : مِنْ تَكَامُلِ النُّصْرِ وَدَلَائِلِ الظَّفَرِ ، وَمَا أَنْجَلَتْ عَنَّا
الحَرْبُ : مِنْ قَتْلِ مَنْ قُتِلَ وَأَسْرٍ مِنْ أُسِرَ ، وَهَزِيمَةٍ مِنْ هُزِمَ ؛ وَمَا فَازَ بِهِ الرِّجَالُ
مِنَ الأَسْلَابِ وَالأَمْوَالِ ، وَالدَّوَابِّ وَالرِّجَالِ ؛ وَمَا جَرَّتْ عَلَيْهِ الحَالُ مِنْ أَنْفِلَالِ العَدُوِّ
عِنْدَ المَقَاتِلَةِ ، أَوْ أُسِرَ العَدُوُّ إِنْ أُسِرَ ، أَوْ أَعْتَصَمَ بِمَعْقِلٍ لِأَيُّحْصَنِهِ ؛ أَوْ أَمْتِنَاعَهُ بِحَيْثُ
يَحْتَاجُ إِلَى مُنَازَلَتِهِ بِاسْتِنزَالِهِ قَسْرًا ؛ أَوْ حِيَازَةِ المَعْقِلِ الَّذِي كَانَ بِيَدِهِ ، وَمَا أَعْتَمَدَ فِيهِ :
مِنْ حُسْنِ السِّيَرِ ، وَتَخْفِيفِ الوَطْأَةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ وَحَسْمِ أسبابِ الفِتْنَةِ ؛ أَوْ رَغْبَتِهِ
فِي المُسَالَمَةِ ، وَسُؤَالِهِ فِي المُهَادَنَةِ ؛ لِخَوْفِ أَظْلَمِهِ ، وَهَلَعِ أَحْتَلَمِهِ ؛ وَمَا تَرَدَّدَ مِنْ رَسَائِلِ ،
وَتَقَرَّرَ مِنْ شُرُوطِ وَعُقُودِ ؛ وَإِنْفِادِ الأَمْرِ فِي ذَلِكَ كَمَا أَوْجَبَهُ الحَزْمُ ، وَاقْتِضَاهُ
صَوَابُ الرَّأْيِ .

وإن كان السلم قد وقع، والتنازع قد ارتفع؛ ذكر اتفاق الحزبين^(١)، واتحاد الكلبه، وشمول النعمه .

وإن كان لم يجبه إلى المهادنة، حذرًا من المكر والمخادعة، ذكر ما مر في ذلك من رأي وتدبير، وتسديد وتقرير .

وإن كان طلب المهادنة ليجد فسحة المهل فيكثر عدده، ويجم عدده، وتتم حيلته؛ فأطلع منه على ذلك، فبادره مفللاً لكيده ومكره، مديقاً له وبأل أمره؛ شرح الحال على نصها وما انتهى إليه آخرها .

قال : وقد يقع من هذه الأمور ما لا يحتسب، وسبيل جميعه هذا السبيل .

ثم قال : ويحتم الكتاب بحمد الله القاضى لأوليائه بالإداله، ولأعدائه بالإذاله؛ الذى يستدرج بحلمه إمهالاً؛ ولا يلقى العادل عن حكمه إهمالاً؛ والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

وقد تقدم فى الكلام على مقدمة المكاتبات فى أوائل المقالة الرابعة من الكتاب، أن هذه الكتب مما يجب بسطها والإطناب فيها؛ وأن ما وقع فى كتاب المهلب ابن أبى صفرة، من كتابه إلى الحجاج فى فتح الأزارقة من الخوارج، على عظم الفتح وبعد صيته، على سبيل الإيجاز والاختصار، حيث قال فيه :

أما بعد، فالحمد لله الذى لا تنقطع مواد نعيمه عن خلقه حتى تنقطع منهم مواد الشكر. وإنا وعدونا كذا على حال يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا؛ ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم؛ ولم يزل الله جل ثناؤه يزيدنا وينقصهم، ويعزنا ويذلهم، ويؤيدنا ويخذلهم، ويخصنا ويحققهم؛ حتى بلغ الكتاب أجله . (فقطيع دابر القوم الذين

(١) فى الاصل "أتساع الحربين" وهو غير مناسب .

ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ فَإِنَّمَا سَلَكَ فِيهِ سَبِيلَ الْإِنجَازِ، لكونه من التابع إلى المتبوع ؛ إذ المَجَّاجُ كان هو القائم بأمر العِراقِ وما وآلاه لعبد الملك بن مروان، على شدة سَطْوَتِهِ، وما كان عليه من قوة الشَّكِيمَةِ وشِدَّةِ البَأْسِ؛ مع كون الأدبِ في مكتبة المرءوسِ الرئيسِ الإتيانَ بقليل اللفظ الدال على المقصِدِ؛ حتى لا يكون فيه شَغْلٌ للرئيس بطول الكلام وبسَطُ القول، على ما تقدم بيانه في موضعه .

وأعلم أن الكتابة في فتوحات بلاد الكُفر ومَعاقِلِهِم والْأَسْتِيلاءِ على بلاد البُغَاةِ تَكَادُ أن تكون في الكتابة على نَسَقٍ واحدٍ ؛ إلا أن مَجَالَ الكاتب في فتوحات بلاد الكُفر أوسع، من حيث عِزَّةُ الإسلام على الكُفر، وظهور دينه على سائر الأديان .

وهذه نسخة كتاب بفتح فتحه الخليفة وعاد منه ، وهي :

الحمد لله مُدِيلِ الحَقِّ ومُنِيرِهِ ، ومُذِلِّ الباطل ومُبِيرِهِ ؛ مُؤَيِّدِ الإسلام بياهر الإنجَازِ، ومُتَمِّمِ وَعِدِهِ في الإظهار بوشيك الإنجاز ؛ وأُحَمِّدُ كُلَّ دين وأُعَلِّمُهُ ، ورفض كُلَّ شرع وأُجْتَبَاهُ ؛ وجعله نُورَهُ اللَّامِعَ ، وظِلَّهُ المَتَاعِ ؛ وأَبْتَعْتُ به السراج المُنِيرَ ، والبشِيرَ النَّذِيرَ ؛ فأوضح مَنَاهِجَهُ ، وَبَيَّنَّ مَدَارِجَهُ ؛ وَأَنَارَ أَعْلَامَهُ ، وَفَصَّلَ أَحْكَامَهُ ؛ وَسَنَّ حَلَالَهُ وَحَرَامَهُ ، وَبَيَّنَّ خَاصَّهُ وَعَامَّهُ ؛ وَدَعَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ، وَحَصَّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِعِصْمِ دِينِهِ ؛ وَشَمَّرَ فِي نَصْرِهِ مُجَاهِدًا مَن نَدَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَعِنَدَ عَنْ دَلِيلِهِ ؛ حَتَّى قَصَدَ الْأَنْصَابَ وَالْأَصْنَامَ ، وَأَبْطَلَ الْمَيْسَرَ وَالْأَزْلَامَ ؛ وَكَشَفَ غِيَابَاتِ الْإِظْلَامِ ، وَأَنْتَعَلَتْ خَيْلُ اللَّهِ بِقِبَائِلِ الْهَامِ .^(٣)

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

(٢) يؤيد ماورد هنا التصحيح الذي أوردناه بهامش (١) من (ج ٦ ص ٤٤٠) من هذا المطبوع فليراجع هناك .

(٣) يؤيد ماورد هنا أيضا التصحيح الذي أوردناه بهامش (٢) من (ج ٦ ص ٤٤٠) .

يحمده أمير المؤمنين أن [جعله من ولاة أمره، ووقفه لاتباع سنة رسوله واقتفاء أثره، وأعانه على تمكين الدين، وتوهمين المشركين، وشفاء صدور المؤمنين و^(١)] أنهضه بالمرامة عن الملة، والمحاماة عن الحوزة، وإعزاز أهل الإيمان، وإذلال حزب الكفران، ويسأله الصلاة على خيرته المجتبي، وصفوته المنتصي، مجد أفضل من ذب وكافح، وجاهد وناع، وحمى الدمار، وغزا الكفار، صلى الله عليه وعلى أخيه وأبن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سيفه القاطع، ومجته المدافع، وسهمه الصارد، وناصره المعاضد، فارس القائع، ومفرق الجماع،^(٢) مبيد الأقران، ومبدد الشجعان، وعلى الطهرة من عثرته أئمة الأزمان، وخالصة الله من الإنس والجان.

وإن أولى النعم بأن يرقل في لباسها، ويتوصل بالشكر إلى إيناسها،^(٣) وينهادى طيب خبرها، ويتفاوض بحسن أثرها، نعمة الله تعالى في التوفيق لمجاهدة أهل الإلحاد والشرك، وغزو أولى الباطل والإفك، والمهجوم عليهم في مقر دارهم، وأجثثات أصلهم والجذ في ديارهم، واستزاهم من معاقبهم، وشريدهم عن منازلهم، وتغميض نواظرهم الشؤس [وإلباسهم لباس البوس] لما في ذلك من ظهور التوحيد وعززه، ونحوود الإلحاد وعززه، وعلوامة المسلمين، وانخفاض دولة المشركين، ووضوح [محجة^(٤)] الحق وحجته، وصدوع برهانه وآيته.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد أنكفا عن ديار الغلانيين المشركين إلى دسيت خلافته، ومقر إمامته، بعد أن غزاهم برا وبحرا، وشردهم سهلا ووعرا، وجرعهم

(١) الزيادة عما تقدم (ج ٦ ص ٤٤٠).

(٢) ورد بدل هذه الكلمة في (ج ٦ ص ٤٤١) "معيوس" وقد رضع بجانبها هناك علامة لتوقف لعدم ظهور معناها.

(٣) كذا هنا. والذي في (ج ٦ ص ٤٤١) "لباسها".

(٤) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤١).

من عواقب كُفْرهم مُرًّا ، وفَرَّقَ جَمَائِعَهُمُ الَّتِي تُطَبِّقُ سَهْوَبَ الْفَضَاءِ [خيلا ورجلا ،
وتضيق بها المهامه حزنا وسهلا ، ومزق كئائبهم التي تُلْحِقُ الْوَهَادَ بِالنَّجَادِ ، وتختطف
الأبصار ببوارق الأغماد] ^(١) وتجعل رعود سنايكها في السماء ، وسبي الدَّرَارِيِّ
والأطفال ، وأسر البطاريق والأقبال ، وأفتح المعاقيل والأعمال ، وحاز الأسلاب
والأموال ، وأستولى من الحصون على حصن كذا وحصن كذا ، ومحا منها رسوم الشرك
وعفاها ، وأثبت سنن التوحيد بها وأمضاها ، وغنم أولياء أمير المؤمنين ، ومُتَطَوِّعَةَ
المسلمين [من الغنائم] ^(١) ما أقرَّ العيون ، وحقق الظنون ، وأنفصلوا وقد زادت بصائرهم
نفاذا في الدين ، وسرائرهم إخلاصا في طاعة أمير المؤمنين ، بما أولاهم الله من النصر
والإظفار ، والإعزاز والإظهار ، ووصح للشركين بما أنزل الله عليهم من الخذلان ،
وأناهم إياه من الهوان ، أنهم على مضلة من النى والعمى ، ومنحاة ^(٢) من الرشد والهدى ،
فصرعوا إلى أمير المؤمنين في السلم والموادعة ، وتحمَّلوا بذلا بذلوه [تفاديا] ^(٣) من الكفاح
والمقارعة ، فأجابهم إلى ذلك متوكلا على الله تعالى ، وأمثالا لقوله إذ يقول :
(وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ مَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) وعاقد طاغيتهم
على كتاب هُدْنَةَ كَتَبَهُ لَهُ ، وأقره في يده با حجة بمضمونه .

أشعرك أمير المؤمنين ذلك : لتأخذ من هذه النعمة بنصيب مثلك من المُخْلِصِينَ ،
وتعرف موقع ما تفضل الله تعالى به على الإسلام والمسلمين ، فيحسن ظنك ،
وتقر عينك ، وتشكر الله تعالى شُكْرَ الْمُسْتَحْمَدِ مِنْ فَضْلِهِ ، المُعْتَدِّ بِطَوْلِهِ ، وتتلو كتاب

(١) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤١) .

(٢) في (ج ٦ ص ٤٤٢) من هذا المطبوع " وبعده " .

(٣) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤٢) .

أمير المؤمنين ، على كآفة من قبلك من المسلمين : ليعلموا ما تولاهم الله به من نصره وتمكينه ، وإذلال عدوهم وتوهمينه ؛ فأعلم ذلك وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .

ثم الفتح إما فتح لبعض بلاد الكُفْر ، وإما فتح لما استولى عليه البُغاة من المسلمين .

فأما فتح بلاد الكُفْر فكان سبيلهم فيه أن يُصدّر الكتاب بحمد الله تعالى على علو دين الإسلام ورفعته ، وإظهاره على كل دين ؛ ثم على بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالهداية إلى الدين القويم ، والصراط المستقيم ؛ ويذكر ما كان من أمره صلى الله عليه وسلم من جهاد الكُفْر . ثم على إقامة الخلفاء في الأرض حفظاً للرعيه ، وحيطة للبرية ، وصونا للبيضة ؛ ويخص خليفة زمانه من ذلك بما فيه تفضيله ورفعة شأنه ؛ ثم يؤخذ في تعظيم شأن العدو وتهويل أمره ، وكثرة عدده ، ووفور مدده ؛ ثم في وصف جيوش المسلمين بالقوة والاستعداد ، والأشتداد في الله تعالى ، والقيام في نصرته دينه ؛ ثم تذكر الملحمة وما كان من الوقعة والتحام القتال ، وما أنجلت عنه الملحمة من النصر على عدو الدين وخذلانه ، والإمكان منه ، وقتل من قتل منهم ، وأسر من أسر ، وتفريق شملهم ، وانتظام كلمة الإسلام ، وطماعتهم بهلاك عدوهم ، وما في معنى ذلك .

وهذه نسخة كتاب كُتب به إلى الديوان العزيز ، أيام الناصر لدين الله ، عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، بفتح القدس الشريف ، وإنقاذه من يد الكُفْر ، في آخر شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، من إنشاء القاضي الفاضل ، وهو :

أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري، ولا زال مظفر الحد بكل جاحد،
 غني^(١) التوفيق عن رأي كل رائد، موقف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد،
 مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد، وأرد الجود والسحاب على الأرض غير واردة،
 متعاد مساعي الفضل وإن كان لا يلقي إلا بشكر واحد، ماضي^(٢) [حكم القول] بعزم
 لا يمضي إلا بنسل غوي ورئس راشد، ولا زالت غيوث فضله [إلى الأولياء]^(٢)
 أنواء إلى المربع وأنوارا إلى المساجد، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلا إلى المراقب
 وخيلا إلى المراقد.

كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التبشير لصبح
 هذه الخدمة، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة، فإنها بحر لأقلام فيه سجع
 طويل، ولطف تحمل الشكر فيه عبء ثقيل، وبشري للخواطر في شرحها مآرب،
 ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب، والله في إعادة شكره رضا، وللنعمة الرأهنة
 به دوام لا يقال معه: هذا مضي، وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها،
 وأستبنت عقائد أهله على أبين بصائرهما، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط،
 وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط حصل المشروط، وكان الدين غريبا فهو
 الآن في وطنه، والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس في ثمنه، وأمر أمر الحق وكان
 مستضعفا، وأهل ربه وكان قد عيف حين عفا، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك
 راعمه، فادبحت السيوف إلى الآجال وهي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه

(١) كذا هنا وفيما تقدم، والذي في وفيات الأعيان لابن خلكان (ج ٢ ص ٥٨٤)

"غنيا بالتوفيق".

(٢) الزيادة عن رسائل القاضي الفاضل الفتوغرافية المحفوظة بدار الكتب السلطانية نمرة ٢٢٩٤

على كل دين ، وأستطارت له أنوار أبانت أن الصبح عندها حيان الحين ، وأسترد^(١)
المسلمون تراثًا كان عنهم آبقًا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طينًا
على النَّاي طارقًا ، وأستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ،
وتلاقت على الصخرة قبلهم^(٢) ، وشفيت بها وإن كانت صخرة [قلوبهم] كما تُشفى^(٣)
بالماء غلهم .

ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه ، وهنأ كفؤها الحجر الأسود
ببت عضمتها من الكافر بحربه ، وكان الخادم لا يسعى سعيه إلا لهذه العظمى ،
ولا يقاسى تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ، ولا يناجز من يستمطئه في حربيه ،
ولا يعاتب بأطراف القنا من يتمادى في عتبه ، إلا لتكون الكلمة مجموعته ، والدعوة
إلى سامعها مرفوعه ، فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض
الأدنى من الدنيا ، وكانت الألسنة رُبما سلقته فأنضح قلوبها بالاحتقار ، وكانت
الخواطر رُبما غلت عليه مرآجلها فأطفأها بالإحتمال والأصطبار ، ومن طلب خطيرًا
خاطر ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر ، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر ، وإلا فإن
القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فتعضها ، ويضعف بأيديها مهز القوائم
فتقضها ، هذا إلى كون القعود لا يقضى فرض الله في الجهاد ، ولا يرعى به حق الله
في العباد ، ولا يوفى به واجب التقليد الذى تطوقه الخادم من أئمة قضاوا بالحق
وبه كانوا يعدلون ، وخلفاء الله كانوا فى مثل هذا اليوم لله يسألون ، لاجرم أنهم أورثوا
سرىهم وسرىهم خلفهم الأظهر ، ونجلهم الأكبر ، وبقيتهم الشريفه ، وطلعتهم
المنيفه ، وعنوان صحيفه فضلهم لا عدم سواد العلم وبياض الصحيفه ، فما غابوا

(١) كذا فيما تقدم أيضا (ج ٦ ص ٤٩٧) وفي وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٥) "عند حسان الجين".

(٢) الزيادة عن وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٥) .

لَمَّا حَضَرَ، وَلَا غَضُّوا لَمَّا نَظَرَ؛ بَلِ وَصَلَهُمُ الْأَجْرُ لَمَّا كَانَ بِهِ مَوْصُولًا، وَشَاطِرُوهَ الْعَمَلِ لَمَّا كَانَ عَنْهُ مَنْقُولًا وَمِنْهُ مَقْبُولًا؛ وَخَلَصَ إِلَيْهِمُ إِلَى الْمُضَاجِعِ مَا أَطْمَأَنَّتْ بِهِ جُوبُهَا، وَإِلَى الصَّحَائِفِ مَا عَبَقَتْ بِهِ جُوبُهَا؛ وَفَازَ مِنْهَا بِذِكْرِ لَا يَزَالُ اللَّيْلُ بِهِ سَمِيرًا، وَالنَّهَارُ بِهِ بَصِيرًا؛ وَالشَّرْقُ يَهْتَدِي بِأَنْوَارِهِ، بَلِ إِنْ أَبَدَى نُورًا مِنْ ذَاتِهِ هَتَفَ بِهِ الْغَرْبُ بِأَنْ وَارِهِ؛ فَإِنَّهُ نُورٌ لَا تَكُنُّهُ أَغْسَاقُ السُّدُفِ، وَذِكْرٌ لَا تُورِيهِ أَوْرَاقُ الصُّحُفِ .

وَكِتَابُ الْخَادِمِ هَذَا، وَقَدْ أَظْفَرَ اللَّهُ بِالْعَدُوِّ الَّذِي تَشَطَّتْ قَنَاتُهُ شَفَقًا، وَطَارَتْ فِرْقُهُ فَرَقًا؛ وَقُلُّ سَيْفُهُ فَصَارَ عَصًا، وَوُضِعَتْ حَصَاتُهُ وَكَانَ الْأَكْثَرُ عَدَدًا وَوَحْصًا؛ وَكَلَّتْ حَمَلَاتُهُ وَكَانَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ تُصَرِّفُ فِيهِ الْعِيَانَ بِالْعِيَانِ، عُقُوبَةٌ مِنْ اللَّهِ لَيْسَ لِصَاحِبِ يَدَيْهَا يَدَانِ؛ وَعَثَرَتْ قَدَمُهُ وَكَانَتْ الْأَرْضُ لَهَا حَلِيفَةً، وَغَضَّتْ عَيْنُهُ وَكَانَتْ [عُيُونُ] السُّيُوفِ دُونَهَا كَسَيْفِهِ؛ وَنَامَ جَفْنُ سَيْفِهِ وَكَانَتْ يَقْظَتُهُ تَرِيْقُ نُطْفَ الْكَرِيِّ مِنَ الْجُفُونِ، وَجُدِعَتْ أَنْوْفُ رِمَاحِهِ وَطَالَمَّا كَانَتْ شَانِحَةً بِالْمُنَى أَوْ رَاعِقَةً بِالْمُنُونِ؛ وَأَضْحَجَتِ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةَ الطَّاهِرَةَ وَكَانَتْ الطَّامِثَ، وَالرَّبُّ الْمَعْبُودَ الْوَاحِدَ وَكَانَ عِنْدَهُمُ الثَّلَاثُ؛ فَيُوتُ الشَّرْكَ مَهْدُومَه [وَيُوتُ الْكُفْرَ مَهْتُومَه] وَطَوَائِفَهُ الْمُحَامِيَةَ، مُجْتَمِعَةً عَلَى تَسْلِيمِ الْبِلَادِ الْحَامِيَةِ، وَشُجْعَانَهُ الْمُتَوَافِيَةَ، مُدْعِنَةً لِبَدْلِ الْمَطَامِعِ الْوَافِيَةَ؛ لَا يَرُونَ فِي مَاءِ الْحَدِيدِ لَهُمْ عُصْرَه، وَلَا فِي فَنَاءِ الْأَفْنِيَةِ لَهُمْ نُصْرَه؛ وَقَدْ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، وَبَدَّلَ اللَّهُ مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ؛ وَنَقَلَ بَيْتَ عِبَادَتِهِ مِنْ أَيْدِي أَصْحَابِ الْمَشَامَةِ إِلَى أَيْدِي أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ .

(١) الزيادة عن رفيات الأعيان .

(٢) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل .

(٣) في رفيات الاعيان "القلاع" .

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمدّه الله بمداركته، وأنجده بملائكته؛ فكسروهم كسرة ما بعدها جبر، وصرعهم صرعة لا ينتعش بعدها بمشيئة الله كفرة؛ وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من فتكت به المناصل؛ وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح [والكفار، وعن أنصاف محيل فإنه قتلهم بالسيف الأفلاق والرماح الأكسار، فنبلوا بثأر من السلاح ونالوه أيضا بثار] ^(١) فكم أهلة سيوف تقارض الضراب بها حتى صارت كالعراجين، وكم أنجم أسنة تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين؛ وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه، وفغرت تلك القوس فأها فإذا فوها قد نهش القرن على بُعد المسافة فأقرسه؛ وكان اليوم مشهودا، وكانت الملائكة شهودا؛ وكان الكفر مفقودا والإسلام مولودا، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا؛ وأسه الملك وبيده أوثق وثائقه، وآكد وصله بالدين وعلائقه؛ وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت؛ وما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهماتهم ينسط لهم باعه، ويحرضهم وكان مد اليد في هذه الدفعة ودأعه؛ لاجرم أنهم يتهاقت على ناره فراشهم، ويجمع في ظل ظلامه خشاشهم؛ ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقته، ويرونه ميثاقا يننون عليه أشد عقد وأوثقه، ويعدون سورا تحفر حوافر الخيل خندقه .

وفي هذا اليوم أسرت سراتهم، وذهبت دعاتهم [ولم يفلت منهم معروف إلا القومص، وكان لعنه الله مليا يوم الظفر بالقتال، وملياً يوم الخذلان] ^(٢) بالاحتيال؛ فنجا ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف؛

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل .

(٢) في وفيات الأعيان وفي رسائل القاضي الفاضل الفتوغرافية "قنا" .

(٣) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

ثم أخذَه اللهُ تعالى بعد أيامٍ بيده، وأهلكه لموعده، فكان لعديتهم فذالك، وانتقل من ملك الموت إلى مالك.

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغا، والبيضاء صبغا، الخافقة هي وقلوب أعدائها، الغالبة هي [وعزائم أوليائها] المستضياء بأنوارها إذا فتح عنها البشر، وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر، فأفتح بلد كذا وكذا وهذه [كلها] أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلادا وهي مزارع وفُدن، وكل هذه ذوات معاقل ومعافر، وبحار وجزائر، وجوامع ومناير، وجموع وعساكر، يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها، ويحصدها منها كقرا ويزرع إيماناً، ويحط من منائر جوامعها صلباناً ويرفع أذاناً، ويبدل المذابح منائر والكائس مساجد، ويؤي بعد أهل الصلبان أهل القرآن للذب عن دين الله مقاعد. ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بحار وجرور، وأن ظفر بكل سور ما كان يخاف زلزاله وزياله إلى يوم النفخ في الصور. ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله ما نعمتهم، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم؛ فلما نازها الخادم رأى بلداً كبلاد، وجمعاً كيوم التناد، وعزائم قد تألبت وتألفت على الموت فنزلت بعرضته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته؛ فزاول البلد من جانب فإذا أودية عميقة، ولحج وعرّة غريقة؛ وسور قد أعطف عطف السوار، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار؛ فعدل إلى جهة أخرى

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان.

(٢) جواب لما الأولى مفهوم من المقام. أنظر ما كتبناه عند الكلام على هذه الرسالة فيما تقدم

كان للطامع عليها مُعَرَّجٌ ، وللخيل فيها مُتَوَجِّحٌ ، فنزل عليها ، وأحاط بها وقرب منها ؛
 وضرب خيمته بحيث يناله السَّلاحُ بأطرافه ، ويُزاحهُ السُّورُ بأكفاه ؛ وقابلها
 ثم قاتلها ، ونزلها ثم نازلها ، وبرز إليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها ؛ فضمها ضمةً
 ارتقَبَ بعدها الفتح ، وصدع أهلها فإذا هم لا يبصرون - على عبودية الخد - عن عتق
 الصفح ؛ فراسلوه ببذلِ قطيعةٍ إلى مُدَّه ، وقصدوا نظرةً من شدةٍ وانتظاراً لنجده ؛
 فعرفهم الخادِمُ في لحنِ القول ، وأجابهم بلسانِ الطول ؛ وقدم المنجنيقات التي تتولى
 عُقوباتِ الحصون عَصِيهاً وجبالها ، وأوترهم قسيها التي تضرب فلا تُفارقها سهامها
 ولا يفارق سهامها نصالها ؛ فصاحت السُّورُ بأكفاه فإذا سهمها في ثنايا شُرَفاتها سواك ،
 وقدم النصرُ نسرًا من المنجنيق يُخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماء ؛
 فشجَّ مرادع أبراجها ، وأسمع صوت عجيجهما [صم أعلاجهما] ورفع مُثارَ عجاجها ؛ فأخلى
 السُّورَ من السيَّارة ، والحربَ من النظَّارة ؛ فأمكن النَّقَابُ ، أن يُسْفِرَ للحربِ النَّقَابَ ،
 وأن يعيد الحجرَ إلى سيرته [الأولى] ^(١) من التراب ؛ فتقدم إلى الصخر فمضع سرده
 بأنياب معوله ، وحلَّ عقده بضربه الأخرق الدالَّ على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة
 الشريفة حنينه وأستغاثته إلى أن كادت ترقُّ لمقبليه ؛ وتبرأ بعضُ الحجارة من
 بعض ، وأخذ الخرابُ عليها موثقًا فلن تبرح الأرض ، وفتح في السُّورِ باباً سدَّ من
 نجاتهم أبوابا ، وأخذ ينقب في حجره فقال عنده الكافر : **(يَالَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا)** حينئذ
 يئس الكفار من أصحاب الدُّور ، كما يئس الكُفَّارُ من أصحاب القُبُور ، وجاء أمرُ الله
 وغرهم بالله الغرور .

وفي الحال خرج طاغية كُفْرهم ، وزمام أمرهم ؛ ابنُ بارزان سائلا أن يُؤخَّذَ
 البلدَ بالسلام لا بالعنوة ، وبالأمَان لا بالسُّطوة ؛ وألقى بيده إلى التهلكة ، وعلاه ذلُّ

(١) الزيادة عن وفيات الأعيان .

الْمَلَكَةِ بَعْدَ عِزِّ الْمَلِكَةِ ، وَطَرَحَ جَبِينَهُ فِي التَّرَابِ وَكَانَ جَبِينًا لَا يَتَعَاطَاهُ طَارِحٌ ، وَبِذَلِكَ مَبْلَغًا مِنَ الْقَطِيعَةِ لَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ طَرْفُ آمِلٍ طَامِحٍ ، وَقَالَ : هَاهُنَا أُسَارَى مُؤْمِنُونَ يَتَجَاوِزُونَ الْأَوْفَ ، وَقَدْ تَعَاوَدَ الْفَرَجُ عَلَى أَنْهَمُ إِنْ هُجِمَتْ عَلَيْهِمُ الدَّارُ ، وَحَمَلَتْ الْحَرْبُ عَلَى ظُهُورِهِمُ الْأَوْزَارَ ، بُدِيَ بِهِمْ فَعَجَلُوا ، وَثَنِي بِنِسَاءِ الْفَرَجِ وَأَطْفَالِهِمْ فَفُتِلُوا ، ثُمَّ اسْتَقْتَلُوا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَمْ يُقْتَلْ خَصْمٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَنْتَصِفَ ، وَلَمْ يُسَلَّ سَيْفٌ مِنْ يَدٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَقْطَعَ أَوْ يَنْقَصِفَ ، وَأَشَارَ الْأَمْرَاءُ بِالْأَخْذِ بِالْمَيْسُورِ ، مِنَ الْبَلَدِ الْمَأْسُورِ ، فَإِنَّهُ إِنْ أَخَذَ حَرْبًا فَلَا بُدَّ أَنْ تَقْتَحِمَ الرِّجَالُ الْأَنْجَادَ ، وَتَبْذُلَ أَنْفُسَهَا فِي آخِرِ أَمْرِ قَدْ نَيْلَ مِنْ أَوْلِهِ الْمُرَادَ ، وَكَانَتْ الْجِرَاحُ فِي الْعَسَاكِرِ قَدْ تَقَدَّمَ مِنْهَا مَا أَعْتَقَلَ الْفَتَكَاتَ ، وَأَعْتَقَ الْحَرَكَاتَ ، فَقُبِلَ مِنْهُمْ الْمَبْدُولُ عَنْ يَدِهِمْ صَاغِرُونَ ، وَأَنْصَرَفَ أَهْلُ الْحَرْبِ عَنْ قُدْرَةٍ وَهُمْ ظَاهِرُونَ ، وَمَلَكَ الْإِسْلَامُ خِطَّةً كَانَ عَهْدُهُ بِهَا دِمْنَةً سُكَّانَ ، نَخَدِمَهَا الْكُفْرُ إِلَى أَنْ صَارَتْ رَوْضَةَ جَنَّانٍ ، لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهَ أَخْرَجَهُمْ مِنْهَا وَأَسْبَطَهُمْ ، وَأَرْضِي أَهْلَ الْحَقِّ وَأَسْخَطَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ خَدَّوْهُمُ اللَّهُ حَمُوهَا بِالْأَسَلِ وَالصَّفَاحِ [وَبَنَوَهَا بِالْعَمَدِ وَالصَّفَاحِ]^(٢) وَأَوْدَعُوا الْكِنَاسَ بِهَا وَبِيُوتِ الدِّيْوَانِ وَالْأَسْتَبَارِيَّةَ مِنْهَا كُلَّ غَرِيبَةٍ مِنَ الرَّخَامِ الَّذِي بَطَّرْدُ مَائِهِ ، وَلَا يُطْرَدُ لِأَلَاؤِهِ ، قَدْ لَطَّفَ الْحَدِيدُ فِي تَجْزِيعِهِ ، وَتَفَنَّنَ فِي تَوْشِيْعِهِ ، إِلَى أَنْ صَارَ الْحَدِيدُ ، الَّذِي فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ، كَالذَّهَبِ الَّذِي فِيهِ نَعِيمٌ عَنِيدٌ ، فَمَا تَرَى إِلَّا مَقَاعِدَ كَالرِّيَاضِ^(٣) لَهَا مِنْ بَيَاضِ التَّرْخِيمِ رَقْرَاقًا ، [وَعَمَدًا كَالْأَشْجَارِ لَهَا مِنَ التَّنْيِيتِ أَوْرَاقًا]^(٤) .

(١) فِي وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ (ج ٢ ص ٥٨٨) وَرِسَائِلِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ "يَفْك" .

(٢) الزِّيَادَةُ مِنْ رِسَائِلِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ وَوَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ وَأَنْظَرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذَا الْمَطْبُوعِ

(ج ٦ ص ٥٠٣) .

(٣) فِي الْأَصْلِ "كَالْأَسْمَارِ" وَفِي رِسَائِلِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ "لِلرِّيَاضِ" وَالنَّصْحِيحُ مِنْ وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ .

(٤) الزِّيَادَةُ مِنْ رِسَائِلِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ وَوَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ .

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده
المورود؛ وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان فكادت السموات يتفطرن
للسجود لا للوجوم، والكواكب [منها] ينتثرن للطرب للرجوم؛ ورفعت إلى الله
كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدوده، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات
مكدوده؛ وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدُها [وجهرت الألسن بالله أكبر وكان
سحر الكفر يعقدُها] ^(١) وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر، فرحب به
ترحيب من بر بمن بر؛ وخفق علماه في حفافيه، فلو طار به سرورا لطار بجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مجد في أستفتاح بقیة الثغور، وأستشراح ماضق بتمادی
الحرب من الصدور؛ فإن قوى العساكر قد أستنفدت مواردُها [وأيام الشتاء قد
مردت مواردُها] ^(١) والبلاد الماخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلاها، ونهبت
ذخائرُها وأكلت غلالها؛ فهي بلاد ترفد ولا تسترفد، وتجم ولا تستنفد؛ وينفق عليها،
ولا ينفق منها؛ وتجهز الأساطيل لبحرها، وتقام المربط لبرها، ويدأب في عمارة
أسوارها، ومرمات معاقليها؛ وكل مشقة فهي بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة،
وأطاع الفرنج فيما بعد ذلك مذهبها غير مرجئة ولا معتزلة؛ فلن يدعوا دعوة يرجو
الخادم من الله أنها لا تُسمع، ولن تزول أيديهم من أطواق البلاد حتى تقطع .

وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص، ولا بما سوى
المسافهة تتلخص؛ فلذلك نفعنا لسانا شارحا، ومبشرا صابا؛ ينشر الخبر على
سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته .

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) وفيات الأعيان ورسائل القاضي الفاضل "ولن يفكوا" .

قلتُ : وقد وقفتُ على نسخة كتاب كُتِبَ به عن المُكْتَفَى بالله ، عند ما بعثَ محمد بن سليمان الكاتب إلى الديار المصرية ، فأتَرَعَهَا من يد بنى طولون وأستولى عليها للخليفة ، في نحو كُرَّاسِيَّة ، تاريخها سنة ثمان وستين ومائتين ، أولها : أما بعدُ فالحمد لله العليُّ الكبير ، العزيز القدير ، أَضْرَبْتُ عن ذكرها لطولها .

الصنف الثامن

(المكاتبة بالاعتذار عن السلطان في الهزيمة)

قال في "مواد البيان" : من أخلاق العاقبة تقيحُ سيرة السلطان إذا زلَّ في بعض آرائه ، والإزرأء على تدبيره في جيشٍ يُجَهِّزُهُ فُيَكْسَرُ ، ونحو ذلك : مما لا يسلم من مثله ، والإفاضة فيه والتشنيع به . فيحتاج إلى مكاتبتهم بما يتلأف الوهن ويقم العذر ، كما يكاتبهم بتفخيم المنع ، وتعظيم الفُتُوحات ، والتحدُّث بمواقع المواهب . وشكر الله تعالى على إسباغ النعم ، والإظفار بأعداء الدين والدولة : ليقوى بذلك منهم ، ويُرَهِّفَ بصائرهم ويستخلص طاعتهم ، ويملا صدورهم رهبة . قال : وليست هذه الكُتُبُ رسومٌ ينتظم كلُّ ما وقع فيها : لاختلاف ما يلام فيه ويعتذر .

ثم قال : ونحن نرسم في أصوله قولا وجيزا : وهو أن يقتضب الكاتب له المعاذير التي تحسن أحوالته ، وتستزلفه ، والمجج التي تُعيد الألام عاذرا ، والذام شاكرا ، وتوجب التقرير من حيث يجب التأييد ، والإحماد من حيث يستحق التذنيب . مثل أن يعتذر عن هزيمة جيش ، فيقول : وقد علمتم أن الحرب سجال ، والدنيا مرقوم تدال ، وقد تهت ریح النصر للقاسطين على المقسطين امتحانا من الله وبلوى ،

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى - من غير أن يُصْرَحَ
بِبَاطِلٍ ، وَلَا يُطْلَقَ كَذِبًا مَحْضًا ، وَلَا يَخْتَلِقَ زُورًا يَعْلَمُ النَّاسُ خِلَافَهُ ، فَتَضَاعَفُ
الهُجْنَةُ ، وَتَكَاثُفُ الْمِحْنَةُ ، فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَقْبَحُ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَأَقْدَحُ فِي جَلَالَةِ الشَّانِ ؛
مَنْ أَنْ يُعْثَرَ فِي كُتُبِهِ عَلَى إِيكَ قَدْ يَعْلَمُهُ بَعْضُ مَنْ يَقِفُ عَلَيْهِ ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمَدَ
فِي ذَلِكَ حُسْنَ التَّخْلِصِ وَالتَّوَرِيَةِ عَنِ الْفَرْضِ ، وَاسْتِعْمَالَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى
أَطْرَافِ الْحَالِ وَلَا تُفْصِحُ بِحَقَائِقِهَا .

وهذه نُسخةُ كتاب من ذلك .

الحمد لله الذي سَاسَ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ ، وَأَبَانَ فِيهَا مَوَاقِعَ قُدْرَتِهِ ، وَسَلَكَ فِيهَا
طَرِيقَ مَشِيئَتِهِ ، وَصَرَّفَهَا عَلَى مَا رَأَاهُ عَدْلًا بَيْنَ الْعِبَادِ فِي أَقْسَامِ نِعْمَتِهِ وَمِحْنَتِهِ ، وَأَحْوَالَ
بَلَوَاهُ وَعَافِيَتِهِ ، وَجَعَلَ الْأَيَّامَ فِيهِمْ نُوبًا ، وَالْأَحْوَالَ بَيْنَهُمْ عُقَبًا ، نَحَصَّ أَوْلِيَاءَهُ وَأَهْلَ
طَاعَتِهِ بِالنَّصْرِ فِي الْمَحَاكِمِ ، وَالصَّالِحِ عِنْدَ الْمُخَاصِمِ ، وَالظُّهُورِ عَلَى مَنْ شَاقَّهُمْ وَعَادَاهُمْ ،
وَالْقَهْرِ لِمَنْ ضَادَّهُمْ وَنَاوَاهُمْ ، إِنْجَازًا لِمَا وَعَدَ بِهِ الصَّابِرِينَ الْمُتَحَسِّبِينَ ، وَإِعْزَازًا لِلَّذِينَ
وَأَنْصَارَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَمْ يُخَلِّ أَعْدَاءَهُ مِنْ دَوْلَةٍ أَدَالَهَا لَهُمْ ، وَجَوْلَةٍ عَلَى الْحَقِّ زَادَهَا
فِي طُغْيَانِهِمْ ، وَوَصَلَ الْإِمْلَاءَ لَهُمْ فِيهَا يَخْذُلَانَهُمْ : لِيَجِبَ الثَّوَابُ لِلْحَسَنِينَ ، وَيَحِقَّ
الْعَذَابُ عَلَى الْكَافِرِينَ . فَقَالَ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ - وَقَدْ ظَهَرَ الْمَشْرُكُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ -
(إِنَّ يَمْسُكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ) .
وَقَالَ : (لِيَمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) ، وَنَاوَبَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ
فِي الْمَصَائِبِ ، وَالْمَوَاقِبِ ، وَالْمَسَارِ ، وَالْمَضَارِ ، لِيَشْفِيَ اللَّهَ حُدُودَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِيَمَحَّصَ
مَا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَيُوجِبَ لَهُمْ إِخْلَاصَ السَّرَائِرِ فِي طَاعَتِهِ ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ ، وَالنُّصْرَةَ

لرسوله ، والمُرَامَاةِ عن دينه ، والمدافعةِ عن حريمه ؛ ضِعْفَ الثَّوَابِ وَحُسْنَ الْمَأْتَابِ ،
وَيُجَلُّ بِالْمَشْرُوكِينَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي دَارِ الْجَزَاءِ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ .

وإذا كان الحال بين الفريقين المتلاقين ، والفئتين المتجاورتين ، والحزبين
المتحاكين ؛ في تعاور الغلبه ، وتعاقب الدوله ؛ جاريا على تقدير الله ومتصرفا على حكمه ،
مُتَسَوِّقًا على ماسبق في علمه ؛ فليس يُغْنِي في ذلك زيادة عدد ، ولا اتصال مدد ؛
ولا قوة أيد ، ولا لطف كيد ؛ ولا اختيار وقت محمود للقتال ، ولا الانتخاب لأهل
البسالة والتجدة من الرجال ؛ ولا يجب أن يستريث النصر من أبطأ عنه ، ويستشعر
الجزع من نال خصمه منه ؛ بعد تحصيله السلامة في نفسه ، وقيام العذرله بعنايته
وجده ؛ وقد جمع الله للأمر من المناقب - التي ورثها عن آبائه ، وحازها في صدره ؛
والحياسة فيما بان من فضل بأسه ، وثبات جأشه ؛ وأصالة رأيه ، وصحة تدييره ؛ وإيفائه
الحرب شروطها ، والهيجاء حقوقها ؛ من الحزم والتؤدة ، والإقدام عند الفرصه ؛
والإصابة في التقدير والتعبير ، والأحياط في سد مواقع الخلل والعمور ، وإعمال
النظر والرؤية ؛ لولا اعتراض القضاء الذي هو مالك نواصي العباد ، وغير مدفوع
بمحال ولا جلاد ، ولا قوة ولا عدة ولا عتاد - ما أوفى حسنه على منزلة الظفر ،
وزاد عظمه في السناء والخطر ؛ إلى ما شمل عسكره في منقلبه بمراعاته لهم ، ومدافعتيه
من ورائهم ؛ حتى توافى الجمع موفورين ، وأبوا سالمين غانمين ؛ وبالله الحول والقوة
وعليه ضمان الإدالة على ما جرى به وعده الصادق ، وأخبر عنه كتابه الناطق ؛ وهو
حسب أمير المؤمنين وكافيه ، وناصره وواليه ، ونعم الوكيل والظهير ، والمولى
والنصير ؛ وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وإمام المتقين ، وآله الطيبين
أجمعين ؛ وسلم تسليما .



وفي مثله من إنشاء أحمد بن سعيد .

احكام الله جلّ جلاله جارية على سبيل جامعة لوجوه الحكمة ، منتظمة لأسباب
الصلاح والمعدله . فمنها ما عرف الله أوليائه والمندوبين بطاعته ، والمجموعين
بهدياته ؛ طريق المراد منه ، وسبب الداعي إليه ، والعلّة فيما قضى من ذلك لحينه ،
والصورة المقتضية له . ومنها ما استأثر بعلمه ، وطوى عن الخلق معرفة حاله ؛ فهو
- وإن أشكل عليهم موضع الحاجة إليه ، وموقع العائدة به ؛ ورؤى بهم اضطراباً
في ظاهره عند تأملهم إياه بمقادير عقولهم ، ومبالغ أفهامهم - مبني على أوثق أساس
الحكمة ، وأثبت أركان الصواب على الجملة ؛ وكيف لا يكون كذلك ؟ والله خالق
الأشياء كلها ، وعالم بها قبل كونها ؛ في أحوال تكوينه إياها وبعده في منزع غاياتها
ومقضى عواقبها ؛ فليس تخفى عليه خافية ، ولا تعزب عنه دانية ولا قاصية ؛ ولا يسقط
عن معرفته فصل ما بين الخاطرين والوهميين في الخير والشر ، وما بين الجبلين والدرين
في الوفور والغمور ، فكيف بما يبرزه الظهور ؛ ويخبر فيه عن موضع التدبير ، المحتاج
فيه إلى إحكام الصنعة وإتقان التقدير ؛ ومن ظن أن شيئاً من ذلك يخرج عن نهج
الصواب ، ويخالف طريق الصلاح ؛ فقد ضلّ من حيث ضلّ ، وغلط من
حيث غلط ؛ وأتصل سوء ظنه ، وفساد فكره ؛ بالزراية على فعل ربه ، تعالى عن
قول المبطلين ، ورجم الشياطين .

ثم إن لله جلّ جلاله عادة في الجيوش المتحارين ، والحزبين المتحاكين ؛ من
عباده المؤمنين ، وأضدادهم المتسددين الملحدين ؛ في المداولة بينهما ، والمعاقبة
بين الفيتين منهما ؛ في العجز والظهور ، والوفاء والقصور ؛ والمعافاة والامتحان ،

وَالنَّصْرَ وَالْحِذْلَانَ ؛ وَالإِعْلَاءَ لِرَأْيَةِ الْحَقِّ فِي حَالٍ ، وَالإِمْلَاءَ لِلْبَاطِلِ فِي أُخْرَى ؛
 بِتَضْمِينِ الْخَيْرَةِ لِأَوْلِيَائِهِ ، وَالِدَائِرَةَ عَلَى أَعْدَائِهِ ؛ عَاجِلًا بِالتَّمَحِيصِ لِهَؤُلَاءِ ،
 وَبِالْمَحَقِّ لِأَوْلِيَاكَ ؛ بِمَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ مُصِيبَتِهِ ، وَيُنَوِّبُهُمْ فِي حَاضِرِ الدُّنْيَا مِنْ رَغْبَتِهِ ؛
 وَيُجِلُّ الْعَادِينَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ دَارَ الْفَاسِقِينَ ، وَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقِيْنَ (١) ؛ وَمِنْ سَعْدٍ
 بِقِسْمٍ مِنَ التَّوْفِيقِ ، وَحَظٍّ مِنْ فَائِدَةِ الْإِرْشَادِ ؛ فَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بَزِيَادَةِ
 أَنْصَارٍ وَعِدَّةٍ ، وَفَضْلٍ عِتَادٍ وَعُدَّةٍ ؛ وَبَسَالَةٍ وَنَجْدَةٍ ، وَأَيْدٍ وَقُوَّةٍ ، وَسَعَةٍ وَبَسْطَةٍ ؛
 وَلَا يَعْدُو أَنْ يُسَلِّمَ اللَّهُ تَعَالَى قَاضِيًا لَهُ وَعَلَيْهِ ، وَيُوفِي بِإِحْدَى الْحُسْنَيْنِ مِنْ عُلُوِّهِ ،
 أَوْ غَلْبَةِ عُدُوِّهِ ، أَوْ يَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ؛ وَهُوَ حَسْبُهُ مُنْعِمًا ، وَمُتَّجِحًا وَمُعَافِيًا وَمُسَلِّمًا ؛
 وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستعمل بين الكُتَّابِ ، دَائِرَ
 فِي مُصْطَلَحَاتِهِمْ إِلَى الْآنَ . وَلِلشَّيْخِ شَهَابِ الدِّينِ مُحَمَّدِ الْحَلَبِيِّ فِي ذَلِكَ تَفْنِنَاتٌ
 كَثِيرَةٌ ؛ أورد بعضها في كتابه "حُسن التَّوَسُّلِ" .

فمن ذلك ما أنشأه فيمن هزيم هو وجيشه ، يتضمَّن إقامة عُدْرِهِ ، وَوَصْفَ آجْتِهَادِهِ ؛
 وَيَحْتُّ عَلَى مَعَاوِدَةِ عَدُوِّهِ ، وَالطَّلَبِ بِنَارِهِ ؛ وَهُوَ :

هذه المكاتبه إلى فلان : لا زال مأمون الغره ، مأمول الكره ، مجتنبًا حلو الظفر
 من أحكام تلك المرّة المره ؛ راجيا من عواقب الصبر أن يسفر له مساء تلك المساءة
 عن صبح المسره ، وانقا من عوائد نصر الله بإعادته ومن معه في [القوة و] (٢) الاستظهار
 كما بدأهم أول مره .

(١) بياض في الأصل ولعله "فليس أنتصاره" تأمل .

(٢) الزيادة من "حسن التوسل" (ص ١١٧) .

أصدرناها وقد اتصل بنا نبأ ذلك المقام الذى أوضحت فيه السيوف عُدَّهَا ،
وأبَدَتْ به الكُفَّةَ صَبْرَهَا ؛ وأظهرت فيه الحِمَاةَ من الرِّثَابِ والثَّبَاتِ ما يَجِبُ عليها ،
وبَدَلَتْ فيه الأبطالَ من الجِلَادِ جُهْدَهَا وَلَكِنْ لم يَكُنِ الظَّفَرُ إليها ؛ وَكَانَ عليهم
الإِقْدَامُ على غَمَرَاتِ المَنُونِ ، والأَصْطِلَاءِ بِجَمْرَاتِ الحَرْبِ الزَّبُونِ ، ولم يَكُنْ عليهم
إِثْمَامٌ ما قَدَّرَ أَنَّهُ لا يَكُونُ ؛ فَكَابَرَتْ رِقَابُ الأعداءِ فى ذلك المَوْقِفِ السُّيُوفِ ، وَكَاثَرَتْ
أَعْدَادُهُم الحُتُوفِ ، وَتَدَفَّقَتْ بِحَارِهِمُ على جَدَاوِلِ مَنْ مَعَهُ وَلَوْلا حُكْمُ القَدْرِ لا تَنَصَّفَتْ
تلك الآحادُ من تلك الألوفِ ؛ فَضَاقَ بِأَزْدِحَامِ الصَّفُوفِ على رِجالِهِ المَجَالُ ، وَزَادَ
العَدَدُ على الجِلْدِ فلم يُفِدْ لَهُ الإِقْدَامُ على الأوجالِ مع قُدُومِ الآجالِ ؛ وَأُمِّلِي للكافرينِ
بِما قَدَّرَ لَهُمُ مِنَ الإِنْظَارِ ، وَحَصَلَ لَهُمُ مِنَ الأَسْتَظْهَارِ ، وَعُوْضُوا بِمَا لَمْ يَعْرِفُوهُ مِنَ الإِقْدَامِ
عَمَّا أَلْفُوهُ مِنَ الفِرَارِ . (وَأَوْلَا دَفَعَ اللهُ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضًا لَفَسَدَتِ الأَرْضُ)
وقد ورد أنهم يُنصرون كما نُصِرَ ، وَإِذَا كَانَتِ الحُرُوبُ سِجَالًا فلا يُنْسَبُ إلى مَنْ
كَانَتْ عَلَيْهِ [وَبِأَلَا] إِذَا أَجْتَهَدَ وَلَمْ يُسَاعِدْهُ القَدْرُ أَنَّهُ قَصْرٌ . مع أَنَّهُ قد أَشْتَهَرَ بِما فَعَلَهُ
فى سِجَالِهِ ، مِنَ الذَّبِّ عَنِ رِجالِهِ ؛ وَمَا أَبْدَاهُ فى قِتَالِهِ ، مِنَ الضَّرْبِ الذى ما تَرَوِي
فِيهِ خَصْمَهُ إِلا بَدْرَهُ بارْتِجالِهِ ؛ وَأَنَّ الرِّمَاحَ التى أَمْتَدَتْ إِليه أَنحَرَسَ سَيْفُهُ أَلْسِنَةً
أَسْتَبَّهَا ، وَالجِيَادَ التى أَقْدَمَتْ عَلَيْهِ جَعَلَ طَعْنَةً أَكْفَالَهَا مَكَانَ أَعْيُنِهَا ؛ فَأَبْتَتْ
فى مُسْتَنْقَعِ المَوْتِ رِجالَهُ ، وَوَقَفَ وَمَا فى المَوْتِ شَكٌّ لَوَاقِفٍ لِيَحْمِيَ خَيْلَهُ وَرِجالَهُ ؛
حَتَّى تَحْمِزَ أَصْحَابُهُ إِلى فِئَةٍ مَأْمُونِهِمْ ، وَأَقَامَ نَفْسَهُ دُونَهُمْ دَرِيئَةً لِمَنْ بَدَرَ مِنَ سَرَعَانَ القَدْرِ
أَوْ ظَهَرَ مِنْ مَكْنِهِمْ ؛ وَهَذَا هُوَ المَوْقِفُ الذى قامَ لَهُ مَقامُ النِّصْرِ ، إِذْ فَاتَهُ النُّصْرَاءُ
وَفاتَهُ النُّصْرُ ؛ وَالمَقامُ الذى أَصِيبُ فِيهِ مِنْ أَصْحَابِهِ آحادٌ يَدْرِكُهُمُ أَذنى العَدَدِ وَفُقِدَ

فيه من أعدائه مع ظهورهم ألوْف لا يدركهم الحَصْر؛ [وكذا فليكن قلب^(١)] الجيش كالقلب يقوى بقوته الجَسَد، وإذا حقَّ اللقَاءُ فلا يفِرُّ عن كَنَاسِه إلا الظُّبى ولا يجي [عَربينه^(١)] إلا الأسد؛ وما بقى إلا أن تَعْفُو الكُلُوم، وتُثَوِّب الحُلُوم؛ وتَسَدِّمِل الجِرَاح، وتَبْرَأ من فُلُول المَضَارِب صُدُور الصَّفَاح؛ وتنهَض لأقتضاء دين الدين، من غُرْمَانِه المعتدين؛ وتَبَادِر إلى استنجاز وعد الله بأن الله يَحْصُص المؤمنين، ويَحَقِّق الكافرين؛ واللَّيْثُ إذا جَرِحَ كان أشدَّ لثبَاتِه، وأمدَّ لوثبَاتِه؛ والمَوْتُور لا يُصْطَلِي بناره، والثَّائِرُ لا يَرَهَبُ الإقدامَ على المَنُونِ في طلب نَارِه؛ والدهر ذُو دُولٍ، والزمان مُتَلَوِّن إن دَجَّتْ عليكم منه بالقَهْر ليلةً واحدةً فقد أشرقت لكم منه بالنَّصْر لَيْالٍ أول، فالْمَوْلَى لا يلتفت إلى مافات، ويُقْبَلُ بفكرِه على تَدْيِير ما هوآت؛ ويُعِدُّ للحرب عُدَّتِه، ويعجل أمدَّ الأستظهار ومُدَّتِه؛ ولا يُؤخِّرُ قُرْصَةَ الإمكان، ولا يعيد ذِكْر مَاضِي فإنه دخل في خَبَر كان؛ ولا يُظْهِرُ بما جَرَى عَجْزًا، فإن العاجز من ظَنَّ أنه يُصِيب ولا يُصَاب، ولا يَتَّخِذُ غير ظَهْر حِصَانِه حِصْنًا فلا حِرْزَ أَمْنٍ من صَهْوَةِ الجَوَادِ ولا سَلَمَ أَسْلَمٍ من الرِّكَاب؛ وليَعْلَم أن العاقبة للثقين، ويدَّرِعُ جَنَّةَ الصَّبْرِ ليكون من النَّصْرِ على ثِقَةٍ ومن الظَّفَرِ على يَقِينٍ، فإن الله مع الصَّابرين؛ ومن كان الله معه كانت يَدُه الطُّولَى، وإذا لقي عَدُوَّ الله وَعَدُوَّه فليَصْبِرْ لِحَمَلَتِه فإن الصَّبْرَ عند الصَّدْمَةِ الأولى؛ والله تعالى يَكْلُوهُ بَعِينِه، وَيُمِدُّهُ بِعَوْنِه، ويجعلُ الظَّفَرَ بَعْدُوهُ موقوفًا على مطالبته له بَدِينِه .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) "حسن التوسل" ولا يفتن ماجرى الخ .



ومن ذلك ما كتبه على لسان المهزوم يتضمن الاعتذار ، وَيَصِفُ الْأَحْتِفَالَ
بأخذ الشار .

هذه المكتبة إلى فلان : أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسره ، وبلغه
عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصفاح وألسنة الرماح سرد ، وأراه
من عواقب صنعه الجميل بنا ما يتحقق به أن كسوف الشمس لا ينال طلعتها وإن
سرار القمر لا يضره . توضح لعلمه أنه ربما اتصل به خبر تلك الواقعة التي صدقنا فيها
اللقاء ، وصدمننا العدو صدمة من لا يحب البقاء ، وأريناه حرباً لو أعانها التأيد فالتنا
بحرعه ، وأذقناه ضرباً لو أن حكم النصر فيه إلى النصل أوجدته مصارعه وأعدمه
رجوعه . وحين شرعت رياح النصر تهب ، وسحاب الدماء من مقاتلهم تصوب
وتصب ، وكرعت الصفاح في موارد محورهم ، وكشفت الرماح خبايا صدورهم ،
وما بقى إلا أن تستكمل سيوفنا الرى من دماهم ، وتقف صفوفنا على ربوات أشلائهم ،
وتقبض بالكف من صفحت الصفاح عن دمه ، وتكف بالقبض يد من ألبسته
الجراح حلة عنده ، أظهروا الخرع في عزائمهم ، وحكموا الطمع في غنائمهم ، فحصل
لجندنا عجب أعجل سيوفنا أن تيم هدم بناهم ، وطمع منع جيوشنا أن تكف عن
النهب إلى أن تصير من ورائهم ، فاعتنم العدو تلك الغفلة التي ساقها المهلكان ، العجب
والطمع ، وأنتهز فرصة الإمكان ، التي أعانه عليها [المطمعان] إبداء الخلع ، وتخليه ما جمع ،

(١) كذا في حسن التوسل وفي الأصل "الفقرة" ولعلها مصحفة عن «الغفوة» .

(٢) في حسن التوسل "فرصة" "الكرة" .

(٣) الزيادة عن حسن التوسل (ص ١١٩) .

فانتثر [من جمعنا] ^(١) بعض ذلك العِقْدِ المُنظَّم ، وانتقض من حزيننا ركن ذلك الصَّف الذي أخذ فيه الزَّحَامُ بالكَظْم ، وثبت الخادم في طائفة من ذوى القُوَّة في يقينهم ، وأرباب البصائر في دينهم ، فكسرتنا جفون السيوف ، وحطمتنا صدور الرماح في صدور الصفوف ، وأرينا تلك الألوف كيف تُعدّ الآحاد بالألوف ، وحلنا بين العدو وبين أصحابنا بضرب يكف أطاعهم ، ويرد سراعهم ، ويعمي ويصم عن الآثار والأخبار أبصارهم وأسماعهم ، إلى أن نقسنا للنهزم عن خناقه ، وآيسنا طالبه عن لحاقه ، ورددناه عنه خائباً بعد أن كادت يده تتعلق بأطواقه ، وأحجم العدو مع ما يردنا من قتلنا عن الإقدام علينا ، ورأى منا جِداً كاد لولا كثرة جمعه يستسلم به إلينا ، وعادوا ولنا في قلوبهم رعبٌ يثنيهم وهم الغالبون ، [ويُدركهم وهم الطالبون] ^(٢) ويسلبهم رداء الأمان وهم السالبون ، وقد لم الخادم شعث رجاله ، وضم فرقتهم بذخائر ماله ، وأمدتهم بنفقات أصلحت أحوالهم ، وأطلقت في طلب عدو الله أقوالهم ، وسلاح جدد استيطاعتهم ، وأعان شجاعتهم ، وخيول تكاد تسابقهم إلى طلب عدوهم ، وتحفظهم على أخذ حظهم من اللقاء كأنها تساهمهم في أجر رواحهم وعدوهم ، وقد نضوا رداء الإعجاب عن أكافهم ، واعتصموا بعون الله وتأييده لا بقوة جلاهم ولا بجدة أسياهم ، وسيعجلون العدو - إن شاء الله تعالى - عن أندمال جراحه ، ويتعجلون إليه بجيوش تسوءه طلائعها في مسائه وتصبحه كائبها في صباحه ، والله تعالى لا يكفنا إلى جلاينا ، ولا يترع أعنة نصره من يدنا .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩١٩) .

(٢) الأصل "رضيتهم" وتصحيح عن حسن التوسل .

الصنف التاسع

(المكاتبة بتوبيخ المهزوم وتقريعه والتهمك به)

وهذا النوع من المكاتبات قليل الوقوع، ولذلك لم يتعرض إليه في "مواد البيان".
والذى ينبغى أن تُبنى المكاتبة فيه عليه ذكر هزيمة المهزوم وما استولى عليه من الغلبة والقهر، وصورة الحال في النصرة عليه، والأستيلاء على بلاده وأمواله وسائر ذات يده، وأسير رجاله، وأسترقاق ذراريهم ونسائهم، وما يجرى مجرى ذلك: مما فيه إيلام خاطره، وتقطيع قلبه حسرات على ما ناله، ونحو ذلك مما يدعو المكتوب إليه إلى الطاعة، ويوجب الأتقياد.

وهذه نسخة كتاب من هذا النمط: كتب به القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، إلى البولس تيمد ملك الفرنج، المستولى على طرابلس من الشام، وأنطاكية من بلاد العواصم حين غزاه الملك (١) في طرابلس، ثم قصد أنطاكية فأخذها من عانه، وهى: (٢)

قد علم القومص الجليل المتقلبة مخاطبته - بأخذ أنطاكية منه - من البولسية إلى القومصية؛ ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصده، وجعل النصيحة محفوظة عنده؛ ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار، وما شاهدته بعد رحيلنا من إخراب العمار وهدم الأعمار؛ وكيف كُنست تلك الكئاس من على بساط الأرض ودارت الدوائر على كل دائر، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر؛ وكيف قطرت الرجال وأستخدمت الأولاد وتملكت الحرائر، وكيف قطعت الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق - إن شاء الله تعالى - والستائر؛

(١) كذا بالأصل باهمال النقط وفي "الكامل" لابن الأثير (ج ١٠ ص ٢٥٤) "بميد".

(٢) بياض بالأصل مقدار كلمة.

(٣) كذا بالأصل ولعله "منه عنوة".

وكيف نُهِبَتْ لك ولرعيَّتِكَ الأموال والحريم والأولاد والحواشي ، وكيف استغنى
 الفقير وتاهل العازب واستخدم الحرِّيم وركب الماشي ؛ هذا وأنت تنظر نظراً المغشي
 عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتنا قلت فزعاً : على هذا الصوت ؛ وكيف رحلنا
 عنك رحيل من يمُود ، وأخرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود ؛ وكيف فارقنا
 بلادك وما بنيت فيها ماشيه ، إلا وهي لدينا ماشيه ؛ ولا جاريه ، إلا وهي في ملكنا
 جاريه ؛ ولا ساريه ، إلا وهي بين أيدي المعاون ساريه ؛ ولا زرع إلا وهو محصود ،
 ولا موجود إلا وهو منك مفقود ؛ وما منعتك تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال
 الشاهقه ، ولا تلك الأودية التي في التخوم مُحترقة وللعقول خارقة ؛ وكيف سُقْنَا
 عنك ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق
 أننا نبعد عنك وإن بعدنا فسنعود على الأثر ؛ وهاتحن نعلمك بما تم ، ونفهمك
 بالبلاء الذي عم .

كان رحيلنا عنك من طرابلس يوم الأربعاء ، وتزولنا أنطاكية في شهر رمضان ؛
 وفي حال النزول خرجت عساكرك للمبارزة وتناصروا فما نصرُوا . وأسر من بينهم
 كد اسطل فسأل في مراجعة أصحابك ، فدخل إلى المدينة ، فخرج هو وجماعة من
 رهبانك : وإن رأيهم في الخير مختلف ، وقولهم في الشر واحد ؛ فلما رأيناهم قد فات
 فيهم الفوت ، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت ؛ رددناهم وقلنا : نحن الساعة لكم
 مُحاصِر ، وهذا هو الأول في الإنذار والآحر ؛ فرجعوا به مُتَشَبِهِينَ بِفِعْلِكَ ، ومعتقدين
 أنك تدركهم بخيلك ورجلك ؛ ففي بعض ساعة مرشان المرشان ، ودأخل الرهب
 الرهبان ؛ ولأن للبلاء القسطلان ، وجاءهم الموت من كل مكان ؛ وفتحناها بالسيف

(١) لم يرد في كتب اللغة جمع المعارة على مغاير ، وإنما جمعه مغارات .

(٢) كذا في الأصل باهمال جمع الحروف .

في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان؛ وقتلنا كل من اخترته لحفظها
 والمحاماة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا فما بقي أحد منا إلا وعنده
 شيء منهم ومنها؛ فلورأيت خيالتك وهي صرعى تحت أرجل الخيول، وبارك
 والنهاية فيها تصول والكسابة فيها تجول؛ وأموالك وهي توزن بالقطار، وإماءك
 وكل أربع منها تباع فتشترى من مالك بدينار؛ ولورأيت كائسك وصلبانها قد كسرت
 ونثرت، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت، وقبور البطارقة وقد تغيرت؛
 ولورأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القدس، والسذج وقد ذبح فيه الذهب
 والقسيس والشماس؛ والبطارقة وقد دهموا بطارقه، وأبناء المملكة وقد دخلوا
 في المملكة؛ ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تحترق، والقتلى بناير الدنيا قبل نار
 الآخرة تحترق؛ وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسه بونصر وكنيسة الفسيان
 وقد زلت كل منهما وزالت - لكنت تقول: ياليتني كنت ترابا، وياليتني لم أوت
 بهذا الخبر كتابا؛ ولكانت نفسك تذهب من حسرتك، ولكنت تطفي تلك النيران
 بماء عبرتك؛ ولورأيت مغانيك وقد أقفرت، وعمراك وقد أخذت في السويديه
 بمراكبك، لصارت شوانيك من شوانيك؛ ولتيقنت أن الإله الذي أنطاك أنطاك
 منك أسترجعها، والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعتها ومن الأرض آفنتها، ولتعلم
 أنا قد أخذنا - بحمد الله - منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام، وهو دركوش
 وشقيف تل منس^(١)، وشقيف كفردين، وجميع ما كان لك في بلاد أنطاك
 في هذه المدة إقامة(?) وكونك ما كنت بها، فيكون إما قتيلا وإما أسيرا، وإما جريحاً

(١) في الاصل "نليس" ولم نعر عليه في المعجم والذي في معجم البلدان لياقوت أن تل منس حصن
 قرب معرة النعمان بالشام.

وإما كسيراً، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحيُّ إذا شاهد الأموات، ولعلَّ الله
 إنما أنكر لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات؛ ولمَّا لم يسلم أحدٌ يخبرك
 بما جرى خبرناك، ولمَّا لم يقدر أحدٌ [أن] يشارك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك
 ما سواها بأشركك بهذه المفاوضة وبشركك، لتتحقق الأمر على ما جرى، وبعد هذه
 المكتابة لا ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً، كما أن بعيد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل
 عما جرى.



وهذه نسخة في هذا المعنى، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهي:
 هذه المكتابة إلى فلان أقال الله عثرة زلت به، وأقامه من حفرة ذلته، وتجاوز له
 عن كبيرة فراره من جمع عدوه على قلبه.

بلغنا أمر الواقعة التي أتى فيها [العدو] بجمع قليل غناؤه، ضعيف بناؤه، كشف
 في رأي العين جمعه، خفيف في المعنى وقعه وتنعته بأسرع في مفارقة المجال، من الظل
 في الانتقال، وأشبه في مماثلة الوجود بالعدم من طيف الخيال، يمشون إليه
 بقلب واجب، ويهتدون من تحرّصه برأي بينه وبين الصواب ألف حاجب،
 ويأتون منه بمقدم يرى الواحد من عدوه ألفاً، ويتسرعون منه وراء مقدّم يمشي
 إلى الزحف ولكن إلى خلف، جناح جيشه مهيب، وطرف سنانة غضيب،
 وساقه عسكره طائفة، وطلائعه كالنجوم ولكن في حال كونها راجعة، وأسف
 السيوف يمينه على ضارب، وتأسى الخائب حوله إذ تعدّ لمحارب فتعدّ لهارب.

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨).

(٢) في الاصل "يختمون به" والتصحيح من "حسن التوسل".

(٣) كذا في "حسن التوسل" والذي في الاصل "ويهتدون من تجربته وتهديبه بيده" الخ، ولا معنى له.

وأنه حين وقعت العين على العين ، وأيقن عدوه لما رأى من عدده وعدده معالجة الحين ، أعجل نُصول العدا عن وُصولها ، وترك غنيمة الظفر لعداه بعد أن أشرف على حصولها ؛ تتأديه السنة أسنته : الكرة الكرة فلا يلوى إلى نداءها ، وتشكو إليه سيوفه الظماً وقد رُت موارد الوريد فيردّها إلى العمود بدائها ؛ ففتح عدوه مقاتل رجاله ، وأباحهم كرائم مال جنده وماله ؛ وخلى لهم نرائن سلاحه التي أعدها لقتالهم فأصبحت معدة لقتاله ؛ ففجأ منجى الحارث بن هشام ، وآب بسلامة أعذب منها لو عقل - شرب كأس الحمام ؛ وآتسم بين أوليائه وأعدائه بسيمة الفرار ، وكان يقال : النار ولا العار ، بجمع له فراره من الرحف بين النار والعار ؛ وعاد بجمع موفور من الجراح ، موقر من الإثم والأجترأح ؛ لا علم بما جرى عند أسياقهم ، ولا شاهد بمشاهدتهم الوغى غير مواقع الضبا في أكافهم ؛ فباى جنان يطمع في معاودة عدوه من هذا قلبه - وهؤلاء حزبه ، [وذلك القتال قتاله وتلك الحرب حربته] .

وبعد فإن كانت له حمية فستظهر آثارها ، أو أريحية فستشيب نارها ؛ أو ألفة فستحمله على غسل شدة الدنية ، وتبعته على طلب غايتين : إما شهادة سيئة أو حياة هنية ؛ والله تعالى يوقظ عزمه من سنته ، ويعجل له الأتصاف من عدوه قبل إكمال سنته .

الفصل العاشر

(في المكاتبات بالتضييق على أهل الجرائم)

قال في "مواد البيان" : لم يزل السلطان يكتب إلى الولاة مستند ما يندبى إليه [] من إقدام الرعايا على ارتكاب الجرائم ، وأستباحة المحارم ، وأقتراف المآثم ؛ كالزنا

(١) في "حسن التوصل" «ولا ياتفت» .

(٢) الزيادة عن "حسن التوصل" (س ١١٩) .

واللواط، وشرب الخمر، وقطع الطرُق، والغصب والتظالم، وما يجري هذا المجرى -
بالتضييق عليهم، وإقامة حدود الله تعالى فيهم .

قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله البادئ بنعمته قبل افتراض طاعته، الممتن
بفضله قبل إيجاب شكره، خالق الخلائق جوداً وكرماً، وموسعهم مناً ونعماء، الذي
أختار دين الإسلام وطهره من الأرجاس، ونزهه عن الأدناس، وأختص به صفوته
من الناس، وأبتعث به محمداً سيد المرسلين : ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ
عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . يحمده أمير المؤمنين أن فوض إليه إيا الله خلقه، وأقدره على القيام
بخدمته، ونصبه لإشراز دينه، والمحافظة على مفروضه، مسنونته، وزيادة العباد
عن محاربه التي نهى عن التعدي إليها، وإقامة الحدود عليهم فيها، ويسأله الصلاة
على محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم يقال : وإن أمير المؤمنين يرى أن من أعظم نعم الله تعالى عليه توفيقه لحفظ
ما استحفظه من شريعته، ورعاية ما استرعاه من بريته، وتوفير القيام على من قلده
النظر فيهم، وأعتاد ما يعود بالصالح في الدين والدنيا عليهم، ومساواته بين قريبهم
وبعيدهم في تفقده، ومماثلته بين قاصيهم ودانيهم في تعهده، فلا ينال القريب [فقط]
نصيهاً من رعايته ويعلم جاهلهم، ويهدي حائرهم، ويشهد بصائرهم، ويتقف
مآئدهم، ويصلح فاسدهم، ويتخولهم من مواعظه بما يبرد الغلل، ويشفي العلل،
وينسخ الشك باليقين، ويقبس مقياس النور المبين [فمن] أصفى إلى إرشاده سعد
جده، وورى زنده. وأحمد يومه وغده، ومن خالف عن أمره ضل مسعاه، وخسر
آخريته ودنياه، ودعا إلى اتباع أمر الله تعالى في تقويمه وإصلاحه، والكف بإقامة
الحدود عليه من حماحه .

وَأَتَيْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ الْأَحْدَاثُ وَأَهْلُ الدَّعَاةِ قَبْلَكُمْ مِنْ أَحْتِقَابِ
الْآثَامِ، وَأَسْتِدْمَاتِ مَرَائِبِ الْحَرَامِ، وَالْأَسْتَهَارِ بِمَحْظُورِ اللَّذَاتِ، وَالْإِتْكَابِ عَلَى
دِينِ الشَّهَوَاتِ، الَّتِي تَسْلُخُ مِنَ الدِّينِ، وَتُخْرِجُ عَنْ دَائِرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَدْفَعُ عَنْ تَأْدِيَةِ
الْعِبَادَاتِ، وَإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ، وَتَنْظِمُ فِي سِلْكِ الْبَهَائِمِ الْمُرْسَلَةِ، وَالسَّوَامِ الْمُهْمَلَةِ.
وَتَقْصِيرُ مَشَائِحِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ عَنْ كَفِّهِمْ، وَالْأَخْذِ عَلَى أَكْفِهِمْ، وَتَعْرِيفِهِمْ وَجُوهَ
مُرَاشِدِهِمْ وَتَقْوِيمِ أَوْدِهِمْ، فَأَمْتَعَضَ مِنْ ذَلِكَ، وَأَشْفَقَ مِنْ نَزُولِ الْقَوَارِعِ وَالْمَثَلَاتِ،
وَحُلُولِ الْبَلِيَّاتِ وَالْآيَاتِ، وَأَرْتَجِعُ مَا أُوَدِّعُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نِعْمَتِهِ، وَأَنْتَرِعُ مَا أَلْبَسُكُمْ
مِنْ رَحْمَتِهِ، وَبَادِرُ بِكِتَابِهِ مُوقِظًا لِعَافِكُمْ، وَمُبَصِّرًا لِدَاهِلِكُمْ، وَبَاعِثًا لَكُمْ عَلَى مَرَاضِيهِ
الْأُولَى، وَمَعَاوِدِ الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَى، وَمِبَادِرِ آجَالِكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، وَالْأَخْذِ لِأَنْحَرَاكُمْ
مِنْ أَوْلَاكُمْ، وَلَسَقِمِكُمْ مِنْ صِحَّتِكُمْ، وَلِنَوْمِكُمْ مِنْ يَقِظَتِكُمْ، عَالِمِينَ بِأَنَّ الدُّنْيَا لَعِبٌّ
وَهُوَ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ، وَأَنْكُمْ فِيهَا كَسْفِيرٌ شَارَفُوا الْمَنْزِلَ. فَاجْهَدُوا عِبَادَةَ اللَّهِ
وَأَحْتَشِدُوا، وَأَقْلِعُوا وَأَرْجِعُوا، وَأَسْمِعُوا وَعُوبُوا، فَكُنْكُمْ وَاللَّهُ وَقَدْ تَوَضَّعْتُ خُدْعُهَا،
وَتَصَرَّمُ مَتَاعُهَا، وَجَلَّ مَتَوَقَّعُهَا، وَالسَّعِيدُ مَنْ وَثِقَ بِمَا قَدَّمَ لِنَفْسِهِ بَعْدَ نَفَادِ أَيَّامِهِ،
وَوُرُودِ حِمَامِهِ، وَالشَّقِيُّ مَنْ أَفْرَطَ وَفَرَطَ، وَنَدِمَ حَيْثُ لَامَنْدَمَ. وَأَوْعِزُّ إِلَى وَالِيِ الْحَرْبِ
فُلَانٍ بِقِرَاءَةِ مَا نَصَّ فِيهِ عَلَيْكُمْ، وَأَخْتِبَارِ سِيرِكُمْ بَعْدَ مَرُورِهِ عَلَى أَسْمَاعِكُمْ، فَمَنْ رَغِبَ
فِي التَّقْوَى، وَأَثَرَ الْآخِرَةِ عَلَى الدُّنْيَا، عَرَفَ ذَلِكَ وَتَوَخَّاهُ بِتَكْرِمَتِهِ وَتَحْوَلَهُ، وَمَنْ أَبَى
إِلَّا غَوَايَةَ وَضَلَالًا، وَبِطَالََةً وَمِحَالًا، أَقَامَ حَدَّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ غَيْرَ مَرَاقِبٍ فِيهِ. فَرَحِمَ
اللَّهُ عَبْدًا صَانَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَنِ الْعَارِ، وَحَمَاهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ،
وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَرْجُو أَنْ يَنْفَعَكُمْ اللَّهُ بِهَدَايَتِهِ، وَيَشْفِي صُدُورَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَيُرْسِدَكُمْ
إِلَى مَا يُفِضِي بِكُمْ إِلَى الْكِفَايَةِ وَالْحِمَايَةِ. فَلْيَعْلَمْ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ذَلِكَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَرَسْمِهِ، وَلْيَعْمَلْ عَلَيْهِ بِجُمْلَتِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الصفحة الحادية عشر

(الكتب في النهي عن التنازع في الدين)

قال في "مواد البيان" . من أهم ما صرف إليه السلطان تفقده، ووقف عليه [تعهده] أمر الرعايا في أعماله ، وتنفيذ الكتب إليهم بالنهي عن التنازع في الدين، وحسب أسباب المجادلة والمراء، والتحذير من اتباع البدع والأهواء، والإخلاق إلى مصل النحل والآراء: لأنه متى فسح لهم في هذا الباب صاروا شيعة متباينين، وبقا متحارين، وأنشئت عصاهم، وانقضت حيلهم، وخرجوا عن أحكام أهل السلامة إلى أحكام أهل الفتنة، وعاد ضرر ذلك على الدين والسلطان . ولهذا صرف إليه السياسة الحزمية من الملوك الأهتمام، ولم يخلوا بحسب مادته على تغاير الأيام .

ثم قال : والرسم فيها أن تصدر بحمد الله تعالى على نعمة في تأليف كلمة أهل الإسلام، وما من به عليهم من الاتفاق والائتلاف، وشكره على موهبته في نزع الغل من صدورهم، والتأليف بين قلوبهم، وتصييرهم إخوانا متصافين، وخلاناً متوافقين؛ وعونهم بما وفقهم له من إظهارهم على من شق عصاهم، وإقذارهم بما منحهم من الألفة على مرآمة من رامهم؛ والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم . ثم يشفع هذا بأن أمير المؤمنين بما مكّنه الله تعالى من مراضيه، ووفقه له من القيام بفرضه، والنهوض بحقوق طاعته، والعمل بكتابه وسنته، ورغبته في الخير العام، وشمول الصلاح لكافة الأنام - لا يزال يحض رعيته على ما يقضى بسداد دنياهم، وحسن المنقلب في أخراهم؛ ويرى أن أنفع ذلك عائده، وأجزله فائده؛ ما رفع عنهم أسباب التنافر، ودعاهم إلى التعاضد والتظافر؛ وحال بينهم وبين الخوض في محدث النحل والآراء، والإصغاء إلى مصل البدع والأهواء؛ التي

تَصُدُّ عَنْ سَنَنِ الْهُدَى، وَتُلْقِي فِي مَهَاوِي الرُّدَى، وَتَدْعُو إِلَى شَقِّ الْعَصَا، وَتَقْضِي بَانْتِثَارَ النَّظَامِ، وَأَخْتِلَافَ الْأَنَامِ، وَأَنْفِصَامَ عُرَى الْإِسْلَامِ. وَكَفَّهِمْ عَنِ الْمَارَاةِ فِي الدِّينِ، وَالْإِضْغَاءِ إِلَى سُنَّةِ الْمُضِلِّينَ، الْمُعْطَلَةَ لِلْسُّنَنِ، الْقَادِحَةَ لِلْفِتَنِ، الدَّاعِيَةَ إِلَى أَحْتِقَابِ الْأَنَامِ، وَإِرَاقَةِ الدَّمَاءِ الْحَرَامِ: وَنَحْوِ هَذَا مِمَّا يَضَاهِيهِ.

ثم يقول: وَأَنْتَهَى إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْتَفَاتِكُمْ عَنْ مَعَايِشِكُمْ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ لِدُنْيَاكُمْ قِيَامًا، وَعِبَادَتِكُمْ الَّتِي صَيَّرَهَا لِآخِرَتِكُمْ نِظَامًا، وَإِقْبَالَكُمْ عَلَى الْمَارَاةِ وَالْمِنَازَعَةِ، وَالْمُنَاطَرَةِ وَالْمُجَادَلَةِ، إِلَى سُكُوكِ يُقِيمُهَا مَنْ يَرِغِبُ فِي الرَّيَاسَةِ وَالتَّقَدُّمِ: لِيَفُوزَ بِخَبِيثِ الْمَطْعَمِ، الَّذِي يُعْمَى الْبَصَائِرَ، وَيُفْسِدُ السَّرَائِرَ، وَيَقْدَحُ زَنْدَ الضَّلَالِ، وَيُسَبُّ نَارَ الْمِحَالِ وَالْإِتِّحَالِ، فَامْتَعْضَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ ذَلِكَ وَخَافَ عَلَيْكُمْ أَلِيمَ عَاجِلَتِهِ، وَذَمِيمَ آجِلَتِهِ، وَبَادَرَكُمْ بِكِتَابِهِ هَذَا مِنْهَا لِغَافِلِكُمْ، وَمُرْشِدًا لِجَاهِلِكُمْ، وَبَاعِثًا لَكُمْ عَلَى التَّشَاغُلِ بِمَا أَطَابَ أَخْبَارَكُمْ، وَحَسَّنَ آثَارَكُمْ: مِنْ تِلَاوَةِ كِتَابِ اللَّهِ الَّذِي آثَرَكُمْ بِتِلَاوَتِهِ، وَزِيَارَةِ بُيُوتِ عِبَادَتِهِ، وَالتَّادِبِ بِأَدَبِ نَبِيِّهِ وَعِثْرَتِهِ، وَأَوْعَزَ إِلَى النَّائِبِ فِي الْحَرْبِ بِتَقْوِيمِ مَنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِ، وَتَثْقِيفِ مَنْ أَصْرَ عَلَى غَيْبِهِ، وَأَنْ يَحْسِمَ الدَّاءَ قَبْلَ اسْتِشْرَائِهِ، وَيَسْتَدْرِكَهُ دُوَيْنَ اسْتِفْحَالِهِ، فَاصْغَوْا إِلَى زَوَاجِرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَوَاعِظِهِ، وَأَقْتَدُوا بِهَدْيِهِ وَمَرَاشِدِهِ، لِتَفُوزُوا بِطَاعَتِهِ، وَتَسْعَدُوا بِرِضَاهِ، وَتَسْلَمُوا فِي الْحَاضِرِ، مِنْ مَهَانَةٍ أَتَمَّ بِغَيْرِهَا أَوْلَى، إِنْ سَلَكَتُمْ الطَّرِيقَةَ الْمُثَلَّى، وَفِي الْغَابِرِ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِمَنْ خَالَفَ عَنْ أَمْرِهِ مِنَ الْعِقَابِ فِي الدَّارِ الْآخِرَى، فَاعْمَلُوا هَذَا وَاعْمَلُوا بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قال: وَقَدْ يَكْتُبُ السُّلْطَانُ إِلَى الرَّعِيَّةِ بِالنَّهْيِ عَنِ التَّفَاخُرِ بِالْبَادِيَةِ وَالتَّنَازَعِ فِي الْعَصَبِيَّةِ. ثُمَّ قَالَ: وَالطَّرِيقَةُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مُشْتَقَّةٌ مِنْ طَّرِيقَةِ هَذَا الرَّسْمِ.

الصنف الثاني عشر

(المكاتبة بالأوامر والنواهي)

قال في "مواد البيان" : على هذه الكتب مدارُ أشغال السلطان في أعماله ، لأنها النافذة في تصريف الأمور وتنفيذ المراسيم وإيادٍ وعمالة .

قال : وليس لهذا أمثلة فنوردُها ، لكنّه ينبغي للكاتب أن يؤكد القول بها ، فإن الأمر فيها والنهي - وإن اختلف نظمهما - نوعٌ واحد : لأن كل ما مور به منهي عن ضده ، وكل منهي عنه مأمور بضده ؛ فينبغي له أن يؤكد القول في أمثال ما أمر ، والعمل عليه والإنفاذ له ، والانتها عما نهى عنه ، والحدّ من الإمام به . ويجزم الأمر في العبارة عنهما جزماً تاماً لا يُمكن معه من الإخلال ببعضهما والنقص فيهما لهوى ، ويأتي من المبالغة بما يضيق العذر ، ومتى وقع تقصير أو تناقل عما حدّد فيهما ، فإنما يُمثل ذلك بمثل جامعة مع تفنن المعاني التي يأمر بها وينهى عنها .

ثم قال : والكاتب إذا عرف الترتيب الواقع في هذين الغرضين على طريق الإجمال ، أمكنه أن يبسطه إذا احتاج إلى التفصيل والبيان بمشيئة الله تعالى .

وأعلم أنه كان للخلفاء والملوك وولاة الأمور في قديم الزمان عناية بالكتابة إلى الرعايا بالأوامر والنواهي المتعلقة بالدين : من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وما يجري مجرى ذلك ؛ وإلى العمال بالوصية بالرعايا ، والاجتهاد فيما لديهم من جباية الخراج ، والأهتمام بأمر الدواوين ، وما أشبه ذلك .

فأما الأوامر والنواهي المتعلقة بالدين ، فقد تقدم في الكلام على مُصطلح أهل الغرب في أوائل هذه المقالة من إنشاء أبي زيد الفازازي ما أغنى ذكره هناك عن إعادته هنا أو ذكر غيره .

وأما الأوامر والنواهي المتعلقة بأمر السلطنة، فمن ذلك ما كتب به أبو عبد الله
ابن الحنان، عن الأمير أبي عبد الله بن هود أحد ملوك الطوائف بالأندلس في الرفق
بالرعية، وهو :

أما بعد حمد الله تعالى معلى منار الحق ورافعه، ومولى متوالى الإنعام ومتتابعه،
والصلاة على سيدنا محمد رسوله مشفع الحشر وشافعه، المبعوث ببدايع الحكم
وجواميعه، وعلى آله وصحبه المبشرين إلى مقاصده العلية ومنارعه، والذابين عن حوزة
الإسلام بمواضي الاعتزام وقواطعه، والرضا عن الخليفة الإمام العباسي أمير المؤمنين
ذى المجد الذى لا ينال سمو مطالعه .

فإنا كتبنا إليكم، كتب الله لكم عزة قدحها بالثبوت فائز، وسعادة قسطها للنماء
حائز، من فلانة : وكلمة الحق منصوره الأواء، منشورة الأضواء، والتوكل على الله
في الإعادة والإبداء، والتسليم إليه مناط أمرنا في الانتهاء والابتداء، وحمد الله تعالى
وشكره وصلتنا إلى نيل مزيد النعماء والآلاء، ومكانتكم لدينا مكانة السني المناصب،
المتعمى إلى كرام المتميمات والمناسب بالمتحلى في الغناء والاكْتفاء، والخلوص
والصفاء، بأكرم السجيات والمناقب بالمعلوم مالدية من المناصحة السالكة بأكرم
السجيات في المناحى الحسان على المهيع الأوضح والسني الألاحب .

وقد وقفنا على كتابكم معلما بخبر فلانة وبما رأيتوه من المصلحة في تحصيلها،
والاجتهاد في سبب تأمينها، ونحن نعلم أنكم تريدون الإصلاح، وتتوخون ما تتوسمون
فيه النجاح، لكن أهم الأمور عندنا، وأولى ما يوافق غرضنا وقصدنا، الرفق
بالرعية، وحملها على قوانين الإحسان المرعية، وعلى أثر وصول كتابكم وصلنا كتاب
[أهل] فلانة المذكورة يشكون ضرر الخدمة المتصرفين فيهم، ويتظلمون من
متحيفيهم ومتعسفهم، وفي هذا ما لا يخفى عليكم، ولا ترضون به لو انتهى إليكم .

فإنه إذا كان الناظر في خِدْمَةٍ مِّنْ لَا يُحْسِنُ سِيَّاسَةَ الْأُمُورِ ، وَلَا يَعْلَمُ طَرِيقَ الرَّفِيقِ الْحَاوِيَّةِ لِرَفِيقِ الْخَاصَّةِ وَالْجُمْهُورِ ؛ أَعَادَ التَّسْكِينَ تَنْفِيرًا ، وَالتَّيْسِيرَ تَعْسِيرًا ؛ وَتَعْلَمُونَ أَنَا لَا تَقْدَمُ عَلَيَّ إِشَارَ الْعَدْلِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ عَمَلًا ، وَلَا نَبِيٍّ لَمْ بَاطِنَةٌ بغيرِ التَّخْفِيفِ عَنْهُمْ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بَدَلًا ؛ وَأَنْتُمْ أَوَّلُ وَأَوَّلِيٍّ مِنْ يُعْتَقَدُ فِيهِ أَنَّهُ يُكْتَلَبُ هَذَا الْمَقْصِدُ ، وَيَتَحَرَّى فِي مَصَالِحِ الرِّعَايَا هَذَا السَّنَنَ الْأَرشِدَ ؛ وَقَدْ خَاطَبْنَا أَهْلَ فَلَانَةَ بِمَا يَذْهَبُ وَجَلَّهُمْ ، وَيَبْسُطُ أَمَلَهُمْ ؛ وَعَرَّفْنَاكُمْ بِأَنْتُمْ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ جَارٍ عَلَيْهِمْ مِنْ [بَعْضِ] الْخِدْمَةِ لِأَخْدَتِهِمْ عَلَيَّ يَدِهِ ، وَجَازِيَتُهُ بِسُوءِ مَعْتَمَدِهِ ؛ وَأَشْعَرْنَاكُمْ بِأَنَا قَدْ آسْتَوْعَيْنَاكُمْ بِهِمْ خَيْرًا ، وَنَبَّهْنَاكُمْ عَلَيَّ مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ ضِيًّا وَيَرْفَعُ ضَيْرًا ؛ وَأَنْتُمْ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - تَسْتَأْنِفُونَ نَظْرًا جَمِيلًا ، وَتُؤَخَّرُونَ عَنْهُمْ الْخِدْمَةَ الَّذِينَ لَا يَسْلُكُونَ مِنَ السِّيَّاسَةِ سَبِيلًا ؛ وَتَقْدَمُونَ عَلَيْهِمْ مَنْ تَحْسُنُ فِيهِمْ سَيْرَتُهُ ، وَتَكْرُمُ فِي تَمْشِيَةِ الرَّفِيقِ عَلَانِيَتُهُ وَسِرِّيَّتُهُ ؛ وَمِثْلَكُمْ لَا يُؤَكَّدُ عَلَيْهِ فِي مَذْهَبِ تَحْسِنِ عَوَاقِبِهِ ، وَغَرَضِ يُوَافِقُهُ الْقَصْدُ الْأَحْتِيَاطِيَّ وَيُصَاحِبُهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصنف الثالث عشر

(المكاتبُ عند حدوث الآيات السَّمَاوِيَّةِ)

قال في "مواد البيان" : جرت العادة أن يكتب السلطان إلى الرعايا - عند حدوث الآيات المَهْوَلَةِ التي يريد الله تعالى بها إرشاد عباده إلى الإقلاع عن معصيته ، والإقبال على طاعته ، كالرياح العواصف ، والزلازل والصواعق ، وأحتماس القطر وخروجه في التسكاب عما جرت به العادة - ككتاباً يضمنها من الوعظ الشافي الرقيق ما يأخذ بجماع القلوب ، ويُشعرها التقوى والرهبنة ، ويبعث على المراقبة والنظر في العاقبة .

قال : وينبغي للكاتب أن يتلطف في الموعظة ، ويبالغ في الذكرى التي تُحطَر الخواطر وتقدح الأنفس ، وتُحرك العزائم نحو الإخلاص ؛ فإنه إذا أبرز هذه المعاني في صورٍ [تُشعر]^(١) الخيفة من غضب الله تعالى وعقابه ، وترغب في عفوه وثورته ؛ نفع الله بذلك (؟) من رغب عن الهوى ، ورغب في التقوى بكتابه .

قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على الآله التي يُفيضها ابتلاء واختباراً ، وآياته التي يُرسلها تخويفاً وإنذاراً ، وموهبتة في التوقيف بساغ نعمته على طاعته ، والتحذير بدافع نعمته من معصيته . والصلاة على رسوله الذي أتقذ بشفاعته ، وعصم من نزول القوارع بنبوته . ثم يقدم مقدمة تتضمن أن الله تعالى يقدم الإعداء أمام سُخطه وعذابه ، ويبدأ بالإنذار قبل غضبه وعقابه ؛ فمن استيقظ من سنده ، ونظر لعاقبته [ونهض]^(١) إلى طاعته ، وأقلع عن معصيته ، كشف الرين عن قلبه ، وضاعف أجره ؛ ومن أضرَب عن موعظته ، وتعمى عن تبصيره وتذكيره ، أخذ على غرته . وسلبه سربال نعمته .

ثم يأخذ في حث الأمة على الفزع إلى الصلوات ، والمسارة إلى بيوت العبادات ؛ والإكثار من التضرع والخشوع ، والأستكانة والخنوع ، بإذراء سحائب الدموع ؛ وإخلاص التوبة عن مُحْتَقَب الآثام ومُخْتَرِع الأوزار ، والتوسل إلى الله تعالى في قبول الإجابة بقلوب تقيه ، وطويبات على الطهارة مطويه ؛ وسرائر صريحة ، ونيات متعجبه ؛ يصدقها الندم على الماضي ، وعقد العزم على الإقلاع في الآتي ؛ والرغبة إليه في رفع سُخطه وإنزال رحمته ، وما يجارى هذا

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات قد تُرك في زماننا فلا يحاربه لأحد به أصلاً ، وإن كان مما يجب الأهتمام به وتقديمه .

(١) ياضر السيل ، وانسج يقضيه المقام .

الصَّنْفُ الرَّابِعُ عَشَرَ

(المكاتبُ في التنبيهِ على شرفِ مواسمِ العبادةِ وشريفِ الأزمنةِ)

قال في "موادِّ البيان" : إن الله وَكَّتَ لعبادهِ أوقاتاً عَظُمَ شأنُها ، ورفَعَ مكانَها ، وأمرهم أن يتقربوا فيها إليه بتأدية ما فرضه عليهم لُطْفًا بهم ورأفَةً ، وحنانًا ورحمةً .

قال : ولم يزل السلطان يكتب إلى عُمَّالِهِ بتنبيهِ الرعايا عليها ، وتعرِيفِهِم فضلَ العبادةِ فيها : ليستقبلوها بالإخباتِ والخُشُوعِ ، وَيَتَلَقَّوْهَا بالتَضَرُّعِ والخُضُوعِ ، ويتوسلوا في قبولِ التَّوْبَاتِ ، وغُفْرَانِ الخَطِيئَاتِ ، حِفْظًا لنظامِ الدينِ ، وتفَقُّدًا لمصالحِ المسلمين .

قال : وينبغي للكاتب أن يحسن التَّائِي في هذه الكتب ^(١) ويذكر النَّاسِيَّ وينبه الغافلَ الألهي ، والمُهْمِلَ السَّاهِي ، ويحركَ النفوسَ نحو مصالحِها ، ويبعثها على الأخذِ بفاضلِ الأعمالِ وصالحِها .

قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على أن وهب لعباده أوقاتاً يتقبل فيها قُرْبِهِم وأعمالهم ، وَيُخَفِّفُ بالإبانة إليه عند حلولها أوزارهم وأثقالهم ، فيغفر لهم ، وَيَعْفُو عن مُسِيئَتِهِمْ ، ويتقبل التَّوْبَةَ عن تائبهم . والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله . ثم يقدم مقدمة مبنية على تعظيم هذه الأوقات ، والإبانة عما في قَصْرِها على العبادات ، والمسابقة إلى الخيرات ، من عظيم الثواب . وَيَشْفَعُ بِبَعْثِ الوَلَاةِ على أخذ الرعايا بالمحافظة على السُّنَنِ ، وتعهدها حقَّ الله تعالى فيها ، والتوسُّع في توكيد الحجَّة ، ونفى الشبهة ، وإيراد المواعظ الرادعة ، والزواجِر الوازعة ، التي تُعَوِّد بِشَحْدِ البصائر ، وصفاء الغمائر ، والإتيان بحقوق هذه الأوقات وواجباتها ،

(١) بياض بالاصل مقدار كلمة .

والفوز بما يُوقره من بجزيل بركاتها ، والتوفُّر على حُسن مجاورتها ، والتَّقَرُّب إلى الله تعالى ببذل الصَّدَقَات ، والإقبال على الصَّلَوَات وزيارة بيوت العبادات ، ومداكرة أهل الدِّين ، والسَّعي في مصالح المسلمين ، ونحو ذلك مما يناسبه .

ثم قال : فإن كان الكتاب مقصورا على الدعاء إلى الحج ، آفتتح بالحمد لله على أن جعل لعباده حرماً آمناً يمحَّص ذنوبهم بزيارته ، ويمحو آثامهم بحجّه ووفادته ، ويلى ذلك ما يليق به من الحثِّ على تأدية المناسك ، وتكميل الفرائض والسُّنن ، وزيارة قبر النبي صلَّى الله عليه وسلم ، وكذلك الحكم في سائر الأبواب الدِّينية .

الصفحة الخامسة عشر

(انكاتبه بالسلامة في الركوب في المواسم والأعياد وما ينخرط

في سلكها من المواكب الجامعة)

قال في "مواد البيان" : جرت العادة أن يكتب السلطان عماله وولاته بسلامة المواسم الإسلامية كلها : لأنها تُشاهد لجميع أصناف الرعايا وذوى الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة ، والقلوب المتعادية والمتصاحبة في أمر الدين والدنيا ، وكلُّ مُتربِّصٍ لِفِتْنَةٍ ينتهز فُرْصَتَهَا . فلانكاد هذه المشاهدُ تخلو من ثورةٍ وحدثٍ أحداثٍ مُنكرةٍ تُفضي إلى الفتن التي لا تُرفع . فإذا أنعم الله تعالى بالسلامة منها ، وجب التَّحَدُّثُ بِنِعْمَتِهِ ، والشُّكْرُ لِمْشِيئَتِهِ ، وأن يكتب أمير المؤمنين بسلامة ما قبَّله إلى عماله . لتسكن الكافة إلى ذلك ، ويشتركوا في حمد الله تعالى عليه .

وأعلم أن المواسم التي كان يعتاد الخلفاء الركوب فيها والكتابة بالسلامة منها هي : عيد الفطر ، وعيد النحر . وكان الخلفاء الفاطميون بالديار المصرية يعتادون

مع ذلك الركوب في غُرَّةِ السَّنَةِ ، وفي أولِ رَمَضانٍ ، وفي الجمعة الأولى ، والجمعة الثانية ، والجمعة الثالثة منه ، على ما تقدم ذكره في الكلام على ترتيب المملكة في المقالة الثانية . وكذلك "عيد الغدير" : وهو عيدٌ من أعياد الشيعة كما سيأتي ذكره . ونحن نُشير إلى ذكر مواكبها مَوْجِبًا مَوْجِبًا ، ونذكر ما جرت به العادة في الكتابة في البشارة بالسلامة في ركوب كُلِّ مَوْكَبٍ منها .

الأول — البشارة بالسلامة في الركوب في غُرَّةِ السنة . وقد تقدم الكلام على صورة المَوْكَبِ في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية بالديار المصرية في المقالة الثانية .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، أورده أبو الفضل الصوري في تذكرته ، وهي :
الحمد لله الذي لم يزل يُؤلي إحسانا وإنعاما ، وإذا أبلى عبيده عاما أجدهم بفضله عاما ؛ فقد أمدكم معاشر [الخلقاء] ^(١) كراما ومنا ، وآناكم من جوده أكثر مما يُمتنى ؛ ومنحك من عطائه ما يُوفى على ما أردتموه ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآنَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَسْأَلَتُمْ ﴾ وقد استقبلتم هذه السنة السعيدة ، وإذا عملتم بالطاعة كنتم مستنجزين من ثواب الله الأغراض البعيدة .

وصلّى الله على سيدنا محمد نبيه الذي غدت اللجنة مدخرة لمن عمل بهداه لما سمعه ، ومهيأة لمن آمن به وأتبع النور الذي أنزل معه ؛ وبين بإرشاده ما تجرى أمور السنين عليه في العدد والحساب ، ونسخ ما كانت الجاهلية [تفعله] فيه زيادة في الكفر وضلالا عن الصواب ؛ وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي كمل الله الإسلام بإمامته ، وضاعف الأجر لأهل ولايته ، ومنح شيعته مقبول شفاعته ؛

(١) يياض بالأصل والتصحيح من المقام .

وعلى الأئمة من ذريتهما خلفاء الله على خلقه ، والقائمين بواجب حقه ، والعاملين في سياسة الكفاية بما يرضيه سبحانه ، ويضمن غفرانه ورضوانه ، وسلم عليهم أجمعين ، سلاماً باقياً إلى يوم الدين .

وإن أحق النعم بنشر الذكر ، وأوجبها للوصف وإعمال الفكر ، نعمة رفعت الشك وأزالت اللبس ، ووضعت ضياؤها لأولي الألباب ووضوح الشمس ، وأشترك الناس فتضاعفت الفائدة لديهم ، وأنفعوا بذلك في تواريخهم ومعاملاتهم ومآلهم وعليهم ؛ وتلك [هي] المعرفة باليوم الذي هو مطلع السنة وأولها ، ومبدؤها ومستقبلها ؛ وحقيقة ذلك ظهور إمام كل زمان . وكان ظهور إمام زماننا مولانا وسيدنا الإمام فلان - ليتساوى في الشرف برؤيته العامة والخاصة ، فيكون استقلال ركابه إشعاراً بأن اليوم الذي تجلّى فيه لأولياته ، ولرعاياه المتفيتين ظلّ لوائه ؛ هو افتتاح السنة وأول محرمها ، وعليه المعتمد في عدد تامّ الشهور وناقصها من مفتتحها إلى محتمها - يوم كذا غرة المحرم من سنة كذا ، في عساكر لا يحصر عددها ، وقبائل لا ينقطع مددها ؛ وإذا اضطربت نار الكفر والتهبت ، طفت بانوارهم وخبّت ؛ وقد تقلدت هندية تروع إذا أشرقت وسكنت ، فما الظنّ إذا اضطجبت ؛ والأرض بمرورها عليها مبهجة مؤنقه ، وملائكة الله عز وجل حافة به محذقه ؛ فأذن بأن اليوم المذكور هو غرة السنة المعينة ، وأن اليوم الفلاني أمسه أنسلاخ كذا سنة كذا المتقدمة : لتستقيم أمورهم على أعدل نهجهم ؛ وليحفظ نظام دينهم في صومهم وفطريهم وحجهم ؛ وكذلك أصدر هذا الكتاب ليلوه الأمير على من يسكن عمله ، وجميع من قبله ؛ ويتائلوا في معرفته ، ويحمل كل منهم الأمر عليه في معتقده وأسباب معاملاته ؛ ويشكروا الله على النعمة عليهم بهديته . وهو يعتمد ذلك ويطلع بكائنه فيه إن شاء الله تعالى ، وكتب في اليوم المذكور .

الثاني - البشارة بالسلامة في الركوب في أول شهر رمضان ، وهي على نحو مما تقدم في الركوب في غرة السنة .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي ، وهو :

الحمد لله كآلي خلقه في اليقظة والمنام ، والكافل لهم بمضاعفة الأجر في شهر الصيام ، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه رحمة للأنام ، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أخلص ولي ، وأشرف وصي ، وأفضل إمام ، وعلى الأئمة من ذريتهما الداعين إلى دار السلام ، صلاة دائمة الاتصال ، مستمرة في الغدو والآصال .

وإن من المسرة التي تتهدى : والنعمة الشاملة للخلق جميعا وفرادى ، ما من الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان ، صلوات الله عليه وعلى آباءه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ، يوم كذا غرة شهر رمضان من سنة كذا ، إعلاما بأول الشهر وأفتاحه ، وأن الصيام الأول من فخره الأول قبل تنفيس صباحه ، وتوجهه إلى ظاهر المعزية القاهرة المحروسة في عساكره المظفرة وجنوده ، وأوليائه وأنصاره وعبيده ، والمينة برؤيته قد تساوى فيها الكافه ، وملائكة الله مطيفة حافه ، وعوده إلى قصوره الزاهره ، وقد شمل المستظلين بأفيائه بسعادتي الدنيا والآخرة .

أصدر إليك هذا الأمر لتقف على الجملة ، وتشكر النعمة السابغة على أهل الله ، وتتلوها على أهل عملك ، وتطالع بكائيك في ذلك ، فأعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .

الثالث - الكتابة بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الأولى من شهر رمضان .

وهذه نسخة كتاب من ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي أيضا ، وهي :

أفضل ما سِيرَ ذِكْرُهُ ، ووجب حمدُ الله تعالى عليه وشُكْرُهُ ، ما عادَ على الشريعة بالجمال
 والبهجة ، وأضحى وأصفه صحيح المقال صادق اللهجة ، فضاغف حسنة ومحص
 سيئه ، وجعل أسباب السعادة متسهلةً متهيئةً ، وذلك ما يسره الله تعالى من استقلال
 ركاب سيدنا ومولانا صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ، يوم
 الجمعة من شهر رمضان من سنة كذا : مؤذياً خطبتها وصلاتها ، وضامناً لأمة أئمتَّ به
 خلاصها يوم الفزع الأكبر ونجاتها ، في وقار النبوة وسكينة الرسالة ، والهيبة المستولية
 على العظمة والجلالة ، والعساكر الجمية التي تقلق بمهابتها وتزعج ، وتظن لكثرتها
 واقفةً والركاب يهملج ، ولما انتهى إليه ، خطب وعظ ففتح أبواب التوبة ،
 وآب إلى الطاعات من لم يطمع منه بالأوبة ، وصلى صلاةً تقبلها جل وعز بقبول
 حسن ، وقصر في وصفها ذوو الفصاحة واللسن ، وعاد إلى مستقر الخلافه ، ومثوى
 الرحمة والرافه ، وعين الله له ملاحظه ، وملائكته له حافظه . أعلمت ذلك لتذيعه
 في أهل عملك ، وتطالع بكائنك .

الرابع — المكاتبه بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الثانية من شهر رمضان .

قد تقدم في الكلام على ترتيب الملكة بالديار المصرية في الدولة الفاطمية ،
 في المقالة الثانية : أن الخليفة كان يركب في الجمعة الثانية من شهر رمضان إلى الجامع
 الأنور ، وهو جامع باب البحر ، الذي عمره الحاكم بأمر الله ، وجدده الصاحب
 شمس الدين المقسي .

وهذه نسخة كتاب في المعنى ، من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً ، وهي :

لم يزل غامر كرم الله وفضله ، يفوق حاضره ما كان من قبله ، فنعمة الله تعالى
 سابغه ، ومنته متابعه ، وملايسها ضافيه ، ومفارسها نامية ، وسخائبها هامية ، وهو جل

وعزَّ يضاعفها على مَنْ صَلَّى وصام ، ويواليها عند من تَمَسَّك بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى التي لا انفصال لها ولا انفصام ؛ وتجدد من ذلك ما كان من بُرُوزِ مولانا وسيدنا الإمام فلان : صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آبَائِهِ الطاهرين ، وأبنائه الأكرميين ؛ يوم الجمعة من شهر رَمَضَانَ من سنة كذا : في شامخِ عِزِّهِ ، وبأذخِ مَجْدِهِ ، وتَوَجُّهِهِ إلى الجامع الأثور المنسوب إلى مولانا الإمام الحاكم بأمر الله جدّه ؛ سلام الله عليه وصلواته ، وبركاته وتحيّياته ؛ وعساكره قد تجاوزت الحدّ ، وكثرت عن الإحصاء والعدّ ، فإذا تأملها الطَّرْفُ انْقَلَبَ عنها خاسئًا وأرتدّ .

ولما وصل إلى الجامع المذكور خَطَبَ فأوردَ من القول أحسنه ، ووعظَ فأسمع من الوعظِ أَوْضَحَهُ وأبينه ؛ وصلّى صلاةً جَهَرَ بالقراءة فيها ورتّلها ، وعاد إلى قُصُورِهِ الشريفة وقد شملت البركات برؤيته ، ووفّقَ مَنْ عَمِلَ بِمَوْعِظَتِهِ ، ونجّاه مَنْ آقَدَى بِهِ في صلاته ، وأستولى على السعد من جميع أُرْجَائِهِ وَجِهَاتِهِ . أعلمناك ذلك لتعرف قَدْرَ النِّعْمَةِ بِهِ ، فأشكر الله سبحانه بمقتضاه ، وأعتمد تلاوة هذا الأمر على رُعُوسِ الأَشْهادِ ؛ فأعلم ذلك .

الخامس — المكاتبه بالسّلامة في الرُّكُوبِ في الجمعة الثالثة من شهر رَمَضَانَ .

قد تقدّم في الكلام على ترتيب الملكة في المقالة الثانية أن الخليفة كان يركب في الجمعة الثالثة منه إلى الجامع العتيق بمصر^(١) ، فيخطب فيه ويعود إلى قصره .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي ، وهي :

(١) ما تقدم في (ج ٣ ص ٥١١) من هذا المطبوع صريح في أنه كان يركب في الجمعة الثالثة من رمضان إلى الجامع الأزهر ، وأنه لا يركب إلى الجامع العتيق إلا في الجمعة الرابعة ، التي أهملنا ذكرها إليها وحاصل ما تقدم أنه يركب في جمع رمضان ماعدا الأولى .

من عوائد الله - سبحانه - الإحسان إلى عبيده ، وتعويضهم للشكر عليه بموهبه
ومزيدة ؛ والامتنان بتيسير عصبه ، وتعجيل قصبه ، وتقريب بعيده ؛ فهو لا يحلهم
من نواجه ، ولا يعفيهم من هواجسه .

ولما أقبل هذا الشهر الشريف كان من عموم بركاته ، وشمول خيراته ؛ أن مولانا
وسيدنا الإمام الفلاني صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ؛
والى فيه بركاته ، وزكى أعمال المؤمنين في استماع آخطابه والائتمام بصلاته ؛
وفي هذا اليوم وهو يوم الجمعة من شهر رمضان ، أعمل ركابه إلى الجامع العتيق بمصر
ليُسهم لهذه المدينة من حظي الدنيا والآخرة ، مثل ما أسهمه وعجله لأهل المعزية
القاهرة . فكانت هيئته يعجز وصفها كل لسان ، وظهر - عليه السلام - في الرداءين :
السيف والطيلسان ؛ والجوش قد أنبسطت وانتشرت ، والنفوس قد أتهجت
وأستبشرت ، والألسنة قد عكفت على الدعاء بتخليد ملكه وتوفرت . وعند وصوله
خطب فأحسن في الألفاظ والمعاني ، وحذر من تأخير التوبة والتضجيع فيها
والتواني ؛ وصلى صلاة شرفها الله وفضلها ، ورضيها تبارك وتعالى وتقبلها ؛ وأنكفاً
عائداً إلى قصوره ومنازله المعظمة : ضاعف الله له ثوابه وأجره ، وأوجب شكره
ورفع ذكره ؛ ويجب أن تعتمد إذاعة ذلك ليبلغ الكافة في الاعتراف بالنعمة فيه ،
ويواصلوا شكر الله تعالى عليه ، والمطالعة بما اعتمد فيه .

السادس - ما يكتب بالبشارة بالسلامة في ركوب عيد الفطر .

وقد تقدم في الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية في المقالة الثانية : أن الخليفة
كان يركب لصلاة عيد الفطر صبيحة العيد ، ويخرج من باب العيد من أبواب

القصر، ويتوجه إلى [المُصَلِّي] ^(١) فَيُصَلِّي وَيَحْتَضِبُ، ثم يعود إلى قصوره، ويكتب بذلك إلى أعمال المملكة، تارة مع خُلُو الدولة عن وزيره، وتارة مع أشتمالها على وزيره، وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، مع خُلُو الدولة عن وزيره، من إنشاء ابن الصيرفي، وهو :

الحمد لله ناشر لوائه في الأقطار، ومعوّض المطيعين من جرّائه ببلوغ الأوطار، الذي نسَخ الإفطار بالصيام ونسخ الصيام بالإفطار، وكَلَّف عباده ما يطيقونه ووعد عليه جزيل أجره، وأسبغ من نعمه ما لا يطمع [في القيام] بواجب حمده عليه وشكره، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذي أعلن بالإيمان وبأح، وبين المحظور في الشريعة والمباح، وأرشد إلى ما حرّمه الإسلام وحلّله، ومهد سبل الهدى لمن استغوا الشيطان وضلّله، وأوضح مراتب الأوقات ومنازلها، وعرف تفاوت الأيام وتفاضلها، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي مضت في الله عزّماته، وبيّضت وجه الدين الحنيف موافقه ومقاماته، وعلى الأئمة من ذريتهما الذين تكفلوا أمر الأمة نصّا، وأمتطوا على منارها فلم يألوا جهداً ولم يتركوا حرصاً، فال حاضر منهم يوفى على من كان [من] قبله، وأحزاب الحق فرحون بما آتاهم الله من فضله، وسلم عليهم أجمعين سلاماً لا انقطاع لدوامه، وشرفهم تشريقاً لا انفصام لإبرامه، وأسنى ومجد، وتابع وجدّد .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد الفطر من سنة كذا : بعد أن وفي الصيام حقه، وحاز أجر من جعل الله على خزائنه رزقه، وبعد أن أفطر بحضرتة الأولياء من آله وأسرته، والمقدمون من رؤساء دولته، والمتميزون من أوليائه

(١) باض بالأصل، والتصحيح عما تقدّم في هذا المطبوع (ج ٣ ص ٥١٣) .

وَشِيعَتِهِ . وكان من نبأ هذا اليوم أن أمير المؤمنين لما أرتقب بروزه من قصوره ،
 وَتَجَلَّى فَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِهِ ، توجه إلى المصلّى قاضياً لسنة العيد ، فكانت نعمة
 ظهوره بالنظر [للحاضر] وبالخبر للبعيد ، وأستقل ركابه بالعساكر المنصورة التي أبدت
 مَنْظَرًا مُفْتِنًا مُعْجِبًا ، وجعلت أديم الأرض بالخيّل والرّجل محتجبا ، وذخرت الانتقام
 مِنْ شَقِّ الْعَصَا ، وتجاوزت في الكثرة عدد الرمل والحصا ، وزينت الفضاء بهيبتها ،
 وَرَوَعَتِ الْأَعْدَاءَ بِهَيْبَتِهَا ، وجمعت بين الطاعة وشدة البأس ، وأدرعت من التقوى
 أَمْنًا جَنَّةً وَأَحْصَنَ لِبَاسًا ، ولم يزل سائرا في السكينة والوقار ، ناظرا للذنبا بعين
 الْأَحْتِقَارِ ، والثرى بالجباه والشفاة مصافح ملثوم ، فهما سوسومتان به وهو بهما
 مَوْسُومٌ ، إلى أن وصل إلى مقر الصلاة ، ومحل المناجاة ، فصلّى أتم صلاة وأكملها ،
 وَأَدَّاهَا أَحْسَنَ تَأْدِيَةٍ وَأَفْضَلَهَا ، وأخلص في التكبير والتهليل إخلاص من لم يفت
 أَمْرًا وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ وَنَصَحَ فِي إِرْشَادِهِ وَوَعَّظَهُ ، وأعرب ببدیع معناه وفصیح
 لَفْظِهِ ، وعاد إلى مثنوى كرامته ، وفلك إمامته ، محمّود المقام ، مشمول بالتوفيق
 فِي النَّقِضِ وَالْإِبْرَامِ . أعلمك أمير المؤمنين ذلك لتذيعه فيمن قبلك ، وتشكروا الله
 عَلَى النِّعْمَةِ الشَّامِلَةِ لَهُمْ وَلَكَ ، فأعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى . وكتب
 فِي الْيَوْمِ الْمَذْكُورِ .



وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، والدولة مشتملة على وزير ، عن الحافظ
 لدين الله العلوي خليفة الديار المصرية ، في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، وهي :
 الحمد لله الذي أعز الإسلام وشيد مناره ، وأيد أوليائه ونصر أنصاره ، وأظهر
 فِي مَوَاسِمِهِ قُوَّتَهُ وَأَسْتِظْهَرَهُ ، وختم الشرائع بشرف أبدى فكان حظها منه إيثاره ،

وَحَظُّ الْإِسْلَامِ أَسْتَبْدَادَهُ بِهِ وَأَسْتِثَارَهُ ؛ وَصَلَّى اللهُ عَلَى جَدِّنا مُحَمَّدٍ الَّذِي كَرَّمَهُ بِأَصْطِفَائِهِ ، وَأَسْعَدَ مِنْ حَافِظٍ عَلَى اتِّبَاعِ نَهْجِهِ وَأَقْتِفَائِهِ ؛ وَبَيْنَ بَشْرَعِهِ مَا حَلَّلَهُ وَحَرَّمَهُ ، وَدَعَا الْأُمَّةَ بِإِرْسَالِهِ إِلَى دِينٍ قِيمٍ أَعْلَى بِنَاءِهِ وَأَحْكَمَهُ ؛ وَوَعَدَهُمْ عَلَى مَقْرُوضِهِ وَمَسْنُونِهِ بِجَزِيلِ الْأَجْرِ ، وَأَمَرَ فِي أَعْتِقَادِ خِلَافِهِ بِالذَّفْعِ وَالْمَنْعِ وَالزُّجْرِ ؛ وَعَلَى أُخِيهِ وَأَبْنِ عَمِّهِ أَبِينَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَوَّلِ الْأَئِمَّةِ الْخُلَفَاءِ ، وَالْمُسْتَهْرَةِ فِضَائِلِهِ أَشْتَهَارًا لَيْسَ بِهِ مِنْ خَفَاءٍ ؛ وَمَنْ حَبَاهُ اللهُ الْمَحَلَّ الرَّفِيعَ وَالْمَنْ الْجَزِيلَ ، وَخَصَّهُ مِنَ الشَّرَفِ بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ ؛ وَعَلَى الْأَئِمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتَيْهِمَا الْقَائِمِينَ بِفَرْضِ اللهِ وَالْمُؤَدِّينَ لِحُقُوقِهِ ، وَالَّذِينَ كَفَلَتْ أَمَانَتَهُمْ بِانْبِطَاطِ نُورِ الْحَقِّ وَأَنْتِشَارِ لُؤَائِهِ وَخُفُوفِهِ ؛ وَسَلَّمَ وَكَرَّمَ ، وَجَدَّ وَعَظَّمَ .

وَكَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ يَوْمَ كَذَا عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ سَنَةِ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، الَّذِي أَمَرَ اللهُ فِيهِ بِمَا نَهَى عَنْهُ مِنْ قَبْلِهِ ، وَضَاعَفَ الْأَجْرَ بِكَرَمِهِ وَفَضَّلَهُ ؛ فَرَفَعَ تَكَالِيفَ الصَّوْمِ ، وَأَوْجَبَ الْإِفْطَارَ فِي هَذَا الْيَوْمِ ؛ وَسَاوَى فِي ذَلِكَ [بَيْنَ] كُلِّ مُتِّهِمْ وَمُنْجِدٍ ، وَأَمَرَ بَنِي آدَمَ فِيهِ بِأَخْذِ الزَّيْنَةِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ؛ وَكَانَ مِنْ خَبْرِهِ أَنَّ الْفَجْرَ لَمَّا طَلَعَ مُبَشِّرًا بِالشَّمْسِ ، وَمُؤَذِّنًا بِبَعْثِهَا مِنَ الرَّمْسِ ؛ تَتَابَعَتِ الْجُيُوشُ الْمَوْفُورَةُ ، وَالْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةُ ؛ إِلَى أَبْوَابِ الْقُصُورِ الزَاهِرَةِ تَوْكُفًا لِأَنْوَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَرَقُّبًا لظُهُورِهِ قَاضِيًا حَقَّ الدِّينِ ؛ فَلَمَّا أَسْفَرَ الصُّبْحُ وَأَضَاءَ ، وَمَلَأَتِ الْخَلَائِقُ الْفَضَاءَ ؛ تَجَلَّى مِنْ أَفْلَاكِ إِمَامَتِهِ ، وَبَرَزَ فَأَغْبَطَ كُلَّ مُؤْمِنٍ بِبَنَاتِهِ عَلَى الْمَشَايِعَةِ وَإِقَامَتِهِ ؛ وَكَانَ ظَاهِرًا وَهُوَ مُحْتَجِبٌ بِالْأَنْوَارِ ، وَمُتَمَنِّعًا وَهُوَ مُتَهَبٌ بِالْأَبْصَارِ ؛ وَالْكَافَّةُ يُصَاحِفُونَ الْأَرْضَ وَيَجْتَهِدُونَ فِي الدِّعَاءِ بِإِخْلَاصِ نِيَّاتِهِمْ ، وَالْعَسَاكِرُ الْمُؤَيَّدَةُ لَوْ أَنَّهَا عَمَّتِ الْأَرْضَ بِتَطْيِيقِهَا ، وَسَاوَتْ بَيْنَ قَرِيبِهَا وَسَمِيقِهَا ؛ وَصَارَتْ كَالْجِبَالِ الرَّوَّاسِي فِيهَا ، لَكَانَتْ قَدْ تَزَلَزَتْ وَمَادَتْ بِأَهْلِهَا ، وَهِيَ مَعَ تَبَايُنِ أَجْنَاسِهَا وَطَوَائِفِهَا مُتَّظِّفَةٌ عَلَى مَعَانِدِي

الدولة ومخالفها ، متلازمة على الولاء ، متمالكة على الأعداء ، نلتفت إلى المجاهدة كأنها
 الأسود إقداماً وبأساً ، وكأتمما فصلت جوامد الغدران سلاحاً لها وللبأساً ، والسيد
 الأجل الأفضل التي عظمت به المواهب وجلت ، وذهبت بوزارته الغياهب
 وتجلت ، وتهلل بنظره وجه الملة وكان عائسا ، وأعاد الدولة معصراً وقد كانت قبله
 عائسا ، وحسنت الدنيا بأيامه إذ ليس فيها من يضاھيه ، وانتظمت أمورها على
 الإرادة بصدورها عن أوامره ونواھيه ، ترتب المواكب بمهاتبه ، ويستغنى بتوغلها
 في القلوب عن إيمائه وإشارته ، وكل طائفة مقبلة على شأنها ، لازمة لمكانها ،
 متصرفة على تهذيبه وتقريره ، عاملة بأدابه : فوقوفها بوقوفه ومسيرها بمسيره .

وتوجه أمير المؤمنين إلى المصلح محفواً بأنوار تجلي ما أنشأته سنابك الخيل ، وتمحو
 آية تقع قام مشارها مقام ظلام الليل ، وعليه من وقار الإمامة ، وسكينة الخلافة ،
 ما خصه الله تعالى به دون البرية وحده ، لأنه مما ورث أمية رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وآله وجدته ، ولما انتهى إليه قصد [المحراب] ^(٢) وأمه ، وأدى الصلاة
 أكمل أداء وأتمه ، ثم انتهى إلى المنبر فعلاه ، ومجد الله تعالى وحده على ما أولاه ،
 ووعظ وعظاً خوفاً عاقبة المعاصي والذنوب ، وحل وكاء العيون ودأوى مرض
 القلوب ، وأمر بسلك سبيل الطاعات وأفعال البر ، وحث على التوفر عليها في الجهر
 والسر ، وعاد إلى قصوره المكرمه ، ومواطنه المقدسه ، وقد بذل في نصحه لله ولرسوله
 وللمؤمنين جهده ، وفعل في الإرشاد والهداية ما لا غاية بعده .

(١) كذا بالأصل .

(٢) بياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

(٣) في الأصل « إلى المحراب فصلاه » ولا معنى لها .

أنباك أمير المؤمنين خبر هذا اليوم لتشكر الله على النعمة فيه ، وتُدعيه قبلك على
الرسم فيما يجاريه ، فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

السابع — ما يكتب بالبشارة بالسلامة في ركوب عيد النحر .

قد تقدم في الكلام على ترتيب دولة الفاطميين في المقالة الثانية أن الخليفة كان
يركب لصلاة عيد النحر كما يركب لصلاة عيد الفطر، تارة مع آسئمال الدولة على
وزير، وتارة مع عدم آسئمالها على وزير .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي ، وهي :

أما بعد ، فالحمد لله الذي أعلى منار الملة ، وشرف مواسم أهل القبلة ، وكفل
أمير المؤمنين أمر الأيام ، كما كفله أمر الأنام ، فرأى الناس من حسن سيرته أيقاظاً
ماليرونه مجازاً في المنام ، وصلى الله على جدنا محمد نبيه الذي أرسله إلى الناس كافة ،
وجعل العصمة مُحيطَةً به حافه ، فاطلع في ظلام الشرك شمس التوحيد وبدره ،
وآمن به من شرح الله للإسلام صدره ، وعصاه من تمرد فأثقل الوزر ظهره ، وبين
عبادات كرم أجرها وعظم ثوابها ، وألزم طاعات جعل الجنة للعاملين بها مفتحة
أبوابها ، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مظاهرة ومظاهرة ،
والمساوي في حكمه بين باطنه وظاهره ، ولم يزل حاملاً على المحجة البيضاء جاعلاً ذلك
من قربه وذخائره ، قائماً بحقوق الله جاهداً في تعظيم حرمة وشعائره ، وعلى الأئمة
من ذريتهما نجوم الأرض وهداة أهلها ، والواجبة طاعتهم على من في غيرها
وسهلها ، والذابين بالمشرفية عن حمى الشريعة ، والذين متابعتهم من أوجه ذريعه .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كنا عيد النحر سنة كذا وكذا : وهو يوم

أظهر الله فيه قوة الدولة وأقذارها ، وأوجب فيه — رغبة ورهبة — مسارعة النفوس

المخالفة إلى الطاعة وأبتدأها ؛ وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قُصوره
 الزاهرة عند انفجار الفجر ، وسافطت على ما تُحرزُه من كريم الثواب وجزيل الأجر ؛
 وأستزلت الرحمة برؤية إمام الأمة ، وأعدت الإخلاص في خدمته من أوفى الحرُمات
 وأقوى الأذمة ؛ وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طواله ، ومهابته
 تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدافعُه ؛ وقصد المصلى في كتابه ،
 ومواكب التعظيم مستوجبُه ؛ وعزّة لتبين في الشمايل والصفحات ، وقوة يشهد
 بطيب وصفها أرج النفعات ؛ قد غدت عددها محمكة ؛ وخبولها مطهّمة ؛ وذوابنها
 إذا ظمئت كانت مقومه ، وإذا رويت عادت محطّمة ؛ تتقلد صفائح متى أنتضيت
 أنصفت من الجائر الحائف ، ومتى اقتضبت عملاً كان اقتضابها مبيضا للصحائف ؛
 وفي ظلها معاقل للأندين ، ومجدّها مصارع للناذنين ؛ وهى للدماء هوارق ، وللهمات
 فوالق ، ولستغلق البلاد مفايح ولستفتحها مغالق .

ولما أتته إلى المصلى قضى الصلاة أحسن قضاء وأداها أفضل تأديه ، وأستزل
 رحمة لم تزل بصلاته مُتمّديه ؛ وأتته إلى المنبر فرقيه ، وخطب خطبة من استخلفه
 الله فكان مراقبه ومتقيه ؛ ووعظ أبلغ وعظ ، وأبان عمّا للعامل بنصحه في الدنيا
 والآخرة من فائدة وحظ . وعطف على الأضاحى المعدّة له فنحرها جريا في الطاعات
 على فعلها المتهادى ، وأضحّت نتوق التكميل بإنجازه وعيده في الأعادى ؛ فالله يقضى
 بتصديقه ، ويمنّ بتخيئه وتحقيقه ؛ وعاد إلى قُصوره المكرمة مشكورا سعيه ، مضمونا
 نفعه ؛ مرضيا فعله ، مشمولاً عبيده منه بما هو أهله . أعلمك أمير المؤمنين ذلك
 فاعلم هذا وأعمل به . وكتب في اليوم المذكور .



وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، والدولة مشتملة على وزير، من إنشاء ابن قادوس، وهي :

أما بعد ، فالحمد لله مآجى دنس الآثام بالحج إلى بيته الحرام ، وموجب الفوز في المعاد لمن عمل بمرشد أئمة الهدى الكرام ، ومضاعف الثواب لمن اجتهد فيما أمر الله به من التلبية والإحرام ، ومحول الغفران لمن كان بفرائض الحج ونوافله شديد الولوع والغرام ، وصلى الله على جدنا محمد الذى لبي وأحرم ، وبين ما أحل الله وحرّم ، وعلى أخيه أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى ضرب وكبر ، وحقر من طغى وتجبّر ، وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الدين ، وحُوف المعتدين ، وسلم وكرم ، وشرف وعظم .

وإن من الأيام التى كملت محاسنها وعمت ، وكثرت فضائلها وجمت ، ووجب تخليد عز صفاتها ، وتعين تسطير تأثيراتها ، يوم عيد النحر من سنة كذا : وكان من قصصه أن الفجر لما سلّ حسامه ، وأبدى الصباح ابتسامه ، نهض عيد الدولة فى جموع الأولياء والأنصار ، وأولى العزيمة والاستبصار ، ميممين القصور الزاهرة متبركين بأفئيتها ، ومستملين بسعادتها ، وتألّفوا صفوقاً تبهر النواظر ، ويحجل تألفها تألف زهر الرّوض الناضر ، مستصحين فنونا من الأزياء تروق ، ومستتبعين أصنافاً من الأسلحة يفضّ لمعها من لمع اللهب والبروق ، والأعلام خافقه ، والرايات بالسنة النصر ، على الإخلاص لإمام العصر ، متوافقه ، فأقاموا على تشويف لظهوره ، وتطلع للتبرك بلامع نوره .

ولما بزغت شمس سعادته ، وجرت الأمور على إيثاره وإرادته ؛ وبدت أنوار
الإمامة الجلية ، وظهرت طلعتها المعظمة البهية ؛ نحر الأنام سُجوداً بالدعاء والتمجيد ،
والاعتراف بأنهم العبيد بنو العبيد ؛ وأستقل ركاب أمير المؤمنين ، ووزيره السيد
الأجل الذي قام بنصر الله في إنجاد أوليائه ، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه ؛
وناضل عن حوزة الدين وجاهد ، وناصر أحزاب الكفار وناهد ؛ يقوم بأحكام
الوزاره ، وتدير الدولة تدير أولى الإخلاص والطهارة ؛ ويتبع آراء أمير المؤمنين فيما
تنفذ به أوامره ، ويعمل بأحكام الصواب فيما تقتضيه موارده ومصادره ؛ ويحسن
السياسة والتدير ، ويتوخى الإصابة في كل صغير من أمور الدولة العلوية وكبير ؛
ويخلص لله جل وعز وإمامه ، ويكفكف من الأعداء ببذل الجهد في أعمال هدمه
وحسامه ؛ وسار أمير المؤمنين والعساكر متابعة في أثره ، متوافقة على أمثال أمره ؛
قد رفعت السنايك من العجاج سخاباً ، وخيلت جنن الجند للناظرين في البر عباباً ؛
والحياد المسومة تموج في أعنتها ، وتختال في مراكبها وأجلتها ؛ وأسرع فتكسب الرياح
نشاطاً ، وتفيد المتعرض لوصفها إفراطاً ، وتهدي لمن يحاول مماثلتها غلواً وأشتطاطاً ؛
وأصوات مرتفعة بالتهليل ، وأصوات الحديد تُسمع بشائر النصر بترجمة الصليل ؛
ويكاد يرعب الأرض زلزل الصهيل ، وترض سنابكها المضاب وتغدو صلاحها
كالكتيب المهيل .

ولما انتهى ركاب أمير المؤمنين إلى المصل والتوفيق يكتنفه ، والسعادة تُصرفه ؛
قصد المحراب فأقام الصلاة ، ونحا المنبر فشرفه إذ علاه ؛ وأدى الصلاة على أكمل
الأوضاع وأتمها ، وأجمع [الأحوال] لمرضى الله وأعمها ؛ وأنلى للبدن المعدة فتح
ماحضر تقر بالخالقه ، وأجرى القانون على حقائقه ؛ وعاد إلى قُصوره الزاهرة وقد غفر
الله بسعيه الذنوب ، وطهر برؤيته القلوب ، وبلغ الأمم من المرشد نهاية المطلوب .

أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذا اليوم الذي تشتمل المسار على جميعه أولاً وآخرًا ، وباطناً وظاهراً ، لتذيع نبأه في عمل ولآيتك ، وتُشيع خبره في الرعايا على جارى عادتك ، فاعلم هذا وأعمل به ، وطالع مجلس النظر السيدى الأجلى بما أعمدته في ذلك ، إن شاء الله تعالى . وكتب في اليوم المذكور .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات قد رُفِضَ وترِكَ استعماله بديوان الإنشاء في زماننا .

الصنف السادس عشر

(المكاتبة بالبشارة بوفاء النيل والبشارة بالسلامة في الركوب لفتح الخليج)

وهذه المكاتبة من خصائص الديار المصرية ، لا يشاركها فيها غيرها من الممالك . ولم يزل السامعون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهلمَّ جرأ يكتبون بالبشارة بذلك إلى تولد الأعمال ، أهتماماً بشأن النيل ، وإظهاراً للسرور بوفائه ، الذى يترتب عليه الخصب المذمور من البشارة وقوام المملكة ، وانتظام أمر الرعية . وقد كان للخلفاء الفاطميين القاطنين بأسر الديار المصرية بذلك كبير العناية ووافر الأهتمام ، وكانت عادتهم في ذلك أنهم يكتبون بالبشارة بوفاء النيل كتباً مفردة ، وفتح الخليج وهو المعبر عنه في زماننا بالكسر كُتِبَ مفردة . ولعلَّ فتح الخليج كان يتراخى في زمنهم عن يوم الوفاء ، فيفردون كل واحد منهما بكتب .

فأما وفاء النيل المبارك فهذه نسخة كتاب بالبشارة به في الأيام الفاطمية ، من إنشاء ابن قادوس ، وهى :

النعم وإن كانت شاملة للأمم ، فإنها متغاضلة الأقدار والقيم ، فأولها بشكر تُنشر في الآفاق أعلامه ، وأعتدَادِ نُحْمٍ بإدراك الغايات أحكامه ، نعمة يشترك في النفع بها

العباد، وتبَدُّو بركتها على الناطق والصامت الجماد، وتلك النعمة النيل المِصرِيُّ الذي تبرز به الأرض الجُرْز في أحسن الملابس، وتظهر حُلُّ الرِّياض على القيعان والبسائس؛ وتُرى الكُنُوز ظاهرة للعيان، مُتبرجةً بالجواهر والبلجِين والعِقيان؛ فسُبْحان من جعله سبباً لإنشار المَوَات، وتعالى من ضاعف به ضروب البركات، ووفَّر به موادَّ الأرزاق والأقوات؛ وهذا الأمر صادرٌ إلى الأمير، وقد منَّ الله جلَّ وعلا بوفاء النيل المبارك، وخُلع على القاضي فلان بن أبي الرِّدَّاد في يوم كذا وكذا، وطاف بالخَلج والتشريفات، والمواهب المُضاعفات، بالقاهرة المحروسة ومصر على جاري عَادته، وقديم سيرته؛ ونُودى على الماء بوفائه ستة عشر ذراعاً وإصبعاً من سبعة عشر ذراعاً؛ وأستبشر بالنعمة بذلك الخلاق، وواصلوا بالشكر مواصلةً لا تستوقفهم عنها العوائق؛ وبدأ من مسرات الأمم وأبتهاجهم ما يضمن لهم من الله المزيد، ويُنبئهم المنال السعيد، ويقضى لهم بالمآل الحميد. وموصل هذا الأمر إليك فلان، فاعتمد عند وصوله إليك إكرامه وإعزازَه، وإجمال تلقَّيه وإفضاله؛ إلى ما جرت به عادة مثله من رجاء، وتنويه وأحتفاء، وإكرام وأعتناء؛ ليعود شاكرًا. فاعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى.



وهذه نسخة أخرى من ذلك، من إنشاء ابن الصيرفي، وهي :

أولى ما تحدَّث به ناقله وراويه، وتَعَجَّل المسرة به حاضره ورأيه؛ ما كانت الفائدة به شائعةً لا تحيِّز، والنعمة به ذائعةً لا يتخصَّص أحدٌ بشمولها ولا يتميز؛ إذ كان علةً لتكاثر الأقوات، وبها يكون الثمائل في البقاء والتساوي في الحيات؛ وذلك ما منَّ الله تعالى به من وفاء النيل المبارك؛ فإنه انتهى في يوم كذا من سنة كذا، إلى ستة عشر ذراعاً وزاد إصبعاً من سبعة عشر ذراعاً؛ وقد سيرنا أيها الأمير فلانا

بهذه البُشرى إليك ، وخصَّصناه بأنورود بها عليك ؛ فتلقَّها من الشكر بمُستوجبها ،
وَأَسْتَقْبِلْهَا من الأبتهاج والأغبتاط بما يليق بها ؛ وأجعل الرُسوم التي جرت العادة
بتوظيفها لفلان بن أبي الرِّدَادِ مَحْمُولَةً من جهتك إلى حَضْرَتِنَا ، لتولى إليه من جِهَتِنَا ؛
فاعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى ، وكتب في اليوم المذكور .

وهذا الصَّنْف من المكاتبات مُتَدَاوِلٌ بالديار المِصْرِيَّة إلى آخر وقت ، يُكْتَبُ به
في كُلِّ سنة عن الأبواب السلطانية إلى نُوَابِ السُّلْطَنَةِ بالممالك الشامية عند وفاء
النيل ، وتسير به البريديَّة ؛ ورُبَّمَا جِي لِلْبَرِيدِيِّ من الممالك شيءٌ بسبب ذلك ؛
وإذا كانت الدَّوْلَةُ عادلةً ضَمَّنَ الكِتَابُ أَنَّهُ لَا يُجْبَى لِلْبَرِيدِيِّ شيءٌ بسبب ذلك .



وهذه نسخةٌ مثاليَّةٌ شريفة في معنى ذلك .

ولا زال يُروى عنه وإليه حَدِيثُ الوَفَاءِ والنَّدَا ، ويُوردُ على سَمْعِهِ الكَرِيمِ نَبَأُ
الْحِصْبِ الذي صَفَا مَوْرِدًا ؛ وَيُهَيِّئُ بِكُلِّ نِعْمَةٍ تَكْفَلْتُ للرعايا بمضاعفة الجودِ
ومُرَادِفَةِ الجَدَا ، وَيُحْصِ بِكُلِّ مِئْتَةٍ عَمَّتْ مواهبها الأَنَامَ فلن تنسى أحداً .

صَدَرَتْ هذه المكاتبة إلى الجناب العالی : وَبِحُرِّ كَرَمِهَا لَا يَنْتَهِي إلى مَدَى ،
وَيُشْرُ بِشْرَاهَا دَائِمٌ أَبَدًا ؛ تُهْدِي إليه سلاماً مُؤَكَّدًا ، وثناءً أَضْحَى به الشكر مُرَدَّدًا ؛
وَتَوْصِّحُ لِعَلْمِهِ الكَرِيمِ أَن الله تعالى قد أجرى على جميل عاداته ، وأراد بالأمة من الخيرِ
ما هو المألوف من إراداته ؛ وَمَنَعَ مَزِيدَ النِّعَمِ التي لم تَزَلْ تُعْهَدُ من زياداته ؛ فاسدى
معروفه المعروف إلى خلقه ، وأيدَّم بما يكون سبباً لمادة عَطَائِهِ ورِزْقِهِ ؛ فبَلَّغَهُمْ
تَأْمِيلَهُمْ ، وأجرى نَيْلَهُمْ ؛ وزادهم بَسْطَةً في الأرض ، وملاً به الملاً وطبَّقَ به البلادَ
طُولَهَا والعَرَضَ ؛ ونَشَرَ على الخَافِقِينَ لَوَاءَ خَصْبِهِ ، وأتى بعسكاريه لقتل المحلِّ

وجذبه ، وبينما هو في القاع إذ بلغ بأذن ربه ، فجعل من الذهب لباسه ، وعطَّر
بالسُّدَا أنفاسه ، ولم يترك خِلالَ قُطْرٍ إلا جاءه بِنَافَسِهِ ، ونَصَّ السَّيْرَ فسيرَ نَصَّ مجيئه
في الأرض لما صحَّح بالوفاء قِيَّاسَهُ ، وغازلته الشمسُ فكسَّته حُمرةً أصيلها لما غدت
له بمشاهدتها مآسه ، ولم يكن في هذا العام إلا بمقدار ما قيل : أقبَلْ إذ قيل : وفي ،
ومد في الزيادة بآغا وبسَطَ ذِرَاعًا ، وأطلق بمَوَاهِبِ أصابعه كَفًّا ، وعاجل إدراكِ الأهرَمِ
في ابتداء أمره مطال شبَّابه ، ومرَّ على الأرض فحلا في الأفواه لما ساغ شكر سائغ
شرايه ، وأعتمد على نَصِّ الكتابِ العزيزِ فكاد أن يدخلَ كُلَّ بَيْتٍ من بآيه .

ولما كان يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا من شهور القِبْطِ بادرت إلى الوفاء
شيمه ، وأغنت أمواجه عن مِنَّةِ السُّحْبِ فدمت عندها ديمه ، وزار البلاد منه أجلُّ
ضيف فرشت له صَفْحَةَ خَدِّهَا للقرى فعمها كرمه ، وبلغ من الأذرع ستة عشر ذراعا
ورقع لواءه بالمزيد ونشر ، وجاء للبشر بأنواع البشر ، فرسمنا بتعليق ستر مقياسه ،
وتخليقه وتضويج أنفاسه ، وفي صبيحة اليوم المذكور كسر سدُّ خَلِيجِهِ على العاده ،
وبلغ الانام أقصى الإراده ، وتباشر بذلك العام والخاص ، وأعلنت الألسنة بحمد
ربها بالإخلاص ، وسَطَّرَهَا وهو بفضل الله ورحمته متتابع المزيد ، بسيط بحره
المديد ، متجدد الثمور في كلِّ يوم من أيام الزيادة جديد . فالجناب العالی يأخذ من
هذه البشري بأوفر نصيب ، ويشكر نعمة الله على ما منح - إن شاء الله - هذا العام
الخصيب ، ويذيع لها خبرا وذكرا ، ويضوع بطي هنائها نشرا ، ويتقدم بأن لا يجي
عن ذلك بشارة بالجملة الكافية ، لتغدو المنة تامة والمسرة وافية ، وقد جهزنا بهذه
المكاتبة فلانا ، وكتبنا على يده أمثلة شريفة إلى نواب القلاع الفلانية [جريا] على
العادة ، فيتقدم بتجهيزه بذلك على عادة همته ، فيحيط علمه بذلك .

(١) يياض بالأصل مقدار كلمة والتصحيح يقتضيه المقام .



وهذه نسخة أخرى في معنى ذلك، كُتِبَ بها في سابع عشر ذى القعدة سنة ست وستين وسبعمائة، وصورتها بعد الصدر :

وَبَشَّرَهُ بِأَخْصَابِ عَامٍ ، وَأَخْصَصَ مَسْرَةَ هَنَأُوهَا لِلْوُجُودِ عَامٍ ، وَأَكْمَلَ نِعْمَةً تُقَابِلُ
العَامَ مِنْ عَيُونِ الْأَرْضِ بِمَزِيدِ الْإِنْعَامِ .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالي تُهْدِي إليه أتمَّ سَلامٍ ، وأعمَّ ثناء تامٍ ،
وتوضح لعلمه الكريم : أن الله تعالى - وله الحمد - قد جرى في أمر النيل المبارك على
عوائد الطأفة ، ومنح عباده وبإلادته من مديد نعمة مزيد إسعافه ، وأورد الآمال
من جوده منهلًا عذبًا ، وملاها به إقبالا وخصبًا ، وأحيا به من موات الأرض
فاهترت وربت ، وأنبئت كل بهيج وأنجبت ، وأينعت الرياض بفخرت فيها الروح
ودبت ، وأمتلأت الحياض ففاضت بالمياه وأنصبت ، وطلع كالبدر في آزياده ،
وتوالى على مديد الأرض بأمداده ، إلى أن بلغ محده ، ووصل الفرج ومنع الشده ،
وفي يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا وكذا من شهور العبط ، وفاه الله ستة عشر
ذراعًا فاه فيها بالنجح ، وعم ثراه الأرض فأشرق بعد ليل الجذب بالرخاء أضواءً صبح ،
وفي ذلك اليوم علق ستره ، وخلق مقياسه فاشتهر ذكوه ، وكسر سده ، وتوالى مده ،
وتجز من الخصب وعده ، وعلا الترع والجروف ، وقطع الطريق فآمن من الجذب
المخوف ، وأقبل بوجهه الطلق المحيا ، وأسبل على الأرض لباس النفع فبدلها بعد
الظميا ريا ، فحمدنا الله تعالى على هذه النعم ، ورأينا أن يكون للجناب العالى أوفر
نصيب من هذا الهناء الأعم ، وآثرنا إعلامه بذلك : ليكون في شكر هذه النعمة أكبر
مشارك ، فالجناب العالى يأخذ حظه من هذه البشري ، ويتحقق ماله عندنا من

المكانة التي خصته في كل مبهجة بالذكري، ويتقدم أمره الكريم بأن لا يجي
عن ذلك حق بشاره، ولا يتعرض إلى أحد بخساره، وقد جهزنا بذلك فلانا.

الصف السابع عشر

(فيما يكتب في البشارة بركوب الميدان الكبير بخط اللوق

عند وفاء النيل في كل سنة)

وهو ما يتكرر في كل سنة عند ركوب الميدان . ويكتب به إلى جميع النواب
الأكبر والأصغر ، وتجهز إلى أكابر النواب خيول صلبة المثال الشريف ، ويرسم
لهم بالركوب في ميادين الممالك للعب الكرة ، تأسياً بالسلطان ، فيركبون ويلعبون
الكرة . والعادة في مثل ذلك أن تُنشأ نسخة كتاب من ديوان الإنشاء الشريف ،
ويكتب بها إلى جميع النيابات ، لا يختلف فيها سوى صدرها . بحسب ما يقتضيه
حال ذلك النائب .

وهذه نسخة مثال شريف في معنى ذلك ، كتبت به في ذى القعدة سنة ستين
وسبعائة لنائب طرابلس ، وصورته بعد الصدر :

ولا زال يُحمَلُ إليه أنباء ما يرد غلته من مضاعفة السرور ، وتبث له أقوال الخناء
بما يجب عليه من النصر الموفور ، ونخصه من إقبالنا الشريف بأكل تكريم
وأنم حبور .

صدرت هذه المكاتب تهدي إليه من السلام والثناء كذا وكذا ، وتوضّع لعلمه الكريم
أنا نتحقق مضاء عزائم حرباً وسلماً ، واعتلاء هممه التي تحرس بها الممالك ونجى ،

وَأَنْ صَوَّافِنَهُ تُرْتَبَطُ لُتَرَكِّضُ ، وَتُحْبَسُ لَتَنْهَضُ ؛ فَلذَلِكَ نَعْلَمُهُ مِنْ أَنْبَاءِ اسْتِظْهَارِنَا
 مَا يُبْهِجُ خَاطِرَهُ ، وَيُقِرُّ نَاطِرَهُ ؛ وَهُوَ أَنَّنَا لَمَّا كَانَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارِكِ خَامِسِ شَوَّالٍ ،
 تَوَجَّهَ رِكَابُنَا الشَّرِيفُ إِلَى الْمِيدَانِ السَّعِيدِ وَفَاضَ بِهِ جُودُنَا فَأَخْضَرَتْ مَرُوجُهُ ،
 وَظَهَرَ بِهِ نَيْرِنَا الْأَعْظَمُ فَأَشْرَقَتْ آفَاقُهُ وَتَشَرَّفَتْ بِرُوجِهِ ، وَأَقْرَّ الْعَيْوَنَ مِنْيرُ وَجْهِنَا
 الْمُبَارِكِ وَبَهَّجَهُ ؛ وَغَدَا كُلُّ وَليٍّ بِمَوَالِيَةِ إِنْعَامِنَا مَشْمُولًا ، وَبِمَنَالَاتِ إِكْرَامِنَا مُوصُولًا ؛
 وَرَكَّضَ الْأَوْلِيَاءُ بَيْنَ أَيْدِينَا جِيَادًا أَلْفَتْ نِزَالًا وَعَرَفَتْ طِرَادًا ، وَأَنْعَطَتْ لِينًا وَأَنْقِيَادًا ؛
 وَعُدْنَا إِلَى مُسْتَقَرِّ مُلْكِنَا الشَّرِيفِ وَقَدْ جَدَّدَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا إِسْعَادًا ، وَأَيَّدَ لِعَزْمِنَا الْمُعَانِ
 مَبْدَأًا وَمَعَادًا ؛ وَآثَرْنَا إِعْلَامَ الْجَنَابِ الْعَالِي بِهَذِهِ الْوِجْهَةِ الْمِيمُونَةِ . وَالْحَرَكَةُ الَّتِي هِيَ
 بِالْبَرَكَةِ مَقْرُونَةٌ : لِأَخْذِ حَظِّهِ مِنَ السُّرُورِ بِذَلِكَ وَالْهِنَا ، وَيَتَحَقَّقُ مِنْ إِقْبَالِنَا الشَّرِيفِ
 عَلَيْهِ مَا يَبْلُغُ بِهِ الْمُنَى .



وهذه نسخة مثال شريف في المعنى ، كُتِبَ بِهِ فِي الْعَشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ ، سَنَةِ
 أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . وَصُورَتُهُ بَعْدَ الصَّدْرِ :

وَلَا زَالَتْ مِيَادِينُ سَعْدِهِ لَا تَتَنَاهَى إِلَى مَدَى ، وَكُرَّاتُ كَرَاتِهِ فِي رِحَابِ النَّصْرِ تَلْمَعُ
 كَنَجْمِ الْهُدَى ؛ وَمُدَوَّرُ صَوَائِلِهِ كَشَوَاجِرِ الْمُرَانِ تَحْلُو بِتَأْيِيدِهَا لِلْأَوْلِيَاءِ وَتَقْدُو
 مَرِيرَةً لِلْعِدَا .

صَدْرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ وَظَفَرُهَا لَا يَزَالُ مُؤَيَّدًا ، وَنَصْرُهَا لَا يَبْرَحُ مُؤَيَّدًا ؛ تُهْدَى إِلَيْهِ
 سَلَامًا مُؤَكَّدًا ، وَثَنَاءً كَنَشْرِ الْأَرْضِ بِالنَّدَى ، وَتَوْصِيحَ لَعَلِمِهِ أَنَّنَا لَمْ نَزَلْ بِحَمْدِ اللَّهِ نَتَّبِعُ
 سَنَنَ سَلَفِنَا الشَّرِيفِ ، وَنُجْرِي الْأُمُورَ عَلَى عَوَائِدِ جَمِيلِهِمُ الْمُنِيفِ ؛ وَنَرَى تَمْرِينَ
 الْأَوْلِيَاءِ عَلَى مُمَارَسَةِ الْحُرُوبِ ، وَنُؤَيِّرُ إِبْقَاءَ آثَارِ الْجِهَادِ فِيهِمْ عَلَى أَحْسَنِ أُسْلُوبِ ؛

فلذلك لا يُنحَلُّ في كُلِّ عامٍ بالتَّعَاهُدِ إلى المَيْدَانِ السَّعِيدِ، والركوب إليه في أَسْعَدِ طَالِعٍ يُدْئِي النَّصْرَ وَيُعِيدُ : لِمَا في ذلك من آتِهَاجٍ يَتَجَدَّدُ ، وأسبابِ مَسْرَةِ لِكَاْفَةِ الأَنَامِ تَأَكِّدُ، ودَعَوَاتِ أَلْسِنَتِهَا تَتَضَاعَفُ مِنَ الرِّعْيَةِ وَتَتَرَدَّدُ .

ولما كان في يوم السبت المبارك سادس عشر شهر رَجَبِ الفَرْدِ، ركبنا إلى المَيْدَانِ السَّعِيدِ في أتمِّ وقتٍ أَخَذَ مِنَ السَّعْدِ يَجْمُوعِهِ، وأظهر في أفقِ العساكر من وَجْهِهَا الشَّرِيفِ البَدْرَ عِنْدَ طُلُوعِهِ ؛ ولم نَبْرَحْ يَوْمَنَا المَذْكُورِ فِي عَطَاءٍ نُجِيدِهِ، وإِنْعَامِ نُفِيدِهِ، وإِطْلَاقِ نُبْدِئِهِ وَنُعِيدِهِ ؛ والأولياء بين أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ يَمْرُحُونَ، وفي بَحَارِ كَرَمِنَا المُنِيفِ يَسْبُحُونَ، وفي مَيْدَانِ تَأْيِيدِنَا المُنِيفِ يَسِيحُونَ ؛ والكُرَاتِ كَالشَّمْسِ تَجْنَحُ تَارَةً وَتَغِيبُ، وَتَحْشَى مِنْ وَقْعِ الصَّوَالِجَةِ فَتَقَابِلُهَا بِوَجْهِ مُصَفَّرٍ مُرِيبٍ ؛ ثُمَّ عُدْنَا إِلَى القَلْعَةِ المَنْصُورَةِ عَلَى أتمِّ حَالٍ ، وَأَسْعَدِ طَالِعٍ بَلَغَ الأَنَامَ الأَمَانَ والأَمَالَ ؛ والعساكر بخدمتنا الشَّرِيفَةِ مُحَدِّقُونَ، ومماليكنا بَعْقُودٌ وَوَلَائِنَا مُطَوِّقُونَ ؛ والرَّعَايَا قَدْ أَلْبَسَهَا السَّرُورَ أَثْوَابًا، وَفَتَحَ لَهَا مِنَ الأَبْتِهَاجِ أَبْوَابًا ؛ وَقَدْ آثَرْنَا إِعْلَامَ الجَنَابِ بِذَلِكَ لِأَخَذِ حَظِّهِ مِنْ هَذِهِ المَسْرَةِ والبُشْرَى، وَيُشْتَرِكُ هُوَ والأَنَامُ فِي هَذِهِ النِّعْمَةِ الكُبْرَى ؛ وَمَرَسُومُنَا لِلجَنَابِ أَنْ يَتَقَدَّمَ بِالرُّكُوبِ بَيْنَ عِنْدِهِ مِنَ الأَمْرَاءِ فِي مَيْدَانِ طَرَابُلَسِ المَحْرُوسَةِ ؛ وَيَلْعَبُ بِالكُرَةِ عَلَى جَارِي العَادَةِ فِي ذَلِكَ ؛ لِيُسَاهِمَ أَوْلِيَاءُ دَوْلَتِنَا القَاهِرَةِ فِي ذَلِكَ ، وَيَسْلُكُ مِنْ طُرُقِهِمُ الجَمِيلَةَ أَجْمَلَ المَسَالِكِ .

قلت : وهذا الصَّنْفُ مِنَ المَكَاتِبَاتِ السُّلْطَانِيَةِ لَمْ يَزَلْ مُسْتَعْمَلًا بِدِيَوَانِ الإِنْشَاءِ، يُكْتَبُ لَهُ كُلَّمَا رَكِبَ السُّلْطَانُ إِلَى المَيْدَانِ الصَّالِحِي بِنَحْطِ اللُّوقِ . إِلَى أَنْ عَطَّلَ جِيدُهُ مِنَ الرُّكُوبِ فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ « بَرَقُوقِ » وَأَقْبَصَ عَلَى لَعِبِ الكُرَةِ فِي المَيْدَانِ الَّذِي جَرَتْ بِهِ العَادَةُ ؛ فَتَرَكْتَ المَكَاتِبَةَ بِذَلِكَ مِنْ دِيَوَانِ الإِنْشَاءِ وَرَفِضَ اسْتِعْمَالَهَا .

الصف الثامن عشر

(المكاتبة بالبشارة بحج الخليفة)

لما كانت الأسفار، محلّ الأخطار، وموقع الاختلاف وحدث الفتن، كانت الخلفاء يكتبون الكتب إلى عمّاهم بالسلامة عند الإياب من السفر للحج وغيره . والرسم فيها أن يذكر أن الحج من أجل العبادات، وأن من النعمة [أن يمن] الله تعالى بقضاء المناسك، والوقوف بالمشعر الحرام، والطواف بالبيت العتيق، والسعي بين الصفا والمروة، وما يجري مجرى ذلك من شعائر الحج، ثم بعد زيارة النبي صلى الله عليه وسلم، واتفق الكلمة في جميع هذه الأحوال، على كثرة الخلائق ومزيد الجيوش والعساكر .

وهذه نسخة كتاب بالسلامة من سفر الحج، وهي :

الحمد لله الذي جعل بيته مثابة للناس وأمناء، وحرماً من دخله كان آمناً، الذي اختار دين الإسلام على الأديان، وأبتعث به صفوته من الإنس والجان، بهذا أكرم بني معد بن عدنان .

يحمد أمير المؤمنين أن أعانه على تادية حقه، ونصبه لكفالة خلقه، ووفقه للعمل بما يرضيه ويؤدني إليه . ويسأله أن يصلّي على خير من غار وأنجد، وصدّر وورد، وركع وسجد، ووحد ومجد، وصلّى وعبد، وحلّ وأحرم، وحجّ الحرم، وأتى المستجار والملتزم، والحطيم وزمزم، مجد سيد ولد آدم، وعلى أخيه وابن عمّه مصباح الدلالة، وحجاب الرسالة، إمام الأمة، وباب الحكمة، أمير المؤمنين علي بن أبي طالب،

(۱) بياض بالاصل والتصحيح مما يقتضيه المقام .

مُمَزَّقِ الكُتَّابِ ، وَمُفَرَّقِ المَوَاقِبِ ؛ وَمُحَطِّمِ القَوَاضِبِ ، فِي القُلَلِ وَالْمَنَاقِبِ ؛ وَعَلَى
الْأُمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا الهَادِينَ ، صَلَاةً بَاقِيَةً فِي العَالَمِينَ .

وَإِنَّ أَوْلَى النِّعَمِ أَنْ يُسْتَعْدَبَ ذِكْرُهَا ، وَيُسْتَعَطَّرَ نَشْرُهَا ؛ وَتُتَحَدَّثَ بِهَا الأَلْسِنَةُ ،
وَتُعَدَّ فِي مَوَاهِبِ اللهِ الحَسَنَةِ ؛ نِعْمُ اللهُ تَعَالَى فِي التَّوْفِيقِ لِحَجِّ بَيْتِهِ الَّذِي جَعَلَهُ مَثَابَةً
لِزَائِرِيهِ ، وَالإِطَافَةَ بِحَرَمِهِ الَّذِي يُوجِبُ المَغْفِرَةَ لِقَاصِدِيهِ ؛ وَالنُّزُولِ بِأُفُقِيَّتِهِ الَّتِي مِنْ
يَحْتَمُّ بِهَا فَقْدَ أَنْسَلَخِ مِنَ السَّيِّئَاتِ ، وَتَلَبَّسَ بِالحَسَنَاتِ ؛ وَكُتَابِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ هَذَا
إِلَيْكَ يَوْمَ النَّفْرِ الأَوَّلِ : وَقَدْ فَضِيَ بِمُحَمَّدِ اللهِ تَفَنَّهُ ، وَوَفَى نَذْرَهُ ؛ وَتَمَّ حَجَّهُ ، وَكَلَّ طَوَافَهُ ؛
وَشَهِدَ مَنَافِعَهُ ، وَأَدَّى مَنَاسِكَهُ ؛ وَوَقَفَ المَوْقِفَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ قَانِتًا دَاعِيًا ، وَرَاجِبًا
رَاجِيًا ؛ وَعَرَّفَهُ بِعَرَفَاتٍ إِعْلَامَهُ قَبُولَ سَعْيِهِ ، وَإِجَابَةَ تَلِيَّتِهِ ، وَبَلَّغَهُ فِي مَنَى أَمَانِيَّتِهِ
مِنْ رَأْفَتِهِ ؛ وَأَرَاهُ مِنْ مَحَايِلِ الرَّحْمَةِ ، وَدَلَائِلِ المَغْفِرَةِ ؛ مَا تَلَأَلَّتْ أَنوَارُهُ ، وَتَوَضَّعَتْ
آثَارُهُ ؛ وَأَجْرَاهُ عَلَى تَفْصِيلِ العِبَارَةِ فِي شُمُولِ السَّلَامَةِ لِكُلِّ مَنْ حَجَّ بِحَجِّهِ ، وَوَقَفَ
مَوْقِفَهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَخَاصَّتِهِ ، وَعَامَّتِهِ وَرَعِيَّتِهِ ؛ وَأَنعمَ بِاتِّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ ، وَاجْتِمَاعِ أَهْوِيَّتِهِمْ ؛
وَآكْتِنَافِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ لَهُمْ ، وَزَوَالِ الإِخْتِلَافِ وَالمُبَايَنَةِ بَيْنَهُمْ .

فَإِنْ أَرَادَ زِيَارَةَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : وَهُوَ يُصَدَّرُ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى
عَنْ مَوْقِفِهِ هَذَا مِنَ البَيْتِ الحَرَامِ ، إِلَى زِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

فَإِنْ أَرْمَعَ الأَنْكِفَاءَ إِلَى مَقَرِّهِ ، قَالَ :

وَأَشْعُرُكَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ ذَلِكَ وَهُوَ عَائِدٌ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى إِلَى مَقَرِّ خِلَافَتِهِ .
فِي عِزٍّ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَعُلُوٍّ مِنْ كَلِمَتِهِ ؛ وَأَمْتِدَادٍ مِنْ سُلْطَانِهِ ، وَتَضَاعُفٍ مِنْ جُنْدِهِ
وَأَعْوَانِهِ : لِنَاخِذِ بِمَحْظُوكَ مِنَ الأَبْتِهَاجِ وَالجَدَلِ ، وَتُدْبِيعِهِ بَيْنَ أَهْلِ العَمَلِ : لِيَشَارَكَكَ
العَامَّةُ فِي العِلْمِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ فَيُخْلِصُوا اللهُ الشُّكْرَ عَلَيْهَا ، وَيَرْغَبُوا إِلَيْهِ وَزِيَادَةَ مِنْهَا ؛
إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة كتاب سلامة الخليفة من سفر في الجملة .

والرسم فيه أن تُذكر نعمة الله تعالى بما منح أمير المؤمنين في سفره ذلك : من بلوغ المبارب ، وتسهيل المقاصد ، وإدراك الأوطار ، وشمول النعمة في الذهاب والإياب ، وما يجري مجرى ذلك مما ينخرط في هذا السلك ، وهذه نسخته :

الحمد لله ذي الطول والإنعام ، والفضل والإكرام ، والمِنَّ العظام ، والأيدى الجسام ، الذي أَرعى أمير المؤمنين من حياطته عينا لا تنام ، وأستخدم لحراسه والمرامة دونه اللبالي والأيام ، وقضى له بالتوفيق والسعادة في الظن والمقام .

يحمدُه أمير المؤمنين أن استخلصه لإمامة الأنام ، وعدق به أساليب النقص والإبرام ، ويسأله الصلاة على من أختصه بشرف المقام ، وأبتغته بدين الإسلام ، وجلا به حنادس الظلام ، مجد خاتم الأنبياء الكرام ، وعلى أخيه وابن عمه الهمام الضرغام ، أمير المؤمنين على بن أبي طالب مكسر الأصنام ، وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الأحكام ، وأدلة الحلال والحرام .

وإن أمير المؤمنين لا يزال يتحدث بنعم الله مُستدرا لأخلافها ، منتصبا لقطافها ، ويُفيض في ذكرها ، مُستدعيا للزيادة بشكرها ، ويُطلعُ خلصاءه على حُسن آثارها لديه : وسُبوغ ملابسها عليه ، لياخذوا بحظ من الغبطة والأستبشار ، ويسرحوا في مسارح المباح والمَسار ، وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك حين استقر ركابه بناحية كذا ، مبشرا لك بنعمة الله في حياطته ، وموهبته في سلامته ، وما أولاه من انارة (٩) الدليل ، وتسهيل السبيل ، وطى الجاهل ، وتقريب المنازل ، وإعذاب المناهل ، وإنالة الأوطار ، وتدميث الأوعار ، وبركة المتصرف ، وسعادة المنصرف ، ووصوله إلى مقصده

قرير العين ، قليل الأين ؛ محفوظا ساريا وآثبا ، مكلّوا عائدا وذاهبا ؛ مُشردّ النَّصَبِ
 مسرورا ، موفور النَّصيبِ محبورا ؛ في آجتاع من كلمة أوليائه على طاعته ، ونفوذ
 بصائرهم في نصير رأيتيه ؛ وإعانتته على ما استحفظه من عباده ، وأسترعاه من بلاده : ليأخذ
 بالخطّ الأجزل ، من الأبتجاج والجدل ؛ ويشكر الله تعالى على هذه النعمة المتجدّده ،
 ويضيفها إلى سوائف نعيمه التّالده ؛ ويذيعها بين رعيته ، وأنصار دعوته ؛ ليشاركوا
 في آرتشاف لعايها ، وآلتحاف آثوابها ؛ فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

قلت : وهذا الصّنف من المكاتبات السلطانية قليل الوقوع ، فإن وقع مثله
 للكاتب في زماننا ، نخرجه على نسبة الأسلوب المتقدم .

الصنف التاسع عشر

(الكتابة بالإنعام بالتشريف والخلع)

وهذا الصّنف ممّا أغفله صاحب "موادّ البيان" ولا بدّ منه .

والرسم فيه أن يكتب عن الخليفة أو السلطان إلى من أخلص في الطاعة ،
 أو ظهرت له آثار كفاية : كفتح أو كسر عدوّ ، وما يجري مجرى ذلك .

وهذه نسخة كتاب كتب به أبو إسحاق الصّابي عن الطائع لله ، إلى صمّصام الدّولة
 ابن عضد الدّولة بن بويه ، قرين خلعة وفرسين بمركبين من ذهب وسيف
 وطوق ، وهي :

من عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين ، إلى صمّصام الدّولة
 وشمس الملة أبي كالجار بن عضد الدّولة وتاج الملة مولى أمير المؤمنين .

سلام عليك : فإن أمير المؤمنين يَمُجِّدُ إِلَيْكَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ جَدِّهِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

أما بعد، أطال الله بقاءك : فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بوأكَ المنزلة العُلَيَّا، وَأَنَّكَ مِنْ أَثَرِهِ الْغَايَةِ الْفُضُوءِ، وَجَعَلَ لَكَ مَا كَانَ لِأَبِيكَ عَضُدَ الدَّوْلَةِ وَتَاجَ الْمِلَّةِ - رَحْمَةً اللهُ عَلَيْهِ - مِنْ الْقَدْرِ وَالْمَحَلِّ، وَالْمَوْضِعِ الْأَرْفَعِ الْأَجَلِّ، فَإِنَّهُ يُوجِبُ لَكَ عِنْدَ كُلِّ أَثَرٍ يَكُونُ مِنْكَ فِي الْخِدْمَةِ، وَمَقَامٍ حَمْدٍ تَقُومُهُ فِي حِمَايَةِ الْبَيْضَةِ، إِنْعَامًا يُظَاهِرُهُ، وَإِكْرَامًا يُتَابِعُهُ وَيُؤَاتِرُهُ، وَاللَّهُ يَزِيدُكَ مِنْ تَوْفِيقِهِ وَتَسْدِيدِهِ، وَيَمُدُّكَ بِمَعُونَتِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَيَخَيِّرُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا رَأَى مُسْتَمِرًّا عَلَيْهِ مِنْ مَزِيدِكَ وَتَمَكِينِكَ، وَالْإِبْقَاءَ بِكَ وَتَعْظِيمَكَ، وَمَا تَوْفِيقُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ يُنِيبُ .

وقد عرفت - أدام الله عزك - ما كان من [أمر كردويه] كافر نعمة أمير المؤمنين ونعمتك، وجاحد صنيعته وصنيعتك، في الوثبة التي وثبها، والكبيرة التي ارتكبها، وتقديره أن ينهز الفرصة التي لم يمكِّنه الله منها، بل كان من وراء [ذلك] دفعه وردة عنها، ومعاجلتك إياه الحرب التي أصلاه الله ناراها، وقنعه عارها وشنارها، حتى أنهزم والأوغاد الذين شركوه في إثارة الفتنة، على أقبح أحوال الذلة والقله، بعد القتل الدريع، والإثخان الوجيع . فالحمد لله على هذه النعمة التي جلَّ موقعها، وبأن على الخاصة والعامة أثرها، ولزم أمير المؤمنين خصوصا والمسلمين عموما نشرها والحديث بها، وهو المسئول إقامتها وإدامتها برحمته .

(۱) تقدم في هذا المطبوع (ج ۶ ص ۳۹۶) عند ذلك أثر .

(۲) الذي تقدم « يؤيدك » وما هنا أروض .

(۳) بياض بالأصل . والنصح عما تقدم .

وقد رأى أمير المؤمنين أن يُجَازِيكَ عن هذا الفتح العظيم، والمقام المحيد الكريم؛
 بخلع تامّة، ودأبتين بمركبين من ذهب من مراكبه، وسيف وطوق وسوار مرصع .
 فتلق ذلك بشكر الله تعالى عليه، والاعتداد بنعمته فيه؛ وألبس خلع أمير المؤمنين
 وتكرّمته، وسر [من بابه] ^(١) على حملاته، وأظهر ما حبّاك به لأهل حضرته، ليعزّ
 الله بذلك وليه ووليّك، ويذلّ عدوه وعدوك؛ إن شاء الله تعالى، والسلام عليك
 ورحمته وبركاته . وكتب فلان لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين
 وثلاثمائة : أطال الله بقاءك، وأدام عزّك، وأجزل حفظك وحياطتك، وأمتع أمير
 المؤمنين بك وبالنعمة فيك وعندك .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية باقٍ على الاستعمال، متى أنعم
 السلطان على نائب سلطنة أو أمير أو وزير أو غيره بخلعة بعث بها إليه وكتب
 قرينها مثال شريف بذكر ذلك؛ إلا أنه أهمل في ذلك السجع والأزدواج، واقتصر
 فيه على الكلام المحلول كما في غيره من المكاتبات، إلا في النادر المعنى بشانه .

الصنف العشرون

(المكاتبه بالتّويه والتّقيب)

قال في "مواد البيان" : جرت عادة الخلفاء بالكتابة بالتّقيب، لأن اللقب موهبة
 من مواهب الإمام: أمضاها وأجازها؛ فإذا جرت عليه كانت كغيرها من نعمه التي يمنّها
 على عبده؛ والكنية تكملة يستعملها الناس فيما بينهم، فليس حكمها حكم اللقب .

(١) رياض بالأصل والله سبحانه عما تقدم (ج ٦، ص ٣٩٧) .

(٢) ساء فيما تقدم «أحمد بن محمد» .

قال : والرسم في هذه الكتب أن تفتح بحمد الله على نِعْمِهِ السَّابِغَةِ الضَّافِيَةِ ،
ومَوَاهِبِهِ الزَّاهِيَةِ النَامِيَةِ ، وَعَوَارِفِهِ الَّتِي جَعَلَهَا جَزَاءً لِلْحَسَنِينَ ، وَزِيَادَةً لِلشَّاكِرِينَ ،
وَنَحْوِ هَذَا مِمَّا يَلِيقُ أَنْ يَفْتَحَ بِهِ هَذَا الْغَرَضَ ، وَالصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ . ثُمَّ يَقَالُ :

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا خَوَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نِعَمِهِ ، وَبَوَّأَهُ مِنْ قِسْمِهِ ، وَخَصَّهُ
بِهِ مِنَ التَّمَكِينِ فِي أَرْضِهِ ، وَالْمَعُونَةِ عَلَى الْقِيَامِ بِفَرِيضَتِهِ ، يَرَى الْمَنْ عَلَى خُلَصَاتِهِ ،
وَإِسْبَاغِ النَّعْمِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ، وَأَخْتِصَاصِهِمُ بِالنَّصِيبِ الْأَوْفَرِ مِنْ حِبَائِهِ ، وَالْإِمَالَةِ بِهِمْ
إِلَى الْمَنَازِلِ الْبَازِخَةِ ، وَالرُّتَبِ الشَّامِخَةِ . وَإِنْ أَحَقَّ مِنْ وَفَرِ قِسْمِهِ مِنْ مَوَاهِبِهِ ، وَغَزُرَ
سَهْمُهُ مِنْ عَطَايَاهُ وَرَغَائِبِهِ ، مَنْ تَمَيَّزَ بِمَا تَمَيَّزَتْ بِهِ مِنْ إِخْلَاصٍ وَمُطَاوَعَةٍ ، وَوَلَاءٍ
وَمُشَافَعَةٍ ، وَأَنْقِيَادٍ وَمُتَابَعَةٍ ، وَصَفَاءٍ عَقِيدَةٍ وَسِرِيرَةٍ ، وَحُسْنِ مَذْهَبٍ وَسِيرَةٍ ، وَلِذَلِكَ
رَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَنْعَتَكَ بِكَذَا لِأَشْتِقَاقِهِ هَذَا النَّعْتِ مِنْ سِمَاتِكَ ، وَأَسْتِنْبَاطِهِ إِيَّاهُ
مِنْ صِفَاتِكَ ، وَشَرَفَكَ مِنْ مَلَابِسِهِ بِكَذَا ، وَطَوَّقَكَ بِطَوِّقٍ أَوْ بَعْقِدٍ ، وَقَلَّدَكَ بِسَيْفٍ
مِنْ سِيوفِهِ ، وَعَقَدَكَ لِيَوَاءٍ مِنْ أَلْوِيَتِهِ ، وَحَمَلَكَ عَلَى كَذَا مِنْ خَيْلِهِ وَكَذَا مِنْ
مَرَاكِبِهِ . وَبِحُسْنِ الْوَصْفِ فِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ وَأَشْتِقَاقِ الْأَلْفَاظِ
مِنْ مَعَانِيهِ ، يَعْرَبُ عَنْ قَدْرِ الْمَوْهَبَةِ فِيهِ . ثُمَّ يَقَالُ : إِبَانَةٌ لَكَ عَنْ مَكَانِكَ مِنْ حَضْرَتِهِ ،
وَإِنَابَةٌ عَلَى تَشْمِيرِكَ فِي خِدْمَتِهِ ، فَالْبَسِ تَشْرِيفَهُ وَتَطَوَّقْ ، وَتَقَلَّدْ مَا قَلَّدَكَ بِهِ ، وَارْكَبْ
حَمُولَاتِهِ ، وَأَبْرِزْ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ فِي مَلَابِسِ نِعْمَائِهِ ، وَأَرْفُلْ فِي حُلِّ آلَائِهِ ، وَزَيِّنْ
مَوَكِبَكَ بِلِوَائِهِ ، وَقُلْ (رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ) وَأَعْنِي عَلَى
مَا يَسْتَرْهِنُهَا لَدَيَّ ، وَخَاطِبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مُتَلَقِبًا بِسِمَتِكَ ، مُتَنَعِّتًا بِنَعْتِكَ .

وهذه نسخة مكتوبة إلى الأفضل بن ولحشى ، وزير الحافظ لدين الله الفاطمى ،
أحد خلفاء الفاطميين بالديار المصرية ، حين قرَّر الحافظ نُعُوته : السَّيِّدُ ، الْأَجَلُّ ،

الأفضل ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الأنام ، كافل قضاة المسلمين ،
وهادى دُعاة المؤمنين ، وهى :

أما بعد ، فالحمد لله الذى تفرّد بالإلهية ، وتوحد بالقدم والأزليّة ، وأبدع من برأ
وخلق ، وأنشأهم من غير مثال سبق ، وأصطفى لتديريهم فى أرضه من بعثه برسالتيه ،
وجعل ما جاءوا به من الشرائع من أمارّة لطفه بهم ودلالته ، وصلى الله على جدنا محمد
رسوله الذى جعل رُتبته اخيراً ونُبوتَه أولى ، فكان أفضل من تقدمه نبياً وسبقه
رسولاً ، وعلى أخيه وأبن عمّه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى ذخره لخلافته ،
وأيدّه بوزارته ، مع كونه من منزلة الأصطفاء ، وتأييد الوحي الظاهر من غير خفاء ،
بحيث لا يفتقر إلى وزير ، ولا يحتاج إلى ظهير ، وإنما جعل ذلك تعليماً لمن يستخلفه
فى الأرض من عباده ، وتمثيلاً نصّ - جلّ وعزّ - إلى قصده وأعماده ، لما فيه من
ضمّ النّشر ، وصلاح البشر ، وشمول المنافع ، وعموم الخيرات التى أمِنَ فيها من مدافع ،
وعلى الأئمة من ذريّتهما العاملين بمرضاة ، والمتقين له حقّ تقاّته ، والكافرين لكلّ
مؤمنٍ بأمانه يوم الفرع الأكبر ونجاته ، وسلّم عليهم أجمعين ، سلاماً متصلاً إلى
يوم الدين .

والحمد لله الذى جعل النعم التى أسبغها على أمير المؤمنين ، بحسب ما اختصّه به
من منزله التى فضّله بها على جميع العالمين ، فجعله خليفة فى الأرض ، والشّفيع لمن
شايعه يوم الحساب والعرض ، وأجزل له من منته مالا يُناهضه شكر إلا كان ظالماً ،
ولا يقابله اعتداد إلا استولى عليه العجز فلم يكن بما يجب له طامعاً ، وإن من
أرفعها مكاناً ، وأعظمها شاناً ، وأنعمها قدرًا ، وأنبها ذكراً ، وأعمها نفعاً ، وأحسنها
صنعاً ، وأغزرها مادّة ، وأثبتها قاعدة إذا غابت النعم شاردة نأده ، وأعودها فائدة

على الخاص والعام ، وأضمنها للسعد المساعِد والحظ الوافر التأم - ما كان من المنّة الشاغحة الذرى ، والمنحة الشاملة لجميع الورى ؛ والعارفة التي اعترف بها التوحيد والإسلام ، والموهبة التي [إذا] أنفق كل أحد عمره في وصفها وشكرها فما يعدل ولا يلام ؛ والآية التي أظهرها الله للملّة الحنيفة على فترة من الرسل ، والمعجزة التي هدى أهلها لها دون كافة الأمة إلى أعدل السبل ؛ والبرهان الذي خص به أمير المؤمنين وأظهره في دولته ، والفضيلة التي أبانت مكانه من الله وكريم منزله ؛ وذلك ما من الله به على الشريعة الهادية ، والكلمة الباقية ؛ والخلافة النبوية ، والإمامة الحافظية ؛ منك أيها السيد الأجل الأفضل : ولقد طال قدرك في حلّ الشاء ، وجلّ استحقاقك عن كل عوض وجزاء ؛ وغدت أوصافك مسألة اجتماع وانتلاف ، فلو كانت مقالة لم يقع بين أرباب الملل شيء من التناقض فيها والاختلاف ؛ وأين يبلغ أمد استيجابك من متعجبه ، أو يتسهّل إدراك شأوه على طالبه ومبتغيه ؟ ؛ والإيمان لو تجسم لكان على السعي على شرك أعظم متاير ، والإسلام لو أمكنه النطق لقام بالدعاء لك خطيبا على المنابر ؛ فاما الشرك فلو أبقيته حيا لتصدى وتعرض ، لكنك أنحيت عليه وأدلت التوحيد منه فانهت بناؤه بحمد الله وتقوض ؛ فكان لك في حق الله العصب الذي تقربت به إليه فأرضيته ، والعزم الذي صممت عليه في نصرة الحق فأمضيته ؛ والباطن الذي أطلع عليه منك فنصرك ولم ترق دما ، ولا روغت مسلما ؛ ولا أفلقت أحدا ولا أزعجت ، ولا عدلت عن منهج صواب لما أتتهجته ؛ وذلك مما أشرك الكافة في معرفته ، وتساورا في علم حقيقته ؛ مع ما كان من تسييرك العساكر المظفّرة صحبة أخيك الأجل الأوحّد : أدام الله به الإمتاع وعضده ، واحسن عنه الدفاع وأيده ؛ مما جرت الحال فيه بحسن سياستك ، وفضل سيادتك ؛ على أفضل ما عودك الله من بلوغ آمالك ، من غير أدنى لِحق أحدا من رجالك ؛ والأمر في ذلك أشهر من

الإيضاح ، وأبين من ضياءِ فلقِ الصُّبَّاحِ ؛ وهذا إذا تأمله أمير المؤمنين أوجب عليه أن يُقَابِلَكَ من إحسانه ، بغاية ما في إمكانه ؛ وأن يُوَلِّيكَ من مَنِّهِ ، أقصى ما في استطاعته وقُدْرَتِهِ ؛ ولم يَرَّ أَحْضَرَ من أن قرَّرَ نَعْوَتَكَ «السَّيِّدُ ، الأَجَلُّ ، الأَفْضَلُ ، أميرُ الجيوش ، سيفُ الإسلام ، ناصرُ الأنام ، كافلُ قُضَاةِ المسلمين ، وهادى دُعَاةِ المؤمنين ، أبو الفتحِ رضوانُ الحافظي» ، إذ لا أولى منك بكفالةِ قُضَاةِ دَوْلَتِهِ وإرشادِهِمْ ، وهِدَايَةِ دُعَاتِهَا إلى ما فيه نَجَاةُ المستجيبين في معادِهِمْ ؛ وجدد لك ما كان قدَّمه : من تكفيك أمرَ مَمْلُوكِهِ ، وإعادةِ القولِ فيما أسلفه من رَدِّهِ إليك تَدْبِيرَ ما وراءَ سِرِّيرِ خلافتِهِ ؛ التِّبْذَاذِ بتكرارِ ذلك وترديده ، وأبتهاجا بتطريةِ ذكره وتجديده ؛ فأمورُ المِلَّةِ والدَّوْلَةِ معْدُوقةٌ بتديرك ، وأحوالُ الأَدَانِي والأَقْصَى موكولةٌ إلى تقريرك ؛ وقد جمع لك أمير المؤمنين من استخدامِ الأَقْلَامِ ، وجعلَ السِّيَادَةَ لك على سائرِ القُضَاةِ والدُّعَاةِ والحُكَّامِ ؛ وأسجل لك بالأختصاصِ بالمعالي والأَنْفِرَادِ ، والتَّوْحِيدِ بأنواعِ الرِّيَاسَاتِ والأسْتِبْدَادِ ؛ ولك الإِبْرَامُ والنَّقْضُ ، والرَّفْعُ والْخَفْضُ ؛ والوِلَايَةُ والعَزْلُ ، والتَّقْدِيمُ والتَّأخِيرُ ، والتَّنْوِيهُ والتَّامِيرُ ؛ فالْمُقَدَّمُ من قَدَمَتِهِ ، والمحمود من حَمْدَتِهِ ؛ والمؤنَّرُ من أُنُورِهِ ، والمذموم من ذَمَّتِهِ ؛ فلا مخالفةَ لما أَحَبَبْتَهُ ، ولا مَعْدِلَةَ عَمَّا أَرَدْتَهُ ؛ ولا تَجَاوَزَ لما حَدَدْتَهُ ، ولا خُرُوجَ عَمَّا دَبَّرْتَهُ ؛ وأين ذلك مما يُضْمِرُهُ لك أمير المؤمنين وَيَنْوِيهِ ، ويعتقده فيك فلا يزال مدى الدهر يُعِيدُهُ وَيُيَدِّدُهُ ؛ ولو لم يكن من بركاتك على دَوْلَةِ أمير المؤمنين ، ويؤمن تديريك العائد على الإسلام والمسلمين ، إلا أنْ أُنزِلَ عَسْكَرٌ جَهَّزْتَهُ إلى جِهَادِ الكَفْرَةِ المَلَاعِينِ ؛ وكان له النَصْرُ العَزِيزُ الذي تَسْبَحُ بِحَمْدِهِ ، والْفَتْحُ المَبِينُ الذي جَلَّ قَدْرُهُ وَأَنْتَشِرَ ذِكْرُهُ ؛ وَالْفَقْرُ المُنْبِجُ النَّارِ ؛ العَسْكَرُ المُنْصَوِّرُ على الطائفةِ الحائرةِ - قَتْلًا لأبْضَالِهَا ، وَأَسْرًا لأَعْيَاقِ رِجْلِهَا - وَأَمْدَادُ المَاسِيَةِ (١)

(١) كذا بالأصل . وقد وضع فيها عامة دوافع ظهور مملكتها المظفرة من الكفرة .

منها، وأنه لم يُفَلِّتْ من جماعتها إلا مَنْ يُخْرِعُ عنها؛ ولو عَلِمَ أمير المؤمنين تعظيماً يخرج
 عما تَضَمَّنَهُ هذا السِّجِلُّ لما آقْتَصَرَ عليه، إلا أنه عَاجَلَهُ ما يَسْرُهُ بِفَاحِرٍ لَكَ^(١)
 بما هو مُسْتَقَرٌّ لَدَيْهِ؛ والله عَزَّ وَجَلَّ يُجِدُّكَ السُّعُودَ، وَيَخْصُصُكَ مِنْ مَوَاهِبِهِ
 بما يتجاوز المعهود؛ وَيَمُدُّكَ بِمَوَادِّ التَّوْفِيقِ والتأييد، وَيَقْضِي لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ
 بما لا مَوْضِعَ فِيهِ لِلزَّيْدِ، إن شاء الله تعالى؛ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

قُلْتُ : وهذا الصَّنْفُ مِنَ الكُتُبِ السلطانية قد رُفِضَ وتُرِكَ اسْتِعْمَالُهُ فِي زماننا
 فلا معولَ عَلَيْهِ أصلاً.

الصنف الحادي والعشرون

(المكاتبةُ بالإحسان والإذمام)

قال في "مواد البيان" : السلطان محتاجٌ إلى مكاتبةٍ مَنْ يَقِفُ مِنْهُ عَلَى طاعة
 وَاجْتِهَادٍ، وَمُنَاصِحَةٍ وَإِخْلَاصٍ، بِالشُّكْرِ والإحسان، والبعثِ عَلَى الأزدِيادِ مِنَ المُخَالَصَةِ
 وَحُسْنِ السَّعْيِ فِي الخِدْمَةِ وغيرها، مما يربطُ بِهِ النِّعْمَةُ، وَيَسْتَوْجِبُ مَعَهُ حِفْظَ الرُّتْبَةِ.
 وَمَكاتِبَةٍ مِنْ يَعْزُرُ مِنْهُ عَلَى تَقْصِيرٍ وَتَضْجِيعٍ، وَتَفْرِيطٍ وَتَضْيِيعٍ، بِالذَّمِّ والتفريعِ
 وَالتَّأْيِيبِ : لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو أَعْوَانُ السلطانِ مِنْ كُفَاةٍ يَسْتَدِيمُ كَفَايَتَهُمْ بِتَصْوِيبِ
 مَرَامِيهِمْ، وَاسْتِحْسانِ مَسَاعِيهِمْ؛ وَإِحْسانِهِمْ عَلَى تَسْمِيرِهِمْ، وَشَرْحِ صُدُورِهِمْ
 بِبَسْطِ آمالِهِمْ؛ وَالْعِدَّةِ بِرَفْعِ مَنَازِلِهِمْ وَمَحَالَمِهِمْ، وَتَمْيِيزِهِمْ عَلَى نُظَرَائِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ؛
 وَتَحْذِيرِهِمْ مِنَ التَّوْبِيخِ وَتَقْدِيمِ الأَعْذارِ، وَالتَّخْوِيفِ مِنْ سَقُوطِ المراتبِ، وَقُبْحِ
 المصايرِ والعواقبِ.

(١) في الأصل "رشاحة"

قال : وينبغي للكاتب أن ينتهي في خطاب من انتهى في الحالين إلى غايتيهما ، إلى المعاني الناجعة في الغرضين ، ويتوسط فيهما سبباً التوسط الذي يقتضيه الحال المفاض فيها : لأن في ذلك تقريراً للمحسن على إحسانه ، ونقلاً للمسيء عن إساءته : لأنه إذا علم الناهض أنه سئب على نهضته ، والوأي أنه معاقب على ونيته ، آجهد هذا في الاستظهار بخدمته بما يزيد في رتبته ، وخاف هذا من حط منزلته وتغير حاله . ثم قال : والرسوم في هذه المكاتبات تختلف بحسب اختلاف أغراضها ، وتشتعب بتشتعب معانيها ، والأمر في ذلك موكول إلى نظر الكاتب العارف الكامل ، ووضعه كل شيء في موضعه ، وترتيبه إياه في مرتبته .

فأما المكاتبه بالإحاد ، فكما كتبت عن صمصام الدولة بن عضد الدولة بن بويه ، إلى حاجب الحجاب أبي القاسم سعد بن محمد وهو مقيم بنصيبين على محاربة باد الكردى .

كاتبنا ، ووصل كتابك مؤرخاً بيوم كذا ، تذكرفيه ماجرى عليه أمرك في الخدمة التي نيطت بكفائتك وغنائك ، ووكلت إلى تديرك ووفائك : من رد باد الكردى عن الأعمال التي تطرقها ، وحدث نفسه بالتغلب عليها ، وتصرفك في ذلك على موجبات الأوقات ، والتردد بين أختينا وعدتنا أبي حرب : زياد بن شهر الكويه وبينك من المكاتبات ، وحسن بلائك في تحيفه ، ومقاماتك في حص جناحه ، وآثارك في الانقصاص على فريق بعد فريق من أصحابه ، واضطرارك إياه بذلك وبضروب الرياضات التي استعملتها ، والسياسات التي سست أمره بها ، إلى أن نزل عن وعورة المعصية إلى سهولة الطاعة ، وأنصرف عن مجاهل الغواية إلى معالم الهداية ، وتراجع عن السوم إلى الأقتصار ، وعن السرف إلى الأقتصاد ، وعن الإباء إلى الانقياد ،

وعن الأعتياص إلى الإذعان؛ وأن الأمر استقر على أن قبلت منه الإجابة، وبذلك له فيما طلب الاستجابة؛ واستعيد إلى الطاعة، واستضيف إلى الجماعه؛ وتصرف على أحكام الخدمه، وجرى مجرى من تضمنه الجملة؛ وأخذت عليه بذلك العهود المستحكه، والأيمان المغلظه؛ وجددت له الولاية على الأعمال التي دخلت في تقليده، وضربت عليها حدوده، وفهمناه .

وقد كانت كتبُ أخينا وعدتنا أبي حربٍ [زياد بن شهرا كويه] ^(١) مولى أمير المؤمنين ترد علينا، وتصل إلينا؛ مشتملة على كُتُبِك إليه، ومطالعاتك إياه؛ فنعرف من ذلك حسن أثرِك [وحزم رأيِك] ^(١) وسداد قولِك، وصواب اعتمادِك؛ ووقوع مضارِبِك في مفاصلِها، وإصابة مرَامِك أغراضِها؛ وما عدوت في مذهبِك كُلِّها، ومقلباتِك بأسرها؛ المطابقة لإيثارنا، والموافقة لما أمرت به عنا؛ ولا خلت كتبُ أخينا وعدتنا أبي حربٍ من شكرٍ لسعِك، وإحمادٍ لأثرِك؛ وثناءٍ جميلٍ عليك، وتلويحٍ وإفصاحٍ بالمناجحة الحقيقية بك، والمؤالاة اللازمة لك؛ والوفاء الذي لا يستغرب من مثلك، ولا يستكثر من حلٍّ في المعرفة بحلِّك؛ ولئن كنت قصدت في كلِّ نهجٍ استمرت عليه، ومعدلٍ عدلت إليه؛ مكافئةً هذا الرجل ومراغمته، ومصابرته ومنازلته؛ وتقاس الظهور عليه في جميع ما تراجعتماه من قول. وتنازعتماه من حد؛ فقد آجتمع لك إلى إحمادنا إياك، وأرضائنا ما كان منك؛ المنةً عليه إذ سكتت جاشه. وأزلت استيحاشه؛ وأسألته من ديس لباس الخالفة، وكسوته حسن شعار الطاعة؛ وأطلت يده بالولاية. وبسطت لسانه بالحجة. وأوفيت به على مراتب نظرائه. ومنازل قرنائِه؛ حتى هابوه هيبة الولاد، وأرتفع بينهم عن مطارح العصاة .

(١) كتابي في بيان الصلوة الخليفة.

فالحمد لله على أن جعلك عندنا محمودا ، وعند أخينا وعدتنا أبي حربٍ مشكورا ؛
وعلى هذا الرجل مانا ، وفي إصلاح ما أصلحت من الأمر مثابا ماجورا ؛ وإياه
نسأل أن يُجِرِي علينا عادته الجارية في إظهار آياتنا ، ونصرة أوليائنا ؛ والحكم لنا
على أعدائنا ، وإنزالهم على إرادتنا ؛ طوعا أو كرها ، وسلما أو حربا ؛ فلا يخلو أحد
منهم من أن تحيط لنا بعنقه ربقة أسرا ، أو منة عفو ؛ إنه جل ثناؤه بذلك جدير ،
وعليه قدير .

ويجب أن تُفدَّ إلى حضرتنا الوثيقة المكتتبه على باد الكردى إن كنت لم تُفدَّها
إلى أو ان وصول هذا الكتاب : لتكون في خزائنا محفوظة ، وفي دواويننا منسوخه ؛
وأن نتصرف في أمر رُسُلِهِ وفي بَقِيَّةِ - إن كانت بقيت من أمره - على ما يرسمه لك
عنا أخونا وعدتنا أبو حربٍ ، فرأيتك في العمل على ذلك ، وعلى مطالعتنا بأخبارك
وأحوالك ؛ وما يحتاج إلى علمه من جهتك ، موقفا إن شاء الله تعالى .

وأما الإذمام فيختلف الحال فيه باختلاف المألوم فيه والمذموم بسببه . فمن ذلك
الذم على [ترك] الطاعة وشق العصا .

كما كتب عمارة يصف شخصا بأنه لما ارتفع مكانه ، وعلا قدره ؛ بطر
معيشتَه ، وخرج عن طاعة الخليفة ؛ وأن فلانا كان ممن عُرفت حاله ؛ في غموض
أمره ، ونحو ذلك ؛ وضيق معيشتِه ، وقلة عدده وناهضته ؛ ولا تُجاور حياته
ما يقوله ، ولا يتعاطى ما وراء ذلك ولا يرومه ؛ ولا يُمنيه نفسه ، ولا يدفع يد لأمس
عنه بقوة تنوء بملأ ، ولا عز يلجا إليه . فأنعم عليه أمير المؤمنين وأكرمه وشرفه ،
وبلغ به الغاية التي لم يكن يرجوها ولا تُرجى له ؛ وبسط له من الدنيا ، وآتاه من
غضارتها ونعمتها ، وعزها وسلطانها ، ما لم يُؤت أحدا من أهل زمانه . فلما مكن الله

له في الدنيا طغى وتَجَبَّرَ، وَعَلَا وَتَكَبَّرَ؛ وَظَنَّ أَنَّ الَّذِي كَانَ فِيهِ شَيْءٌ قَادَهُ إِلَى نَفْسِهِ بِجَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ : تَهْوِيلاً مِنَ الشَّيْطَانِ، وَأَسْتَدْرَاجًا مِنْهُ لَهُ .

وَمَا كَتَبَ عَبْدُ الْحَمِيدِ فِي مِثْلِهِ :

أَمَا بَعْدَ ، فَقَدْ بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ أَمْرٌ لَمْ يَحْتَمِلْهُ لَكَ ، إِلَّا مَا أَحَبَّ مِنْ رَبِّ صَنِيعَتِهِ قَبْلَكَ ، وَأَسْتِثْمَامَ مَعْرُوفِهِ إِلَيْكَ ؛ وَكَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَقَّ مَنْ أَصْلَحَ مَا فَسَدَ مِنْكَ ، وَإِنَّكَ إِنْ عُدْتَ لِمِثْلِ مَقَالَاتِكَ ، وَمَا بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ ؛ رَأَى فِي مُعَاجَلَتِكَ رَأْيَهُ ؛ فَإِنَّ النِّعْمَةَ إِذَا طَالَتْ بِالْعَبْدِ مُتَمَدِّدَةً أَبْطَرَتْهُ : فَاسَاءَ حَمَلُ الْكِرَامَةِ ، وَأَسْتَنْقَلَ الْعَافِيَةَ ؛ وَنَسَبَ مَا هُوَ فِيهِ إِلَى حِيلَتِهِ ، وَحُسْنِ نَبْتِهِ وَرَهْطِهِ وَعَشِيرَتِهِ . وَإِذَا نَزَلَتْ بِهِ الْغَيْرَ ، وَأَنْكَشَفَتْ عِمَايَةَ الْعَشِيِّ عَنْهُ ؛ ذَلَّ مُنْقَادًا ، وَنَدِمَ حَسِيرًا ؛ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ عَدُوُّهُ : قَادِرًا عَلَيْهِ ، وَقَاهِرًا لَهُ . وَلَوْ أَرَادَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُكَافَأَتَكَ بِلَفْظِكَ ، وَمُعَاجَلَةَ إِفْسَادِكَ ، جَمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ شَهِدَ فَلَتَاتِ خَطِّكَ وَعَظِيمِ زَلَّتِكَ ؛ وَلِعَمْرِي لَوْ حَاوَلَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُكَافَأَتَكَ بِلَفْظِكَ فِي مَجْلِسِكَ ، وَجُحُودِكَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ ، لَرَدَّكَ إِلَى مَا كُنْتَ عَلَيْهِ ، وَلَكُنْتَ مُسْتَحَقًّا .

وَفِي مِثْلِهِ :

فَإِنْ صَاحِبَ الْبَرِيدِ كَتَبَ إِلَيَّ عَنْ أَصْحَابِكَ بِكَذَا ، فَقُلْتُ : إِنَّهُمْ لَمْ يُقَدِّمُوا عَلَيَّ مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ حَتَّى تَعْجَمُوكَ ، فَعَرَفُوا خَوَرَ عُدُوكَ ، وَضَعَفَ مَكْبِرِكَ ، وَمَهَانَةَ نَفْسِكَ ، وَأَنَّهُ لَا غَيْرَ عِنْدَكَ وَلَا نَكِيرَ .

وَمِنْ ذَلِكَ الدَّمُّ عَلَى الْخَطَا ، كَمَا كَتَبَ أَحْمَدُ بْنُ يُونُسَ :

كَأَنَّ الْبُخْلَ وَالشُّومَ صَارَا مَعًا فِي نَهْمِهِ ، وَكَأَنَّا قَبْلَ ذَلِكَ فِي قِسْمِهِ ؛ فَخَازِمَا لَوْرَانِهِ ، وَأَسْتَحَقَّ مَا أَسْتَمَلَكَ مِنْهُمَا بِالشُّفَعَةِ ؛ وَأَشْهَدُ عَلَى حِيَازَتَيْهِمَا أَهْلَ الدِّينِ

والأمانة حتى خالصاً له من كل ممانع ، وسليماً له من تبعه كل منازع ، فهو لا يُصيبُ إلا مُحِطاً ، ولا يُحسِنُ إلا ناسياً ، ولا يُنفقُ إلا كارهاً ، ولا يُنصفُ إلا ساغراً .
قلت : وهذا الصَّنْفُ من المكاتبات السلطانية لا يمتنع وقوعه في وقتٍ من الأوقات . فإن عَرَضَ له مُوجِبٌ ، راعى الكاتبُ فيه صورة الحال ، وكتب على ما يرجه المقام ، وتقتضيه تلك الوقعة .

الصنف الثاني والعشرون

(ما يُكتب مع الإنعام لنواب السلطنة بالخييل والجوارح)

وغيرها من أنواع الإنعامات) وهذا الصَّنْفُ من المستعمل في زماننا كل وقت فاما ما يُكتب مع الإنعام بالخييل ، فقد جرت العادة أن السلطان يُنعم بالخييل على نواب السلطنة بالشام ، ويكتب بذلك مثالات شريفة إليهم : وربما أنعم بالخييل وكتب بها في غير ذلك .

وهذه نسخة مثال شريف من ذلك :

ضاعف الله تعالى نعمة الجنب وخصه من النعم بما لا تُحصى له آثار ، ولا يُتعلق له بغيره ، ولا يوصف بحالٍ واحدة : لأنه إن جرى فبحر وإن وقف فنار .

صدرت هذه المكاتب إلى الجنب العالی بكل سلام لا تُدرک لسوابقه غايه ، ولا تُحصى له نهايه ، ولا يرد منه كل ما جاء وله في وجهه كفلق الصبح آيه ، ولا يتقدم في ميدان إلا وقد حمل له في كل مكان رايه . وتوضح لعمه الكريم أنه قد جهز له قرينها ماجرت به عادته من الحصن التي لا يدعى البرق أنه لها نظير ، ولا تجارى الرياح من سوابقها ما يطير ، كم لها في ميدان مجال ، وكم لها في رؤية دوية آرتجال ،

وكم دُعِيَ الوغى بها على كُلِّ ضاسٍ فانت رجالا تَقْدَحُ سَنَابِكُهَا نارا، وَتَفِيضُ جَوَانِبُهَا
 مِنَ الرِّكْضِ عَقَارًا، وَيَتَكَفَّلُ بِدَيْعُهَا بِكُلِّ مَرَامٍ، وَتُعْطَى مَا فِي يَدَيْهَا لِأَنَّهَا مِنَ الْكِرَامِ،
 وَقَدْ تَشَرَّفَتْ مِنْ نَعْمِنَا الشَّرِيفَةِ بِالسُّرُوجِ وَاللُّجْمِ وَالْعِدَّةِ الْمُكَلَّمَةِ، وَتَحَلَّتْ مِنَ الذَّهَبِ
 وَالْفِضَّةِ مَا يُغْنِي بِجَمَلَتِهِ الْمُفَصَّلَةَ، وَأَرْسَلْنَاهَا إِلَيْهِ تَرْقُصُ فِي أَعْنَتِهَا زَهْوًا، وَتَتْرُكُ بِطَيْبِ
 صَهِيلِهَا كُلَّ بَحْرِ تَحْوِضُهُ إِلَى الْمَنَايَا زَهْوًا، وَتُوَجَّهُ بِهَا فَلَانُ كَالْمَرَانِسِ الْمَجْلُوتَةِ فِي حُلْمِهَا،
 وَالنُّجُومِ لَوْلَا مَا تَمَيَّزَتْ بِهِ مِنْ حَلِي عَطْلِهَا، وَالسَّحَابِ إِلَّا أَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ مِنْهُ الرِّيَّاحَ
 فِي تَقْلِيلِهَا .

فَلْيَقَابِلْ هَذِهِ النِّعْمَةَ الشَّرِيفَةَ بِشُكْرِهَا، وَلِيَتَسَلَّمَ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ الْعَمِيمَةَ الَّتِي
 تَعْتَرِفُ كُلَّ نِعْمَةٍ بِقَدْرِهَا، وَلِيَحْمَدَ اللَّهَ مِنْ تَفَقُّدَاتِنَا الشَّرِيفَةِ عَلَى كَرَمِ فَرَسِ جَاءَ
 وَهُوَ سَابِقٌ، وَجُودِ جَوَادٍ لَا يَدُورُ مَعَهُ السَّحَابُ فِي طَائِقٍ، وَيَعْتَمِدُهَا لِارْتِقَاءِ كُلِّ
 صَهْوَةٍ مُنِيفَةٍ، وَجِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ عَلَيْهَا بَيْنَ أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ، وَيَعِيدُ الْوَاصِلَ بِهَا إِلَى
 خِدْمَةِ أَبْوَابِنَا الْعَالِيَةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَدِيمُ عَلَيْهِ بِنَا النِّعَمِ الْمُتَوَالِيَةِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



أَخْرَسَ: وَلَا زَالَ إِقْبَالَنَا يُمِدُّهُ مِنَ الصَّافِنَاتِ الْجِيَادِ بِمَا يُبَارِي الرِّيَّاحَ، وَيَتَيَمَّنُ
 بِفُرْجِهَا الصَّبَاحَ، وَيَطْلُقُ أَعْنَتَهَا فِي حَلْبَةِ السَّبَاقِ فَتَسْبِقُ بِرَكْبِهَا ذَوَاتِ الْجَنَاحِ،
 وَلَا بَرِحَ إِنْعَامِنَا يُخَفِّفُهُ بِكُلِّ طَرَفٍ يُبْهِجُ الطَّرْفَ، وَيَتَلَجُّ الصَّدْرُ بِمَا آسَمَدَ عَلَيْهِ مِنَ
 الْمَلَاحَةِ الَّتِي تَرُوقُ الْعَيْنَ وَتُفُوقُ الْوَصْفَ، وَيُفْرِدُهُ بِمَا اجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْحُسْنِ وَالْجَمِّ:
 إِذْ هُوَ وَاحِدٌ كَالْأَلْفِ - تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا تَعْبُقُ بِطَيْبِ نَشْرِهِ أَرْجَاؤُهُ، وَشَاءَ يُعْرَبُ
 عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ مِنْ عُنُقِ قَدْرِهِ وَسُمُودِ كَرَمِهِ فَيُشْرِقُ سَنَاؤُهُ وَيُضَاعَفُ شَأْوُهُ، وَتَوْضَعُ لِعَنْمِهِ
 الْكَرِيمِ أَنَّهُ غَيْرُ خَافٍ عَنْهُ مَا يَصِلُ إِلَى أَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةِ مِنَ الْحَيُولِ الْبَرْقِيَّةِ فِي كُلِّ عَامٍ،

وما نُحْصِه مِنْهَا بِكُلِّ مَيْمُونِ الْغُرَّةِ مُبَارَكِ الطَّلَعَةِ هَنِءِ السَّيْرِ عَلَى الْإِنْعَامِ ؛ وَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى جَنَابِهِ الْكَرِيمِ مِنْ ذَلِكَ سَهْمَهُ ، وَأَضَفْنَا إِلَى ذَلِكَ مَا اسْتَصْلَحْنَا مِنْ الْخَيْلِ الْعَرَبِيَّةِ الْغَرِيبَةِ وَالْعِتَاقِ الْعَجِيبَةِ الْعَرِيبَةِ (؟) مِمَّا الْخَيْرُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا ، فَتَرْهَقُ عَلَى صَهَوَاتِهَا نَفُوسَ الْأَعْدَاءِ وَتَسْتَرْهُمَا مِنْ صَيَاصِيهَا ؛ فَيَأْخُذُ الْجَنَابُ الْعَالِي مَا يُحْصِيهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَيُفَرِّقُ الْبَاقِيَ عَلَى مَنْ رَسَمْنَا لَهُ بِهِ بِمَنْ رَأَىهِ الْمُبَارَكِ الَّذِي لَا يُسَاهِمُهُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُشَارِكُ ؛ وَيُجَهِّزُ الْخَيْلَ الْمَخْصُوصَةَ بِفُلَانٍ إِلَيْهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَضَاعِفُ عِزَّ ظُهُورِهَا عِنْدَ أَمْتِطَائِهَا لَدَيْهِ .

وأما ما يكتب مع الإنعام بالجوارح [فَمَا يُكْتَبُ] ^(١) مع إرسال سنقر .

وقد بعثنا إليه بسنقر كأنه ملك متوج ، وريزق مروج ، تجزأ على سفك الدماء ، وأبى أن يطلب رزقه إلا من السماء ؛ يود الكركي لو خلاص من محاليبه ، ويخاف أن يسلم من حر الشبكة ^(٢) ويقع في كلاليه ؛ يدرك الصيد ولا يؤجله ، ويرفع صدره ثم يومي إليه برأسه كأنه يستعجله ؛ قد جمع من المحاسن كل الصنوف ، وكتبت عليه أسطر تقرأ بما تقرئ به الضيوف .

ومما يكتب مع إرسال صقر .

وقد وجهنا إليه بصقر لا تؤسى له من الصيد جراح ، ولا يدع من وحش يسرح ولا طائر يطير بجناح ؛ أينما توجه لايات إلا بخير ، وحيثما أطلق كان حتف الوحش والطير ؛ يدع أقطار القلاة مجزرة ، أو روضة بالدماء مزهرة ؛ يجتد إلى الطير في عنقه . ويحلق إلى السماء فيرجع وطائره في عنقه ؛ تخافه العقر على نفوسها ، وتخضع له ولا مثاله فما تخرج إلا والطير على رؤوسها . يزيد خبره في مضان الصيد على الخبر ،

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح يقضيه المقام .

(٢) كذا في الأصل و"التعريف" .

وتخرج الطَّيَّاءُ وقد تَسَجَّتْ خَوْفًا مِنْهُ فِي مَلَأَةٍ مِنَ الْعَجَاجِ مَحِيطَةً مِنْ قَرُونِهَا بِالْإِبْرَةِ؛
شَدِيدِ الْأَيْدِ، قَدْ بَنَى عَلَى الْكَسْرِ حُرُوفَ الصَّيْدِ؛ يَحْتَمِدُ مُقْتَنِيهِ أَيَّامَهُ الْقُرْبَ؛ وَيَقُولُ
لَهُ إِذَا تَلَقَّتْ إِلَى الصَّيْدِ: إِنْ جَلَبْتَ ضَبْعًا فَأَنْتَ حَرٌّ، لَا يَصْحَبُ مُسْتَضِحِّبَهُ مَعَهُ
إِلَّا مَزَادَهُ، وَأَيْمًا سَارِ حَامِلُهُ - وَهُوَ مَعَهُ - كَانَ مَعَهُ زَادَهُ .

ومما يكتب مع إرسال شاهين .

وقد وَجَّهَ إِلَيْهِ بِشَاهِينٍ إِذَا حَلَّقَ وَرَاءَ الطَّيْرِ شَاهَتْ بِهِ الْوُجُوهُ، وَشَاهَدَتْ الْأَمَالَ
بِهِ مَا تَرْجُوهُ، قَدْ أَصْبَحَ كُلُّ مُحَلِّقِ الْجَنَاحِ رَهِينَ يَدِهِ، وَكُلُّ سَارِبٍ مِنَ الْوَحْشِ طَعَامُ
يَوْمِهِ أَوْ غَدِهِ، لَا يَتَّبِعُهُ خَلْفَ الطَّرِيدَةِ بَعْدَ الْمَدَى، وَلَا يَرُدُّهُ خَوْفُ مَسَافَةٍ وَلَا تَقَحُّمُ
رَدَى؛ رَبِيَّةٌ عَامٌ لَمْ يُتَمَّعْ بِطُولِ مَادَّهْرِ، وَمَمْتَدَّةٌ مِنْهُ فِي الطَّلَقِ مِثْلَ رِيحِ سُلَيْمَانَ غَدُوقِهَا
شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ .

ومما يكتب مع إرسال كوهية .

وقد جَهَّزْنَا إِلَيْهِ كُوهِيَّةً، هِيَ بِالْمَحَاسِنِ حَرِيَّةٌ، وَلِكَثْرَةِ الْإِقْدَامِ جَرِيَّةٌ، يَكُلُّ بِهَا
صَاحِبُهَا أَمْرًا مَطْبِخَةً، وَيَمْتَدُّهَا مِنَ الطَّيْرِ مَنْ لَيْسَ بِمُضْرِيخَةً، لَا تَعْفُ عَنْ دَمٍ،
وَلَا تُرَى أَطْرَافُهَا إِلَّا مُثْمَرَةً بَعْنَابٍ^(١) أَوْ مُخَضَّبَةً بَعْنَادِمٍ، قَدْ أَخْلَتْ مِنْ كُلِّ سَائِحٍ،
وَلَيْسَتْ زَيْيَ الرَّاهِبِ الْمُتَعَبِّدِ وَفَتَكَتْ بِكُلِّ سَائِحٍ .

ومما يكتب مع سقاوة .

وقد جَهَّزْنَا إِلَيْهِ بِسِقَاوَةٍ، مَخَالِبُهَا عَلَى الطَّيْرِ كَالْحَدِيدِ أَوْ أَشَدُّ قَسَاوَةً؛ تُسِيلُ دِمَاءَ
الصَّيْدِ كَالْمَدَائِبِ^(٢)، وَتَكْسُو الْأَرْضَ حَبْرًا مِنْ رِيَّاشِ الْحَبَّارِيِّ وَفِرَاءً مِنْ جُلُودِ الْأَرَانِبِ؛

(١) كذا في "التعريف" (ص ٢٢٥) وفي الأصل «مسرة» .

(٢) في الأصل «قد أخلت من كل سائح» والتصحيح عن "التعريف" .

(٣) كذا في "التعريف" وفي الأصل «كالدايب» .

وَجَعَلْتُ فِي قَبْضَةِ الْكَفِّ مَا كَانَتْ الْعَيْنُ عَلَيْهِ تُدَوِّرُ ، وَتَكْفَلْتُ بِكِفَايَةِ الْمَطْبِيِّ
وَمَلَأْتُ الْقُدُورَ .

وَمَا يُكْتَبُ مَعَ إِسْرَالِ بَازِ .

وقد بعثنا إليه بيازٍ مهما لقي لقف ، ومهما خطا لديه خطف ؛ كأنما حطَّ
جوهره بقلم ، أو ريش عليه من الصباح والظلم ؛ قد أعد للطوارق ، وأدراً بمثل
الطوارق ؛ قد دحّض حجج الجمل ، وكسرها حتى أبان عليها حمرة الجمل ؛ لا يسأل
في الصيد عما نهب ، ولا تُعرف له قيمة إلا أن له عيناً من الذهب .

وَمَا يُكْتَبُ مَعَ الْفَهْدِ .

وقد أنعمنا عليه بفهدٍ أهرت الشّدق ، ظاهر الحدق ؛ بأدى العبوس ، مدّر
الملبوس ؛ شثن البرائن ، ذى أنياب كالمدى ومخالب كالمحاجن ؛ قد أخذ من الفلق والغسق
إهاباً ، وتقمص من نجل الحدق جلباباً ؛ يضرب المثل في سرعة وثوب الأجل به
وبشبهه ، وتكاد الشمس مذّلقبوها بالغزاة لا تطلع من الوجل على وجهه ؛ يسبق
إلى الصيد مرّامى طرفه ، ويفوت لحظ مرسله إليه فلا يستكمل النظر إلا وهو
في كفه ؛ وتتقدمه الضواري إلى الوحش فإذا وثب له تعثرت من خلفه .^(١)

وَأَمَّا مَا يُكْتَبُ مَعَ الْإِنْعَامِ بِالسَّلَاحِ .

فمن ذلك - وقد جهزنا إليه سيفاً تلمع مخايل النصر من غمده ، وتشرق جواهر
الفتح في فرنده ؛ وإذا سبق الأجل إلى قبض النفوس ، عرف الأجل قدره فوقف
عند حده ؛ ومتى جرد على ملك من ملوك العدا وهت عزائمهم ، وعجز جناح جيشه

(١) وقع في هذه الرسالة تحريف كثير في الأصل ، فصححناها من "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

أَنْ تَهَضَّ بِه قَوَادِمُهُ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ سَيُفِنَا الَّذِي عَلَى عَاتِقِ الْمَلِكِ [الْأَعَزُّ] ^(١) نَجَّادُهُ وَفِي يَدِ
جَبَّارِ السَّمَوَاتِ قَائِمُهُ .

الصف الثالث والعشرون

(المكاتبة بالبشارة عن الخليفة بولده رزقه)

والرسم فيها أن يذكر شرف الخلافة وعلو رتبته ، ويشير إلى تخصيص الخلافة
بمصيها إليه دون سائر البرية ، وانتقالها إليه بالتوارث من آبائه الزاهرين كآبائه
عن كآبائه ، وبقائها في عقبه إلى الأبد . ثم يتخلص إلى ذكر النعمة على أمير المؤمنين
التي أنعمها الله تعالى عليه ، وأن من أعظمها نعمة أن رزقه الله تعالى ولدا ، ويذكر
أسمه وكنته ، ويصفه بما يناسبه .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، وهي :

الحمد لله مؤيد الإسلام بخلفائه الراشدين ، ومظهر الإيمان بأوليائه الهادين ، الذي
جعل الإمامة كلمة باقية فيهم إلى يوم الدين ، وأقام منهم الحاضر المتبع ، والمرجو
المتوقع ، وأطلع منهم في سماء الهداية شهابا لا يخبو منها شهاب حتى يتوقد شهاب ،
وفتح بهم للارشاد أبوابا لا يربح منها باب حتى يفتح باب .

يحمده أمير المؤمنين أن فوض إليه منازل آبائه ، ووقفه (٢) بانتقال ماورثه من آبائه
إلى أبنائه ، ويسأله أن يصلي على من كرمه بولادته وشرفه بالانتساب إلى شجرة
سيدنا محمد خاتم رسله ، المترجم عن توحيده وعدله ، وعلى أخيه وأبن عمه علي بن
أبي طالب قسيمه في فضله ، ووصيه على أمته وأهله .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وإن أولى النعم بأن يفاض في شكرها، وتُعطر المحافل بنشرها، نعمة حاطت
دعائم الدين، وأمرت حبل المسلمين، وتساوى في [تناول] ^(١) قِطَافِهَا الكافه، وأذنت
بشُيُوعِ الرَّحْمَةِ والرافه، وأضحت بها النبوة مشرقة الأنوار، والإمامة عالية المنار،
والخلافة محتالة المنبر والسرير، رافلة في حُلِّ الأبتهاج والسرور.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وقد رزقه الله تعالى ولدا ذكرا مباركا رَضِيًا، سماه
فلانا، وكناه أبا فلان، بخلا بنهار غرته الدامس، وأقر بمقدمه العايس، وأخضر
يمن [نقيبته] ^(١) اليايس، ووثقت الآمال بسعادة مقدمه، وتطلعت الأعناق إلى جوده
وكرميه، مبشرا لك بهذه النعمى الحسنة الأثر، القليلة الخطر، علما بمكانك من ولائه
ومخالصته، وسرورك بما يفيضه الله عليه من شايب نعمته: لتأخذ من المسرة
والجدل بحظ المولى المخلص، والعبد المتخصص، ولتشيح مضمون كتابه فيمن قبلك
من الأولياء، ليشاركونا في الشكر والثناء، فأعلم هذا وأعمل به، إن شاء الله تعالى.

[قلت] ^(١) وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستعمل في البشارة عن السلطان
إذا حدث له ولد، فيكتب بالبشارة به إلى نواب السلطنة وأهل المملكة.

الصنف الرابع والعشرون

(ما يكتب عن السلطان بالبشارة بعافيته من مريض)

وهذه نسخة كتاب بعافية الملك الناصر « محمد بن قلاوون » من مريض، إلى
صاحب ماردین، وهو.

(١) بياض بالأصل والنصح من المقام.

ولا زالت البشائر على سَمْعِهِ الكَرِيم مُتَوَاتِرَةً ، وَالْمَسَارُّ إِلَى مَقَامِ مُلْكِهِ سَائِرَةٌ ،
وَالْتَهَانِي ، بِلُؤْغِ الْأَمَانِي ، مِنْ كَمَالِ شَفَائِنَا تَجْعَلُ نُفُورَ الثُّغُورِ بِاسْمِهِ وَوُجُوهَ الدُّهُورِ
نَاصِرَةً ، وَنِعْمَ اللَّهُ تَعَالَى مُقَابَلَةً بِالشُّكْرِ الْجَزِيلِ عَلَى أَنْ أَجَدَّ مَلِكَ الْإِسْلَامِ بِإِفْتِقَادِهِ ،
وَأَبْقَى لِلذِّينِ الْمُحَمَّدِيِّ نَاصِرَهُ . أَصْدَرْنَا إِلَى الْمَقَامِ الْعَالِيِّ وَمَوَارِدُنَا مِنَ الصَّحَّةِ حُلُوهٌ
فِي الْأَفْوَاهِ ، وَالسِّنْتُنَا شَاكِرَةٌ لِنِعْمِ اللَّهِ ، وَعَافِيَتُنَا مُجَدِّدٌ فِي كُلِّ جَدِيدٍ ، وَصِحَّتُنَا قَدْ بَلَغَتْ
مِنَ الْمَزِيدِ مَا نُرِيدُ ، وَقَدْ أَلْبَسْنَا اللَّهَ تَعَالَى مِنَ الشِّفَاءِ ثَوْبًا قَشِيْبًا ، وَنَصَرْنَا نَصْرًا عَزِيْزًا
وَفَتَحَ لَنَا فَتْحًا مُبِينًا - تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا تَتَأَرَجُّ بِهِ أَرْجَاءُ مُلْكِهِ ، وَشَاءَ تَنْتَظِمُ الْأَثْنِيَّةُ
فِي سِلْكِهِ ، وَتُوضِّحُ لِعَلْمِهِ الْكَرِيمِ مَا حَصَلَ مِنْ عَافِيَتِنَا الَّتِي تَضَاعَفَ بِهَا فَرَحُ الْإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ ، وَوَجِبَ الشُّكْرُ عَلَيْهِمْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

الضرب الثاني

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ عَنِ السُّلْطَانِ فِي الْجَوَابِ)

وَكُلُّ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي الْوَارِدِ بِهَا الْكِتَابُ إِلَيْهِ يُسْتَقُّ جَوَابُهُ مِنْهَا ، وَغَالِبُ مَا يُعْتَنَى
بِهِ مِنْ ذَلِكَ جَوَابُ مَا يَرِدُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ بِالتَّقَادُمِ وَالْهَدَايَا ، وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ .

وهذه أدعية من ذلك يستضاء بها في أوائل الأجوبة عن المعاني التي ترد فيها .

جواب سُلطَانِيٍّ عَنِ وُصُولِ خَيْلٍ : - وَلَا زَالَ يُخْفُ بِكُلِّ صَاهِلٍ فِي الْجَحْفَلِ ،
جَمَالَ فِي الْحَفْلِ ، وَأَجْرَدَ إِذَا أُمَّ غَايَةً لَمَعَتْ فِي أَثَرِهِ الْبُرُوقُ تَتَطَفَّلُ ، وَمُسْوَمٌ يَلْتَرَمُ
جَلَّالَهُ بِمَزِيدِ جَلَالِهِ ، وَكَيْفَ لَا وَهِيَ إِذَا أُسِدَّتْ عَلَيْهِ يَتَكَفَّلُ ! . أَصْدَرْنَا وَالْعِطْرُ
يَضُوعٌ مِنْ سَلَامِهَا ، وَالْمَسْكُ يُفُوحُ مِنْ خِتَامِهَا ، وَأَثَارُ النَّدَى تَحْكِي آثَارَ أَقْلَامِهَا .

آخر في المعنى : ولا زال مُخْتَفِلًا بِالْحِيَادِ وَإِرْسَالَهَا ، وَمُهْدِيًا لِرِكَابِنَا الشَّرِيفِ
السَّوَابِقِ الَّتِي إِذَا لَمْ يَسَابِقْهَا شَيْءٌ مِنَ الْحَيَوَانِ تَجَلَّتْ فِي مُسَابَقَةِ ظِلَالِهَا ، وَيَنْتَقِي لِمَوَاكِبِنَا
الْحَيُولِ الَّتِي إِذَا أَصْبَحَتْ فِي مَدَى أَصْبَحَتْ الرِّيحُ تَتَعَلَّقُ بِأَذْيَالِهَا . أَصْدَرْنَاهَا .

آخر في مثله : ولا زال يُهْدِي إِلَيْنَا مِنَ الْحِيَادِ بَحْرًا ، وَيَقُودُ مِنَ الْعِرَابِ مَا تَمْلَأُ
غُرَّتَهُ الْمَوَاكِبَ بِشِرَاءٍ ، وَإِذَا طَلَعَ فِي الْكَتِيبَةِ يَزِيدُهَا عِزًّا وَنَصْرًا ، مِنْ كُلِّ طَرْفٍ
تَأَصَّلَ حُسْنًا وَحَسُنَ إِهَابًا وَجَلَّ قَدْرًا .

آخر في مثله : وَأَعْلَى لَهُ عَلَى صَهَوَاتِ الْعِتَاقِ مُرْتَقَى ، وَخَصَّهُ بِكُلِّ جَوَادٍ وَهُوَ مُتَقَلِّدٌ
إِلَيْهِ مُتَّقَى ، وَأَطَّلَعَ عَلَيْهِ نَوَاصِيَ الصَّوَابِنِ الَّتِي عُقِدَ الْخَيْرُ بِهَا عَقْدًا مُوثِقًا . أَصْدَرْنَاهَا
وَنُورُ التَّحَايَا مِنْ أَرْجَائِهَا يُنِيرُ ، وَمَفَاخِرُهَا تَشْرَفُ بِهَا كُلُّ مَنِيرٍ وَسَرِيرٍ ، وَرِكَابُ أَنْبِيئِهَا
تَسِيرُ إِلَى مَقَامِهِ فَتَطِيبُ رَاحِلَةً فِي ذَلِكَ الْمَسِيرِ .

آخر في مثله : وَلَا زَالَ يُهْدِي مِنَ الْحِيَادِ الْمُسَوِّمَةَ أَصَائِلَهَا ، وَيُخَفُّ مِمَّا يَحِيهِ عِنْدَ
الْوِفَادَةِ عَلَيْهِ صَاهِلَهَا ، وَيَقَابِلُ أَكْرَمَ غُرَّةٍ : الْخَيْرُ مَعْقُودٌ بِنَاصِيَتِهَا وَالْيَمْنُ يُقَابِلُهَا ، وَيَمْتَعُ
بِأَعْرَ جَوَادِ حَلِيَّةِ الشَّفَقِ دُونَ إِهَابِهِ إِذْ يَمَانِلُهَا ، وَسُرْعَةُ الْبَرْقِ خِفَّتُهُ إِذْ يُسَاجِلُهَا .

الضرب الثالث

(من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن نواب السلطنة إلى النواب)

(بسبب ما يرد عليهم من المثالات السلطانية)

اعلم أنه قد جرت العادة بأنه إذا ورد على نائب السلطنة بالشام مثال شريف من
الأبواب السلطانية ، يأمرهم ^(١) كتب نائب الشام إلى نواب السلطنة بورود

(١) بياض بالاصل ولعله بأمر .

المثال الشريف مُبَشَّرًا بِذَلِكَ ، وَيَجْهَزُ إِلَى كُلِّ مِنْهُمْ مَعَ الْمَثَالِ الْوَارِدِ إِلَى كُلِّ نَائِبٍ مِنْ نَوَائِبِ السُّلْطَانِ مَعْنَى الْمَثَالِ الْوَارِدِ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ بِذَلِكَ . إِلَّا أَنَّهُ يَكُونُ حَاسِبًا لِصُورَةِ الْمَثَالِ الْوَارِدِ بِذَلِكَ ، لِأَنَّهُ مُبْتَدِئُهُ ، وَيَشْتَمِلُ ذَلِكَ عَلَى عِدَّةِ أُمُورٍ .

فَمِنْ ذَلِكَ جُلُوسُ السُّلْطَانِ عَلَى تَحْتِ الْمَلِكِ ، فَيَخْبِرُ نَائِبُ الشَّامِ فِي الْكِتَابِ الصَّادِرِ عَنْهُ إِلَى بَعْضِ النُّوَابِ بِأَنَّ الْمَثَالَ الشَّرِيفَ وَرَدَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَأَنَّهُ وَرَدَ كِتَابٌ إِلَى الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ بِجَهْزِهِ إِلَيْهِ .

[وَهَذِهِ نَسْخَةٌ كِتَابٍ مِنْ ذَلِكَ] كُتِبَ بِهِ عَنْ نَائِبِ الشَّامِ إِلَى بَعْضِ نَوَائِبِ السُّلْطَانَةِ ، بِالْبِشَارَةِ بِسُلْطَانَةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ ، وَقَدْ وَرَدَ عَلَى يَدِ بَعْضِ الْحُجَّابِ . مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ نُبَاتَةَ ، فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِينَ ، وَهِيَ بَعْدَ الصُّدْرِ :

أَمْتَعَهُ [اللَّهُ] مِنَ الْبِشَائِرِ بِمَا يَتَوَضَّعُ عَلَى جَبِينِ الصَّبَاحِ بِشْرُهُ ، وَبِمَا يَتَرَجَّحُ عَلَى مِيزَانِ الْكَوَاكِبِ قَدْرُهُ ، وَبِمَا يَنْفَسِحُ مِنْ أَوْقَاتِ أَمْنٍ لَا يَحْتَصِمُ فِي ظِلِّهَا زَيْدٌ وَعَمْرُو حَتَّى يُقَالَ : وَلَا زَيْدٌ النَّحْوِ وَعَمْرُو . وَيُنْهَى بَعْدَ دَعَاءِ يَتَبَلَّجُ فِي اللَّيْلِ فَجْرُهُ ، وَثَنَاءِ يَتَّارِحُ فِي طَيِّ النَّسِيمِ نَشْرُهُ ، وَوَلَاءِ يَتَسَاوَى فِي دَرَجَاتِ الصِّفَاءِ سِرُّهُ وَجَهْرُهُ . أَنَّ خَيْرَ الْبِشَائِرِ مَا خَصَّ أَوْلِيَاءَ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ وَعَمَّ الرِّعَايَا ، وَسَمَّا إِلَى نُغُورِ الْإِسْلَامِ خَبْرَهُ الْجَلِيَّ فَقَالَ : «أَنَا أَبُو جَلَاوُطَاطَاعِ الثَّنَائِيَا» وَقَسِمَتْ مَسْرَّتَهُ عَلَى كَافِلِي الْمَمَالِكِ فَقَالَتْ مَمْلُوكَةُ مَوْلَانَا : «لَنَا الْمِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا» وَسَلَكَ الْمَمْلُوكُ مِنَ الْإِسْرَاعِ بِإِشَاعَتِهِ الْحَقَّ الْوَاجِبَ ، وَجَهَّزَ خِدْمَتَهُ بَيْنَ يَدَيْ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ الَّذِي سَبَقَ طَائِرُ ثَمِينِهِ وَلَكِنَّهُ جَاءَ وَفِي خِدْمَتِهِ حَاجِبٌ ، وَهِيَ الْبُشْرَى الْوَارِدَةُ فِي الْأَمْثَلَةِ الشَّرِيفَةِ السُّلْطَانِيَّةِ ، الْمَالِكِيَّةِ الْمَلِكِيَّةِ ، الصَّالِحِيَّةِ الْعِمَادِيَّةِ ، الْعَرِيقَةِ فِي نَسَبِ النَّصْرِ بِالْأَنْسَابِ النَّاصِرِيَّةِ الْمَنْصُورَةِ ، أَعْلَى اللَّهِ

تعالى أبداً على قواعد الملك عمادها، وصرف بها الأئمة لما سرّ وصرفها عمادها،
 يجلسه على كرسى المملكة الذي هو آية سعده الكبرى، وتحت السلطنة الذي عاينه
 ملك الجود والعلم فقال: السلام عليك بحراً، وإجماع الأمة على أنه صالح المؤمنين،
 وكفاة الحل والعقد على أنه سلطان الإسلام والمسلمين؛ وأركان البيت الناصري
 على أنه عماده، وعلى أنه سنده المكمّل وإذا انقضت بيت سنده؛ فياله جلوساً قامت
 فيه كواكب السعد مشدودة المناطق، وياله إجماعاً اتفق فيه - حتى من تصميم
 السيوف وتعبير الأقلام - كل صاميت وناطق؛ وياله بيت ملك أبي الله إلا أن يقيم
 وزنه أفضل الأفاعيل، وياله ملكاً قال الدهر الطويل أنتظاره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ﴾. وياله أمراً بلغ خبره وخبره الأوطار والأوطان،
 ونفذ برده المصرية على حين فترة تالية له السعود: ﴿فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾
 وحشر الناس ضحى يوم الزينة، وجاءوا إليها مستبشرين من أدنى وأقصى كل من
 في المدينة؛ وضربت البشائر وباعجباً! أنها تضرب ومكاتها من القلوب مكينه.
 حتى إذا أخذت مصر حظها من الهناء قسمت على الأمصار، وأضاء بارق نشرها
 من كل وجه فسمت بالشامات غرة الابصار؛ وركض بريد الخير بمبارك باب البريد،
 ووصل نيل النيل إلى أنهار دمشق فبردى على الشكر ثابت ويزيد؛ وبشر الإسلام
 من وجه الخلف الصالح بأكرم من بر، وأستفاض الأسم الشريف: فلو كلف مشتاق
 فوق وسعه لسعى إليه المنبر.

فالحمد لله على أن سرّ البيت الشريف الناصري - بجمع شمله، وعلى أن أتى الملك
 العقيم الصالح من أهله؛ وقد جهز المملوك المثال الشريف المختص بمولانا: ومولانا
 أولى من أنتظمت لديه دُرر هذه الأخبار الثمينه، وعظمت بناحيته شعائر هذه الدولة
 المكينه، وكل خير حماه خير قرينه؛ والله تعالى يعز الإسلام بعزيمه، ويمضي الآجال

والأرزاق على يدي حربه وسلميه ، ويُخزُّ لرأيه ورأيته النَّصر قبل أن يطوف الأولياء بعلمه ، وقبل أن يُحيط الأذكياء بعلمه .

ومن ذلك الكتابة بورود مثال شريف بعافية السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ، بن الناصر محمد بن قلاوون ، في خلافة المعتضد بالله أبي الربيع سليمان ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهي بعد الألقاب :

أورد الله عليه من الهناء كل سرى يسره ، وكل سنى يقرُّ أمام ناظره الكريم ويقره ، وكل وفي إذا طلع في آفاق حلب قيل : لله دره ، ولا زالت البشائر تلقاه بكل وجه جميل ، وبكل جلي جليل ، وبكل خير تصح الدنيا بصحته فليس بها غير النسيم عليل ؛ تقبلاً يزاحم عقود الثغور ، ويكاد يمنع ضم الشفتين للثم طول الأبتسام للسرور ؛ وينهى بعد رفع اليد بدعائه ، وضم الجوانح على ولائه ؛ وجرم الهناء المشترك بمسرة مولانا وهنائه ؛ أن المثال الشريف زاده الله شرفاً ، وزاد فضل سلطانه على العباد شرفاً ؛ ورد بالبشارة العظمى ، والنعماء التي ماضتها الأيام قبل بنعمي ؛ والمسرة التي يأكل حديثها أحاديث المسرات أكلاماً ، ويحبها الإسلام والمسلمون حباً جمياً ؛ بسلامة جوهر الجسد الشريف من ذلك العرض ، وشفائه الذي في عيون الأعداء منه شفاً تطعن وفي قلوبهم مرض ؛ وأن مادة الأدوية بحمد الله قد آنحست ، والواردة من الأفتقاد بالأجر والعافية قد آبتست ؛ وأن ظنون الإشفاق قد أضحتت .
ونعمات الروض قد قدت الجسم الشريف فاعتلت ، وأخبار الهناء بعينها كل يريد نسوان من الفرج [ينشد] أسألها أي المواطن حلت ؛ فيا لها بشارة خصت الإسلام وعمت بنيه ، وسارت فوق الأرض وسرت تحتها أسلاف الملك ومبتيه ؛ وشملت البلاد وعبادها ، والسلطنة وقد حجب الله عمادها عمادها ، والمملك السلطاني وقد ثبت الله

به على الدنيا من السماء خيمتها ومن الجبال أوتادها، والطير وقد حملت ورقه أوراق السرور، والوحش وقد قالت مهاة : على عيني أتحمّل ذلك السقام أو ذلك الفتور، ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ والألطف الرَّاحِمُ بها المؤمنين من خلقه ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ .

وكان ورود هذا المثال الشريف على يد فلان ، فيأله من واري لمشاريع الأمن أورد، ولروائع الناس عن القلوب حجب أورد، وقد جهزه المملوك بالمثال الشريف المختص بمولانا وهذه الخدمة بعد أن ضربت البشائر مسوغة في كل ضرب من التهاني ، وزينت البلد زينة ما نظمت فيها غير العقود أيدي الغواني ، فيأخذ حظه من هذه البشرية ، ونصيبه من هذا الوجه الذي ملأ الوجود بشرا ، وشطره من الهناء المخصوص الذي تعجل منه المملوك شطرا ، والله تعالى يسره بكل خير شريق زواهره ، وتعبق في كرائم الدروج أزهيره ، ويتألق على يد بريده من المخلقات كل كوكب صبح تملأ الدنيا بشائره .

ومن ذلك المكاتبه بورود المثال الشريف بوفاء النيل .

إذا ورد على نائب الشام بوفاء النيل المبارك ، كتب نائب الشام عن نفسه إلى نائب حلب وغيره ، من ثواب السلطنة بالممالك الشامية ، بورود المثال الشريف عليه بذلك ، ويكتب عنه كما يكتب عن السلطان : من السجع ، وإيراده مورد البشارة ، وإظهار الفرح والسرور بذلك ، لا يكاد يحالفه إلا في كونه واردة مورد الحكاية لمثال السلطان ، ومثال السلطان محير بذلك ابتداء .

وهذه نسخة مثال كريم من ذلك عن نائب الشام ، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة ، كتب به لسنة ثلاث وأربعين وسبعائة ، وهي بعد الصدر :

لا زالت مُبَشِّرَةً بِكُلِّ مُبَهِّجَةٍ ، مُعَطَّرَةً الْأَرْجَاءَ بِكُلِّ سَائِرَةِ أَرْجَاهِ ؛ مُبَسَّرَةً الْأَوْقَاتِ
بِمُقَدَّمَتِي سَمَاعٍ وَعِيَانٍ : كِلَاهِمَا لِلسَّارِ مُتَّجِهَةٍ ، مُسْتَحْضِرَةً فِي مَعَالِي الْكَرَمِ كُلِّ دَقِيقَةٍ
تَشْهَدُ بِسَطْوَةِ النَّيْلِ أَنَّهَا أَرْفَعُ مِنْهُ دَرَجَةً ؛ وَيُنْهِي بَعْدَ دَعَاءِ مَا الرَّوْضُ أُعْطِرَ مِنْ شَدَاهِ ،
وَلَا مَاءُ النَّيْلِ وَإِنْ كَرُمَ وَفَاءً بِأَوْفَى مِنْ جَدَاهِ ؛ أَنْ الْمَرْسُومَ الشَّرِيفَ زَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى
شَرَفًا ، وَرَدَ بِوَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ وَحَبْدًا هُوَ مِنْ وَفَى مُوَأْفَى ، وَمُتَغَيِّرِ الْمَجْرَى وَعَيْشِ
الْبِلَادِ بِهِ الْعَيْشِ الصَّافِي ، وَحَسَنِ الزِّيَارَةِ وَالرَّحِيلِ مَا ضَاهَتْهُ الْغُيُوثُ فِي وِلَايَتِي ؛ وَوَارِدِ
مِنْ مَعْبَدٍ بَعِيدٍ ، وَحَمِيلٍ لَا جَرَمَ أَنْ مَدَّهُ نَائِبٌ وَيَزِيدُ ؛ وَجَائِدٍ إِذَا تَتَابَعَ حَيْثُ تَيَّارُهُ
يَقْلُدُ بِهِ وَدَرُهُ مِنَ الْأَرْضِ وَسَاكِنِيهَا كُلِّ جِيدٍ ، وَإِذَا ذُكِرَ الْخِصْبُ لِمَكَانٍ عَيْدِهِ
الْمَشْهُودِ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ كَذَا ، وَأَنَّ الْبِلَادَ جُبِرَتْ بِكُسْرِ
خَلِيجِهِ ، وَأَسْتَقَامَتْ أَحْوَالُهَا بِتَفْرِيجِهِ : وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ بِالْآلِيَةِ ، وَوَسَمَتْ لَوْنَهُ الْأَصْهَبَ
عَلَى رَغَمِ الصَّهْبَاءِ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ ؛ وَخَلَقَ فَمَلَأَتِ الدُّنْيَا بِبَشَائِرِ مُخَلِّقِهِ ، وَعَلَّقَ سِتْرَهُ
الْمِصْرِيَّ التَّبْرِيَّ فَرَكَا عَلَى مُعَلِّقِهِ ، وَحَلَّقَ مَسِيرَ تَرَاغِهِ عَلَى الثُّرَى فَبَاتَ عَلَى النَّدَا ضَيْفُ
مُخَلِّقِهِ ؛ وَحَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ ، وَأَنْعَرَجَ عَلَى الْبِقَاعِ يَلْوِي مِعْصَمَهُ فَتِلْهُ أَوْقَاتِ
ذَلِكَ اللَّوَى وَالْمُنْعَرَجِ ؛ وَأَسْتَقَرَّتِ الرِّعَايَا آمِنِينَ آمِلِينَ ، وَقَطَعَ دَابِرَ الْجَدْبِ بِسُعُودِ
هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ ؛ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ وَرُسِمَ أَنْ لَا يُجْبَى حَقُّ بَشَارَةِ ،
وَلَا تَعْبَثُ يَدُ التَّنْقِيسِ مِنْهَا لِيَزْدَادَ الْخَبْرُ نُورًا عَلَى نُورٍ ، وَيَكُونَ فِي إِثَارِهِ وَحُسْنِهِ الْخَبْرُ
الْحَسَنَ الْمَأْتُورَ ؛ وَوَصَلَ بِهَذَا الْخَبْرُ فَلَانَ وَعَلَى يَدِهِ مِثَالُ شَرِيفٍ يُخْتَصُّ بِمَوْلَانَا
وَقَدْ جَهَّزَهُ بِمَا فَيَأْخُذُ مَوْلَانَا حَظَّهُ مِنْ هَذِهِ الْبَشْرَى ، وَيُوضِّحُ بِهَا عَلَى كُلِّ الْوَجْهِ

(١) فِي الْأَصْلِ "لَا جَرَمَ أَنْ يَدَهُ" .

بِشْرًا ، والله تعالى يملأ له بالمسرات صدرا ، ويضع بعدله عن الرعية إصرا ، ويسرهم في أيامه بكلّ وارد يقول الإحسان لمتحمّله : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾
 إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب آخر في المعنى إلى بعض النواب ، من إنشاء الشيخ جمال الدين
 ابن نباتة أيضا ، وهي بعد الصدر :

وضاعف موادّ نعمه ونعمائه ، ومسرتّه وهنائه ، وحفظّ عليه ما وهبه من المناقب
 التي يروى النيل عن كرمه ووفائه ، وشرف السيوف لكونها من سمات كرمه والسيول
 لكونها من سمائه .

المملوك يُجَدِّد الخدّمة بنفحات سلامه وثنائه ، ويصفّ ولآء لو تجسّم لأستمدت
 عين الشمس من سنائه ، ويُنهي أن المرسوم الشريف زاده الله تعالى شرفا ، وردّ
 مبشرا بوفاء النيل المبارك في يوم كذا ، فياله ربيعا جاء في ربيع ، وحاملا في مفردّه
 الفضل الجميع ، وداعيا بالخصب ينشد كلّ ثانية اثنين ربحانة الداعي السميع ،
 ومتغنيا على منصّة المقياس عرسه يجلي عليه من شبّاكها السّتر الرفيع ، وأنه أقبل
 والبلاد أشهب ما تكون للقياه ، وأشوق ماترى لمباشرة ربه ورياه ، وقد أمتدت أيدي
 الجسور لقمه ، وأستعدت شفاه الجروف اللّمس للثمه ، فكرم عليها زائره ، وصحبها
 بالنجيج ساريه وسائره ، ودارت على الحدب من خطوط الأمواج دوائرُه ، وعمّت
 المنافع ، وتلقت عيون القلا ناهلة بالأصابع ، وفاض البحر بيره ، ونشر رداءه على
 الأرض وسيضوع روضها بنشره ، وخلق المقياس فيالك من قياس بشري غير ممنوع ،
 وكسر الخليج فياله غصن قلم على النيل وطائر سبجيه على القرات مسموع ، ورسم أن

لأُيَجِبَ حَقُّ بَشَارِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهَا التَّقْيِصُ لِدَارٍ وَلَا التَّنْقِصُ لِدَارِهِ ؛ وَوَصَلَ بِهَذَا الْأَمْرِ فَلَانَ وَقَدْ جُهِّزَ بِمَا عَلَى يَدِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُمَتِّعُ مَوْلَانَا مِنْ أَقْسَامِ الْمَسَارِّ بِصُنُوفٍ ، وَيُدْفَعُ عَنْ حُصُونِ الْإِسْلَامِ بِمِئِنَةِ أَيْدِي الصُّرُوفِ ؛ وَيَنْفَعُهَا بِظِلَالِهِ الَّتِي آوَاهَا مُلْكُهُ الْكَرِيمُ إِلَى جَنَّةٍ : وَكَذَلِكَ الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ .

الضرب الرابع

(من المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ عَنِ النَّوَابِ وَالْأَتْبَاعِ إِلَى الْخَلِيفَةِ
أَوِ السُّلْطَانِ ، وَفِيهِ مَهِيَعَانُ)

المهيع الأول

(في الأجوبة عن الكُتُبِ السُّلْطَانِيَّةِ السَّابِقَةِ فِي الضَّرْبِ الْأَوَّلِ)

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَقَدِّمَةِ الْمَكَاتِبَاتِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ ذِكْرُ الْخِلَافِ :
هَلِ الْكُتُبُ الْأَبْتَدَائِيَّةُ [أَعْلَى رُتْبَةً ^(١)] فِي الْإِتْيَانِ بِهَا أَمْ الْجَوَابِيَّةُ ، وَذِكْرُ الْأَحْتِجَاجِ
لِكُلِّ مِنَ الْمَذْهَبَيْنِ ، وَذِكْرُ التَّحْقِيقِ فِي ذَلِكَ ؛ فَلْيَرَا جَمْعٌ مِنْ مَوْضِعِهِ هُنَاكَ . وَنَحْنُ
نَذَكُرُ الْكَلَامَ عَلَى أَجْوَابِ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ الْمَتَقَدِّمِ ، جَارِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى
مَاقَرَرِهِ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" .

فَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الْكُتُبِ الْوَارِدِ بِانْتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَى الْخَلِيفَةِ ، فَإِنَّ الْكُتَابَ إِنْ
كَانَ مَتَضَمِّنًا التَّعْزِيَةَ فِي سَلْفِهِ ، وَالْهِنَاءَ بِمُتَجَدِّدِ النِّعْمَةِ عِنْدَهُ فِي أَنْتِقَالِ الْخِلَافَةِ
إِلَيْهِ ، فَاتَّزَمَ فِيهَا يُكَّاتِبُ بِهِ عَنِ الْخَلِيفَةِ أَنْ يُبْنَى عَلَى الْأَسْتِشَارِ بِالنِّعْمَةِ فِي خِلَافَتِهِ ،

(١) بياض بالأصل . والتصحيح عما تقدم في (ج ٦ ص ٢٢٣) .

والمسارعة بإخلاص الضمير إلى الدخول في طاعته وبيعته ؛ وأنفساح الآمال في دولته ، والشكر لله تعالى على جبر الوهن وعلو كلمة الإسلام والمسلمين بدعوته ؛ وتعزيتة عن أبيه ، بما يوجب محله المحنة ويقتضيه ؛ يعني إن كان الخليفة الميِّتُ أباه ، فالدعاء له بأن ينهضه الله تعالى بما حمَّله ، ويعينه على ما كَفَّله ؛ ويقرِّن ملكه بالجدِّ السعيد ، والخُلُود والتأييد ؛ وإدالة الأولياء ، وإدالة الأعداء ؛ ونحو هذا مما يجاريه .

وإن كان الكتاب الوارد بانتقال الخلافة إليه عن أبيه ، ومن في معناه ممن يُواليه في المحبة ، فإنَّ الكاتب يُحوم في الجواب على ما حصل بذلك من صلاح حال الأمة ، وأستقامة أمر الرعيِّه بانتقال الخلافة إليه ، من غير أن يُصرِّح بدمِّ الذهاب قبَّله . ولا يخفى أن الجواب عن ورود الكتاب بانتقال السلطنة إلى السلطان وجُلوسه على تختِ الملك في معنى الجواب في انتقال الخلافة إلى الخليفة ، لا يكاد يُفرِّق بينهما ، على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالدعاء إلى الدين ، فإنما يتكفَّها كتابُ مخالفِ الملة ، لأنها إنما تصدر إليهم . قال في "مواد البيان" : إلا أنه لا غنى لكتاب الإسلام عن علم ما يقع فيها ، لتقدِّم عندهم المعرفة بما يُجيبُ به المخالفون ، فيأخذوا عليهم بأطراف الحجَّة إذا كتبواهم ابتداءً أو جواباً .

قال : ولا تخلُّوا أجوبة هذه الكتب من أربعة معانٍ :

أحدها — إجابةُ الدعاء إلى الدين ، وقبولُ الإرشاد والهدى ، والزُّوع عن الغيِّ ، والإقبالُ على التَّبصرة والتذكرة ، بعقائد خالصة ، ونياتٍ صريحة .

والثاني — الإصرارُ على ما هم مُتمسِّكون به ، وتمحُّلُ الشبهة في نصرته ، وأدعاءُ الحقِّ فيما يعتقدونه ، والمغالطة عن الإجابة إلى قبول ما دُعوا إليه .

والثالث - بَدَلُ الْجِزْيَةِ وَالْمُصَالِحَةِ ، وَالْجُنُوحُ إِلَى السَّلْمِ وَالْمُؤَادَعَةِ .

والرابع - إِظْهَارُ الْحِمِيَّةِ ، وَالْقِيَامُ فِي دِفَاعِ مَنْ يَرُومُ اقْتِسَارَهُمْ عَلَى مَفَارِقَةِ شَرَائِعِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ ، وَبَدَلُ الْأَنْفُسِ فِي مُقَارَعَتِهِ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة بالْحَثِّ عَلَى الْجِهَادِ ، فَقَدْ ذَكَرَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" أَنَّهَا لَا تَخْرُجُ عَنْ مَعْنِيَيْنِ :

أحدهما - إِجَابَةُ الصَّرِيحِ ، وَالْمُبَادَرَةُ إِلَى التَّشْمِيرِ فِي الْجِهَادِ ، وَالْقِيَامُ فِي مَعُونَةِ الْأَوْلِيَاءِ ، عَلَى كِفَاحِ الْأَعْدَاءِ .

والثاني - الْأَعْتِدَارُ وَالتَّعَلُّلُ وَالتَّنَاقُلُ .

هذا إن كانت الكُتُبُ صادرةً إِلَى الْقَوَادِ وَالْمُقَدِّمِينَ . أما إذا كانت مقصورةً عَلَى الْأَسْتِنْفَارِ ، فَلَا جَوَابَ لَهَا إِلَّا التُّفُورُ أَوْ الْإِمْسَاكُ . قَالَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" :
وَالطَّرِيقُ إِلَى إِقَامَةِ الْعُدْرِ لِلْمُسْتَضْرِحِ فِي التَّأَخُّرِ عَنْهُ مُسْتَضْرِحُهُ مَتَى أَرَادَ الْأَعْتِدَارَ عَنْهُ صَعِبٌ عَلَى الْكَاتِبِ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَتْ الْأَعْدَارُ مُتَكَلِّفَةً غَيْرَ صَحِيحَةٍ .

قَالَ : وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَأَثَّرَ لِذَلِكَ وَيُحْسِنَ اللَّطْفَ فِيهِ ، وَلَا يَعْتَلَّ بِكُذْبِ صَرَاحٍ يَنْكَشِفُ لِلْعُتْدَرِ إِلَيْهِ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة بالْحَثِّ عَلَى لُزُومِ الطَّاعَةِ ، إِذَا وَرَدَتْ عَلَى النَّوَابِ وَالْوَلَاةِ وَأَمْرُوا بِقِرَاءَتِهَا فِي أَعْمَالِهِمْ عَلَى الرَّعَايَا ، فَإِنَّهُ يَكُونُ : إِمَّا بِانْقِيَادِ الرَّعَايَا إِلَى مَا دُعُوا إِلَيْهِ ، أَوْ أَسْتِدَامَتِهِمْ لِمَرْكَبِ النَّفَاقِ ، وَأَسْتِدْعَاءِ مَادَّةٍ لِتَقْوِيمِهِمْ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ إِلَى مَنْ نَكَثَ عَهْدَهُ مِنَ الْمُعَاهِدِينَ ، فَقَدْ ذَكَرَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" أَنَّهَا لَا تَخْلُو مِنْ أَحَدٍ أَرْبَعَةَ مَعَانٍ .

أولها - الاعتذار والاستقالة من مراجعة النكث، والرغبة في الصفيح عن النبوة، والمسامحة بالهفوة .

والثاني - المغالطة والمراوغه، وأستعمال المدهانة والمخادعة .

والثالث - التجليح والمكاشفة .

والرابع - إيجاب الحجّة على المجوب (٩) عنه في أنه المبتدئ بفسخ ما عاقد عليه . قال : والكاتب إذا كان ماهرا كسا كل معنى من هذه المعاني الغرض اللائق به في الصناعة .

وأما الجواب عن الكتب إلى من خلّع الطاعة ، فقد قال في "موادّ البيان" : إنها تحمل معنيين : أحدهما الاعتذار ، والآخر الإصرار ؛ وكل واحد منهما محتاج إلى عبارة لائقة به . ثم قال : والكاتب إذا كان حاذقا ، عرّف سبيل التخلّص فيها بمشيئة الله تعالى .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالفتوح ، فإنها إن صدرت من السلطان إلى ولّاته ، فينبغي أن يبنى جوابها على الاستبشار بموقع النعم في الظفر بالعدوّ، والجدل بمجدد الفتح ؛ وأن ذلك إنما تهيأ بسعادته ، وعلوّ رأيه ، وانبساط هيئته ؛ وما عوده من إظهار أوليائه ، وخذلان أعدائه ؛ وأنهم قد أشاعوا هذا النبا في الخاصة والعامة من رعاياه فآبتهجوا به ، وشكروا الله تعالى عليه ودعوا له بصالح الدعاء . وإن صدرت من ولاة الحرب إلى السلطان ، فينبغي أن يكون ما يجيبهم به مبنيا على حمد الله تعالى على عوارفه ، والرغبة في مضاعفة أطائفه ؛ وشكره على إنجاز وعده في الإظفار بأعداء الملة والدولة ونحو هذا . ومخاطبة أهل الطاعة بما يرهف عزائمهم ، ويقوى شوكتهم ؛ وتقريب والى الحرب ووصفه بما يشهد بصيرته في الخدمة . والثناء على

الأجناد ، ووعدهم بجزيل الجزاء على الجهاد والإبلاء ؛ إلى غير هذا مما يقتضيه الحال ، ويوجبُه تدير الأمر الحاضر .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالأعتذار عن السلطان عند ما يحصل له زللٌ في التدبير أو [في] الظفر بقبض الأعداء على جيش من جيوشه ، فإنما تقع الإجابة عنها إذا نُفِذَتْ إلى أحد العَمَالِ خصوصاً . قال في "مواد البيان" : وحينئذ فينبغي أن يكون الجوابُ عنها مَبِينًا على تَقْوِيَةِ نفس السلطان وتوثيقه بالأدلة ، وأن ماناله لا يتوجه كثيرا على ذوى الحُرْمِ ، إلا أن عواقب الفلج والظفر والإصابة في الرأي والتدبير تكون لهم ، ونحو هذا مما يجاريه ويليق به .

قال : أما إذا كانت المكتبة في ذلك إلى الكافية ، مُهَدَّةً لِعُدْرِ السلطان ، قاطعةً قالة الرعية عنه ، فإنه لا جواب عنها ؛ لأنها إذا لم تُوجَّهْ إلى واحد بعينه لا تستدعي خطاباً .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن السلطان بالنهي عن التنازع في الدين ، إذا صدرت إلى العَمَالِ ، وأمرُوا بقراءتها على الرعايا على منابر أعمالهم ، فإنه ينبغي الأمر فيها على آمثال الأمر ، والمطالعة بآرتسام القوم ما رسم لهم فيها . أما إذا كانت صادرة لتقرأ على العامة ليُبصروا ما فيها ويعملوا عليه ، فإنه لا جواب عنها ، لأنها إنما تشتمل على مواعظ ومراشد تتخول بها الأمة رعائهم .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالأوامر والنواهي ، فقد ذكر في "مواد البيان" أن الكتاب الوارد في ذلك : إن كان شيئاً قد جزم المتبوع فيه الأمر ، وضيَّق على التابع في إيثاره سبيل المراجعة فيه ، فإن الجواب عنه سهل ؛ لأنه إنما يجيب بجواب جامع ، وهو وقوفه على ما أمر به وإنقاده له . وإن كان الوارد أمراً محتملاً للمراجعة ، من حيث إن في إفضائه إذا أمضى فبالتعمل . وإخلاقاً بأسباب

المُلكِ والسلطان، فالجواب عنه شاقٌّ صعبٌ : لأنه ينبغي أن يُبنى على تَلَطُّفٍ شديدٍ في الإبانة عما يُنتجُه ذلك المأمور به إذا أُنْفِذَ على وجهه من فِتْقٍ وِخْلٍ ؛ وموردُ المراجعة في ألفاظه لا يتبين فيه إزراء على رأيِ الرئيس ولا طعنٌ في تدييره : بأن تكون ناطقةً بأن رأيه الأعلى، وتدييره الأصوب ؛ فيكون باطنُ الكلام توقيفاً على الصواب ، وظاهره تصويبا وتقریظاً : لأن كثيراً من الرؤساء والملوك يُعجبون بأرائهم ، وينزلون أنفسهم بحكم الرياسة في منزلة من لا يرآجِعُ ولا يعارضُ فيما يأمر به .

قال : وقد أتى من كُتُبِ الأوامر كُتُبٌ يأمر الرئيس فيها المرءوس بشرح حالٍ واقتصاص أمور . ثم قال : وأجوبة هذه الكُتُبِ يجب أن تكون مُستقصيةً للمعنى المنشرح ، مُستوليةً على حواشيه ، غير مُخِلَّةٍ بشيءٍ مما يحتاج إلى تعرفه منه .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة عن الإمام عند حدوث الآيات السماوية ، وهي مشتملة على مواعظٍ ومراشدٍ يتخولُّ بها الأئمة رعاياهم ؛ فإذا صدرت إلى العمال وأمرُوا بقراءتها على الرعايا ، فأجوبتها إنما تُبنى على أمثال الأمر والمطالعة بأرتسام القوم ما رَسِمَ لهم فيها . أما إذا كانت صادرةً لتقرأ على العامة ليتبصروا بما فيها ويعملوا عليه ، فإنه لا جواب عنها .

وأما الجواب عن التَّنْبِيهِ على مواسم العبادة ، فإنه يصدر عمن وَرَدَ عنه إلى الإمام بعد شهود ذلك المَوسِمِ ، والأَنْفِصَالِ عنه على حال السلامة ، كما في صلاة العيد ونحوها . قال في " موادَّ البيان " : وأجوبتها تصدر إلى الخلفاء مقصورةً على ذكر ما من الله تعالى به من قضاءِ الفريضة على حال الائتلاف والاتفاق ، وشُمُولِ الأُمُرِ والهدى والسكون ، وسُبُوغِ النعمة على الكافة ؛ وأن ذلك بسعادة وعناية الله تعالى بدولته وبرعيته ، ونحوها مما يقتضيه المعنى .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الإمام إلى وُلاةِ أمرِهِ بالسلامة في ركوب
 أول العام وُغرةَ رَمَضانَ ، والجمعة الأولى والثانية والثالثة منه ، وعِيدِي الفِطْرِ
 والأضحى ، وفتح الحليج بعد وفاء النيل ، فقد قال في "مواد البيان" : إنه إن كان
 الكتاب عن السلامة في صلاة العِيدَيْنِ أو جمع رَمَضانَ ، فينبغي أن يكون مَبْنِيًّا على
 وُرود كُتُبِهِ متضمنةً ما أعان الله تعالى عليه أمير المؤمنين من تَأْدِيَةِ فريضة ، واجتمع
 في صلاة عِيدِ كذا بَرَعِيَّتِهِ ؛ وما ألبسه الله تعالى من الهدى والوقار ، وأفاضه عليه
 من البهاء والأنوار ؛ وبروزه في خاصِّتِهِ وعَامَّتِهِ إلى مُصَلَّاهُ ، وسماع خُطْبَتِهِ وَعَوْدِهِ
 إلى قَصْرِ الزاهر ، وعليه تَلَاؤُ القَبُولِ لصلاته ودُعَاةِ ، مما أجراه الله تعالى فيه على
 عادة آلائهِ ؛ ووقف عليه وقابله بالشكر والإحماذ ، والاعتراف والاعتداد ، وأفتضه
 على رءوس الأشهاد ؛ فأغْرَقُوا في شُكْرِ الله تعالى على المَوْهَبَةِ في أمير المؤمنين ، ورَغِبُوا
 إليه في إطالة بَقَائِهِ مُرَامِيًّا عن الإسلام والمسلمين ؛ ونحو هذا مما يُجَارِيهِ .

ثم قال : فإذا نُفِذَتْ هذه الكتب من العَمَالِ إلى أمير المؤمنين مُبَشِّرَةً بِاجتماع رعاياه
 لتأدية فريضتهم ، وَعَوْدِهِمْ إلى منازلهم سالمين ، فينبغي أن يكون الجواب عنها :
 «وصل كتابك مُتَضَمِّنًا مالا يزالُ اللهُ تعالى يُؤَلِّهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي رَعِيَّتِهِ ، وَخَاصَّتِهِ
 وَعَامَّتِهِ : من اتفاق كلمتهم ، وأئتلاف أفئدتهم وسلامة كآفتهم ؛ وما من الله به عليه
 وعليهم من اجتماعهم لتأدية فريضتهم ، وَعَوْدِهِمْ إلى منازلهم ؛ على السَّلامَةِ من ضمايرهم ،
 والطَّهَارَةِ من سرائرهم ؛ فَحَمِدَ أمير المؤمنين اللهُ تعالى على ذلك وسأله مَزِيدَهُمْ منه ،
 وَتَوَفَّقَهُمْ لِمَا يُرِضِيهِ عَنْهُمْ ؛ وشكر مسعَاكَ في سياستهم ، وأمتداد يدِكَ في إيالتهم ؛
 وهو يأمرك أن تجرَى على عادتك ، وتسير فيهم بحمِلِ سِيرَتِكَ» وما يليق بهذا .

ثم بنى على ذلك سائر كتب السلامة، وقال: ينبغي أن يُسْتَنْبَطَ من نَفْسِ كُلِّ كِتَابٍ منها المعنى الذى تجب الإجابة به، مثل أن يكون الكتاب ورد من أمير المؤمنين إلى أحد عماله، مُبَشِّرًا بسلامته من سفره؛ فينبغى أن يُبْنَى جوابه على ما صورته: «ورد كتاب أمير المؤمنين مُبَشِّرًا عبده بما هَيَّأَ اللهُ تعالى له من السلامة ويمن الوجهه، مع تقريب الشُّقَّةِ؛ وإنالة المسار، وتسهيل الأوطار، وإدناء الدار؛ فوقف العبد عليه، وأتمثل المرسوم فى إطلاع الأولياء على ما نُصِّف فيه من هذه البُشْرَى؛ فَعَظُمَتِ المِنْحَةُ لديهم، وَجَلَّتِ النِّعْمَةُ عندهم؛ وأنشِرتْ صُدُورهم، وأنفسحت آمالهم، ووقفوا بصنع الله تعالى لهم؛ وأرتفعت أيديهم إلى الله سبحانه بالرغبة فى حياطة أمير المؤمنين قاطنًا وظاعنًا، وحسن صحابته حالًا وراحلا؛ وجميل الخِلافة على من خلفه من حامته وعمته، وأهل دعوته وخاصة دولته؛ والله تعالى يجب فى أمير المؤمنين صالح الدعاء، ويمدُّه بطول البقاء» وما ينظم فى سلك هذا الكلام ويضاهيه.

قلت: وقد تقدم فى الكلام على المكاتب السلطانية الابتدائية: أن المكاتبه بالبشارة بالسلامة فى رُكُوب العيدين وما فى معناها من قدوم السفر وغيره، قد ترك استعماله بديوان الإنشاء فى زماننا. فإن قُدِّرَ مثله فى هذه الأيام، أجراء الكاتب على نحو ما تقدم، على ما يقتضيه مصطلح الزمان فى المكاتب السلطانية.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالخلع وما فى معنى ذلك، فينبغى أن يكون مبنياً على تعظيم المنه، والاعتراف بجزالة المنحة؛ وجميل العطية، وزائد الفضل؛ وأن ما أُسْدِيَ إليه من ذلك تَفَضُّلٌ عليه، وتَطَوُّلٌ من غير استحقاق لذلك؛ بل فائضٌ فضيل، وجزيل امتنان؛ وأنه عاجز عن شكر هذه النعمة والقيام بواجبها، لا يستطيع

لها مكافأة غير الرغبة إلى الله تعالى بالأدعية لهذا، الدولة . وما يناسب ذلك من الكلام وبلائمه .

وأما الجواب عن الكتب بالتنويه والتلقيب إذا صدرت إلى نواب المملكة ، فالذي ذكره في "مواد البيان" أن المنوه به يجب عما يصله من ذلك بوصول الكتاب إليه ، ووقوفه عليه ، ومعرفة بقدر العارفة مما تضمنته الرغبة إلى الله تعالى في إزاعه الشكر ، ومعونته على مقابلة النعمة بالإخلاص والطاعة . أما إذا كتبت بالتنويه والتلقيب لأحد من المقيمين بحضرة الخلافة ، فإنه لا جواب لها .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالإحماذ والإذمام ، فيختلف الحال فيه : فإن كان الكتاب الوارد بالإحماذ والتقريظ ، بجوابه مقصور على الشكر الدال على وقوع ذلك الإحماذ موقعه من الحمود ، ومطالبتة لنفسه بالخروج من حقه باستفراغ الوسع في الأسباب الموجبة للزيادة منه . وإن كان الكتاب بالإذمام : فإن كان ذلك لموجدة بسبب أمر بلغه عنه من عدو أو حاسد نعمة أو منزلة هو مخصوص بها من رئيسه ، كان الجواب بالتنصّل والمقابلة بما يرى سآخته ، ويدل على سلامة ناحيته ، وأن يورد ذلك بصيغة تزيل عن النفس ما سبق إليها ، وتبعث على الرضا . وكذلك في كل واقعة بحسبها ، مما يحصل به التنصّل والأسترضاء ونحو ذلك .

وأما الجواب عن الكتب الواردة مع الإنعام السلطاني ، فعلى نحو ما سبق في الخلع : من تعظيم المنّة ، والاعتراف [بجزالة المنحة ^(١)] وجميل العطية ، وزيادة الفضل ، وما في معنى ذلك مما تقدم ذكره .

وأما الجواب عن الكتب الواردة عن الخليفة أو السلطان بتجدد ولد ، فإنه يكون بإظهار السرور والأغباط ، وزيادة الفرح والسرور بما من الله تعالى به من تكثير

(١) بياض بالاصل والتصحيح عما تقدم قريبا في الجواب عن الخلع .

العَدَد، وزيَادَة المَدَد، والرَّغْبَة إلى الله تعالى في أن يُوَالِي هذا المَزِيدَ وَيُضَاعِفَهُ .
ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى .

وأما الجواب عن الكُتُب الوارِدة بعافية الخليفة أو السلطان من مَرِيضٍ كان قد عَرَضَ له ، فطريقه حمد الله تعالى وشُكْرُه على ما منَّ الله تعالى به من العافية ، وتَفَضُّلَ به من إزاحة المَرِيضِ ، وِوَقَايَةِ المَكْرُوهِ ، وإظهار الفَرَجِ والسُّرُورِ بذلك .
وما ينخرط في هذا السِّلْكَ .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالتعزية بولدٍ أو قَرِيبٍ ، فإنه يظهر فيه الغم^(١) والحُزْنَ والكآبَةَ ، وحمد الله تعالى على سلامة نَفْسِهِ ، والرَّغْبَةَ إلى الله تعالى في الخَلْفِ عليه ، إن كان المَيِّتُ وُلْدًا ، مع الدعاء بِطُولِ البَقَاءِ وَخُلُودِ الدَّوْلَةِ ، وما يجرى هذا المجرى .
وهذه نسخ أجوبة عن مكاتبات سلطانية ، مما يكثر وقوعه ، ويتعدد تكراره ،
يَسْتَضِيءُ بها الكاتب في كتابة الأجوبة ، وَيَسُجُّ على منوالها .



نسخة جواب عن كتاب وصل من الخليفة بانتقال الخلافة إليه ، كُتِبَ به إلى أمير الأمراء ، قَرِينِ خِلْعَةِ وَسَيْفِ وَتَاجِ وَسِوَارِينِ ، من إنشاء أبي الحسين بن سعد ، وهو :

فإن كان سَيِّدُنَا أمير المؤمنين ، بما أعلم من فَضْلِ مَرَاعَاتِهِ لأُمُورِ الدِّينِ ، وَصِدْقِ عِنَايَتِهِ بِمِصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأُفِيضَ لَهُ (؟) مِنْ مَوَاهِبِ اللَّهِ عِنْدَهُمْ ، وَصُنُوفِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ ،
فَمَا هَدَاهُ مِنْ طُرُقِ الرَّشَادِ ، وَبَصَّرَهُ إِيَّاهُ مِنْ مَنَاهِجِ الصَّوَابِ ، وَقَرَّنَهُ بِهِ مِنَ التَّوْفِيقِ فِي عَزَائِمِهِ ، وَالْجِدِّ فِي مَرَامِيهِ ، وَتَوَعَّدَهُ فِيهِ بِالْخَيْرَاتِ التَّامَّةِ ، وَالْكِفَايَةِ الْعَامَّةِ ، فِي كُلِّ

(١) في الاصل "النغم" ولم نعر عليه في كتب اللغة .

أمرٍ يُضِيهِ ، ورأى يرتبته ، اعتماداً له بحسن المعونة على ما استرعاه ، ووصله بالمزيد
 فيما خوله وأعطاه ، وحراسة مساقه إليه من إرث النبوة ، وحمله إياه من ثقل الإمامة ،
 لما عرفه من نهوضه بالعبء ، وقيامه بالحق فيما ناطه وأسنده إليه ، وتأمله ما تأمله
 من حال عبده الذي لم يزل لطاعته معتقداً ، وبعضه ممتضداً ، ولوقت
 يبلغه منزلة الإحجاد ، ويحوز له عائدة الاجتهاد ، فيما أرضاه مرتصداً ، ولسعته ونيته ،
 وظاهره وطويته ، معتمداً ، ووجوده أيده الله في يسير ما امتحن به بلاءه ، وعرف
 فيه غناؤه ، موضعاً للصنيعه ، محتماً للعارفه ، مقراً بحق النعمة ، عارفاً بقدر الموهبه ،
 وترقبه فرصة ينتهزها في إبداء عزيمه ، وإمضاء رأيه ، وأنه [واثق] بالاستظهار بمكانه ،
 والإسهام له في عز سلطانه ، حتى أسفرت رويته ، وأستقرت عزيمته ، فاخصص
 عبده بجميل الأثر ، وأصطفاه بلطيف الخطوة ، وأعتمد عليه في إمارة الأمراء ،
 موفياً به على رتبة النظراء ، وكاسياً له حلة المجد والسناء ، ورد إليه تدير الرجال ،
 وتقدير أمور العمال ، وشفع ذلك بالكينية والتلقيب في مشاهد حقلته ، ومجالس
 خلوته ، وأكل الصنع عنده بإلحاق عبده فيما قسم لكل واحد منهما من شريف
 حياته ، وسني عطائه ، وتجاوز في التكرمة له إلى أعلى الأحوال ، وأرفع الرتب والمحال ،
 فيما أمر - أعلى الله أمره - بحمله إليه من الخلعة التي سبق شرف لباسها [على] الأيام ،
 ويخلد ذكرها على الدهور والأعوام ، والسيف الذي تفاعل لعبده فيه بما يرجو بمن
 مولاه وسعادة جده : أن يحققه الله في الاعتماد به على أعدائه ، وعمده في محور مشاقبه
 وغامصي نعمائه ، والتأج المرصع الذي نظم له جوامع الفخر ، والوشاح الموشى الذي
 وشحه حلية الجمال مدى الدهر ، والطوق الذي طوقه قلائد المجد ، والسوارين اللذين
 أذناه بقوة العضد وبسطة اليد ، واللواء المعقود به مفتح العز في طاعته ، المرفوع به
 معالم النصر على شاني دولته ، ووصل إلى وفهمته .

وسيدنا أمير المؤمنين - فيما أكرمه الله به من خلافته ؛ وأتمنه من الحكم على
 بريته ؛ ووكله إليه من حقوق الدين ، وحياطته كرم المسلمين ؛ وإحياء السير الرضية ،
 والسنة الحميدة ؛ وإمارة الأحكام الجائزه ، والمظالم الظاهره ؛ وتقويم أود الملكة
 بعد تزغزع أركانها ، وتصدع بنيانها ؛ وإعزاز الأمة وإيناسها ، بعد أن أشملت
 [الذلة ^(١)] عليها وتمكنت الوحشة فيها ؛ وحكم اليأس في آمالها ، وغلب القنوط على
 أطاعها ؛ وتفاءل بما أعتمده له ، وفوضه إلى نظيره : من الحلية بحقائقه ، والتوكيد
 بما لم تزل المخايل فيه لأئحيه ، والأمارات منه واضحه ؛ والشواهد به صادقه ،
 والدلائل عليه ناطقه ؛ حتى تدارك بنعمة الله الدين بعد أن طمس مناره ، وتعتت
 آثاره ؛ ودرست رسومه ، وغارت نجومه ؛ وأنحى الشيطان بجرانه ، وأشرأب لتبديله
 بعدوانه ؛ وأنتدب لنصرة الإسلام برأي يستغرق آراء الرجال ، وحلم يستخف رواسى
 الجبال ؛ وروية تستخرج كوامن الغيوب ، وتكشف عنها حنادس الشكوك ؛ وباع
 لما يمتد إليه بسيط ، وذراع لما ينتظم عليه رحيب ؛ وصدر يتسع لمعضلات
 الأمور ، ويشرق في مدلهات الحوادث ؛ فشرد أعداء الله بعد أن اتصلت بهم مهلة
 الاعتزاز ، وتطاولت بهم مدة الإصرار ؛ ومدد رواق الملك وضرب قبابه ، وثبت أواخيه
 وأحصد أسبابه ؛ وقطع أطماع الملحدين ، وأبطل كيد الكافرين ، وفئت في أعضاء
 المنايذين ؛ فتحصنت البيضة ، واجتمعت الكلمة ؛ وأتفقت الأهواء المتفرقة ،
 وانتظمت الآراء المتشعبة ، وسكنت الدهماء المضطربة ، وقرت القلوب المنزعجة ؛
 وصدقت خواطر الصدور الثلجيه ؛ وظهر الحق ورشح عموده ، وبهر جماله ونصر
 عوده ؛ ونشرت أعلامه وطلعت سعوته ، وعز أولياؤه ونصرت جنوده ؛ وساخ

(١) بياض بالاصل ، والتصحيح من المنام .

(٢) في الأصل «أخضد» وهو تصحيف .

بالباطل قَدُمه ، وأنقطعت وصائله وعصمه ؛ وأنبتت حباله ورُمه ، وأنحلت أسبابه
وذممه - حقيق بما بآن من فضله ، وأستفاض في الأئمة من عدله ، وعم كافة الرعية
من طوله ؛ ووصلت إلى الملى والذمى والدانى والقاصى عائدة الخير في أيامه ، وفائدة
الأمين بملكته وسلطانه ؛ ومأمول لأفضل مابدا لعبد من ثمرة اجتهانه وأصطفائه ،
وما نعمده به من النعم العظيمة ، والمواهب الجسيمة ؛ وأسبغه عليه من العوارف
السنية ، ورفعته إليه من المنازل العلية ؛ التي تقصر عنها همم ذوى الأقدار ، وتقف دونها
آمال أولى الأخطار ؛ مقدما له على أهل السوابق من أنصار دولته ، وأشباع دعوته .

فلو ترادفت ألسن العباد - أيد الله أمير المؤمنين - على اختلاف لغاتهم ، وتباين
طبقاتهم ، وتفاوت حالاتهم ؛ في مقابلة نعمة سيدنا التي أعشى العيون بهاؤها ، وتادية
حقوقه التي أعيا المجتهدين قضاؤها ؛ لكانت - حيث انتهت ، وأنى تصرفت ؛
على استفراغ القدرة واستنفاد الطاعة - غير مقاربة حدا من حدودها ، ولا مؤدية
فرضا من فروضها ؛ وإذا كان الأمر على ذلك - أيد الله أمير المؤمنين - في فوات
الإحسان ، مقادير الشكر ، وإيفائه على مبالغ الوسع ؛ فقصده عبده في جبر النقيصة ،
وسد الخلة ؛ الأزدياد في الطاعة ، والإخلاص في الموالاتة والمشايعه ؛ وإدامة الأتبهال
إلى الله تعالى ، ورفع الرغبة في معونة عبد أمير المؤمنين على مجافاة بلائه ، والتفرد
بجزائه ، وتجديد المسألة في إطالة بقائه ؛ في عز لا تبلى جدته ، وسلطان لا تنهى مدته ؛
ومواد من مناسجه وموائده ، وروادف من عوائده ؛ متظاهرة لا ينقطع منها أول
حتى يلحق تاليه . ولا ينصرم سالفه حتى ينصرف آتیه ؛ ويكون المال بعد استيفاء
شروط الأمل ، وتقضى حدود المهل ؛ إلى النعم المقيم ، في جوار العزيز الكريم .

(١) في الأصل « مصافة » وهو تصحيف .

ومن تمام إفضال سيّدنا على عبده، ونظام معرّفه عنده ؛ بدوّه إياه بما يمتحن به خفة نهضته ، وسرعة حركته ؛ وقعوده لأمره بحدّ حديد ، وبعيش عتيد ؛ وصمده لما يُحظيه لذلك مولاه ، ويحوز له حمده ورضاه ؛ بصديق بصيره ، وخلوص سريره ؛ وأستسهال لكلّ خطئه ، وتجشّم لكلّ مشقّه ؛ دنّت المسافة أم شسعت ، قربت الطيبة أم تزحّت ؛ وسيّدنا أهل لأستتمام يد ابتدائها ، وإكمال عارفة أنشأها وكرامة آبتناها ؛ باستعمال عبده بأمره ونهيه ، وأعماده لمهمات بحضرتة وفي أطراف مملكته ؛ إن شاء الله تعالى .



قلت : وهذه نسخة كتاب أنشأته : ليكتب به إلى أمير المؤمنين المستعين بالله ، أبي الفضل العباس خليفة العصر ، عن نائب الغيبة بالديار المصرية ، حين وردت كتبه الشريفة من الشام إلى الديار المصرية بالقبض على الناصر فرج بن الظاهر برقوق بالشام ، وأستبداده بالأمر دون سلطان معه ، في أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة ، مُفتتحاً له «بِقَبْلِ الأَرْضِ» التي يكتب بها الملوك . وإن كان قد تقدم من كلام المقرّ الشهابي بن فضل الله أن المكتبة إلى أبواب الخلافة بالدعاء للديوان ، لا يختلف فيه ملك ولا سُوقة ، وهو :

يُقْبَلُ الأَرْضَ وَيُنْبِي وَرُودَ المِثَالِ الأَشْرَفِ المِيمُونِ طَائِرُهُ ، المَرْقُومِ عَلَى صَفَحَاتِ الأَفلاكِ تَهَانِيهِ المَحْمُولِ عَلَى مَتْنِ السَّحَابِ بَشَائِرِهِ ، الشَّاهِدِ بِالفَتْحِ المِيبِينَ أَوَائِلُهُ وَبِالنَّصْرِ العَزِيزِ أَوَائِرُهُ ؛ مُتَضَمَّنًا مَا مَنَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ جَمِيلِ الصَّنْعِ الذِي وَكَفَتْ بِالخَيْرِ سَخَائِبُهُ ، وَخَفِيَ اللُّطْفِ الذِي بَهَرَتِ العُقُولَ عَجَائِبُهُ ؛ بِمَا مَنَحَ اللهُ تَعَالَى بِهِ مَوْلَانَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَدَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى الإِسْلَامِ وَارِفَ ظِلَّهُ ، وَأَنَامَ الأَنَامَ بِمَدِّ رِوَاقِ

الإمامة المعظمة في مهادِ عدله ، وممكن له في الأرض كما ممكن لأبائه الخلفاء الراشدين من قبله : من جلوسه على سُدَّةِ الخِلافةِ المُقدَّسة التي وُصِلَ مُنْقَطِعَ حديثها بإسناده ، وحازمها بأشرف مقعد تراث آبائه الكرام وأجداده ؛ وأبتسم نغم الخِلافةِ بعباسه ، وتأنس منها جانب الدين بعد الاستيحاءِ بإيناسه ؛ فقبل المملوك له الأرض خاضعا ، ولي أوامره الشريفة ضارعا ، وأجاب داعيه بالامتثال سامعا طائعا ؛ وسجد سجود الشكر لذلك فعرف بـسِيَمَاهُ ، وانتسب إلى الولاء الشريف الإمامي آنسابا شاملا لأسمه ومعناه ؛ وأعلم من قبله من الأمراء والأجناد بذلك فقابلوه بالاستبشار طرعا ، وتلقوها تلقيا يليق بمنزلها وإن كان لا مثل لهذه البشرية ؛ وقُرئت المطلقات الشريفة على المنابر فسكنت الدهماء وقُرئت ، وسرت أفاظها إلى الأسماع الشيقة فسرت ، وكُررت أفاظها العذبة مرارا فحلت لدى النفوس إذ مرت ؛ وأرتفعت الأصوات بالدعاء بدوام هذه الدولة النبوية دواما لا يستشعر مستشعر خلافة ، فحقيق ظهور معجزة أكرم مرسل بعد الثمانمائة بقوله لعمه العباس : « أَلَا أُنشِرُكَ بِأَعْمَ : بِي خُتِمَتِ النَّبُوءَةُ وَبِوَلَدِكَ تُخْتَمُ الْخِلاَفَةُ » .



وهذه نسخة جواب عن نائب طرابلس عن مثال شريف ورد بوفاة السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » وأستقرار ولده السلطان الملك المنصور « أبي بكر » مكانه في الملك بعهد من أبيه . من إنشاء القاضي تاج الدين بن البارباري ، بعد التعزية بأبيه السلطان الملك الناصر ، وهي :

ويُنهي ورود المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ، يتضمن أمر المصاب الذي كادت لوقوعه الأرض تنزل بأهلها ، والعقول تتربل عن محلها ، وبلغت القلوب

الحناجر، وأستوحشت القصور وأستأنست المقابر، وتصدعت له صدور السيوف
ورعوس المنابر، وقصم الظهور، وشيب السود من الشعور، وجرع كئوسه،
وصدع الحوزة المحروسة، وذلك بما قدر الله تعالى من انتقال مولانا السلطان السعيد،
الشهيد، والدمولانا السلطان - خلد الله ملكه - إلى رحمته ورضوانه: فأجرى المملوك
عوض الدموغ دما، وأقام الإسلام والمسلمون عليه مأتما، وتغير البدر المنير لفقدته
فأسى مظلما، وندبه الإسلام في سائر محاربه ومصلاه، وأسف عليه البيت الحرام
وركناه: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

لما دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، أشرق منها ذلك اليوم كل شيء، ويوم
قبض أظلم منها كل شيء، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه أثبت الناس يوم
وفاته صلى الله عليه وسلم، وهو الخليفة من بعده، ومولانا السلطان الشهيد - قدس
الله روحه - كان متشرفا بأسم نبيه، ومبركا في ذريته الشريفة بذكر سميته^(١)،
ولو ذابت المهج أسفا عليه لما أنصفت، وقد أسفت عليه الأمم بأسرها وحق لها
أن أسفت، نبتت لحومنا من صدقاته، وغمرت المملوك والممالك مجزلات هباته،
وما نقل من قصره إلا إلى جنات النعيم، وما فارق ملكه إلا وبات في جوار
الله الكريم، وكان سلطاننا وهو اليوم عند الله سلطان، فسقى الله عهد صوب
الرحمة والرضوان.

وبحمد الله قد جبرت القلوب المنصدعة يجلس مولانا السلطان - خلد الله ملكه -
على تحت السلطنة المعظمة والله معه، وما جلس على كرسي الملك إلا أهله، ولا قام
بأمر المسلمين إلا من علم فضله، ومولانا السلطان وارث الملك الناصرى المنصور

حَقًّا ، والقائمُ بِشأنِ السلطنةِ غَرِبًا وشرَقًا ؛ وَخُلَاصَةً هَذَا الْبَيْتِ الشَّرِيفِ زَادَهُ اللهُ
نَصْرًا ، وَأَدَامَ مُلْكَهُ دَوَامًا مُسْتَمِرًّا ؛ وَالْعُيُونُ الْبَاكِيةُ قَدْ قَرَّتِ الْآنَ بِهَذِهِ الْبُشْرَى ،
وَالْقُلُوبُ النَّائِكَةُ قَدْ مَلَّتْ بِهَجَّةٍ : (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) وَأَسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ بَعْدَ قَلْقَعِهِ ،
وَنَامَ عَلَى جَفْنِهِ بَعْدَ أَرْقِهِ ؛ وَأَسْتَقْبَلَتِ الْأُمَّةُ عَامًا جَدِيدًا ، وَسُلْطَانًا مَنْصُورًا سَعِيدًا ؛
وَأَسْتَبَشَرَتِ الْقِبْلَتَانِ ، وَتَنَاجَى بِالْمَسْرَةِ الثَّقَلَانِ ؛ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَمْسُوا خَائِبِينَ ، وَالَّذِينَ
آمَنُوا أَصْحَوْا فَرِحِينَ (هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ) وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ هُوَ الْعَرِيقُ
فِي سُلْطَنَةِ الْإِسْلَامِ ، وَالْإِمَامُ الْأَعْظَمُ ابْنُ الْإِمَامِ ؛ نَخَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ مَا دَامَتِ الْأَيَّامُ ،
وَأَحْسَنَ عَزَاءَهُ فِي خَيْرِ سُلْطَانِ الْأَنْامِ ؛ وَأَبْتَهَلَتِ الْأَلْسِنَةُ بِالْتَرَحُّمِ عَلَى مَوْلَانَا السُّلْطَانِ
الشَّهِيدِ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - بِدُمُوعِ سَائِلِهِ ، وَقُلُوبِ مَوْجُوعَةٍ بِجِرَاحَاتِ النَّيَّاحَاتِ
ثُمَّ عَوَّضُوا بِالْمَسْرَاتِ الْكَامِلَةِ ؛ وَالِدَعَاءِ مَرْفُوعِ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ -
بِرَأٍ وَبِحِرَاءِ ، وَالْبِلَادِ مُطْمَئِنَّةٍ وَالْعَسَاكِرِ عَلَى مَا يَجِبُ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالطَّاعَةِ الشَّرِيفَةِ ،
وَالتَّشْرِيفِ بِإِقْبَالِ دَوْلَةِ سُلْطَانِهِمْ ، وَوَارِثِ سُلْطَانِهِمْ ؛ وَكَانَ الْمَمْلُوكُ يَوَدُّ لَوْ شَاهَدَ مَوْلَانَا
السُّلْطَانَ - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ - عَلِيمًا ذَلِكَ السَّرِيرِ وَالْمِنْبَرِ ، وَقَبْلَ الْأَرْضِ بَيْنَ يَدَيْ الْمَوَاقِفِ
الْمُعَظَّمَةِ وَالْمَقَامِ الْأَكْبَرِ ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة جوابٍ عن وُرُودِ المَثَالِ الشَّرِيفِ بِرُكُوبِ السُّلْطَانِ بِالْمِيدَانِ ، وَالْإِذْنِ
لِلنُّوَابِ فِي لَعِبِ الْكُرَّةِ ، وَهِيَ :

وَيُنْهَى وَرُودَ المَثَالِ الشَّرِيفِ شَرَفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ ، يَتَضَمَّنُ الصَّدَقَةَ الَّتِي
أَجَرَتْ أَوْلِيَاءَهَا عَلَى أَجْمَلِ عَادَةٍ مِنَ الْأَحْتِفَالِ ، وَالْمَرَاحِمِ الشَّامِلَةِ الَّتِي وَسَّعَتْ لَهَا
كَرَمَهَا سَافِرَةٌ عَنِ أَوْجُهِ الْإِقْبَالِ ، وَالْبُشْرَى الَّتِي جَمَعَتْ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَسْرَاتِ مَا بَلَغَتْهُ

الآمال ؛ وهو أن الركب الشريف استقل إلى الميدان السعيد نهار السبت في كذا من شهر كذا : في أسعد طالع ، وأمين وقت مطاوع ؛ وفي الخدمة الشريفة من الأمراء - كثرتهم الله تعالى - من جرت العادة بهم من كل كمي مقنع ، قد لبس من الطاعة برداً وبالإخلاص تدرع ؛ وأمتطى من فائض الصدقات الشريفة صهوة سابق قد شمر للسبق ذبيلاً ، وفر كبرق لمع ليلاً .

وأن مولانا السلطان - خلد الله ملكه - طلع عليهم طلوع البدر عند الكمال ، وحوله الممالك الشريفة كالأنجم الزاهرة التي لا تعد ولا تُسبّه بمثال ؛ والحياد لا يرى لها أثر من الرخص ، والكرة تشرف بالصوبجان كما تشرف بالتقيل الأرض ؛ وعاد الركاب الشريف - زاده الله شرفاً وعظمه - إلى القلعة المنصورة ، إلى محل المملكة الشريفة ، وفي دست السلطنة المعظمه ؛ محفوفاً من الله تعالى بلطفه (له معقبات من بين يديه ومن خلفه) .

وما اقتضته الآراء الشريفة ، والمراحم المطيفة ؛ وآثرت به إعلام المملوك بذلك ، والمرسوم الشريف - شرفه الله تعالى وعظمه - أن يتقدم المملوك بالتزول إلى ميدان فلانة المحروسة ، ومعه ممالك مولانا السلطان - خلد الله تعالى ملكه - والأمراء ؛ فقابل المملوك هذه الصدقات ، بتقيل الأرض ورفع الدعوات ؛ وجمعوا بين الكرة والصوبجان ، وحصل لهم من المسرات ما لا يحصره بيان ؛ وأنبسطت نفوسهم إذ أصبحوا في أمن وأمان ، وأبتلوا إلى الله تعالى بدوام هذه الأيام التي توّعتهم بأنواع الإحسان ؛ وضجوا بالأدعية لمولانا السلطان - خلد الله ملكه - التي عمّت مواهبه وفاق بمكارمه الماضين ، وأرّبى على سلفه الشريف بالعطاء والتكفين ، جعل الله أعداءه تحت قهره إلى يوم الدين ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة جواب بوقاء النيل المبارك، كتب به عن نائب طرابلس، وهي :

وَيُنْهَى وَرُودَ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ - شَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ - الَّذِي أَشْرَقَتْ أَنْوَارُ
تَهَانِيهِ، وَتَأَلَّقَتْ بُرُوقُ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، فَبَشَّرَتْ بِفَيْضِ فَضْلِ الرَّحْمَةِ، وَعَمُومِ الرِّعَايَا
بِتَوَاتُرِ عَمِيمِ النِّعْمَةِ، وَوَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ الَّذِي مَا بَرِحَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الزَّاهِرَةِ يَفِي
بِعَهْدِهِ، وَيَسْلُ سَيْفَ الْحَضْبِ مِنْ غَمْدِهِ، وَيَقْتُلُ الْمَحَلَّ بِحُمْرَةِ مَتْنِهِ وَجَوْهَرَ حُدَّةِ،
مُهَنَّاتًا لِلْأَوْلِيَاءِ بِهَذِهِ الدَّوْلَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ قُلُوبُهُمْ مُطْمَئِنَّةً بِالْأَمْنِ وَالرِّخَاءِ، مَسْرُورَةً
بِمَا مَنَّ اللهُ بِهِ مِنْ تَرَادُفِ الْآلَاءِ وَعُمُومِ النِّعْمَاءِ، وَحَالَ مَا وَرَدَ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ
- شَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ - بِأَدْرَ الْمَمْلُوكِ إِلَى آمْتَالِ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ بِتَقْبِيلِ الْأَرْضِ
وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَأَخَذَ كُلَّ حَظَّةٍ مِنْ هَذِهِ الْبُشْرَى، الَّتِي عَمَّتْ تَهَانِيهَا بَرًّا وَبِحَجْرًا،
وَجَعَلَتْ أُمُورَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يُبَيِّنُ بَرَكَتِ هَذِهِ الْأَيَّامِ الشَّرِيفَةِ بَعْدَ عُسْرِ يُسْرًا، وَقَدْ عَادَ
فَلَانُ الْبَرِيدِي وَمَنْ مَعَهُ إِلَى الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ بِالْجَوَابِ الشَّرِيفِ، طَالِعَ بِذَلِكَ
إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



آخر في المعنى :

وَيُنْهَى وَرُودَ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ زَادَهُ اللهُ عُلُوًّا وَشَرَفًا، وَبَيَّضَ لَهُ فِي الْقِيَامَةِ صُحُفًا،
يَتَضَمَّنُ أَنْوَاعَ الْإِنْعَامِ الْجَزْبِلِ، وَابْتِدَاءَ آثَارِ السُّرُورِ بِمَا يَسَّرَ اللهُ مِنْ وَفَاءِ النَّيْلِ،
فَأَشْرَقَتْ أَنْوَارُ تَهَانِيهِ، وَتَأَلَّقَتْ بُرُوقُ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ، فَبَشَّرَتْ بِفَيْضِ فَضْلِ الرَّحْمَةِ،
وَعَمُومِ الرِّعَايَا بِتَوَاتُرِ عَمُومِ النِّعْمَةِ، إِذْ جَاءَ حُجِّيَّاهُ فِي هَذَا الْعَامِ طَلْقًا، وَسَلَّكَ فِي عَوَائِدِ
الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ طُرُقًا، وَاذن ببلوغ المرام والمراد، وكسر سد خليجه جبراً للعباد

والبلاذ ؛ حيث ملأ الأرض ريباً ، وأهدى من نَفَحَاتِ الأَمْنِ والمنَّ ريباً ، والمرسوم الشريف - شَرَّفَهُ اللهُ وَعَظَّمَهُ - بأن لا يُجْبَى على ذلك حقُّ بشاره ، ولا يُتَعَرَّض إلى أحدٍ بخساره ؛ فقابل المملوك المشال الشريف والمرسوم الشريف بتقبيل الأرض والسَّمْع والطَّاعَة ، وبأدْر المملوك إلى إِذَاعَة هذه البشْرَى ، التي عَمَّتْ تَهَانِيهَا برأً وبحراً ؛ وجعلت أمور هذه الأمة بَيْنَ بَرَكَة هذه الأيام الشريفة بعد عُسْرٍ يُسْرًا ، وأستنطق الألسنة بالدعاء لهذه الدولة القاهره ، وجلاً وتلاً صور الهناء وسور الآلاء بهذه النعمة الوافية والمِنَّة الوافره ؛ وسأل الله تعالى أن يُخَلِّدَ مُلْكَ مولانا السلطان ، ويُوَالِي أنبَاء البشائر في أيامه الشريفة مَرْوِيَةً بالأسانيد الحسان ؛ وقد عاد فلان البريدي بالأبواب الشريفة - شَرَّفَهَا اللهُ تعالى وعَظَّمَهَا - بهذا الجواب الشريف ، وقد عَآينَ آتِهَالِ أَهْلِ هذه المملكة الفلانية بالدعاء بدوام هذه الأيام الزاهرة السارة بهذه البشائر بخلوها من الكلف والخسارة ؛ طالع بذلك . إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة جوابٍ عن مشال شريف بوصول فرس إنعام ، كُتِبَ به عن نائب طرَابُلُس ، وهي :

يُقْبَلُ الأَرْضَ وَيُنْهَى وَرُودَ المرسوم الشريف أعلاه اللهُ تعالى وشَرَّفَهُ ، يتضمن ما أقتضته الآراء الشريفة من الخَيْرِ التَّامِّ ، والإِنْعَامِ العَامِّ ، والصَّدَقَة الوافية الوافرة الأقسام ؛ التي ما بَرِحَتْ ممالك هذه الدولة الشريفة في إنعامها العميم تَتَقَلَّبُ . والسَّيْلُ السَّوَابِقُ بسعادتها الأبدية يُجَلَّبُ وَيُجَنَّبُ وَتُرَكَّبُ : من تجهيز الحصان البرقي بسرجه ولجامه وعدته الكاملة ، وشُمُولِ المملوك بالصدقات التي ما بَرِحَتْ مُتَرَادِفَةً مُتَوَاصِلَةً ، ولعبد هذا البيت الشريف شامله ؛ وقَبْلِ المملوك الأرض وقَبْلَ حوافره ، وأَعْتَدَّ

بهذه النعمة الباطنة والظاهرة، وأعدّه ليومئ تجلّ وجهه، وإلقاء عدو وطراد، والله تعالى يتخذ هذه الصدقات الشريفة التي ما برحت تشمل القريب والبعيد، والموالي من أولياء هذه الدولة الشريفة والعييد، طالع بذلك، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة جواب عن وصول خيل من الإناعام السلطاني، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي .

ويُنهي وصول ما أنعم به من الخيل التي وجد الخير في نواصيها، ويتخذ صهواتها حصونا يعتصم في الوغى بصياصيها .

فمن أشهب غطاء النهار بجلته، وأوطاه الليل على أهله، يتموج أديمه رياء، ويتارج رياء، ويقول من استقبله في حلّ لحامه : هذا الفجر قد طلع بالثرىبا، إن أنفلت^(١) في المضائق أنساب أنسيلب الأيم، وإن أنفرت المسالك مر مرور الغيم، كم أبصر فارسه يوما أبيض بطلعته، وكم عين [طرف]^(٢) السنان مقاتل العدو في ظلام النقع بنور أشعته، لا يستن داحس في مضاره، ولا تطع الغبراء في شق غباره، ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره، تسابق يدها مرامي طرفه، ويذكر شوارد البروف ثانيا من [عطفه]^(٣) .

ومن أدهم حالك الأديم، حالي الشكيم، له مقلة غانية وسالفه ريم، قد ألبسه الليل برده، وأطلع بين عينيه سعده، يظن من نظر إلى سواد طرته، وبياض حجوله

(١) في "حسن التوسل" (ص ٩٩) «وأنفرت» .

(٢) في "حسن التوسل" (ص ٩٩) إن «أنفلت المضائق» وهي أروض .

(٣) يياض بالأصل والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩) .

وَعُرَّتْهُ ؛ أَنَّهُ تَوَهَّمَ النَّهَارَ نَهْرًا نَخَاضَهُ ، وَأَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ نُقْطَةً مِنْ رَشَاشِ تِلْكَ الْمَخَاضَةِ ؛
لَيْنِ الْأَعْطَافِ ، سَرِيعِ الْأَنْعَاطِ ؛ يُقْبِلُ كَاللَّيْلِ ، وَيَمْرُجُ كَالْحَمُودِ [صَخْرٍ]^(١) حَطَّةُ السَّيْلِ ؛
يَكَادُ يَتَسَبَّقُ ظِلُّهُ ، وَمَتَى جَارَى السَّهْمِ إِلَى غَرَضٍ بَلَغَهُ قَبْلَهُ .

وَمِنْ أَشَقَرٍ : وَشَاهُ الْبَرْقِ بِلَهْبِهِ ، وَغَشَاهُ الْأَصِيلُ بِذَهَبِهِ ؛ يَتَوَجَّسُ^(٢) مَالِدِيهِ بِدَقِيقَتَيْنِ ،
وَيَنْفِضُ وَفَرَّتِيهِ عَنْ عَقِيقَتَيْنِ ، وَيَنْزِلُ عِدَارُ الْجَامِهِ مِنْ سَالِفَتِيهِ عَلَى شَقِيقَتَيْنِ ؛ لَهُ مِنَ
الرَّاحِ لَوْنُهَا ، وَمِنَ الرِّيَاحِ لِينُهَا ؛ إِنْ جَرَى فَبَرْقٌ خَفِيقٌ ، وَإِنْ أَسْرَعَ فَهِلَالٌ عَلَى شَفْقٍ ؛
لَوْ أَدْرَكَ أَوَائِلَ حَرْبِ بَنِي وَائِلٍ لَمْ يَكُنْ لِلْوَجِيهِ وَجَاهَهُ ، وَلَا لِلنَّعَامَةِ نَبَاهَهُ ، وَلَكَانَ
تَرَكَ إِغَارَةَ [سَكَابٍ لَوْمًا وَتَحْرِيمٍ بَيْعِهَا سَفَاهَهُ]^(٣) يَرْكُضُ مَا وَجَدَ أَرْضًا ، وَإِذَا آعْرَضَ
بِهِ رَاكِبُهُ بَحْرًا وَثَبَّ عَرْضًا .

وَمِنْ كَمَيْتٍ نَهْدٍ ، كَأَنَّ رَاكِبَهُ فِي مَهْدٍ ؛ عِنْدِمَى الْإِهَابِ ، شَمَالِي الدَّهَابِ ؛ يَزُلُّ^(٤)
[الْغَلَامِ] ائِلْفٌ عَنْ صَهْوَاتِهِ ، وَكَأَنَّ نَعْمَ الْغَرِيضِ وَمَعْبِدٍ فِي طَهْوَاتِهِ ؛ قَصِيرِ الْمَطَا ،^(٥)
فَسِيحِ الْخَطَا ؛ إِنْ رَكِبَ لَصِيدَ قَيْدِ الْأَوَايدِ ، وَأَعْجَلَ عَنِ الْوُثُوبِ الْوَحْشِ الْلَوَايدِ ؛
وَإِنْ جُنِبَ إِلَى حَرْبٍ لَمْ يَزُورْ مِنْ وَقَعِ الْقَنَا بِلَبَانِهِ ، وَلَمْ يَشْكُ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ بِلِسَانِهِ ،
وَلَمْ يُرْدُونَ بُلُوغِ الْغَايَةِ سَوْهَى خَفَرُ رَاكِبِهِ - ثَانِيًا مِنْ عِنَانِهِ ؛ وَإِنْ سَارَ فِي سَهْلٍ آخْتَالَ
بِصَاحِبِهِ كَالثَّمَلِ ، وَإِنْ أَصْعَدَ فِي جَبَلٍ طَارَ فِي عِقَابِهِ كَالْعُقَابِ وَأَنْحَطَ فِي مَجَارِيهِ

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩) .

(٢) في "حسن التوسل" « يتوخش » .

(٣) بياض بالأصل ، والتصحيح من "حسن التوسل" .

(٤) الزيادة عن "حسن التوسل" .

(٥) في الأصل « ومقبل » والتصحيح عن "حسن التوسل" .

(٦) في الأصل « سريع » والتصحيح عن "حسن التوسل" .

كالوعل ؛ متى ما ترق العين فيه تسهل ، ومتى أراد البرق مجاراته قال له الوقوف
عند قدره : ما أنت هناك فتمهل .

ومن حبشي أصفر يروق العين ، ويسوق القلب بمشابهته العين ؛ كأن الشمس
أثقت عليه من أشعتها جلالاً ، وكأنه نفر من الدجى فأعتق منه عرفاً وأعتق أحمالاً ؛
ذى كفل يزين سرجه ، وذليل يسد إذا استدبرته منه فرجه ؛ قد أطلعت الرياضه
على مراد فارسه ، وأغناه نضار لونه ونضارته عن ترصيع قلائده وتوشيع ملايسه ؛
له من البرق خفة وطئه وخطفه ، ومن النسيم لين مروره ولطفه ، ومن الريح هزيرها
إذا ماجرى شأوين وأبتل عطفه ؛ يطير بالغمز ، ويدرك بالرياضه مواقع الرمز ،
ويعدو كالف الوصل في استغناء مثلها عن الهمز .

ومن أخضر حكاه من الروض تفويفه ، ومن الوشي تقسيمه وتأليفه ؛ قد كساه
النهار واللبل حلى وقار وسنا ، وأجتمع فيه من السواد والبياض ضدان لما استجمعا
حسناً ؛ ومنحه البازي حلة وشيه ، ونحلته الرياح ونسائها قوة ركضه وخفة مشيه ؛
يمطيك أفانين الجرى قبل سؤاله ، ولما لم يسأقه شيء من الخيل أغراه حب الظفر
بسابقه خياله ؛ كأنه [تفاريق] شيب في سواد عذار ، أو طلائع بحر خالط بياضه
الدجى ، فما سجي ، وما زج ظلامه النهار ، فما أثار ؛ يختال لمشاركة أسم الجرى بينه
وبين المساء في السير كالسيل ، ويدل بسبقه على المعنى المشترك بين البروق اللوامع

(١) في الأصل « العين » والتصحيح عن « حسن التوسل » .

(٢) في الأصل « طروقه » والتصحيح عن « » .

(٣) الزيادة عن « حسن التوسل » .

وبين البرقية من الخيل ؛ ويكذب [المانوية^(١)] لتولد اليمن فيه بين إضاءة النهار وظلمة الليل .

ومن أبلق ظهره حرم ، وجريه ضرم ؛ إن قصد غاية فوجود الفضاء بينه وبينها عدم ، وإن صرف في حرب فعمله ما يشاء البنان والعنان وفعله ما تريد الكف والقدم ؛ قد طابق الحسن البديع بين ضدَي لونه ، ودلت على اجتماع النقيضين علة كونه ؛ وأشبهه زمن الربيع باعتدال الليل فيه والنهار ، وأخذ وصف حلتى الدجاء في حلتى الإبدار والسرار ؛ لا تكل منا كبه ، ولا يضل في حجات الجيوش را كبه ، ولا يحتاج ليله المشرق بمجاورة نهاره إلى أن تسترسل فيه كوا كبه ؛ ولا يجاريه الخيال فضلا عن الخيل ، ولا يمل السرى إلا إذا مله مشبهاه : النهار والليل ؛ ولا تمسك البروق اللوامع من لحاقه بسوى الأثر فإن جهدت فبالذيل ؛ فهو الأبلق الفرد ، والجواد الذى لمحاريه العكس وله الطرد ؛ قد أغتته شهرة نوعه في جنسه عن الأوصاف ؛ وعدل بالرياح عن مباراته لسؤوكها له في الاعتراف جادة الإنصاف .

فترقى المملوك إلى رتب العز من ظهورها ، وأعدتها لخطبة الجنان إذ الجهاد علمها من أنفيس مهورها ؛ وكلف برگوها فكلما أكله عاد ، وكلما أمله شرة إليه فلو أنه زيد الخيل لما زاد ؛ ورأى من آدابها ما دل على أنها من أشكرم الأصائل ، وعلم أنها ليومى سامه وحربه جنة الصائد وجنة الصائل ؛ وقابل إحسان مهيديها بثنائه ودعائه ؛

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

(٢) كذا في "حسن التوسل" وفي الأصل «زبد البحر والخيل» .

(٣) كذا في "حسن التوسل" وفي الأصل «جنة للصائل وجنة للصائل» .

(٤) في الأصل «الصدقات الشريفة» والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وَأَعَدَّهَا فِي الْجِهَادِ مُقَارَعَةَ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ [وَاللَّهُ تَعَالَى يُسَكِّرُ بِهِ الَّذِي أُوْفِرُهُ
فِي النَّدَى بِمَذَاهِبِهِ، وَجَعَلَ الصَّافِيَاتِ الْجِيَادَ مِنْ بَعْضِ مَوَاهِبِهِ] ^(١) .

المهيع الثاني

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ بِهِ عَنْ نُوَّابِ
السُّلْطَانِ وَالْأَتْبَاعِ إِلَى السُّلْطَانِ أَبْتِدَاءً)

وهو على أنواع كثيرة، نذكر منها ما يَسْتَضِيءُ بِهِ الْكَاتِبُ فِي شَيْءٍ .
فَمِنْ ذَلِكَ مَا يُكْتَبُ عَنْ نَائِبِ كُلِّ مَمْلُوكَةٍ إِذَا وَصَلَ إِلَى مَحَلِّ وِلَايَتِهِ .

قد جرت العادة أن النائب إذا وصل إلى مملكته ومقر ولايته، كتب إلى السلطان
يُخْبِرُهُ بِذَلِكَ وَبِمَا الْمَمْلُوكَةُ عَلَيْهِ .

وهذه نسخة مكاتبة من ذلك، كُتِبَ بِهَا عَنْ نَائِبِ حَبَابٍ فِي مَعْنَى ذَلِكَ، وَهِيَ:
يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهَى أَنْ الْمَمْلُوكِ وَصَلَ إِلَى الْمَمْلُوكَةِ الْفُلَانِيَةِ الْمَحْرُوسَةِ، وَحَلَّ مَحَالَهَا
الْمَأْنُوسَةَ، الَّتِي شَمِلَتْهُ الصَّدَقَاتُ الشَّرِيفَةُ بِكَفَالَتِهَا، وَأَهْلَتْهُ الْمَرَاحِمُ الْمُنِيفَةُ لِإِبَالَتِهَا،
رَافِلًا فِي حُلَلِ الْإِنْعَامِ الشَّرِيفِ، مُتَفِيئًا ظِلَّ الْعِزِّ الْوَرِيفِ، صُحْبَةً فُلَانٍ مُسْفِرِهِ،
وَدَخَلَهَا يَوْمَ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا لِأَيْسَاءِ تَشْرِيفِهِ الشَّرِيفِ الْمُنْعَمِ بِهِ عَلَيْهِ، مَا شِئًا لِمَحَلِّ
الْكَرَامَةِ الَّذِي سَارَ إِلَيْهِ، [بِحَضُورِ مَنْ جَرَّتْ الْعَادَةُ بِحَضُورِهِ] ^(٢) مِنْ قُضَاةِ الْقُضَاةِ
وَالْأَمْرَاءِ وَالْمُجْتَابِ، وَالْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ وَالْأَصْحَابِ، عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ، وَأَكْمَلِ

(١) الزيادة عن "حسن التوصل" (ص ١٠٠) .

(٢) زيادة مأخوذة من نسخة الكتاب التالية وهي من سقط الناصح .

القواعد؛ وقبّل الأرض بياب القلعة المنصوره، ودخل دار العدل الشريف وقطوف
 الأماني له مهصوره؛ وقري بها بحضرة أولياء الدولة تقليده، وعظم المراسم الشريفة
 تأييده؛ وتصدى لما نصبت له المراسم الشريفة من إنصاف المظلوم، وتنفيذ كل مهم
 شريف ومرسوم؛ وتصفح أحوال الملكة، وسلك كل أحد مسلكه؛ واستجابت
 الأدعية لمولانا السلطان، واجتهد في حياة البلاد ممن يمد إليه شيطان المفسدين
 بأشطان؛ وانتظم له أمر الملكة بالمهابة الشريفة أحسن انتظام، وبلغ به كل ولي
 من قهر العدو غاية المرام؛ وقد أعاد المملوك فلاناً مسفره إلى خدمة الأبواب الشريفة
 مزاح الأعدار، مبلغ الأوطار؛ على العادة - طالع بذلك - ولا زال منه مزيد الشرف
 والعلو، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب في المعنى إلى الأبواب السلطانية عن نائب طرابلس، وهي :

يقبّل الأرض وينهى أنه وصل إلى طرابلس المحروسة مغموراً بالصدقات
 الشريفة، والإنعامات المطيفة؛ صعبة مملوك مولانا السلطان فلان خلد الله تعالى
 ملكه، وألبس شريفه الشريف، وقري تقليده الشريف بدار العدل، وقبّل الأرض
 مراراً على العادة . وتقدم المملوك بالخلف الشريف على النسخة المجهزة صعبة المشار
 إليه من الأبواب الشريفة عظمها الله تعالى؛ بحضور من جرت العادة بحضوره
 من قضاة القضاة والأمراء، وكتب خطه عليها؛ وانتصب المملوك نقيباً الشريف
 وإزالة المظالم؛ ونشر لواء العدل الشريف . ليتصف المشروف من الشريف
 وينزجر القوى عن الضعيف؛ وأتباع الحق في القضايا، واستجلاب الأدعية بدوام
 هذه الدولة العادلة من الرعايا؛ وربّ أمور الآزك المنصورة على أكمل عادة وأجمل

قاعدة؛ وقد عاد فلان إلى الأبواب الشريفة، شرفها الله تعالى وعظمتها، لينهى بين يدي الأيادي المعظمة ما عاينته من المملوك من إخلاصه في الطاعة الشريفة ومغالاته. طالع بذلك. إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك ما يكتب به في التهنئة بالخلافة:

أما التهنئة بالخلافة، فقد قال في "مواد البيان": من الأدب المستفيض ترفيه الخلفاء عن الهناء والعزاء، إكباراً لهم وتعظيماً. إلا أننا رأينا ذوى الأخطار من القدماء قد شافهوهم بالعزاء مسلين، وبالهناء داعين؛ وربما دُفع الكاتب إلى صحبة رئيس يقتضى محله أن ينهى الخليفة بمتجدد النعم لديه، ويعزّيه لمتطرق النوايب إليه؛ فاحتيج إلى أن يرسم في هناء الخلفاء وعزائهم ما يجتذى عليه، عند الحاجة إلى استعمال مثله.

وهذه نسخة تهنئة بالخلافة، أوردتها في "مواد البيان" وهي:

أولى النعم - خلد الله ملك مولانا أمير المؤمنين - بأن تنطق بها السنن الذاكرين
يضع عطرها، وبتناقلها أفواه الشاكرين يفوح نشرها - نعمة إيلانه في خلافته
التي جعلها ذنحراً للأنام، وعصمة للإسلام، وحاجراً بين الحلال والحرام؛ وقواماً
للائتلاف والاتفاق، وزماماً عن الاختلاف والافتراق؛ ونظاماً لصالح الخاصة
والعامه، وسبيلاً إلى اجتماع الكلمة وسكون الأمة؛ وسبباً لحقن الدماء، ودعة
الدُّهماء، ومجاهدة الأعداء؛ وإقامة الصلوات، وإيتاء الزكوات؛ والعمل بالفرائض
والسنن، وحسم البدع والفتن؛ وعدقيها بالأخيار ورثة نبيه وعترته، والأبرار الطهرة
من أرومة رسوله وشجرته؛ الذين نصبهم دعاة إلى طاعته، وهداة لبريته، وأعلاماً
لشريعته؛ يأمرون بالمعروف ويأثمرون، وينهون عن المنكر ويتنهون، ويقضون

بالحقّ وبه يعدّون ؛ وكلّما لحقّ منهم سلفٌ بمقرّ أوليّته ، أقام خلفاً يختصّه بانتخابه
وتكرّمته .

والحمد لله الذى قصرَ خلافته على أمير المؤمنين وآبائه ، وجعل منهم الماضى الذى
كانت مفوضةً إليه ، والآتى الذى أقرت عليه ، وأنجز لهم ما وعدهم من إبقاء الإمامه ،
في عقبيهم إلى يوم القيامة ؛ وأستخلص لها في عصرنا هذا وليها الحامى لحقيقتها ،
المرامى عن حوزتها ، المعزّ لكلماتها ، الرافع لرايتها ، المحدّد لحدودها ، الحافظ لعقودها ،
وسلم قوساً منه إلى باريها ، وناطها بكفئتها وكافيتها ، وأفضى إليه بشرف الولادة
والأبوة ، وميراث الإمامة والنبوّه ، وألف به بين القلوب الآبية ، وجمع عليه النفوس
النائية ، وأتفقت الآراء بعد تباينها وتنافيها ، وتطابقت الأهواء على اختلافها وتعاديتها ،
وأستدت ثلثة الدين بعد انتغارها ، وأطمأنت الدهماء بعد تفارها ، حمداً يكون لنعمة
كفاء ، ولموهبته جزاء .

وخلافة الله وإن كانت الغاية التى لا تزغ الهمم إليها ، ولا تتطع الأمانى عليها ؛
لأختصاص الله بها صفوته من بريته ، وخالصته من أهل بيت نبيه وعترته ؛ فإن أمير
المؤمنين يتعاضم عن تهنئته بوصولها إليه ، وسبوغ ملابسها عليه ؛ إذ لا يسوغ أن يهنأ
بإدراك ما كتب الله له أن يدركه بأقلام الأقدار ، على صفحات الليل والنهار ؛ والعبد
يسأل الله تعالى ضارِعاً إليه في إنهاض أمير المؤمنين بما حمّاه وكلفه ، وتوفيقه فيما
كفّله وأستخلفه ؛ وأن يمتكّن له في الأرض ، ويعلى يده بالبسط والقبض ؛ ويمدّه بعزّ
السلطان ، وعلو الشان ؛ وظهور الأولياء ، وثبور الأعداء ؛ وإعزاز الدين ، وابتزاز
الملحدّين ؛ وتقوية يده في نصرة الإسلام ، وسياسة الأنام ؛ ويعرف رعيته من يمن
دولته ، وسعادة ولايته ؛ ما يجمعهم على الطاعة والموافقه ، ويعصمهم من المعصية والمفارقة ؛

وَيُوفِّقُهُم مِنَ الْإِخْلَاصِ فِي مُوَالَاتِهِ ، لِمَا يُوفِّرُ حَظَّهُمْ مِنْ مَرْضَاتِهِ ؛ وَيَجْعَلُ وِلَايَتَهُ هَذِهِ مَقْرُونَةً بِإِنْفِصَاحِ الْمُدَّةِ وَالْأَجَلِ ، وَبُلُوغِ الْمُنَى وَالْأَمَلِ ، وَصَالِحِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ؛ وَيَبْلُغُهُ فِي مَمْلَكَتِهِ وَدَوْلَتِهِ أَفْضَلَ مَا بَلَّغَهُ خَلِيفَةٌ مِنْ خَلْفَائِهِ ، وَوَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَائِهِ .

ومن ذلك ما يكتب في الإشارة بالفتوح .

قد جرت العادة أن السلطان إذا وجه جيشاً لفتح قلعة أو قُطْرٍ مِنَ الْأَقْطَارِ وَحَصَلَ الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى السُّلْطَانِ مُبَشِّرًا بِذَلِكَ الْفَتْحِ ، مِنْهَا بِقَدْرِهِ ، مَعْظَمًا لِأَمْرِهِ ؛ وَمَا كَانَ فِيهِ : مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ وَقُوَّةِ الظَّفَرِ .

(١)

[فمن مكتبة في البشارة بفتح حصن المرقب ، وهي] :

قَدْ أُسْفِرَ عَنِ الْفَتْحِ الْمُبِينِ صَبَاحُهُ ، وَالتَّأْيِيدِ وَقَدْ طَارَ بِهِ مُحَلَّقُ التَّبَاشِيرِ نَحْفَقَ فِي الْخَافِقِينَ جَنَاحُهُ ؛ وَالْإِسْلَامِ وَقَدْ وَطِئَ هَامَةَ الْكُفْرِ بِمَقْدِمِهِ ، وَاللَّيْنِ وَقَدْ عَزَّ بِفَتَكَاتِ سَيْفِهِ الْمَنْصُورِ فَأَنْفَ أَنْ يَكُونَ الشُّكُّ مِنْ خَدَمِهِ ؛ وَالْأَفْلَاقِ وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّهُ لِهَذَا الْفَتْحِ الْقَرِيبِ كَانَ أَجْتِمَاعُ كَوَاكِبِهَا ، وَالْأَمْلَاقِ وَقَدْ نَزَلَتْ لِتَشْهَدَ أَحْمَدَ النَّصْرَةَ الْبَدْرِيَّةَ فِي صُفُوفِهَا وَمَوَاكِبِهَا ؛ وَحِصْنِ الْمَرْقَبِ وَقَدْ أَلْقَتْ عَلَيْهِ الْمِلَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ أَشْعَةً سَعْدِيَّةً ، وَأَنْجَزَتْ لَهُ الْأَيَّامَ مِنَ الشَّرَفِ بِهَا آمَالُهُ بَعْدَ مَا طَالَ أَنْتِظَارُهُ لَوْعِدِهَا ، وَأَمَّتَهُ الْأَقْدَارُ الَّتِي ذَلَّلَتْهُ لِلْإِسْلَامِ أَنْ تَطَّوَّلَ إِلَيْهِ الْحَوَادِثُ مِنْ بَعْدِهَا ؛ وَقَدْ أَحَاطَتْ الْعُلُومُ بِأَنَّ هَذَا الْحِصْنَ طَالَمَا تَمَحَّتْ الْأَحْلَامُ ، أَنْ تُحْيَلَ فَتَحَهُ لِمَنْ سَلَفَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ؛ فَمَا حَدَّثَتْ الْمُلُوكُ أَنْفُسَهَا بِقَصْدِهِ إِلَّا وَثَنًا هَائِلًا ، وَلَا خَطْبَتَهُ بَيِّنًا

(١) لم يذكر المؤلف عنواناً لهذه المكتبة ، فذكرنا عنوانها بحسب ما يقتضيه المقام لينتم الكلام .

وقد بحثنا عن هذه المكتبة في الكتب التي بأيدينا فلم نهند إليها ، غير أن الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي

قد ذكر فقرات منها في "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

النفائس والنفوس إلا وكانت من الحرمان على ثقة ومن معاجلة الأجل وقته على وجل ،
 وحوله من الجبال كل شاخ تهب عقاب الجو قطع عقابه ، وتقف الرياح خدماً
 دون التوقل في هضابه ، [وحوله من] الأودية خنادق لا تعلم منها الشهور إلا بانصافها ،
 ولا تعرف فيها الأهلة إلا بأوصافها ، وهو مع ذلك قد تفرط بالنجوم ، وتفرط
 بالغيوم ، وسما فرعه إلى السماء ورسا أصله في التخوم ، تحال الشمس إذا علت أنها
 تنتقل في أبراجه ، ويظن من سما إلى السها أنه ذبالة في سراجيه ، فكم من ذى جيوش
 قد مات بفضه ، وذى سطوات أعمل الحيل فلم يفز من نظره على البعد بفرصه ،
 لا يعلوه من مسمى الطير سوى نسر الفلك ومرزومه ، ولا يرمق متبرجات أبراجه غير
 عين تمسه والمقل التي تطرف من أنجمه ، وقد كان نصب عليه من المجانيق ما سهامه
 أنفذ من سهام الجفون ، وخطراته أسرع من لحظات العيون ، لا يحاطب إلا بوساطة
 رسله بضمير الطلاب ، ولا يرى لسان سهمه إلا كما ترى خطفات البرق إذا تالق
 في علو السحاب ، فزلت عليه الجيوش نزول القضاء ، وصدمته بهمها التي تستعير
 منها الصوارم سرعة المضاء وروعة الانتضاء ، فنظرت منه حصناً قد زرر عليه الجو
 جيب غمامه ، وأفتقر ثغره كما جذب عنه البرق فاضل لثامه ، فتدللت صعا به ،
 وسهلت عقابه ، وركرت للجنوبات (؟) في سفحه وطالما رامت الطير أدناه فلم تقو عليه
 القوادم ، وكم همت العواصف بتسم رباه فأصبحت مخلقة تبكي عليها الغمام ، فضرب
 بينها وبين الحصن بسور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ونصبت فوقه
 من الأسنة ثغور براقه الثنايا ولكنها غير عذاب ، فعاد ذلك السفع مصفحاً بصفاحها ،

(١) في الأصل «ففى الأودية» والنصح من «حسن التوسل» .

(١) مُشْرِقًا بِأَعْلَامِ أَسِنَّةِ رِمَاحِهَا ، فَأُرْسِلَتْ إِلَى أَرْجَائِهَا مَا أُرْبَى عَلَى الْغَمَائِمِ ، وَزَادَ فِي نَفْعِهِ عَلَى النَّعَائِمِ .

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُنْثِ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمُ !

وَنَصِبَتْ عَلَيْهَا الْمَجَانِيقُ فَلَمْ تَرَعْ حَقَّ جِنْسِهَا ، وَسَطَّتْ عَلَيْهَا فَأَصْبَحَ غُدُّهَا فِي التَّحَامِلِ أَبْعَدَ مِنْ أُمْسِهَا ، وَاسْتَنْهَضَتْهَا الْعِدَا فَأَعْلَمَتْهُمْ أَنَّهَا لَا تُطِيقُ الدَّفَاعَ عَنْ غَيْرِهَا بَعْدَ أَنْ تَعَجَزَتْ عَنْ نَفْسِهَا ، وَبَسَطَتْ أَنْفَهَا أَمَارَةً عَلَى الْإِذْعَانِ ، وَرَفَعَتْ أَصَابِعَهَا : إِمَّا إِجَابَةً أَنْ تَدِلَّ لِلنَّشْهِدِ وَإِمَّا إِنَابَةً إِلَى طَلَبِ الْأَمَانِ ، نَخَافُ الْعِدَا مِنْ ظُهُورِ هَذَا الْأَسْطِظْهَارِ ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْمَجَانِيقَ خُورٌ لَا تَثْبِتُ لَهَا الْإِنَاثُ الَّتِي عَرِيَتْ مِنَ النَّفْعِ بِأَيْدِيهِمْ فَاسْتَعَانُوا عَلَيْهِنَ مَعَ الْعِدَا بِطُولِ الْحِدَارِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ غَدَّتْ تَكْمُنُ كُمُونِ الْأَسْوَدِ وَتَثِبُ وَتُوبِ الْأَسْوَدِ ، وَتُبَارِي بِهَا الْحُصُونُ السَّمَاءَ فَكُلَّمَا قَدَفَتْ هَذِهِ بَكَوَا كِبَاهَا النَّيْرَةَ قَدَفَ هَذَا بَكَوَا كِبِهِ السُّودَ ، وَلَمْ يُكْسِرْ لَهُمْ مَنَجْنِيقٌ إِلَّا وَنَصَبُوا أَنْحَرًا بِمَكَانِهِ ، وَلَا فِطِطَتْ لِأَحَدٍ إِصْبَعٌ إِلَّا وَاصَلَ الْأَنْحَرُ بِنَانِهِ ، فَظَلَّتْ تَتَحَارَبُ بِمِثْلِ الْكِبَاءِ ، وَتَتَحَامَلُ تَحَامِلَ الرَّمَادِ ، حَتَّى لَقَحَتْ وَفَسَحَتْ لِلرَّضَا مَجَالًا ، وَمَالَتْ وَمِيلَ فِيهَا وَكَذَلِكَ الْحَرْبُ تَكُونُ سِجَالًا .

هَذَا وَالتَّقُوبُ قَدْ دَبَّتْ فِي بَاطِنِهِ دَيْبُ السَّقَامِ ، وَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِ كَمَا تَمَشَّى فِي مَفَاصِلِ شَارِبِهَا الْمُدَامِ ، وَحَشَّتْ أَضَالِعَهُ نَارًا تُشْبِهُ نَارَ الْهَوَى : تُحْرِقُ الْأَحْشَاءَ وَلَا يَبْدُو لَهَا ضِرَامٌ ، قَدْ دَاخَلَتْ مَرَسَلَةَ الْوَجَلِ ، فَتَحَقَّقُوا حُلُولَ الْأَجَلِ ، وَعَلِمُوا أَنَّ هَذَا الْفَتْحَ الَّذِي تَمَادَتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ قَدْ جَاءَ يَسْعَى إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى عَجَلٍ ، وَأَيُّقِنَنَّ الْحِصْنَ بِالْإِنْتِظَامِ فِي سِلْكِ الْمَالِكِ الشَّرِيفَةِ فَكَادَ يُرْقِصُهُ بَيْنَ فِيهِ فَرَطُ الْجَدَلِ ، وَزَادَ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ وَلَعَلَّهُ فِي نَفْعِهِ .

شَوْهَ إِلَى التَّشْرِيفِ وَيَا صَبَابَةً لَوْ سَمَّيْتُهَا وَأَسْمَاهَا مُشْتَقٌّ لَكُنْهُمْ أَظْهَرُوا الْجِلْدَ ، وَأَخْفَوْا
 ضِرَامَ نَارِ الْجَزَعِ وَكَيْفَ تَخْفَى وَقَدْ وَقَدْ ، وَتَدَفَّقَتْ إِلَيْهِمُ الْجُيُوشُ فَمَلَأَتْ الْأَفُقَ ،
 وَأَحَاطَتْ بِهِمْ إِحَاطَةَ الطُّورِ بِالْعُنُقِ ، وَنَهَضَتْ إِلَيْهِمْ مُسْتَمِدَّةً مِنْ عَزَمَاتِ سُلْطَانِيهَا ،
 مُسْتَعِدَّةً لِاتِّزَاعِ أَرْوَاحِ الْعِدَا عَلَى يَدَيْهَا مِنْ أَوْطَانِهَا ، فَانْقَطَعَتْ بِهِمُ الظُّنُونُ ،
 وَدَارَتْ عَلَيْهِمُ رَحَى الْمُنُونِ ، وَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمُ الْمَجَانِيقُ أَحْجَارَهَا (فَوْقَ الْحَقِّ وَبَطْلَ
 مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وَحَطَّتْ بِسَاحَتِهَا عِقْبَانُ تِلْكَ الْأَحْجَارِ ، فَهَدَمَتِ الْعِمَارَ وَالْأَعْمَارَ ،
 وَأَجْرَتْ فِي أَرْجَائِهَا أَنْهَارَ الدَّمَاءِ فَهَلَكُوا بِالسَّيْفِ وَالنَّبْلِ وَالنَّارِ ، وَتَحَكَّمَتْ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ
 فِي أَهْلِ التَّثَلُّيْتِ فَبَدَّلُوا بِالْخَوْفِ مِنْ أَمْنِهِمْ ، وَهَرَبُوا مِنْهَا إِلَى مَحَايِلِ حِصْنِهِمْ .

وَمَا رَكِبَ الْأَوَّلُ لِلزَّخْفِ فِي جُيُوشِهِ الَّتِي كَاثَرَتْ الْبَحْرَ بِأَمَاجِئِهِ ، تَزَلُّزِ الْحِصْنِ
 لِشِدَّةِ رِكْضِهِ ، وَتَضَعُّعِ مَنْ خَوْفِ عِصْيَانِهِ فَلَحِقَتْ سَمَاوُهُ بِأَرْضِهِ ، وَتَحَلَّتْ قَوَاعِدُ
 مَا شِيدَ مِنْ أَرْكَانِهِ فَانْحَلَتْ ، وَأَلْقَتِ الْأَرْضُ مَا فِيهَا وَتَحَلَّتْ ، وَمَشَتْ النَّارُ مِنْ تَحْتِهِمْ
 وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ بِلِ فِي السُّورِ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ، وَمَا كَانَ
 إِلَّا أَنْ قَابَلَتِ الْعَسَاكِرُ ذَلِكَ الْبُرْجَ حَتَّى أَهْوَى يَلْتُمُ التُّرَابَ ، وَتَادَبَ بِآدَابِ الطَّاعَةِ
 فَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ، فَهَاجَمَتْهُمُ الْجُيُوشُ مُهَاجِمَةً الْخُوفِ ، وَأَسْرَعَتِ الْمَضَاءَ وَالْإِنْتِزَاءَ
 فَلَمْ تَدْرِ الْعِدَا : أَمُّ أَمْ الَّذِينَ فِي أَيْمَانِهِمُ السُّيُوفُ الَّتِي تَسْبِقُ الْعَدْلَ . وَثَبَّتَ مِنْهُمْ
 مَنْ لَمْ يَجِدْ وَرَاءَهُ مَجَالًا فَلَجَّوْا إِلَى الْأَمَانِ ، وَتَمَسَّكَ دَنِيءٌ كُفْرَهُمْ بِعِزَّةِ الْإِيمَانِ ،
 وَتَسَبَّهُوا بِسَاحِلِ الْعَفْوِ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ،
 وَسَالَوْنَا أَنْ يَكُونُوا لَنَا مِنْ جُمَلَةِ الصَّنَائِعِ ، وَتَضَرَّعُوا فِي أَنْ نَجْعَلَ أَرْوَاحَهُمْ لِسُيُوفِنَا
 مِنْ جُمَلَةِ الْوَدَائِعِ فَتَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ بِأَرْوَاحِهِمْ كَرَمًا ، وَظَلُّوا عَلَى مَعْنَى الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ :

يَرُونَ الْمَمَاتَ يَقْظَةً وَالْحَيَاةَ حُلْمًا وَأَطْلَقْتَهُمُ الْيَدَ الَّتِي لَا يَنْجِبُ لَدَيْهَا الْأَمَلُ ، وَأَعْتَقْتَهُمُ
 الْيُمْنَى الَّتِي فَجَّاحُ الْأَرْضِ فِي قَبْضَتِهَا : فَتَى تَشَاءُ تَجْمَعُ عَلَيْهِمُ الْأَنْامِلُ ، وَخَرَجُوا بِنُفُوسٍ
 قَدْ تَجَزَّدَتْ حَتَّى مِنْ الْأَجْسَامِ ، وَمَقِيلٌ طَلَّقَتْ الْكِرَاخَوْفًا مِنَ الصُّوَارِمِ الَّتِي تَسْلُهَا
 عَلَيْهِمُ الْأَحْلَامُ ، وَسَطَّرَتْ وَالْمَدِينَةُ قَدْ تُسَمُّ أَعْلَاهَا ، وَشِعَارُ الْإِيمَانِ قَدْ جَرَّدَهَا مِنْ لِبَاسِ
 الْكُفْرِ وَأَعْرَاهَا ، وَالْأَعْلَامُ قَدْ سَلَكَتْ إِلَى ذَلِكَ الْحِصْنِ أَعْلَى مَرْقَى ، وَالسَّعَادَةُ
 قَدْ بَدَّلَتْ بَيْعَهُ مَسَاجِدَ وَمَحَارِبِيَّةَ قِبَلَةً وَكَانَتْ شَرْقًا ، فَأَصْبَحَ يَرْفُلُ فِي حُلَلِ الْإِيمَانِ ،
 وَأُذْعَنَ بِالطَّاعَةِ فَانْحَرَسَ جَرَسُ الْجَرَسِ بِهِ صَوْتُ الْأَذَانِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

[ومن ذلك] ما يكتب به في التعازي إلى الخلفاء .

وقد تقدم في الكلام على التهنئة بولاية الخلافة ، أنه كما ينبغي أن لا يهنا الخليفة
 بالخلافة إعظاماً ، فكذلك ينبغي أن لا يعزى في مصابه . إلا أنه زُجماً دعت ضرورة
 الكاتب إلى ذلك : لإكرام بعض أخصاء الخليفة إياه بالكتابة بذلك إلى الخليفة .
 ولا يخفى أن الحال في ذلك تختلف باختلاف المعزى : من والدٍ أو ولدٍ أو غيرهما .

[وهذه نسخة مكتوبة في معنى ذلك] ذكرها في "مواد البيان" وهي : ^(١)

أما بعد . فإن الله تعالى جعل خلافته خلقه قواماً ، ولبريته نظاماً ، وجعل له
 خلفاء يدحرم لبرائتها ، ويختصم بترائتها ، فإذا انقضت مدة ماضيهم : لما يريد الله
 من استدانته إلى مقر خلاصته ، نقلها إلى نوره بأصطناعه وأصطفائه .

والحمد لله الذي قصر خلافته على أمير المؤمنين وآبائه ، وجعل منهم زعيمهم
 الماضي الذي كانت بيديه موارثها ، والآتي الذي صار إليه [تراثها] .

(١) بياض بالأصل ، والنصحيق يقضيه المقام .

والحمد لله الذي ختم لأمر المؤمنين المنتقل إلى دار الكرامة بأفضل الخاتم ،
وأحسن له الجزاء عن السعي في الأمة ؛ وأنعم بأستخلاص أمير المؤمنين لإمامة خليفته ،
وحياطة سريته ، وحماية بلاده ، وسياسة عبادته ؛ ولوراثه تراث آباءه وأجداده ؛
وجعل الماضي منهم مرضيا عنه ، والآتي مرضيا به ؛ وأعدت الرعية من عدل
أمير المؤمنين ما جبر كسرهما في خليفته ، وصبرهما في رزيتيه ؛ وهو المسئول أن يليه
على المصيبة في سلفه الظاهر صبورا ، وعلى ما أخلفه عليه في تأهيله لخلافته التي
لا كفاء لها شكرا ، بمنه وفضله إن شاء الله تعالى .



(١) [وهذه نسخة كتاب في التعزية أيضا] وهي :

إن الله خص أمير المؤمنين بما هو أهله من خلافة ، وعظم محله بما نصبه له
من إمامة بريته ؛ وجعله عمادا لأهل الإسلام تجتمع عليه أهواؤهم ، وتسكن إليه
أملأؤهم ؛ ويصلح به دينهم ودنياهم ، ويستقيم به أمر أولاهم وأخراهم ؛ فإذا أسبغ
نعمة من نعمه عليه ، وظاهر موهبة من مواهبه لديه ؛ شركوه فيها ، ونهضوا معه
على الشكر عليها ؛ وإذا ابتلاه ببلية ، وأمتحن صبره برزية ؛ أخذوا بالنصيب العظيم
من الحادث ، والحظ الحسيم من الكارث ؛ [و] ما أفردوه بثواب الله فيها وما جعله
جزاء من الأجر عليها .

وإن الله تعالى كان أعار أمير المؤمنين من ولده فلان - رضي الله عنه - حريه
من عواريه ، وبلغه من الاستمتاع بها ما احتسب من أمانيه ؛ ثم استرجعها ليثقل بها
ميزانه ، ويضاعف إحسانه ؛ ويجعلها له ذخرا ، ونورا يسعى بين يديه وأجرا ، فعظم

(١) بياض بالاصل ، والنصح يقتضيه المقام .

بذلك المصائب على رعيته، وكبر الرزء على أهل دعوته، لما كانوا يرجونه من سُكون
القلوب، ونقع الخطوب، واستقرار قواعد الخلافه، وشمول الرحمة والرافه، وقد
حصل أمير المؤمنين على نعيم كثيرة من موهبته وثوابه في استعادته، وحصل كافة
خاصته على القلق لفقده، والأسى من بعده، وقد جعله الله تعالى صلاح كل فساد،
وثقاف كل مباد، ومهبط كل رحمه، وطريق كل نعمه، وهو خليق بأن يظهر
من صبره، ورضاه بقضاء الله وتسليمه لأمره، ما يبعث على التأسى به، والتأدب
بأديه، والله تعالى يحسن لأمر المؤمنين الخلف، ويعوضه أحسن العوض في الموتف،
ويوفر حظهم من الثواب، ويعظم له الأجر على المصائب، ويريه في أوليائه وأحبابه،
أعظم محابه وغاية آرايه، وينقل المنقول إلى إيوان الكرامة والاحتفاء، بأفاضل
الأجداد والآباء، بفضلِهِ ورحمته، إن شاء الله تعالى.



[وهذه] نسخة كتاب : كُتِبَ به إلى الأبواب السلطانية عند فتح (آياس)

قاعدة بلاد الأرمن وأنتزاعها من أيديهم، وهي :

يُقبَلُ الأرض وينهى أن ليلة الانتظار أطلعت صباحها، ومواعيد الآمال بعثت
على يد الإقبال نجاحها، والعساكر المنصورة جردت رابع ربيع الأول بمدينة آياس
صباحها، وأوردت إلى الصدور رماحها، فلم يكن إلا كتمج البصر، ولسان صدق
القتال قائل : بأن الجيش الناصري قد انتصر، وأنقضى ذلك النهار، بإيقاد نار حرب
الحصار، على أبراج وأسوار، أديرت على المينا كما أدير المعصم على السوار، فما أشرق

(١) كان الأولى ذكر هذه المكاتب مع المكاتب التي ذكرت في البشارة بالفنوح، إذ لامناسبة في ذكرها

هنا، تأمل.



صَبَّاحُ الصَّفَاحِ وَوَلَّاحُ ، إِلا وَالْأَعْلَامِ النَّاصِرِيَّةِ عَلَى قَلْعَةِ الْقَلْعَةِ مَا نَسَنَةُ الْأَعْطَافِ مِنْ
الْأَرْتِيَّاحِ ، مُعَلِّنَةُ السُّنْتِهَا بِحَى عَلَى الْفَلَّاحِ وَحَى عَلَى النَّجَّاحِ ، وَعِزُّ الْإِسْلَامِ يُقَابِلُ ذُلَّ
الْكُفْرِ : بِهَذَا النَّصْرُ وَهَذَا الْإِفْتِيَّاحُ ، وَجَمْعُ الْأَرْمَنِ الْمَلَّا تَفَرَّقَ مَا بَيْنَ قَتْلِ وَأَسْرِ
وَأَتْرَاحِ ، وَلَعِبَتْ أَيْدِي النَّيْرَانِ فِي الْقَلْعَةِ وَجَوَانِبِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ مِنَ الْأَسْوَارِ أَعْضَاءُ
مَنَّاكِهَا ، وَنَطَقَ بِالْأَقْدَارِ لِسَانُ النَّارِ : هَذِي مَنَازِلُ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ .

ثم أنتقلت المحاصرة إلى قلعة البحر، وضم الأرمين الملا إليها سيف القدرة والقهر،
وهذه القلعة عروس بكر في سماء العز شاهقه، لم يسبق لأحد من الملوك الأوائيل إلى
خطبتها سابقه، قد شمخت بأنفها، ونات بعطفها، وتاهت على واميها، وغضت عين
راميقها، فهي في عقاب لوج الجو كالطائر، وسورها البحر والمجر فلا يكاد يصل
إلى وكرها الناظر، وقد أوثقت بحلقات الحديد، وقيدت كأنها عاصية تساق بالأصفاذ
إلى يوم الوعيد، فأرسل عليها المنجنيق عقابه، وأعلق بها ظفره ونابه، فكشف
من شرفاتها شنب ثغرها، وسقاها بأكف أسهمه كئوس حجارة فتمايلت من شدة
سكرها، وفص من أبراجها الصناديق المقللة، وفصل من أسوارها الأعضاء
المتصلة، فتزلزل عمدتها، وزيل عن مكانه جلمدها، وعلت الأيدي المرامية بها،
وغلت الأيدي المحامية عنها، وأشدت مرضها من حرارة وهج الحصار، وضعفت قوتها
عن مقاومة تلك الأحجار، ولم يبق على سورها من يفتح له جفنا، وشن المنجنيق
عليها غارته إلى أن صارت شنا، فأرسل إليها من سماء غضبه رجوما، ووالى ذلك
عليها سبع ليال وثمانية أيام حسوما، فبادرت إلى الطاعة وأستسلمت، وكررت نحوها
رُكوعه فسجدت، وركبت الجيوش المنصورة عوض الصافيات اللجج، وسمحت
في سبيل الله عز وجل بالمهج، فعند ذلك سارع أهلها إلى التعلق بأسباب الهرب،



وكان نحراب قلعة المينا هذى نحراب قلعته من الحرب، وأحرقوا كبدها من أيديهم
 بنار الغضب، وأنزحوا منها ليلاً، وجروا من الهزيمة ذبيلاً، وتسلمها المسلمون،
 وتحسر عليها الحسرة الكبرى الكافرون، وهدمت حجراً حجراً، وصالحت بجهتها وجه
 الثرى، وأعدمت من الوجود عملاً وأثراً، فما أعجب هذا الفتوح وأغرب!،
 وما أحلى ذكره في الأفواه وما أعذب!!، وما ألد حديثه في الأسماع وما أطرب!!،
 وما أسعد هذا الجيش الناصري وما أنجب!!! .

بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ هَذَا النَّصْرُ وَالظَّفْرُ * هَذَا الْفَتْوحُ الَّذِي قَدْ كَانَ يُنْتَظَرُ!
 فَتْحٌ مَبِينٌ وَنَصْرٌ جَلٌّ مَوْقِعُهُ * سَارَتْ بِهِ وَلَهُ الْأَمْلاكَ وَالْبَشَرُ!
 عَجَائِبُ ظَهَرَتْ فِي فَتْحِهِ بَهْرَتٌ * لَمْ تَأْتِ أَمْثَالَهَا الْأَيَّامُ وَالسَّيْرُ!
 لَوْ كَانَ فِي زَمَنِ مَاضٍ بِهِ نَزَلَتْ * فِي وَصْفٍ وَقَعْتِهِ الْآيَاتُ وَالسُّورُ!
 هَذِي أَيْاسُ الَّتِي قَدْ عَزَتْ جَانِبَهَا * وَعَزَتْ خَاطِبُهَا حَتَّى أَتَى الْقَدْرُ!
 جَاءَتْ إِلَيْهَا جُيُوشٌ كَمْ بِهَا أَسَدٌ * بِيضُ الصَّفَاحِ لَهَا الْأَنْيَابُ وَالظَّفَرُ!
 جَيْشٌ لَهَا كَبْحَرٍ زَاخِرٍ لِحِبٍ * إِذَا سَرَى لَا يُرَى شَمْسٌ وَلَا قَمَرُ!
 يَسِيرُ بِالنَّصْرِ أَتَى سَارِ مَتَجِهَا * مَا زَالَ يَقْدُمُهُ التَّأْيِيدُ وَالظَّفَرُ!
 جَيْشٌ لَهُ اللَّهُ وَالْأَمْلاكَ نَاصِرَةٌ * مَلِيكُهُ نَاصِرٌ لِلدِّينِ مُتَّصِرُ!
 يَوْمَ الْحَمِيمِ رَأَيْتُ الْخَيْلَ حَامِلَةً * عَلَى رُءُوسِ عُدَاةٍ هَامَهَا أَكْرُ،
 وَقَلْعَةَ الْبَحْرِ كَانَتْ آيَةً لَهُمْ * فَعَنْ يَسِيرٍ فَأَضْحَتْ لِلوَرَى عِبْرُ!
 كَانَتْ بِأَفْقِ سَمَاءِ الْعِزِّ شَاهِقَةً * أَبْرَاجُهَا بِأَسْقَاتِ نَحْرِهَا خَطْرُ!

فَرَكَبَ الْمُسْلِمُونَ الْبَحْرَ بَاذِلَةً * أُرْوَاهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَذَخِرُ،
لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَمِيرٌ وَلَا وَلَا مَلِكٌ * يَا وَيَّ مَقْرًا إِلَى أَنْ مُدَّتِ الْجَسْرُ!
وَعَجَّلَ اللَّهُ بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ لَهُمْ * هَذَا الْفَتْوحُ الَّذِي تُوْفِيَ لَهُ النَّذْرُ
يَرْضَى بِهِ اللَّهُ وَالْإِسْلَامُ قَاطِبَةً * وَشَاهِدُ الْقَوْلِ فِيهِ الْعَيْنُ وَالْأَثَرُ!

تم الجزء الثامن . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع

وأوله القسم الثاني

(من مقاصد المكاتبات الإخوانيات)

والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل